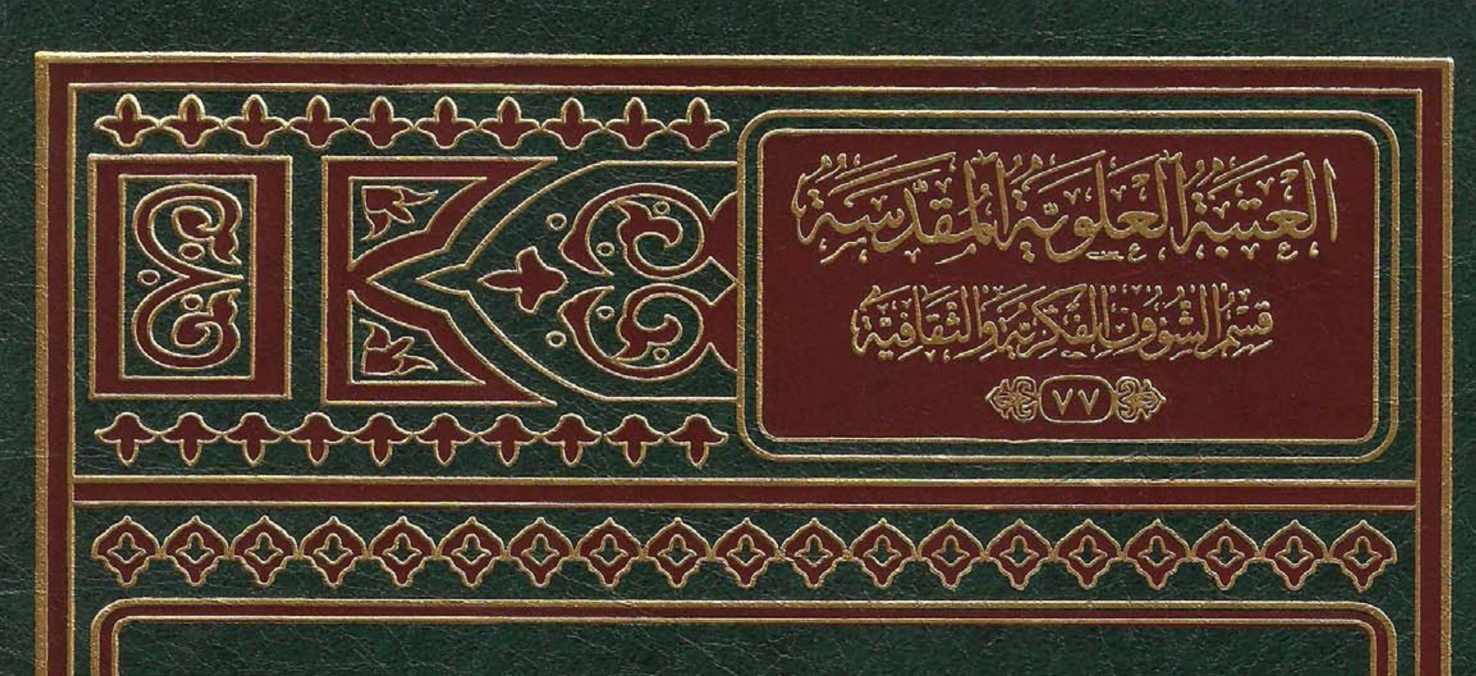
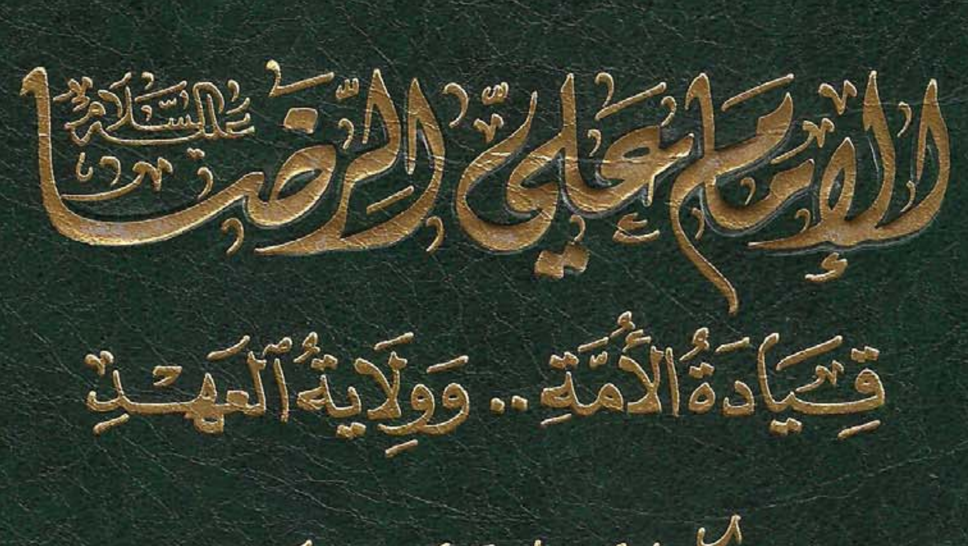
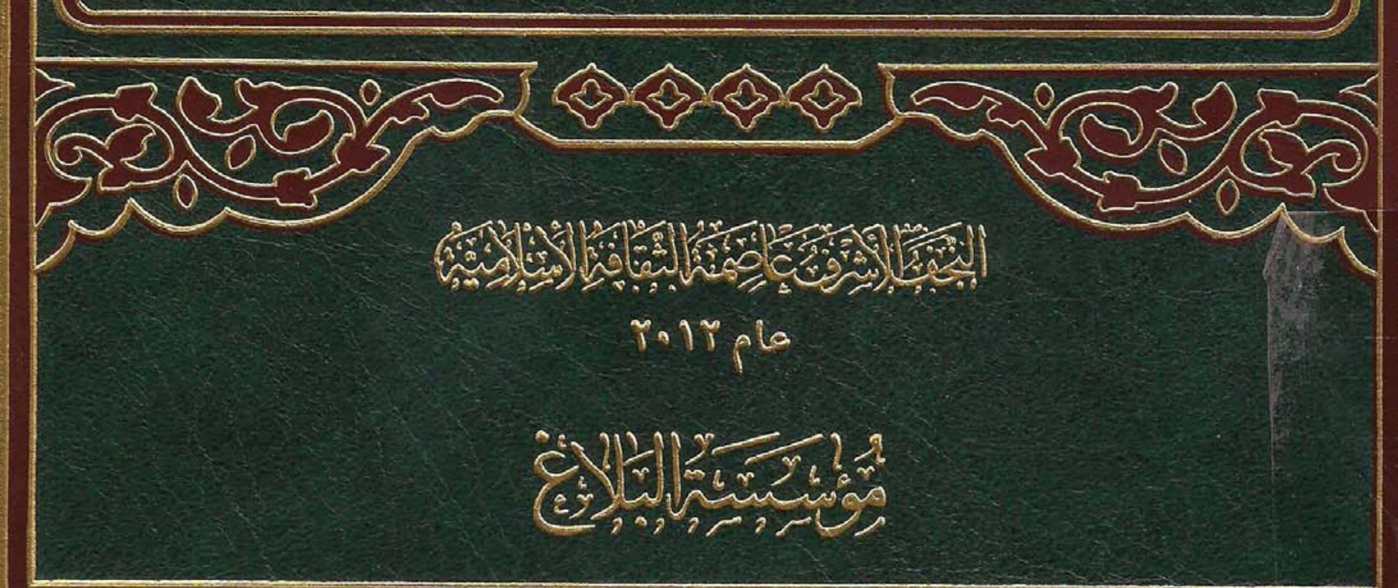

العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
(٧٧)


الإمام علي الرضا عليه السلام
قيادة الأمة.. وولاية العهد
الدكتور محمد حسين علي الصغير
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة

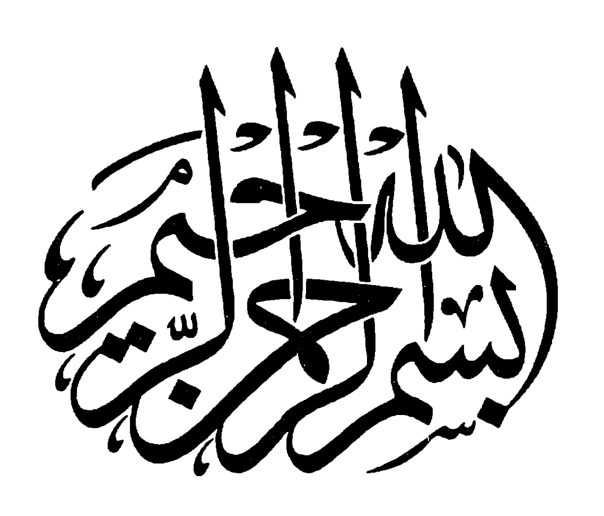

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية
عام ٢٠١٢
مؤسسة البلاغ




شبكة الفكر
alfeker.net

الإمام علي الرضا عليه السلام

قيادة الأمة .. وولاية العهد



العتبة العلوية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

(٧٧)



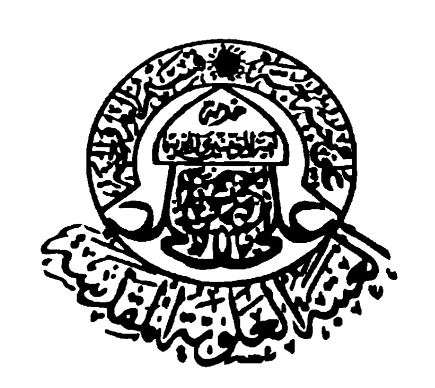
الدكتور محمد حسين علي الصغير

الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية

عام ٢٠١٢

مؤسسة البلاغ



www.imamali-a.net
info@imamali-a.net

الإمام علي الرضا عليه السلام

قيادة الأمة.. وولاية العهد

المؤلف: الدكتور محمد حسين علي الصغير

الناشر: العتبة العلوية المقدسة - قسم الشؤون الفكرية والثقافية

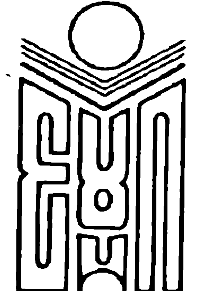
الإخراج الفني: محسن اليوسفي

الطبعة الأولى

تاريخ الطبع: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

التنفيذ الطباعي

مؤسسة البلاغ
للطباعة والنشر والتوزيع



لبنان - بيروت - بئر العبد - قرب مركز التعاون الاسلامي - بناية حطيط
ص.ب: ١١-٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠-١١٠٧ - هاتف: (٠٢/٥١٤٩٠٥) - تلفاكس: ٠١/٥٥٣١١٩ لبنان
الموقع الإلكتروني: www.albalagh-est.com
E-mail: Albalagh-est@hotmail.com

المقدمة

هذا بحث جديد يتناول فكر الإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام) في قيادته للأمة وولايته لعهد المأمون، حاولت أن أكون فيه أميناً على المنهج الموضوعي فلا أحيدُ عنه، وملتزماً البحث العلمي بعيداً عن العواطف، وأميناً على الوثائق التأريخية دون زيادة أو نقصان، فكانت نتائج هذا المسار اكتشاف القدرات الهائلة التي فجَّرها الإمام الرضا(عليه السلام) وسخَّرها في إحياء الإسلام، وبعْث الأمّة، وبناء التأريخ المضيء، وكان طريق ذلك القيادة الرسالية الهادفة، والعلم الإنساني الخالص، والتوعية الفكرية الهادئة دون صخب أو ضجيج.

وقد أسفر تخطيط الإمام هذا عن تماسك الشعب المسلم، وازدهار الوعي المعرفي، وإذكاء روح النضال الفكري، باستقراء الحقيقة مجردةً، واستكناه الواقع السياسي المرير في كل إفرازاته المضنية، وتعرية الحكم العباسي بجميع مضاعفاته التي تفترق عن ثوابت الإسلام، وتتجافى مع أصالة الشريعة الغراء، وتقترب من المناخ الجاهلي جفاءً وغلظة، وتبتعد عن مصالح الأمّة في أثرة لا مثيل لها، مما أوجد أطروحة باهتة المعالم عن الحكم، وانجلى عن أطياف شاحبة كئيبة في مسيرة بني العباس، تلك المسيرة الحمقاء التي لم تعبأ بالقيم الإسلامية، ولم تحفل بأي شعور نابض بالرحمة لإدارة الدولة في ظل العدل الاجتماعي، ولم تلحظ مشاعر الشعب المسلم بمنظور إنساني، فكان الطغيان والظلم والجور والتعالي والجبروت أبرز

مظاهر ذلك الملك العريض في شتىٰ الأقاليم والعواصم والممالك والقصبات والرساتيق والولايات والقرىٰ والمدن والنواحي مما خلف جروحاً لا تندمل، وأسفر عن شرخ كبير بين الشعب والسلطان، فهما متقابلان بل متنافران روحاً وممارسة وتوجهاً. فلا التقاء ولا تجانس ولا اتصال، إلا صلة المقتول بقتيله، وعلاقة السجين بصاحب السجن، ونظرة وحوش الغاب لفريسة ضخمة، وهي تنشب الأظفار وتحدّ الأنياب.

وكان دور الإمام الرضا(ع) في هذا الزخم المروّع من السلبيات، دور القائد المحنك والمصلح الرائد والمنقذ المنتظر، فوهب من حياته الفكر الموجّه، واحتاط لنفسه ودينه وأمته احتياط اليقظ الحذر، وسعىٰ إلىٰ الإنقاذ ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً، فكان الفرد الأكمل في خضّم الحياة السياسية، وكان النموذج الأرقىٰ للعطاء الديني المتطور، وكان الصخرة التي يتحطم بها قصف المؤامرات، والهواء الطلق الذي يُلجأ إليه من أتربة العواصف، وهو يخوض تلك الغمار العاتية بأوبئتها وشذوذها وانحرافها: طلقَ الجبين، ألقَ الفكر، حيي الطرف، صادق اللسان، كريم المعشر، جزل الموهبة، عظيم الصبر، يدرأ الفتنة، ويشق عباب المحنة، فأبقىٰ من التأريخ الناصع البهيج ما ارتفع بمستوىٰ نضاله إلىٰ درجة الشهداء والصديقين، وصهر به أولياءه في قالب القادة الأمناء، وقذف به أعداءه في مزبلة التأريخ. وكان هذا مدار البحث.

وكانت طبيعة هذا الكتاب أن انتظم في بابين:

الباب الأول، وعنوانه: (الإمام الرضا(ع) وقيادة الأمّة) وقد اشتمل علىٰ خمسة فصول رئيسية سلطت الضوء علىٰ لمحات مشرقة من قيادة علىٰ قدر الطاقة، وبإيجاز مكثّف يستدل بما ذُكِر منه علىٰ ما لم يذكر، ويُستشف من خلاله ذلك الوهج اللامع في مسيرة الإمام القيادية.

وكان الفصل الأول، بعنوان: (الإمام الرضا في سيرة متطورة).

وكان الفصل الثاني، بعنوان: (الإمام الرضا في قيادة رائدة).

وكان الفصل الثالث، بعنوان: (حياة القرآن في قيادة الإمام الرضا).

وكان الفصل الرابع، بعنوان: (البعد التشريعي في قيادة الإمام الرضا).

وكان الفصل الخامس، بعنوان: (الفكر الكلامي في قيادة الإمام الرضا).

وكان الباب الثاني، بعنوان: (الإمام الرضا(عليه السلام) وولاية العهد).

وقد انتظم في خمسة فصول رئيسية، سلكت بالبحث المعمّق مسارب ولاية عهد الإمام للمأمون في أبعادها المتشعبة، فكشفت المجهول من ذلك التاريخ المحيط بملابسات المؤامرة الكبرىٰ التي أبرم فصولها وتمثيلها المأمون العباسي بدقة وذكاء، حتىٰ بدا بصورة الحَمَل الوديع والطفل البريء، إمعاناً بالتآمر الخفي، وإيغالاً في التضليل المستطير، واضطلاعاً بالانحراف المغلّف، فكان له ما أراد إلىٰ حين، إلاّ أنه أخفق في النتائج وإن أحكم المقدمات، وغاص في متاهات مظلمة في النهاية، فانقلب عليه الأمر رأساً علىٰ عقب، واختلط عنده الحابل بالنابل، وكبا به التخطيط القاصر. وبرز الإمام أنصع صورةً، وأبهىٰ رؤيةً، وأبلغ منطقاً، وأورىٰ محاججةً، فما خفيت عليه الدوافع المخبّأة، ولا استُغفِلَ بالمظاهر الزائفة، ولا ترك الأمر دون تكثيف الأضواء الكاشفة عن المؤامرات والأسباب والدواعي حتىٰ تداعىٰ ما حاوله المأمون من الخداع والتمويه والابتزاز، وعرفت الأمة تلك الأسرار الكامنة وراء ولاية العهد، فما استقر بالمأمون الحال حتىٰ عمد إلىٰ اغتيال الإمام الرضا(عليه السلام)، فوفد علىٰ الله شهيد يقظته وعظمته، صابراً علىٰ المحنة، بعد أن أدىٰ

ما عليه من مسؤوليات ضخمة تتمثل في إحياء تراث الإسلام، وبلورة فكر الأمة، وقدح شرارة الوعي والنضال بين الناس.

وكان الفصل الأول من هذا الباب بعنوان: (الإمام الرضا(عليه السلام) وخلفاء بني العباس).

وكان الفصل الثاني، بعنوان: (الإمام الرضا وولاية العهد).

وكان الفصل الثالث، بعنوان: (ما وراء ولاية العهد من دوافع).

وكان الفصل الرابع، بعنوان: (ما بعد ولاية العهد من مؤامرات).

وكان الفصل الخامس، بعنوان: (اغتيال الإمام واستشهاده).

وقد ضم كل فصل من فصول هذه الرسالة مباحث أساسية تعنى باستقراء المجهول والأبعاد الغامضة، وتؤكد على رصد حقائق التأريخ نقداً وتمحيصاً وإبانة بيسر وسماح.

وقد ألحقت بالكتاب قصائد المؤلف في تحية وتكريم ورثاء الإمام الرضا(عليه السلام) ملحظاً تعبيرياً عن الولاء المطلق للإمام، وإشارة موحية عن المودّة في القربى.

وكانت (خاتمة المطاف) بشذرات من النتائج التي توصل إليها البحث. وكانت المصادر والمراجع حافلة بكتب التفسير والحديث الشريف، والفقه، والسيرة، والتأريخ، والفلسفة، والكلام، وما يجري مجراها في حياة الاستقراء والاستنباط، والرفض والإثبات في تحليل النصوص.

وبعد، فالكتاب ألقٌ من ذلك الشعاع الهادي. وقبسٌ لامع من مسيرة الإمام الرضا(عليه السلام) الرسالية، ومَعْلَمٌ في الطريق السوي للاستضاءة والاستنارة بحياة الإمام وقيادته، والهدي في فكره وعلمه الفيّاض، أرجو أن يكون وسيلة لشفاعته يوم الدين:

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾[1].

وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلت وإليه أنيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وآخر دعوانا (أن الحمد لله ربّ العالمين).

النجف الأشرف

محمد حسين علي الصغير

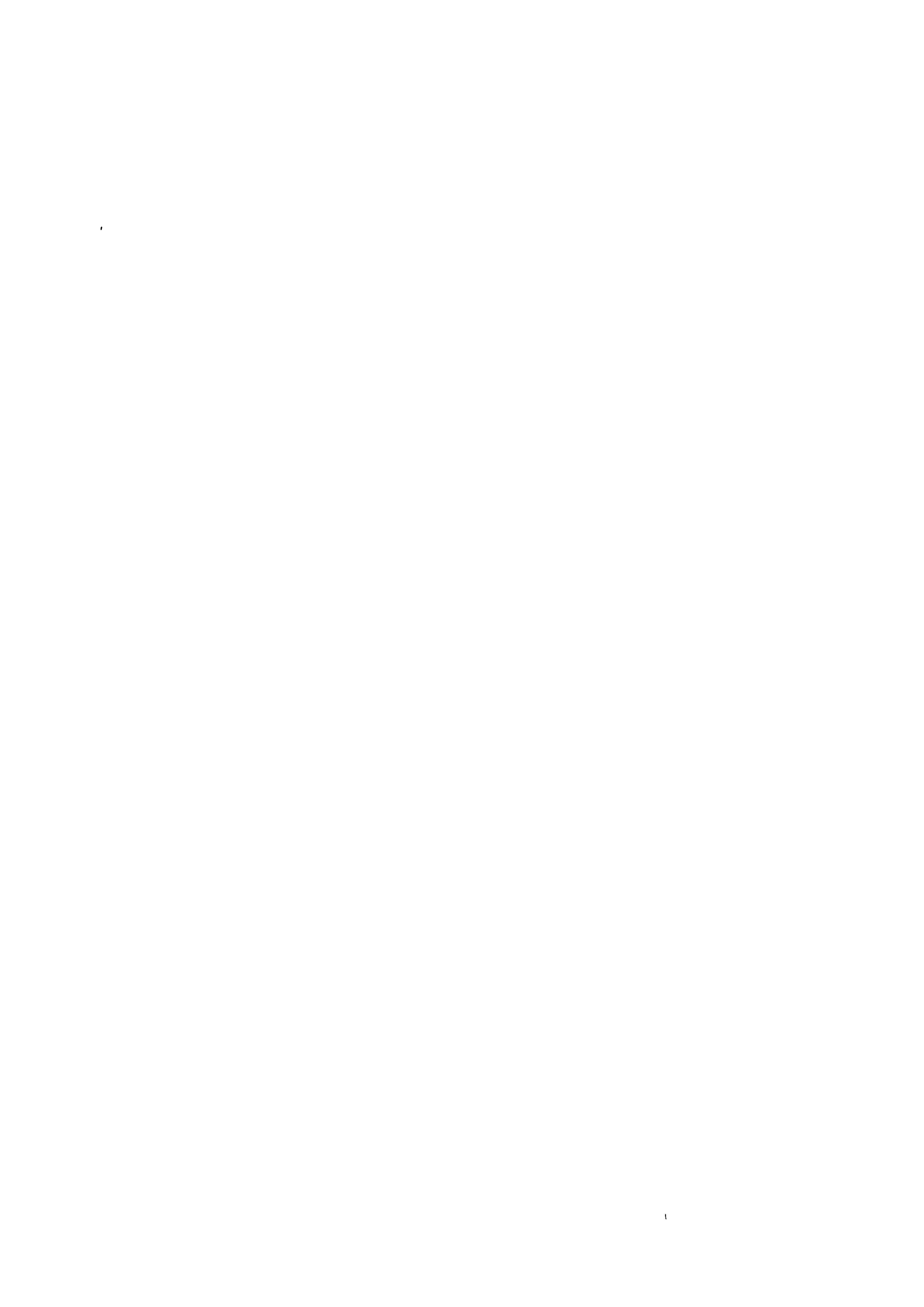
---

(١) سورة المطففين: الآية ٦.



البَابُ الأَوَّل

الإمام الرضا (عليه السلام) وقيادةُ الأمّة



الفصل الأول

الإمام الرضا (عليه السلام) في سيرة متطورة

١ ـ الأمل الجديد.

٢ ـ النشأة العليا.

٣ ـ النصّ على إمامته.

٤ ـ خصائص الإمام(عليه السلام).

٥ ـ تواضعه الذاتي.

٦ ـ الإنابة إلى الله.

٧ ـ ظواهر السلوك الإنساني.



الأمل الجديد

وتحقق الأمل الجديد الباسم بميلاد الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين سيد الشهداء بن الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، وسيد الوصيين، وقائد الغرّ المحجلين.

وهو الإمام الثامن من أئمة أهل البيت(عليهم السلام).

واختلف الرواة في تأريخ يوم ولادته والشهر، فقيل: في الحادي عشر من ربيع الأول[1].

وقيل: في السادس من شوال أو السابع أو الثامن منه[2].

وقيل: في الحادي عشر من ذي الحجة[3]. وقيل في الحادي عشر من ذي القعدة[4].

وكان ذلك في المدينة المنوّرة: يوم الخميس أو الجمعة[5] وقد اختلف أيضاً في سنة ميلاده الشريف، فقيل: سنة إحدى وخمسين ومائة، وقيل سنة ثلاث وخمسين ومائة[6].

---

(١) ظ: ابن شهراشوب / المناقب٢ / ٤١٧ + المجلسي / بحار الأنوار ٤٩ / ٩.

(٢) ظ: ابن خلكان / وفيات الأعيان ٢ / ٤٣٢ + اليافعي / مرآة الجنان ٢ / ١٢.

(٣) ظ: ابن طلحة / مطالب السؤول ٢ / ٦٦ + المسعودي / إثبات لوصية / ١٦٩ + المجلسي / البحار ٤٩ / ٢.

(٤) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٩ / ٣ + محمد حسن النجفي / جواهر الكلام ٢٠ / ٩٨ + حيدر الحسني / عمدة الزائر / ٣١١.

(٥) ظ: محسن الأمين العاملي / أعيان الشيعة ٤ / ق٣ / ٧٧.

(٦) ظ: ابن شهراشوب / المناقب ٢ / ٤١٧ + ابن خلكان / وفيات الأعيان ٢ / ٣٢ + اليافعي / مرآة الجنان ٢/ ١٢ + العماد الحنبلي / شذرات الذهب ٢ / ٦.

وذهب الشيخ الكليني (ت ٣٢٩ هـ) والشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) والشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) وسواهم: أن ولادته كانت سنة (١٤٨ هـ) ووافقهم على هذا ابن الأثير، وصاحب الجواهر، وآخرون[(١)] ويميل البحث إلى هذا التأريخ لنص الشيخ المفيد: أن مدة إمامته بعد أبيه الكاظم(عليه السلام)، كانت عشرين سنة[(٢)].

وكانت وفاة الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) سنة (١٨٣ هـ) ووفاة الإمام الرضا(عليه السلام) عام (٢٠٣ هـ) مع النص المستفيض أن عمره الشريف كان خمساً وخمسين سنة، وهذا ما يوافق سنة الميلاد (١٤٨ هـ) وهو ما يوافق مدة إمامته[(٣)].

ويرجِّحُ هذا التأريخ الأستاذ محمد حسن آل ياسين[(٤)].

وحين ميلاده الأغر عمّت البيت العلوي فرحة غامرة، وتعالت البشائر والتهاني بلمعان هذا النجم المضيء، فتناوله أبوه الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام):

«فأذّن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، ودعا بماء من الفرات فحنكه به»[(٥)].

وكان هذا من السنّة التي تجري للوليد.

وسمّاه أبوه (علياً) وكنّاه (أبا الحسن) وهي كنية أبيه نفسها، اعتداداً به واعتزازاً، حتى عرف بها في حياته وبعد وفاته[(٦)].

---

(١) ظ: الكليني / الكافي ١ / ٤٨٦ + المفيد / الإرشاد / ٣٤١ + الطوسي / التهذيب ٦ / ٨٣ + ابن الأثير / الكامل في التاريخ ٥ /١٩٣ + الجواهري / جواهر الكلام ٢٠ / ٩٨.

(٢) المفيد / الإرشاد / ٣٤٢.

(٣) ظ: الكليني / الكافي ١ / ٤٨٦ + المفيد / الإرشاد / ٣٤٢ + الطوسي / تهذيب الأحكام ٦ / ٨٣.

(٤) ظ: محمد حسن آل ياسين / الإمام علي بن موسى الرضا / ١٤.

(٥) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ /١٤.

(٦) ظ: الكليني / الكافي ١ / ٤٨٦ + المفيد / الإرشاد / ٣٤٢ + الشيخ الطوسي / تهذيب الأحكام ٦ / ٨٣.

وقد صرح الإمام الكاظم(عليه السلام) باسم ولده وكنيته لابن يقطين، فقال: (يا علي بن يقطين: هذا عليٌّ سيد ولدي، أما إني قد نحلته كنيتي)[1].

وكان للإمام الرضا(عليه السلام)، ألقابٌ عرف بها، ومنها: الصابر، الراضي، الوفي، الزكي، والولي[2].

ولكن الإمام(عليه السلام) اشتهر بلقب (الرضا)، حتى كاد أن يكون علماً له، يُستغنى بذكره عن اسمه، فعرف بـ(الإمام الرضا)(عليه السلام).

(والمستفاد من النصوص التأريخية أن (الرضا) يوم ذاك، كان لقباً يمتاز به المرشح لإمامة العصر أياً كان، وأنه قد أطلق فعلاً على من أريد عدّه الإمام الشرعي قبل علي بن موسى وبعده.)[3].

ومن المتسالم عليه تأريخياً أن الشهيد زيد بن علي زين العابدين(عليه السلام)، ما كان يدعو إلى نفسه، وإنما يدعو إلى (الرضا من آل محمد) وأن ابن طباطبا صاحب أبي السرايا في ثورته بالكوفة، كان يدعو جهاراً إلى (الرضا من آل محمد)[4].

والمعروف أن العباسيين قد كتموا اسم من يدعون إليه، وكانت الدعوة العباسية تدعو إلى: (الرضا من آل محمد) دون تسمية أحد، حتى قال الطبري (ت ٣١٠ هـ).

(بعث محمد بن علي [بن عبد الله بن العباس] رجلاً إلى خراسان، وأمره أن يدعو إلى (الرضا) ولا يسمي أحداً)[5].

---

(١) المفيد / الإرشاد / ٣٤٢.

(٢) ظ: ابن طلحة الشافعي / طالب السؤول ٢ / ٦٦ + سبط بن الجوزي / تذكرة الخواص / ٣٦١ + ابن الصباغ المالكي / الفصول المهمة / ٢٢٦ + المجلسي / بحار الأنوار ٤٩ / ٣ / + محسن الأمين العاملي / أعيان الشيعة ٤ / ق ٣ / ٨٢.

(٣) محمد حسن آل ياسين / الإمام علي بن موسى الرضا / ١٨.

(٤) الطبري / تاريخ الأمم والملوك ٨ / ٥٢٨ + ابن الأثير / الكامل ٥ / ١٧٤.

(٥) الطبري / تاريخ الأمم والملوك ٧ / ٤٢١.

ومهما يكن من أمر فإن (الرضا) إن كان عاماً فيمن يصلح للإمامة في عصر ما، فإنه خاص بالإمام علي بن موسى(ع)، لأنه الصالح للإمامة الشرعية في عصره بشهادة أعدائه.

وإن كان (الرضا) خاصاً به(ع)، فهو المنصوص عليه من قبل أبيه بالإمامة، وكان يدعوه بـ(الرضا) أمام أصحابه وأوليائه. فعن سليمان بن حفص قال: (كان موسى بن جعفر(ع) يسمي ولده علياً: الرضا، وكان يقول: ادعوا لي ولدي الرضا، وقلت لولدي الرضا، وقال لي ولدي الرضا. وإذا خاطبه، قال: يا أبا الحسن)[1].

وقد أبان ولده الإمام محمد الجواد(ع) سبب التسمية صراحة حينما قال له محمد بن أحمد بن أبي النصر البزنطي:

(ألم يكن كل واحد من آبائك الماضين(ع) رضىً لله عزَّ وجلَّ ولرسوله وللأئمة من بعده)؟

قال الإمام الجواد: بلى.

قال البزنطي: لم سُميَ أبوك من بينهم بالرضا؟

قال الإمام الجواد: (لأنه رضي به المخالفون من أعدائه، كما رضي به الموافقون من أوليائه، ولم يكن ذلك لأحد من آبائه، فلذلك سمي من بينهم بالرضا)[2].

كما أورد البزنطي نفسه عن الإمام الجواد أنه قال:

«إنما سمي الرضا، لأنه كان رضاً لله تعالى في سمائه، ورضا لرسوله والأئمة من بعده -صلوات الله عليهم- في أرضه»[3].

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا / ١ / ١٤.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٣ + المجلسي / البحار ٤/٤٩.

(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٣ + المجلسي / البحار ٤/٤٩.

ولا مانع أن يكون المأمون قد أطلق ذلك عليه، باعتباره إمام عصره المطلق، والمخصوص بالإمامة الشرعية، لا أنه هو الذي خصّه بهذا اللقب، كما تذهب لهذا بعض الروايات.

(بل لا صحة لما زُعِم أن المأمون هو الذي سماه الرضا من آل محمد)[1].



وكان صفات الإمام الخلقية امتداداً لصفات آبائه وأجداده الطاهرين: مهابة لا تعدلها مهابة الملوك، وأصالة في الإباء والشمم وطيب المحتد، وتربية مثلى تتخطى حدود المستحيل في التكوين البشري، وصلابة تتحدى عاديات الزمن.. فإذا تجاوزت هذه الملامح العامة في تكوين الشخصية؛ رأيت ملامحه الخاصة، فهو أسمر شأن العرب الأقحاح، بل هو شديد السمرة، معتدل القامة اعتدال النفس والسريرة، مبارك الناصية[2].

وكان لبيت النبوة أثره الرائع في حياة الإمام تربية وسلوكاً، وزهداً وعبادة، وثباتاً وموضوعية، وجرأة وإقداماً، وصبراً وتضحية، في أبعاد تكاملية قلّ أن تتوفر بغيره سوى الأئمة.

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

(ونشأ علي بن موسى في ذلك البيت الذي أذن الله تعالى أن يرفع، كما نشأ آباؤه المنتجبون وأجداده المطهرون، يُزقّ العلم زقاً، ويغترف المعرفة اغترافاً، فكان في الخلاصة كما أراد له الله: تربيةً، وتوجيهاً، وفضلاً، وأخلاقاً، وهدياً، وسلوكاً، وتقى، وورعاً)[3].

---

(١) محمد حسن آل ياسين / الإمام علي بن موسى الرضا / ١٩.

(٢) ظ: الشبلنجي / نور الأبصار / ١٣٩ + ابن الصباغ المالكي / الفصول المهمة / ٢٢٦ + القندوزي / ينابيع المودّة / ٣٨٥.

(٣) محمد حسن آل ياسين / الإمام علي بن موسى الرضا / ٢٠.

وهذا ما يدعونا جادّين إلى الوقوف قليلاً على مشاهد هذه النشأة المثلى، وأسرارها، وعوالمها، وآثارها مما لابد للبحث منه، وعلى وجه الإجمال، لأن الدخول في التفصيلات قد يخرج بالبحث عن منهجه الإيجازي القائم على التقاط الشذرات والتماس الذخائر.

النشأة العُليا:

ونشأ الإمام الرضا(عليه السلام) مترعرعاً في أعرق بيوت يثرب شرفاً، وأقدسها منزلةً ومكانةً في نفوس البشر، وأعلاها كعباً في العلم والحضارة والمعرفة، وأقربها زلفى من الله في الورع والزهد والتقوى، وأرفعها قدراً في النسب الشامخ والحسب الباذخ، وفي ظل إمامة أبيه الكاظم موسى بن جعفر(عليهما السلام)، وهو يستمد منه روحاً ملائكية، وخلقاً إنسانياً رفيعاً، وأدباً إسلامياً نبيلاً، ومعدناً علمياً أصيلاً، ومخزوناً معرفياً شاملاً، فكان صورة مشرقة لأبيه في الهدي والإفاضة والاستقامة، يحظى بتوجيهه الأسمى، ويشرف على حياته الجديدة.

يقول الأستاذ باقر شريف القرشي:

«نشأ الإمام الرضا(عليه السلام) في بيت من أجل البيوت وأرفعها في الإسلام؛ إنه بيت الإمامة، ومركز الوحي، ذلك البيت الذي أذن الله أن يرفع، ويذكر فيه اسمه. في هذا البيت ترعرع الإمام الرضا ونشأ، وقد سادت فيه أرقى وأسمى ألوان التربية الإسلامية الرفيعة... فهو من أعز البيوت وأمنعها في دنيا الإسلام، فقد كان مركزاً من مراكز الفضيلة، ومنبعاً للأخلاق الكريمة، وقد أنجب خيرة البشر وأئمة الحق والعدل في الإسلام.

وكانت البيئة التي عاش فيها الإمام الرضا(عليه السلام) تضمّ خيرة الرجال

وخير العلماء الذين ينهلون من نمير علوم أبيه الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام). . . »[1].

ونشأة الإمام على يدي أبيه اتسمت بآثارها الكريمة في حياة الإمام، ونجم عنها أن بزغ نجم التماعه مزدهراً في سماء العلم الباهر، وتلألأ إشعاعه المستطيل يغزو المشارق والمغارب، فطار صيته في الآفاق، وانتشر ذكره كالبرق في الأقاليم، وتمكن حبّه من قلوب الناس، فملك مشاعرها وأحاسيسها، وهو بعد في عنفوان الشباب، حتى إذا قارب الثلاثين من عمره فُجِعَ - كالعالم الإسلامي - باعتقال أبيه الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) في طوامير السجون، ومني بأزمة نفسية جرّاء هذا الإجراء الغاشم الذي امتد بضع سنين عجاف، وهي أيام قاتمة مليئة بالرعب والأرجاف، حافلة بالطغيان والأرصاد، تخترق وجدان الفتى، وتعتصر ضميره حزناً وألماً وفراقاً، حتى بلغت المأساة ذروتها باغتيال الإمام الكاظم (عليه السلام) مسموماً، فذهب شهيد عزته وإبائه، بما فصلنا به القول في كتابنا (الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) ضحية الإرهاب السياسي).

وبذلك تجددت الآلام في نفس الإمام الرضا (عليه السلام) تهزه هزّاً عنيفاً، وتلقي في مخيلته ظلالاً باهتة من الإرهاب الدموي المستطير، فتعيد إلى ذهنه ذكريات اغتيال جدّهِ أمير المؤمنين (عليه السلام)، وسم الإمام الحسن (عليه السلام) صابراً، واستشهاد الإمام الحسين (عليه السلام) غريباً، وفجيعتي الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) بالإسلوب نفسه سماً وغيلةً واستئصالاً، وإذا به يشاهد مأساة أبيه مسيّراً، ومكبّلاً، ومشرّداً، ومغيّباً بين غياهب السجون، ولم يكن ذلك لذنب أو جريرة أو جنحة، بل هو الإمعان بالحقد الدفين لأهل هذا البيت، الذي أنقذهم من الكفر والضلال، وكأنهم يريدون أن لا تبقى

---

(١) باقر شريف القرشي / حياة الإمام علي بن موسى الرضا ١ / ٢٨ - ٢٩.

لهم باقية؛ قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

ولم تكن هذه الحقبة المروّعة التي عاش إمامنا مناخها الساخن، تنتهي بأيام معدودات، بل هي طويلة الأمد حتى بلغت به خمسة وثلاثين عاماً، اقترنت برقابة صارمة، وحياة عاطفية عاصفة، وفترات عصبية قاتلة، شاهد بها تنمّر السلطان، وصفاقة الحاكمين، كما أبصر رعب الأطفال، وترويع النساء، وتضييق الخناق على أبناء رسول الله(ﷺ)، إرضاءً لشهوة الحكم، وإبقاءً على العروش الزائلة.

ولك أن تتصور حالة الإمام نفسياً، وهو يرى قديس بني هاشم في زنزانات الاعتقال الانفرادي، يغتصب اغتصاباً من بين أوليائه وأسرته وسراة قومه.

وكانت مرارة الأسى تحدق بالإمام طيلة هذه الحقبة العصيبة، وغصة الآلام تمتلك تلك الروح الصامدة.

يقول الأستاذ محمد جواد فضل الله معقباً على هذه الظاهرة:

إن الإمام «اتسمت حياته بالطابع المأساوي الكئيب من بدايتها الحزينة حتى نهايتها الأليمة، فما كانت المرارة لتفارق روحه... فقد شهد في بداية حياته ضروب المحن والبلايا التي حفلت بها حياة أبيه الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام)، ذلك الإمام الصابر الذي كان وجوده بنفسه مثار قلق الحكم، ومبعثاً لهواجسه المريعة، رغم وقوفه موقف المسالم للحكم، بعيداً عن مواطن المجابهة»[2].

ومع شدة هذه المشاهد المؤثرة، وإرهابية ذلك المناخ المرعب، فقد بقي الإمام الرضا جريئاً لا يُطاول، وعزيزاً ثابتاً لا يُنال، فلم يلن عوداً، ولم يغمز قناة، ولم يسلس قياداً، ولم يضطرب شكيمةً حتى بعد

---

(١) سورة التوبة / ٣٢.

(٢) محمد جواد فضل الله / الإمام الرضا - تاريخ ودراسة / ٩.

فقدانه لأبيه(عليه السلام)، إذ أمضى هذه الحقبة كما كان أيام أبيه يرتشف العلم الصراح من مناهله بغزارة ولهفة، حتى استقام عطاؤه فيضاً وحكمة وتثقيفاً.

إن المآسي الأليمة التي رافقت مسيرة الإمام(عليه السلام)، لاسيما اعتقال أبيه واستشهاده، وظلامة من يمتُّ لأهل البيت بنسب أو سبب، وتعقب السلطة لاتباعه وأشياعه، وحرمان الأكثرية من الفيء والعطاء، وسفك الدماء بغير الحق، وامتلاء السجون بعلية القوم، وإجاعة الشعب المسلم، وتسييره في البعوث والحروب للحفاظ على السلطة، وما رافق كل هذه الظواهر من فظائع وفجائع أثَّر في نشأة الإمام القيادية، وشهر منه سيفاً مصلتاً للدفاع عن الحق المضطهد، والوقوف بجنب المحرومين والمستضعفين، ومجابهة السلطان بالنصح والتوجيه، وتغذية أوليائه بروح الثبات والصبر، والتوجيه، وتفرغه التام لحياة العلم والعقل، وتنشِئة جيل من الرُّوَّاد وحملة التشريع، وتلك أعباء ثقيلة لا ينهض بها إلاَّ القادة الأفذاذ، وكان الإمام في طليعتهم الواعية.

وهنالك مَعْلَمٌ بارز في نشأة الإمام العليا، يتمثل بتلك الإمدادات المتوارثة كابراً عن كابر، وتتجلى بذخائر الإفاضة العلمية إماماً عن إمام، مما أرهف قابلية التلقي في الإعداد والفضل والسلوك، فانطبعت ذاته المترعة بالمشاعر بطالع الصقل والتطلع إلى الجديد والموروث بقاسم مشترك أعظم، فكان ابن أبيه حقاً في الخصائص والمميزات، ووارث علم النبيين والوصيين إدراكاً وحملاً ومشروعاً تكاملياً، فعاد ببركات ذلك فريد دهره في المعارف، وقريع عصره في المخزون الحضاري، فلا غرو أن يكون خليفة أبيه في المنصب الإلهي، ووصيه في الإمامة والولاية الكبرى، وبحسبه أن ينصّ عليه مراراً وتكراراً بأنه الإمام من بعده.

النصّ على إمامته:

من ثوابت مبدأ أهل البيت(عليهم السلام) : نصّ الإمام السابق على الإمام اللاحق بوصيةٍ تبيّنُ الإمام المفترض الطاعة بعده.

بل نص النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) على الأئمة المعصومين بأسمائهم وذواتهم ابتداءً بأمير المؤمنين الإمام علي(عليه السلام)، وانتهاءً بالمهدي المنتظر (عجل الله تعالى فرجه)، بما هو مشهور ومتواتر لا عند الإمامية فحسب، بل عند العامة والجمهور، وأنهم: «الأئمة الاثنا عشر تسميةً نبوية لا شك فيها»[1]. وكون هؤلاء الأئمة من قريش، وعددهم: اثنا عشر إماماً[2].

وكون النبي قد خلف في أمته (الثقلين) كتاب الله وعترته أهل بيته، ووصيته بالتمسك بهما، وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض، وهو حديث متسالم عليه[3].

وهو صريح فيما رواه الترمذي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «أيها الناس إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[4].

والحديث صحيح على شرط الشيخين مسلم والبخاري.

وأخرج ابن الأثير عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر،

---

(١) القندوزي / ينابيع المودّة ٣ /٩٩.

(٢) البخاري / الجامع الصحيح ٧٨/٩ و١٠١ + الترمذي / السنن ٥٠١/٤ + مسلم / الصحيح ٦ /٣-٤ + أبو داود / السنن ٢ /٤٢١ + المؤلف / الفكر الإمامي من النص حتى المرجعية / ١٨٥ - ٢١٥..

(٣) مسلم / الصحيح ١٢٢/٧+ الترمذي / السنن ٥ / ٦٦٢ وسواهما.

(٤) الترمذي / جامع الترمذي ٢ / ٣٠٨.

وهو كتاب الله : حبلٌ ممدود من السماء إلىٰ الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[1] .

والحديث صحيح علىٰ شرط الشيخين مسلم والبخاري .

فإذا أضفنا إلىٰ هذا روايتين ، الأولىٰ يرويها البخاري :

عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، أن النبي(ﷺ) قال بحضور أبيه : «إن هذا الأمر لا ينقضي حتىٰ يمضي فيهم اثنا عشر خليفة . . » .

قال : ثم تكلم بكلام خفي عليَّ ، قال : فقلت لأبي ما قال؟

قال : (كلهم من قريش)[2] .

والثانية يرويها أحمد بن حنبل بسنده عن عبد الله بن مسعود ، قال : سُئل النبي(ﷺ) بشأن الخلفاء ، فقال : «اثنا عشر كعدة بني إسرائيل»[3] .

وبالحصر العقلي والدليل الاستقرائي لا تنطبق هذه العدة إلاَّ علىٰ الأئمة الاثني عشر (صلوات الله عليهم) .

وهذا المبدأ هو الأصل الثابت الذي لا يتغير لمبدأ الإمامة عند أهل البيت(عليهم السلام) .

ولما كان الإمام موسىٰ بن جعفر(عليه السلام) هو الإمام المنصوص عليه من قبل جده وأبيه ، فقد نصّ هو علىٰ ولده الإمام الرضا(عليه السلام) بالإمامة في عدة روايات معتبرة ، باعتبار الإمامة فرضاً من الله بالوصية فيها ، ذلك بما روي عن إسماعيل بن عمّار انه سأل الإمام الكاظم عن الإمامة : هل هي فرض من الله أن يوصي ويعهد قبل أن يخرج من الدنيا؟

---

(١) ابن الأثير / جامع الأصول ١ /١٨٧.

(٢) البخاري / الجامع الصحيح / الحديث رقم ١٨٢١ / باب: (الناس تبع لقريش، والخلافة في قريش).

(٣) أحمد بن حنبل / المسند ١ / ٣٨٩.

فقال: نعم. فقال: فريضة من الله؟ قال: نعم[1].

وفي هذا الضوء نجد النصوص متواترة عن الإمام الكاظم بإمامة ولده الرضا(عليه السلام).

١ - عن محمد بن إسماعيل بن الفضل الهاشمي، قال: «دخلت على أبي الحسن موسى بن جعفر(عليه السلام)، وقد اشتكى شكاة شديدة، فقلت له: إذا كان كونٌ ما، أسأل الله أن لايريناه، فإلى من؟ قال: إلى عليّ ابني، وكتابه كتابي، وهو وصيي وخليفتي من بعدي»[2].

٢ - وروى محمد بن الفضل قال: «... أتيت موسى بن جعفر قبل وفاته بيوم واحد، فقال: إني ميّت لا محالة، فإذا واريتني في لحدي فلا تقيمن، وتوجه إلى المدينة بودائعي هذه، وأوصلها إلى ابني علي بن موسى، فهو وصيي وصاحب الأمر بعدي، ففعلت ما أمرني به»[3].

٣ - من محمد بن سنان عن الحسن بن الحسن، قال: «قلت لأبي الحسن موسى(عليه السلام): أسأل؟

فقال: سل إمامك.

فقلتُ: من تعني؟ فإني لا أعرف إماماً غيرك.

قال: هو علي ابني، قد نحلته كنيتي... فاصرف جميع ما كنتَ تعاملني به إلى ابني علي، واللهِ.. واللهِ.. ما فعلت ذلك به، بل الله فعل به ذاك حباً»[4].

٤ - عن خالد الجوّان، قال: قال لي أبو الحسن (الكاظم)(عليه السلام): عهدي إلى ابني عليّ، أكبر ولدي، وخيرهم، وأفضلهم[5].

---

(١) ابن بابويه / الإمامة والتبصرة من الحيرة / ١٦٦.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٧.

(٣) الراوندي / الخرائج والجرائح / ٢٠٤ + المجلسي / البحار ٤٩ / ٢٦.

(٤) الشيخ الطوسي / الغيبة / ٢٩ - ٣٠.

(٥) الكشي / الرجال / ٣٨٤.

٥ – عن علي بن جعفر قال:

«كنتُ عند أخي موسى بن جعفر، فكان والله حجّة في الأرض بعد أبي(ع)، إذ طلع ابنه عليٌّ، فقال لي: يا علي هذا صاحبك، وهو مني بمنزلتي من أبي، فثبتك الله على دينه...»[1].

٦ – قال علي بن يقطين: «كنت عند العبد الصالح موسى بن جعفر(ع) جالساً، فدخل عليه ابنه الرضا(ع)، فقال: يا عليّ، هذا سيد ولدي، وقد نحلته كنيتي»[2].

٧ – عن نعيم القابوسي، عن أبي الحسن موسى بن جعفر(ع)، قال: «ابني علي أكبر ولدي، وأبرّهم عندي، وأحبهم إليَّ، هو ينظر معي في الجفر، ولم ينظر فيه إلا نبيٌّ، أو وصيّ نبي»[3].

٨ – وعن داود الرقي، قال: «قلت لأبي إبراهيم(ع): جعلت فداك، قد كبر سني، فحدثني عن الإمام بعدك؟ قال: فأشار إلى أبي الحسن الرضا(ع)، وقال: هذا صاحبكم بعدي»[4].

٩ – وعن الحسين بن المختار، قال: «خرجت إلينا ألواح من أبي الحسن موسى(ع)، وهو في الحبس: عهدي إلى أكبر ولدي»[5].

١٠ – وعن منصور بن يونس، وقد دخل على الإمام موسى بن جعفر(ع)، فقال له الإمام(ع):

«يا منصور، أما علمت ما أحدثتُ في يومي هذا؟

---

(١) الشيخ الطوسي / الغيبة / ٣١ + المجلسي / البحار ٤٩ / ٢٦.
(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٢١.
(٣) المفيد / الإرشاد / ٣٤٣.
(٤) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٢٣ + الكليني / الكافي ١ / ٣١٢.
(٥) المفيد / الإرشاد / ٣٤٣.

قلت: لا. قال قد صيرت علياً ابني وصيي، والخلف من بعدي، فادخل عليه وهنئه، وأعلمه أني امرتك بهذا.

قال: فدخلت عليه فهنأته بذلك، وأعلمته أن أباه أمرني بذلك»[1].

وهذا التأكيد المستفيض من الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) على إمامة ولده الرضا (عليه السلام) جاء لبيان الأمر الواقع من خلال التكليف الشرعي من جهة، ومن جهة أخرى فهو درءٌ لدعاوى الواقفة، وتكذيب لمفترياتهم، ودحض لشبهاتهم.

وقد اختصرت لك الأمر، إذ أورد المجلسي ثمانية وأربعين حديثاً في النص على إمامة الرضا (عليه السلام)[2].

وكان الشيخ المفيد من ذي قبل قد ذكر «ممن روى النص على الرضا علي بن موسى (عليهما السلام) بإمامته من أبيه، والإشارة منه بذلك من خاصته وثقاته، وأهل الورع والعلم والفقه من شيعته:

داود بن كثير الرقي، ومحمد بن إسحاق بن عمار، وعلي بن يقطين، ونعيم القابوسي، والحسين بن المختار، وزياد بن مروان، والمخزومي، وداود بن سليمان، ونصر بن قابوس، وداود بن زربي، ويزيد بن سليط، ومحمد بن سنان»[3].

وكان المفيد (قدس سره)، قد حصر الإمامة بالرضا (عليه السلام) «لفضله على جماعة أخوته وأهل بيته، وظهور علمه وحلمه وورعه، واجتماع الخاصة والعامة على ذلك فيه، ومعرفتهم به منه، ولنصّ أبيه (عليه السلام) على إمامته من بعده، وإشارته إليه بذلك دون جماعة أخوته وأهل بيته»[4].

---

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ٢١.

(٢) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٤٩ / ١١-٢٨.

(٣) المفيد / الارشاد / ٣٤٢.

(٤) المصدر نفسه / ٣٤١.

وقد تقدمت النصوص في جزء منها ناطقة بذلك، وأمّا ما ذكره من مميزاته العلمية والنفسية، وكمالاته الخاصة، فهو ما يقودنا إلى الإشارة لخصائص الإمام بإيجاز.

خصائص الإمام:

وتدفق النور متوهجاً يمسح جبين المدينة المنورة بومضات من الألق الباهر، وتتدافع الأضواء كالفجر الحالم وهو يغطي الأفق المديد، وإذا بالأمل الذي يراود النفوس العطشى لروائهِ وإروائه، حقيقة نابضة تردد صدى الإنسانية المعذبّة بالرحمة والوعد البهيج؛ فها هو الإمام الرضا(عليه السلام) يطلّ بوجهه الطافح بالبشر منصلتاً كالسيف الرهيف، وها هو نوره الذهبي يتماوج كالصباح المشرق بأشعة الشمس الدافئة، فتغمر الفرحة نفوساً طالما انتظرت ذلك الكوكب السيّار، فيمتلئ الأفق بالغبطة والانبهار، ليبدد من حوله صدأ السنين، وظلمات الزمن الكئيب، في عملية انقلاب فماجئ في القيمّ والتطلعات الواعية الجديدة.

ولم يكن العصر المدّمر بأراجيفهِ ودياجي ليله ليبشر بحدث ضخم كهذا الحدث، وليس من طبيعته أن ينعم على الناس بإشعاع من المثل الإنسانية الخالدة، إلاّ أن النصر الذي كتبه الله لأوليائه بمداد من ثبات وفوز مبين، كان لابدَّ له أن ينفجر دون توقع كالبركان الشامل، وأن يهزَّ العوالم كالزلزال المدويّ، ليطوّح بأصنام الطواغيت.

وكان التماع نجم الإمام الرضا في الآفاق إيذاناً بهذا التغيير المرتقب في فكر الصامدين أمام الرياح الطائشة، وكان لخصائص الإمام الثاقبة أثرها الفاعل في إنعاش روح الأمة، وكان لعلمه الفيّاض مكانته في الضمير

الإنساني، وكان لملكاته الذاتية صداها المدويّ في البعث والإحياء، تعبيراً عن إرهاص صاعق يبشر بلمح جديد وأمثولة جديدة، وإذا بالأعناق تشرئب استطالة لذلك، وبالعقول تهفو استجابة للإنقاذ، وإذا بالعواطف تحتضن الأحاسيس الممهدة ليوم الخلاص من الذل والعبودية.

وها هي شمائل الإمام الرضا(عليه السلام) تتراصف عقداً فريداً كلؤلؤة البحر، يكتسب من آبائه تلك الخصائص في الوعي والإباء، ويرث عنهم خصال الشمم والعزة، وتتواكب في مسيرته أصالة الهدف وموضوعية الجذب الحضاري الصاعد، فهو لا يختلف في فطرته وعفويته عن الأئمة المعصومين(عليهم السلام)، لأنه امتداد طبيعي لذلك العطاء الضخم في العلم والحلم، والخلق والأدب، والدين والتقوىٰ، والسخاء والتواضع بأدق معاني هذه الكلمات وأوسعها دلالةً.

وليس من المغالاة في شيء أن نعدّه أعلم أهل زمانه، وأبرزهم في المعارف الإلهية، وأشهرهم بالبرّ ونقاء الضمير، وأكثرهم جوداً وتواضعاً وإنابة، وأجلهم حسباً ونسباً ووجاهة، وأعلقهم بضمير الأمة التصاقاً، واقربهم لقلوب الناس احتضاناً، واحد بهم علىٰ الفقراء والمحرومين وأهل الفاقة، وأشدهم لحمةً بالأبرار والصديقين وحسن أولئك رفيقاً. وهكذا الأئمة المعصومون(عليهم السلام) فرادىٰ ومجتمعين، يضاف إليه: التجرد التام عن الأوهام الزائلة في الاعتبار الدنيوي، والزهد الحقيقي بزبارج الحياة وزخارفها، والإخلاص لله عز وجلّ، والانقطاع لحضرته القدسية الأزلية؛ وهذا هو المجد الشامخ الذي لا يطاول ولا يحاول:

والمجدُ إشعاعُ الضمير لضوئه ... تهفو العقولُ. وتشخصُ الأبصارُ

والمجد أن يحميك مجدك وحده ... في الناس. لا شرطٌ ولا أنصارُ

وهناك شذرات متناثرة في خبايا التأريخ توحي بما كان عليه الإمام الرضا(عليه السلام) من خصائص مثالية :

ففي قيم الزهد والتواضع ونكران الذات يقول أبو عبادّ :

«كان جلوس الرضا(عليه السلام) في الصيف على حصير ، وفي الشتاء على مسح[1] ، ولبسه الغليظ من الثياب ، فإذا برز للناس تزيّن لهم»[2] .

وفي عبادته واستغراقه فيها ، وهيبته لدى الناس «كان(عليه السلام) إذا صلّى الغداة ، وكان يصلّيها في أول وقت ، ثم يسجد ، فلا يرفع رأسه إلى أن ترتفع الشمس ، ثم يقوم فيجلس للناس ، أو يركب ، ولم يكن أحد يقدر أن يرفع صوته في داره كائناً من كان ، وإنما يتكلم الناس قليلاً قليلاً»[3] . وفي تعلقه بالقرآن الكريم ، ومواظبته على تلاوته «كان يختمه في كل ثلاثة ، ويقول : لو أردت أن أختمه في أقرب من ثلاثة تختمت ، ولكنني ما مررت بآية إلاّ فكرّت فيها ، وفي أي شيء أنزلت؟ وفي أي وقت؟ فلذلك كنت أختم في كل ثلاثة أيام»[4] .

وكان وهو بسرخس وقد قيّد(عليه السلام) «ربما صلى في يومه وليلته ألف ركعة ، وإنما ينفتل من صلاته ساعة في صدر النهار ، وقبل الزوال ، وعند اصفرار الشمس ، فهو في هذه الأوقات قاعد في مصلاه يناجي ربه»[5] .

وفي مدى علمه يقول إبراهيم بن العباس : «ما رأيت الإمام الرضا(عليه السلام) سُئل عن شيء قط إلاّ علمه ، ولا رأيتُ أعلم منه بما كان في الزمان الأول إلى وقته وعصره . . . »[6] .

---

(١) المسح: البساط من الشعر يقعد عليه.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ١٧٨ .

(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ١٧٩ .

(٤) المصدر نفسه ٢ / ١٨٠ .

(٥) المصدر نفسه ٢ / ١٨٣

(٦) المصدر نفسه ٢ / ١٨٠ + المجلسي / البحار ٤٩ / ٩ .

وعن أبي الصلت الهروي، قال:

«كان الرضا(عليه السلام) يكلِّم الناس بلغاتهم، وكان والله أفصح الناس وأعلمهم بكل لسان ولغة.

فقلتُ له يوماً: يا ابن رسول الله(صلى الله عليه وآله) إني لأعجب من معرفتك بهذه اللغات على اختلافها.

فقال(عليه السلام): يا أبا الصلت؛ أنا حجة الله على خلقه، وما كان الله ليتخذ حجّة على قوم وهو لا يعرف لغاتهم، أو ما بلغك قول أمير المؤمنين(عليه السلام): «وأوتينا فصل الخطاب» فهل فصل الخطاب إلا معرفة اللغات»[1].

وكان ابن أبي الضحّاك، وهو المرافق للإمام لدى استدعائه من المدينة المنورة إلى مرو، قد أدرك من علم الإمام وفضله في الطريق، ما حدّث به المأمون، فقال له المأمون شاهداً ومحذّراً: «يا ابن أبي الضحّاك: هذا خير أهل الأرض، وأعلمهم، وأعبدهم، فلا تخبر أحداً بما شاهدته منه، لئلا يظهر فضله إلاّ على لساني، وبالله أستعين على ما أقوى من الرفع منه، والإشادة به»[2].

وقد وصف المأمون علم الإمام(عليه السلام) لعمّه محمد بن الإمام الصادق(عليه السلام)، فقال: «إن ابن أخيك من أهل بيت النبي الذين قال فيهم النبي(صلى الله عليه وآله): ألا إن أبرار عترتي، وأطايب ارومتي، أحلم الناس صغاراً، وأعلم الناس كباراً، فلا تُعَلِّمُوهُم، فإنهم أعلم منكم، لا يخرجونكم من باب هدى، ولا يدخلونكم في باب ضلالة»[3].

ويتحدث الإمام الرضا نفسه عن دلالة الإمام فيقول: «ودلالته في خصلتين: في العلم واستجابة الدعوة، وكل ما أخبر به من الحوادث التي تحدث

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار ٤٩ / ٨٧ وانظر مصدره.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ١٨٣.

(٣) المصدر نفسه ١ / ٢٠٤.

قبل كونها، فذلك بعهد معهود إليه من رسول الله(ﷺ) توارثه، وعن آبائه(عليهم السلام)، ويكون ذلك مما عهد إليه جبرئيل عن علاّم الغيوب عزّ وجل»[1].

وربما ذهب بعض أصحاب الإمام(عليه السلام) إلى الغلو، لما يرى من مبلغ علمه الفيّاض، فيغضب ذلك الإمام، وينبّه إلى مدى الخطأ الفاحش في ذلك الزعم المتهافت.

فعن سليمان الجعفري، قال: «كنت عند أبي الحسن الرضا(عليه السلام)، والبيت مملوء من الناس يسألونه، وهو يجيبهم، فقلت في نفسي: ينبغي أن يكونوا أنبياء!! فترك الإمام الناس، ثم التفت إلي فقال: يا سليمان إن الأئمة حلماء علماء يحسبهم الجاهل أنبياء، وليسوا بأنبياء..»[2].

وانحراف ابن تيمية عن نهج أهل البيت معروف لدى الخاص والعام، ومع هذا فقد تحدث عن بعض مميزات الإمام متحفظاً بقوله: «علي بن موسى له من المحاسن والمكارم المعروفة والممادح المناسبة اللائقة به ما يعرفه بها أهل المعرفة»[3].

وقال ابن طلحة الشافعي واصفاً بعض خصائص الإمام: «كانت مناقبه عليّة، وصفاته سنيّة، ومكارمه حاتمية، وشنشنته أخزمية، وأخلاقه عربية، ونفسه الشريفة هاشمية، وأرومته الكريمة نبوية، فمهما عدّ من مزاياه كان(عليه السلام) أعظم منه، ومهما فُصِلَ في مناقبه كان أعلى رتبةً منه»[4].

وذهب الحافظ الذهبي إلى أنه كان أهلاً للخلافة بقوله: «كان علي الرضا كبير الشأن أهلاً للخلافة»[5].

---

(١) المصدر نفسه ١ / ٢١٤.
(٢) ابن شهراشوب / المناقب ٤ / ٣٣٤ + المجلسي / البحار ٤٩ / ٥٧.
(٣) ابن تيمية / منهاج السنّة ٢ / ١٢٥. طبع القاهرة / ١٣٢١هـ.
(٤) ابن طلحة الشافعي / مطالب السؤول ٢ / ٦٦.
(٥) الذهبي / سير أعلام النبلاء ٩ / ٣٩٢.

بينما ذهب ابن أبي الحديد بأنه المرشح للخلافة «علي بن موسىٰ المرشح للخلافة، والمخطوب له بالعهد، كان أعلم الناس»[1].

يقول الأستاذ باقر شريف القرشي مسلطاً الضوء علىٰ جملة خصائص الإمام: «أما نزعات الإمام الرضا(عليه السلام) وعناصره النفسية فهي كنزعات آبائه الأئمة العظام تجرداً عن الدنيا، وزهداً في مباهجها، وإعراضاً عن زينتها، وإقبالاً علىٰ الله، وانقطاعاً إليه، وتمسكاً بطاعته، وعلماً بأحكام الدين، وإحاطة شاملة بشريعة سير المرسلين، وعوناً للضعفاء، وغوثاً للمحرومين، وسعياً لقضاء حاجات المحتاجين، إلىٰ غير ذلك من الصفات الكريمة التي جعلته في قمة الشرف والمجد في دنيا العرب والإسلام»[2].

وهناك من خصائصه ما ينهض ببحث علمي مستقل، وقد لوّحت له مؤشراً، وسأقف عند بعضها ملمحاً كما سيأتي.

تواضعه الذاتي:

وكان الإمام الرضا(عليه السلام) في تواضعه نديّاً كالفجر العاطر، زكياً كالماء العذب، رائعاً كالصفحة البيضاء، عابقاً كالأرج المذاب. وكانت سيرته الذاتية حافلة بأسمىٰ السمات التقويمية لحياة الإنسان فهو (أكرم الناس أخلاقاً)[3] واعظمهم احلاماً، واحوطهم علىٰ الناس، بعيداً عن الحقد والتشفي، مرتفعاً عن شهوة الانتقام، يصفح عمن ظلمه، ويتجاوز من يسيء إليه، وله من كياسته وإرادته الصلبة ما هو أبلغ من ذلك وقعاً، فتجده محسناً للمسيء، غافراً لذوي الذنوب، لم يألف الكراهية، ولم يعرف البغضاء، يشيع حباً ورحمة.

---

(١) ابن أبي الحديد / شرح نهج البلاغة ١٥ / ٢٩١.

(٢) باقر شريف القرشي / حياة الإمام علي بن موسى الرضا ١ / ١٠.

(٣) ابن أبي الحديد / شرح نهج البلاغة ١٥ / ٢٩١.

وهناك أمثلة وثائقية أشار لها التأريخ في هذا الملحظ . فقد أخرج الكليني بسنده : «أن الإمام الرضا في سفره إلىٰ خراسان دعا يوماً بمائدة له ، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم ، فقيل له : لو عزلت لهؤلاء مائدة؟ فقال : (مَهَ ، إن الربَّ تبارك وتعالىٰ واحد ، والأم واحدة ، والأب واحد ، والجزاء بالأعمال»[1] .

وروىٰ الشبلنجي : أن الإمام الرضا(عليه السلام) : «دخل يوماً الحمّام ، فبينما هو في مكان من الحمّام ، إذ دخل عليه جندي فأزاله عن موضعه ، وقال : صُبَّ علىٰ رأسي ، فصبَّ علىٰ راسه ، فدخل من عرفه ، فصاح : يا جندي هلكت ! ! أتستخدم ابن بنت رسول الله(صلى الله عليه وآله) فأقبل الجندي يقبّل رجليه ، ويقول : هلاّ عصيتني إذ أمرتك؟

فقال الإمام : إنها لمثوبة ، وما أردت أن أعصيك فيما أناب عليه»[2] .

وكان للإمام لمحة مشرقة في العفو والعرف وتحرير الإنسان من العبودية ، فعن إبراهيم بن العباس ، قال : «سمعت علي بن موسىٰ الرضا(عليه السلام) يقول : حلفتُ بالعتقِ ، ولا أحلف بالعتقِ إلاّ أعتقتُ رقبةً ، وأعتقت بعدها جميع ما أملك . . . »[3] .

وكانت مواساة المحرومين والمساكين فيما أنعم الله عليه صفة ملازمة لا تنفك عن طبيعته الذاتية ، فعن معمّر بن خلاد ، قال : «كان أبو الحسن الرضا(عليه السلام) إذا أكل ، أُتي بصفحة فتوضع قرب مائدته ، فيعمد إلىٰ أطيب الطعام مما يؤتىٰ به ، فيأخذ من كل شيء شيئاً ، فيوضع في تلك الصفحة ، ثم يأمر بها للمساكين ، ثم يتلو هذه الآية : ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾[4] .

---

(١) الكليني / الكافي ٨ / ٢٣٠.
(٢) الشبلنجي / نور الأبصار / ١٣٩.
(٣) الصدوق / عيون اخبار الرضا ٢ / ٢٣٧.
(٤) سورة البلد / ١

ثم يقول: علم الله عزَّ وجل أن ليس كلُّ إنسان يقدر على عتق رقبة، فجعل لهم السبيل إلى الجنة[1].

بل هو يعمد إلى أكثر هذا خلقاً، وأفضل منه عطفاً، وأروع تسامحاً حتى بحقوقه الخاصة، فقد روى الصدوق عن ياسر الخادم: (كان الرضا(عليه السلام)، إذا خلا، جمع حشمه كلهم عنده، الصغير والكبير، فيحدثهم ويأنس لهم، ويؤنسهم، وكان(عليه السلام) إذا جلس على المائدة لا يدع صغيراً ولا كبيراً حتى السائس والحجّام إلاّ أقعده على مائدته»[2].

ولعل من جماع آداب تواضعه ومسيرته العليا في ذلك ما تحدث به معاصره إبراهيم بن العباس حيث قال: «ما رأيت أبا الحسن الرضا(عليه السلام)، جفا أحداً بكلامه قطّ، وما رأيته قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه، وما ردّ أحداً عن حاجة يقدر عليها، ولا مدّ رجليه بين يدي جليس له قط، ولا اتكأ بين يدي جليس له قط، ولا رأيته شتم أحداً من مواليه ومماليكه قط، ولا رأيته تفل قط، ولا رأيته يقهقه في ضحكة قط، بل كان ضحكه التبسم. وكان إذا خلا ونصبت مائدته، أجلس على مائدته حتى البوّاب والسائس»[3].

وأنت ترى هذا العرض في تفصيله، كيف استوعب مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب، مما حدا ابن الصباغ المالكي إلى القول: «امّا اخلاقه وسماته، وسيرته وصفاته، ودلائله وعلاماته، فناهيك من فخار، وحسبك من علو مقدار»[4].

---

(١) البرقي / المحاسن / ٣٩٢ + المجلسي / البحار ٤٩ / ٩٧.

(٢) محمد حسن آل ياسين / الإمام علي بن موسى الرضا / ٤٥ عن الصدوق / عيون اخبار الرضا.

(٣) الصدوق / عيون اخبار الرضا ٢ / ١٨٤ + المجلسي / البحار ٤٩ / ٩٠ – ٩١.

(٤) ابن الصبّاغ المالكي / الفصول المهمة / ٢٤٦.

والبحث حينما يشير إلىٰ هذا الملحظ من تواضع الإمام، فلأنه جزءٌ بارز من قيمه التي أجمع المؤرخون علىٰ تفرده بها، دون أي تفاخر أو تكاثر، وإنما هو التماسك والتماس الحقيقي مع التقوىٰ والورع في التحام غير قابل للانفصال.

قال له رجل: أنتَ واللهِ خير الناس.

فقال له الإمام(عليه السلام): لا تحلف يا هذا!! خيرٌ مني من كان أتقىٰ لله عزّ وجل، وأطوع له، والله ما نسخت هذه الآية: ﴿**وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ**﴾...[1].

وقال له آخر: «والله ما علىٰ وجه الأرض أشرف منك أباً، فقال: التقوىٰ شرّفتهم، وطاعة الله أحظتهم...»[2].

ومن خلال هذا المنظور العميق كان تعامله الإنساني مع الناس سيما المستضعفين منهم، والمحرومين بخاصة، فهو يريد لهم كرامة الإنسان، وحرية الإرادة، والتمتع بما سنّ لهم الإسلام من حقوق. فعن ياسر الخادم ونادر جميعاً، قالا: قال لنا أبو الحسن (صلوات الله عليه):

«إن قمت علىٰ رؤوسكم وانتم تاكلون، فلا تقوموا حتىٰ تفرغوا. ولربما دعا بعضنا فيقال: هم ياكلون!! فيقول(عليه السلام): دعوهم حتىٰ يفرغوا»[3].

وروي عن نادر الخادم، قال: «كان أبو الحسن(عليه السلام)، إذا أكل أحدنا لا يستخدمه حتىٰ يفرغ من طعامه»[4].

---

(١) الحجـرات / ١٣.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ٢٣٦ مع تقديم الخبر الثاني على الأول.

(٣) الكليني / الكافي ٦ / ٢٩٨.

(٤) الكليني / الكافي ٦ / ٢٩٨.

وهذا الاتجاه في السلوك يمثل أروع الشمائل النفسية، ويقبض بيد رحيمة على نوازع الأثرة والاستعلاء.

وربما أراد بعض مواليه أن يقوم بخدمة ما، ولكنها خدمة في دار الإمام، ومهما كانت بسيطة ومتواضعة، فقد لا يرتضيها الإمام(عليه السلام)، وقد يعالجها بنفسه، فقد نزل به ضيفٌ «وكان جالساً عنده يحدثه في بعض الليل، فتغيّر السِّراج، فمدّ الرجل يده ليصلحه، فزبره ابو الحسن(عليه السلام)، ثم بادر بنفسه فأصلحه، ثم قال: إنَّا قومٌ لا نستخدم أضيافنا..»[1].

وفي لفتة بارعة للإمام(عليه السلام)، نجده يعطي للتواضع معنى إضافياً جديداً يجعل من الموازنة بين الخلق، والاستواء فيما بينهم في الايثار، معياراً دقيقاً لم يسبق إليه، ولعله من ابتكاراته الموضوعية، يقول الإمام(عليه السلام): «التواضع أن تعطي الناس ما تحبّ أن تُعطاه..»[2].

وهذا من المعاني الجليلة دلالة، العظيمة أثراً في التوجيه المثالي.

ويعقب الأستاذ محمد جواد فضل الله (رحمه الله) على مجموع ممارسات الإمام التواضعية فيقول: «وحينما نرى الإمام يجلس إلى مائدته، ومن حوله مماليكه، وبوابه، وسائس دوابّه، فليس إلاّ ليعطي الأمة درساً في الإنسانية الفاضلة التي تؤمن بكرامة الإنسان، وليعرض نظرية الإسلام عملياً في طبيعة السلوك الذي يجب أن يعتمده الإنسان، فرفعةُ المقام وسمّو المركز لا يستدعيان أن يحتقر الإنسان من دونه في ذلك، أو يشعر بوضاعة شخصيته، ولو كان ذلك الإنسان عبداً مملوكاً، ليتبين من ذلك عقدة تباين الطبقات فتتسع الهوّة بين أفراد الأمة، ويتوزع كيانها في فصائل متنافرة يمزقها الحقد وتنهشها البغضاء»[3].

---

(١) المصدر نفسه ٦ / ٢٨٣.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٢٤.

(٣) محمد جواد فضل الله / الإمام الرضا تاريخ ودراسة / ٤٦.

والإمام في أطروحته التواضعية يجمع بين المروءة وهذه الصنعة في نموذج فريد، فهو ينفي عن نفسه وعن الأئمة الدعوىٰ بأن الناس عبيد لهم، بمعنىٰ العبودية الخالصة التي يدَّعيها أعداؤهم فيهم، فيرىٰ الإمام أنهم يستوون معهم إلاّ في منزلة العصمة والعلم والولاية العامة مما يختصّ به كل إمام مفترض الطاعة، واجب الاتبّاع باعتباره يهدي إلىٰ الحق.

يقول أبو الصلت الهروي: سألت الإمام الرضا(ع)، وقلت: يا ابن رسول الله؛ ما شيء يحكيه الناس عنكم؟

قال الإمام: وما هو؟

قلت: يقولون: إنكم تدّعون أن الناس لكم عبيدٌ!!

قال الإمام: اللّهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت الشاهد بأني لم أقل ذلك قط، ولا سمعت من آبائي (من) قاله قط، وأنت العالم بما لنا من المظالم عند هذه الأمّة، وإن هذه منها.

ثم أقبل عليّ فقال: يا عبد السلام، إذا كان الناس كلهم عبيدنا علىٰ ما حكوه، فممن نبيعهم؟

فقلت: يا ابن رسول الله صدقت.

ثم قال: يا عبد السلام؛ أمنكرٌ أنت لما أوجب الله عز وجلّ لنا من الولاية كما ينكره غيرك؟

قلت: معاذ الله، بل انا مقرّ بولايتكم[1].

وكانت هذه اللمحات البارزة في السلوك مدعاة للامتياز النوعي في التطبيق، ومن هذه الخلال أشاع الإمام روح الإنسانية للأمة وفضائلها بعد

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ١٨٤.

الاستعباد، وبنى عليها رسالته في الإرساء والتأسيس، وكان أعظمها عائدية إلغاؤه الفروق المميزة بين إنسان وإنسان إلاّ بالتقوى.

الإنابة إلى الله تعالى:

نشأ الإمام الرضا(عليه السلام) في بيت تحيط به العناية الإلهية وعياً وإدراكاً وإضاءةً، وقد تفتحت مشاعره وأفكاره على هذا التراث الخالد في الخشوع الفطري والإنابة المطلقة والتجلي الشامل، واشرأبت الإرادة بإيمان راسخ عميق فنشطت الأعضاء للعبادة الخالصة في مناخ روحي يعكس الحقيقة الكبرى في المناجاة والانبهار الذاتي بآلاء الخالق البارئ المصوّر، فكانت الإنابة في أقصى درجات المعرفة، والخضوع في غمرة الوعي المتكامل، وعمر القلب بالإخبات المتدرج من عالم الملكوت، ليحيي هذه الأرواح الهامدة، ويستنقذها من السكون والجمود.

وكانت الأضواء العاكسة لإنابة الإمام تتموج في هدير نافذ يخترق العقول والأحاسيس بوحي تلقائي، فكان الخير والنور يتدفقان في شفافية وانسياب، وغزا هذا الشعاع أفكار الناس وعواطفهم، فصمدوا أمام السيل الجارف من المغريات، وثبتت الصفوة المختارة تتحدى التدافع في الاتجاه المضّاد، فلم تنجرف في غمار التيّار.

وكان السلوك الرائع للإمام في عبادته دليلاً لأولي الألباب، ومنهجاً للعارفين، إذ أجمع مؤرخو سيرته العطرة أنه:

«قليل النوم بالليل، كثير السهر، يحيي أكثر لياليه من أولها إلى الصبح، وكان كثير الصيام، فلا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر، ويقول: ذلك صوم الدهر»[1].

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢/١٨٤ + المجلسي / البحار ٤٩/٩١.

وكان يجلس في مصلاه متفكراً معتبراً ناظراً في ملكوت السماوات والأرض[1].

وكان إذا أصبح صلىٰ الغداة، فإذا سلّم جلس في مصلاه يسبّح الله ويحمده، ويكبّره، ويهلّله، ويصلّي علىٰ النبي وآله حتىٰ تطلع الشمس.. وكان يسجد سجدة يقول فيها مائة مرة: حمداً لله... فإذا كان الثلث الأخير من الليل قام من فراشه بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والاستغفار، فاستاك ثم توضأ، ثم قام إلىٰ صلاة الليل... وكان يجهر بالقراءة في المغرب والعشاء، وصلاة الليل، والشفع، والوتر، والغداة، ويخفي القراءة في الظهر والعصر...

وكان لا ينزل بلداً إلا قصده الناس يستفتونه في معالم دينهم، فيجيبهم، ويحدثهم الكثير عن أبيه عن آبائه عن علي(عليه السلام)، عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)[2].

وكان هذا التقرير جزءاً مما اقتطفناه من مسيرة يومية عبادية للإمام، اجتزأنا بشذرات منها، ولك أن تستدل علىٰ ما لم يذكر بما ذكر.

وكان التفكر في شؤون الكون والعوالم أصلاً في العبادة الحقّة عند الإمام إذ يقول: (ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة في التفكر بأمر الله عزّ وجل»[3].

والإمام من منظور واقعي يربط العبادة بالحلم، باعتباره أصلاً من أصول التقويم النفسي والخلقي للإنسان المتكامل، فيقول(عليه السلام): «لا يكون الرجل عابداً حتىٰ يكون حليماً»[4].

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢/١٨٤ + المجلسي / البحار ٩١/٤٩.

(٢) ظ: الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ١٨٠ – ١٨٣.

(٣) الكليني / الكافي ٢ / ٥٥.

(٤) المصدر نفسه ٢ / ١١١.

وكان من تمام إخبات الإمام وإنابته لله تعالىٰ، تطلعه في القرآن العظيم وعنايته الفائقة بتلاوته «وكان يختم القرآن في كل ثلاث»[1]. (وكان يكثر بالليل في فراشه من تلاوة القرآن، فإذا مرّ بآية فيها ذكر جنة أو نار بكىٰ، وسأل الله الجنة، وتعوّذ به من النار»[2].

وقال رجاء بن أبي الضحّاك، وهو مرافقه العباسي في استدعائه إلىٰ مرو: «فو الله ما رأيت رجلاً كان أتقىٰ لله منه، ولا أكثر ذكراً له في جميع أوقاته منه، ولا أشد خوفاً لله عزّ وجل»[3].

وكان للإمام توجه خاص في الإنابة لله تعالىٰ تتمثل في الدعاء سراً معللاً ذلك بقوله: «دعوة العبد سراً دعوة واحدة، تعدل سبعين دعوة علانية»[4].

لأن أمثال هذه الدعوات السّرية عادة ما تكون نقية خالصة من الرياء والأوشاب، وهي علاقة روحية تتسم بالكتمان إلاّ عن الله تعالىٰ، فتنبعث من الأعماق لتخترق الأجواء إلىٰ السماء.

ظواهر السلوك الإنساني:

الإمام الرضا(عليه السلام) بما أفاض من رشحات في رياضة النفس، وبما أترع من نفحات ترتفع بالإنسان إلىٰ المثالية، يعتبر ظاهرة سلوكية قد لا تتكرر إلاّ عند المعصومين وحدهم.

والقلوب المفعمة بالإيمان البريء قد تتنسم عبير الحرية والانطلاق من مصادر غنية بالإمداد، وقد تمتزج بالشوق الحزين وهي تكرع بالإشفاق الحذر، وقد تفجأ بالإحباط المرير لمشاهدة ما يجري في حياة الإذلال

---

(١) ابن شهر اشوب / المناقب ٢ / ٤١١ + المجلسي / البحار ٤٩ / ٩١.

(٢) المجلسي / بحار الأنوار ٤٩ / ٩٤.

(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ١٨٠.

(٤) الكليني / الكافي ٢ / ٤٧٦.

والعبودية ، إلا أن أملاً بارقاً غيبي الهبات قد يشيع فيها روح الحيوية والنشاط ، فينقذها من مستنقع اللهاث اللامعقول في الحياة ، ويطل بها على أفق نابض بالرحمة والهدى ، يدفع بالنفوس الحائرة إلى حرم أمنع ، يستنزل ظلاله من بهاء الأفق البعيد عن التراكم البشري في مختلف أبعاده ، ويستمد حياته من ذلك الإشعاع الباهر من مصادر النور الإلهي الخارق .

وكان الإمام الرضا (عليه السلام) مظهراً من مظاهر هذا المصدر الفياض الذي أترع الحياة بالعطاء والاستقلال والسيادة ، وكان بفاعليته النادرة يحقق الأمل الضاحك في الأفئدة التي تحنّ إلى الإنقاذ والهداية وبلورة السلوك .

ولم يكن الإمام رجل سلطة ، ولم يُحَطْ بالأنصار المسلمين ، ولم يحرس بالرجال الأشداء ، ولكنه صاحب قضية مقدسة تسعى إلى فك الإسار عن الإنسانية المعذبة ، ورجل أطروحة رسالية القت بثقلها على كاهله ، فنهض بها واثقاً مؤمناً متوطناً ، فقوبلت بحماس بالغ ، واستُقبلت بالغبطة والرضا ، وحظيت ببوادر التأييد .

وكان ضمير الإمام متهيئاً لاستقبال المهمة الكبرى ، مفعم الجوانح بآمال الأمّة ، عاملاً للخلاص من الأثرة ، رائداً للتحرر من الجشع واستعباد الناس ، فخفّ لتحمل المسؤولية ، وتقحم بإصرار عقبات المستحيل ، فحامت حوله أفئدة المحرومين ، وتحلقت عليه العلماء وقادة الفكر ، فانجدهم بالثبات والعزم والثقة ، وألزمهم برياضة النفس وإلغاء الرقّ في المشاعر ، ووقف بهم على قاعدة صلبة من المفاهيم الجديدة .

وكان يحذرهم من النزوات المغرية بالانحدار والتدهور الأبدي ، فهو - إذاً يُريد لكل إنسان ان يكون إنساناً بأدقّ معاني الإنسانية ، وكان سبيله لهذا المشروع تلك الدعوات الصادقة التي تخلق من الفرد نموذجاً مثالياً ، وترسم للأمة دستوراً متكاملاً في الوعي والصفات ومكارم الأخلاق .

وبـدأت المسيرة تنطلـق بانتظـام ، والأحاسـيس تندفـع بـاتزان رغـم المضاعفات والعقبات من هنا وهناك .

وكـان علىٰ الإمـام(عليه السلام) أن ينهـض بهـذا العـبء الثقيـل ، وأن يصـدع برسالته التحررية ، وقد كان ذاك .

وظواهر السلوك الإنساني لـدىٰ الإمـام تنطبـع راسـخة في جوانـب عـدّة تستوعب تأريخـاً جـزلاً منـوّراً في إيحائـه الـتربوي وسـخائه النفسـي وعطفه علىٰ الفقـراء وذوي الحاجـات وسـأقتصر في الحديـث عليهـا بشـواهدها وتعليماتها ومظاهرها .

فقد حدب الإمام في مسلكه لتربية الأتبـاع والأوليـاء أن يتنـاول مفـردات البيئة الاجتماعية بالتهذيب والصقل ، وذلك فيما يستجدّ لديه من مؤشـرات تشمخ بالعظة والاعتبار ورياضة النفس ، فيبرم ما أراد إبرامه عملياً في رقابـة مباشرة يشرف عليها بذاته ، ويدعم القول بالعمل في صدق التـأثير ، ونوعيـة النتائج ، وعائدية التوجيه .

فعن أحمد البزنطي ، قال : «بعث إلـيَّ الرضـا(عليه السلام) بحمـار لـه ، فجئـت إلىٰ صريا ، فمكثتُ عامةَ الليل معه ، فأُتيت بعشاء ، ثم قال : افرشوا له . . . ثم أُتيت بوسادة . . فلما أصبت من العشاء ، قال لي : أتريد أن تنام؟ قلـت : بلىٰ جُعلت فداك . . . فطـرح عليّ الملحفـة والكسـاء ثـم قـال : بيَّتـك الله في عافية .

وكنا في سطح ، فلما نزل من عندي ، قلت في نفسي : قـد نلـت مـن هـذا الرجل كرامة ما نالها أحدٌ قط ! ! . .

وإذا بهاتف يهتف بي : يا أحمد . . . وجاءني مولـىٰ لـه ، فقـال : أجـب مولاي . . فنزلتُ وهو مقبل إلي ، فقال : كفَّك ، فناولتـه كفـي ، فعصرهـا ، ثم قال :

إن أمير المؤمنين صلى الله عليه، أتى صعصعة بن صوحان عائداً له، فلما أراد أن يقوم من عنده، قال:

يا صعصعة بن صوحان، لا تفتخر بعيادتي إياك، وانظر لنفسك، فكأن الأمر قد وصل إليك، ولا يُلهينَّك الأمل، أستودعك الله، وأقرأ عليك السلام كثيراً. . .»[1].

وهذه اللفتة البارعة من الإمام فيها من تقويم السلوك الشيء الكثير: نبذ الفخر بما أجراه له الإمام من الحفاوة والتكريم، حمد الله بما أولاه من نعمة، أن لا يتيه على أخوانه بما أسدى له الإمام، فالعملية كلها تأديب سلوكي أدبّه به الإمام، ليفيد منه في مستقبل الأيام، وينطبع في ذاتيته بتأثير الإمام وفعله، ونبل المعاملة في موازين الاحترام.

ودخل على الإمام الرضا(عليه السلام) بخراسان قوم من الصوفية، وهم يتظاهرون بالشفقة على الإمام، وهم ينكرون ما هو عليه من ولاية العهد في المظهر الخارجي، وكأنهم يأمرون الإمام بالزهد، فأراد الإمام أن يقف بهم على الحقيقة دون الخوض بسلوكه الواقعي وزهده الذي لا يجارى، ودون أن يكشف لهم عما هو عليه من العزوف عن الدنيا.

قالوا للإمام: «إن أمير المؤمنين نظر فيما ولاّه تعالى من الأمر، فرآكم أهل البيت أولى الناس بأن تؤموا الناس، ونظر فيكم أهل البيت فرآك أولى الناس بالناس، فرأى أن يردَّ هذا الأمر إليك، والأمة تحتاج إلى من يلبس الخشن، ويأكل الجشب، ويركب الحمار، ويعود المريض».

وكان الإمام الرضا(عليه السلام) متكئاً، فاستوى جالساً، وقال: كان يوسف نبيّاً يلبس اقبية الديباج المزردة بالذهب، ويجلس على متَّكآت آل فرعون، ويحكم؛ إنما يراد من الإمام قسطه وعدله، إذا قال صدق، وإذا حكم

---

(١) الحميري / قرب الأسناد / ٢٢٢ + الراوندي / الخرائج والجرائج / ٢٣٧.

عدل، وإذا وعد أنجز، إن الله لم يحرّم لبوساً، ولا مطعماً، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[1][2].

وكان هؤلاء الصوفية قد أنكروا ما ليس بمستنكر، فبصَّرهم الإمام: أن الشكل الخارجي لا يعني بالضرورة التقاطع مع نقاء الضمير وطهر النفس، ولا منافاة بينه وبين عفة اليد واللسان، وقد غاب عنهم ما أجمع عليه مشاهدوه من القول: «كان جلوس الإمام الرضا في الصيف علىٰ حصير، وفي الشتاء علىٰ مسح، ولبسه الغليظ من الثياب، حتىٰ إذا برز للناس تزيّن لهم»[3].

وهنالك لقطات نادرة من اللمح التربوي لدىٰ الإمام، ينظر من خلالها إلىٰ أصل التشريع تارة، وإلىٰ جوهر النظام الإسلامي تارة أخرىٰ في لحاظ حقوق الإنسان، وهو ما تراه أعرق الأمم حضارة في تحرير الإنسان من الظلم الاجتماعي، والأخذ بيده إلىٰ ما فوق حقه الطبيعي، فعن سليمان بن جعفر الجعفري، قال: «كنتُ مع الرضا(عليه السلام) في بعض الحاجة، فأردت أن أنصرف إلىٰ منزلي، فقال لي: انصرف معي فبت عندي الليلة.

فانطلقت معه، فدخل إلىٰ داره مع المغيب، فنظر إلىٰ غلمانه يعملون. . وإذا معهم أسود ليس منهم.

فقال الإمام: ما هذا الرجل معكم؟

قالوا: يعاوننا، ونعطيه شيئاً.

قال الإمام: قاطعتموه علىٰ أجرته؟

قالوا: لا . . هو يرضىٰ منا بما نعطيه.

فأقبل عليهم يضربهم بالسوط، وغضب لذلك غضباً شديداً!!

---

(١) سورة الأعراف / ٣٢.

(٢) الأربلي / كشف الغمة ٣ / ١٠٣.

(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ١٧٨.

فقلت: جُعلتُ فداك، لِمَ تدخل على نفسك؟

فقال(ع): إني قد نهيتهم عن مثل هذا غير مرّة، وأن يعمل معهم أحد حتى يقاطعوه أجرته. واعلم انه ما من أحد يعمل لك شيئاً بغير مقاطعة، ثم زدته لذا الشيء ثلاثة أضعاف على أجرته، إلاّ ظن قد نقصته أجرته، وإذا قاطعته أجرته حمدك على الوفاء، فإن زدته حبّة عرف ذلك لك، ورأى أنك قد زدته»[1].

ويعقب الأستاذ محمد جواد فضل الله على ذلك بقوله:

«وفي هذا الحديث يشير الإمام إلى نقطة مهمة تتعلق بقانون العمل، يحتفظ بها كل من العامل وربّ العمل بحقه، وكثيراً ما تحدث المشاكسات والمنازعات حول تحديد الأجر المستحق للعامل - في صورة عدم التعاقد أولاً - بين العامل ورب العمل على أجر معلوم، وبالتحديد المتفق عليه للأجر يضمن كلٌّ منهما حقه على الآخر، دون أن يحصل هناك أي نزاع أو خلاف، ومع زيادة شيء على الأجر ولو كان زهيداً، يضع العامل تحت طائلة الامتنان والشكر»[2].



بعد رصد الظاهرة الأولى، نجد لدى الإمام ظاهرة متبرعمة تتمثل في إغاثة الملهوف وبرّ الفقراء وسخاء اليد، وليس جديداً في هذا ان نجد الإمام معنياً بتلبية حاجة الناس على كل الأصعدة، فشأنه بهذا شان آبائه الأبرار في إيثار ذوي الفاقة، وبرّ ذوي الاحتياج، والإحسان للضعفاء والفقراء، فقد جبلوا على هذا نفوساً وأيادي، وهم يستبقون إلى ذلك استباقاً، ويسارعون في فعل الخيرات كما أمر القرآن العظيم وتحدّث.

---

(١) الكليني / الكافي ٥ / ٢٨٨.

(٢) محمد جواد فضل الله / الإمام الرضا / تاريخ ودراسة / ٦١.

ويتجلىٰ كرم الإمام الرضا(عليه السلام) غامراً كندىٰ الفجر حينما ينعشُ الأزهار والورود، وكشعاع الشمس يجلل الكون بالبهاء والضياء، وكنسمة السَّحَرِ وهي تحيي النفوس وتشدّ القلوب، فقد أولىٰ الفقراء بالسخاء الفيّاض، وخصّ المحتاجين بالعطايا والهبات، تعلقاً بالإحسان الاجتماعي، وجبلّة في المعروف وصدقة السر خاصة، فهو فيما رقم المؤرخون: «كثير المعروف والصدقة في السر، وأكثر ذلك يكون في الليالي المظلمة»[1].

وذلك حينما يخلد الفقير إلىٰ فقره، وتلفه ظلمة الجوع والحرمان، وظلمة الليل البهيم، وظلمة الأمل الكاذب، وإذا بالإمام يخترق هذه الظلمات في حركة دائبة بهذا السكون الرهيب والهدوء الساجي، فيطلّ الأمل غير المتوقع في هذا الأفق الكئيب، وهو يحمل البرّ والبسمات والإشراق في همسات يد الإمام.

ومما تواتر ذكره أن الإمام(عليه السلام) «فرّق بخراسان ماله كلّه في يوم عرفة، فقال له الفضل بن سهل: إن هذا لمغرمٌ!!

فقال الإمام(عليه السلام): بل هو المغنم. لا تعدّنّ مغرماً ما ابتغيت به أجراً وكرماً»[2].

وكان هذا المورد من الكرم يتدفق بلطف وسماح، لا تكلف به ولا عناء، وينطلق بدافع ذاتي من خلال الإحساس الشاعر بما تتطلبه الفطرة من البرّ والإيثار وحبّ الخير، ومشاركة الناس في المال. فهذا عبد الله بن إبراهيم الغفاري، قد ألحّ عليه غريم في دين، فذهب إلىٰ الإمام الرضا(عليه السلام)، ودخل عليه، فإذا المائدة بين يديه، فقال: كلْ، فأكل، ورفعت المائدة فحادثه الإمام، وقال له: ارفع تحت ذلك المصلىٰ، فإذا هي ثلاثمائة دينار وتزيد..[3].

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٤ / ١٨٤.

(٢) ابن شهراشوب / المناقب ٣/٤٧٠.

(٣) المصدر نفسه ٣ / ٤٥.

ومن مخائل كرمه الجاري ما رواه اليسع بن حمزة، قال: «كنت في مجلس الرضا(عليه السلام) أحدثه... فدخل عليه رجل آدم طوال.. قائلاً: افتقدت نفقتي وما معي... قال الإمام: اجلس رحمك الله، وأقبل الإمام(عليه السلام) على الناس يحدثهم حتى تفرقوا، فدخل الإمام الحجرة، وبقي ساعة، ثم خرج وردّ الباب.. وأخرج يده من أعلى الباب، وقال: أين الخراساني؟

فقال: ها أنذا. فقال الإمام: خذ هذه المئتي دينار، واستعن بها في مؤونتك ونفقتك..»[1].

وأنت تشاهد الإمام في إيماءة كريمة قد احتجب عن سائله، لئلا يظهر ذلك السؤال على وجهه، ولئلا يختلط بالعمل الخالص غيره من الاعتبارات الزائلة، وينفرد بقصد القربة وحده.

والإمام في كرمه هذا، يصدر عن فلسفة فذة، قد تكون بعيدة عن الفهم الأولي في مجتمع البذل والعطاء، فهو يرى أن ما أولاه الله من النعم، ينبغي فيها المشاركة والإيثار، امعاناً في شكرها والشكر ملحظ عملي في ممارسة الإمام، فهو يقول لأحمد البزنطي: «إن صاحب النعمة على خطر، إنه يجب عليه حقوق الله تعالى فيها، والله إنه ليكون عليَّ النعم من الله عزَّ وجل، فما أزال منها على وجل - وحرك يده - حتى أخرج من الحقوق التي تجب عليَّ فيها.

قلت: جعلت فداك.. أنت في قدرك تخاف هذا؟

قال: نعم، فأحمد ربي على ما منَّ به عليَّ»[2].

«والإمام في حديثه هذا يشدّنا إلى حقيقة إنسانية رائعة، وهي أن العطاء ليس معروفاً يسديه الإنسان لسائله، وإنما هو شكر للمعروف الذي حباه به

---

(١) الكليني / الكافي ٤ / ٢٤.

(٢) الكليني / الكافي ٣ / ٥٠٢.

الله، فصاحب النعمة في خطر حتىٰ يخرج من الحقوق التي هي لله فيها، وأسلوب الإمام في العطاء ينطلق من هذه الزاوية الإنسانية»[1].

وانظر إلىٰ هذه البادرة في دلالتها الموحية فيما يرويه يعقوب بن إسحاق النوبختي قال:

«مرّ رجل بأبي الحسن الرضا(ﻋﻠﻴﻪ السلام) فقال له: أعطني علىٰ قدر مروءتك! فقال(ﻋﻠﻴﻪ السلام): لا يسعني ذلك.

فقال: علىٰ قدر مروءتي؛ قال الإمام: إذن فنعم، ثم قال: يا غلام أعطه مائتي دينار»[2].

ومروءة الإمام في إطارها العام قد لا تسعها الأموال الطائلة نظراً لمقامه الأسمىٰ الذي تتفرع عنه مروءته، وقد لا تتوفر لديه الأموال المناسبة لتغطية نفقات مروءته المتكاملة. أما مروءة السائل فيمكن مكافأتها بهذا القدر من المال.

ومن أمثلة تربيته الهادفة لولده الإمام محمد الجواد(ﻋﻠﻴﻪ السلام)، الإيحاء إليه بانتهاج سبيله في العطاء والبذل. يقول أحمد البزنطي: (قرأت كتاب أبي الحسن الرضا إلىٰ أبي جعفر:

يا أبا جعفر بلغني أن الموالي إذا ركبت أخرجوك من الباب الصغير، فإنما ذلك بخلٌ بهم، لئلا ينال منك أحدٌ خيراً فأسألك بحقي عليك: لا يكن مدخلك ومخرجك إلاّ من الباب الكبير، وإذا ركبت فليكن معك ذهب وفضة، ثم لا يسألك احدٌ إلاّ أعطيته، ومن سألك من عمومتك ان تبرّه، فلا تعطه اقلّ من خمسين ديناراً، والكثير إليك، ومن سألك من عمّاتك فلا تُعْطِها اقلّ من خمسة وعشرين ديناراً، والكثير إليك، إني أريد أن يرفعك الله، فأنفق ولا تخشَ من ذي العرش افتقاراً..»[3].

---

(١) محمد جواد فضل الله / الإمام الرضا / تاريخ ودراسة / ٥٥.

(٢) ابن شهر اشوب / المناقب ٣ / ٤٧٠.

(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ٨.

وسأل الريّان بن الصلت معمّر بن خلاّد أن يهب لـه الإمام الرضـا(عليه السلام) ثوباً من ثيابه، ويهب له من الدراهم التي ضربت باسمه، فدخل معمّر على الإمام، فابتدأه الإمام الرضـا(عليه السلام) بقولـه: «يا معمّر؛ لا يريد الريّـان أن نكسوه من ثيابنا أو نهب له من دراهمنا؟

قال: فقلتُ: يا سبحان الله؛ هذا كان قوله لي الساعة بالباب!!

قال: فضحك الإمام الرضا ثم قال: إن المؤمن موفق، قل له فليجئني.

يقول الريّان: فأدخلني عليه فسلمتُ، فردّ عليَّ السلام، ودعا لي بثوبين من ثيابه فدفعهما إلي، فلمَّا قمتُ وضع في يدي ثلاثين درهماً»[1].

والسائل هنا أراد التبرك بثياب الإمام التي مسّت جسده، فمنحه ثوبين، وأراد الاعتزاز بذكرى ضرب الدراهم باسمه الشريف لقيمتها المعنوية، فأعطاه ثلاثين درهماً.

وكانت تعليمات الإمام نابضة بالحرارة في موضوع البّر والسخاء، وهو يترصد ذلك فيما يوصي به أولياءه.

فعن الإمام الرضا(عليه السلام) أنه قال: «السخي يأكل من طعام الناس ليأكلوا من طعامه، والبخيل لا ياكل من طعام الناس لئلا يأكلوا من طعامه..»[2].

وعن الحسن الوشا، قال: سمعتُ أبا الحسن(عليه السلام) يقول: «السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار. والبخيل بعيد عن الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار»[3].

وقال الحسن الوشا أيضاً: وسمعته يقول: «السخاء شجرة في الجنة أغصانها في الدنيا، من تعلق بغصن من أغصانها دخل الجنة»[4].

---

(١) الحميري / قرب الإسناد / ١٩٨ + المجلسي / البحار ٤٩ / ٢٩.

(٢) الصدوق / عيون اخبار الرضا ٢ / ١٢.

(٣) الصدوق / عيون اخبار الرضا ٢ / ١٢.

(٤) الصدوق / عيون اخبار الرضا ٢ / ١٢.

ويعقّب الأستاذ محمد حسن آل ياسين على بوادر كرم الإمام وسخائه فيقول: «ولم يكن ذلك السخاء -كما يتصور- نابعاً من وفرة ما يصله من الأموال والوجوه الشرعية فقط، بل كان يضيف إليها ما يرده من غلاّت أمواله ومزارعه، ومنافع أملاكه الخاصة التي أشير إليها في بعض المصادر، ومنها ما كان بالعريض - وهو موضع من أرجاء المدينة فيه أصول نخل، وما كان بالحمراء - ولعلها حمراء الأسد التي كانت على ثمانية أميال من المدينة.

ونبّه ابن أبي الحديد، وهو يتحدث عن لبسه الصوف طوال عمره، على انه كان يفعل ذلك «مع سعة أمواله، وكثرة ضياعه وغلاته»[1]. تقرُّباً إلى الله تعالى، وزهداً في أناقة الملبس ونعمة العيش[2].

وكان هذا الاسترسال الجاري في كرم الإمام(عليه السلام) من الظواهر التي أراد بها وجه الله أولاً، والخروج من واجب شكره على نعمه ثانياً، والتنفيس عن كربات الشعب المحروم في ظل سلطان ولاة الجور والابتزاز.



(١) ابن ابي الحديد / شرح نهج البلاغة ١٥ / ٢٧٣.

(٢) محمد حسن آل ياسين / الإمام علي بن موسى الرضا / ٤٧.

الفصل الثاني

الإمام الرضا (عليه السلام) في قيادة رائدة

١ - التأريخ وقيادة الإمام(عليه السلام).

٢ - منهجية الإمام في العمق الاجتماعي.

٣ - النضال المتوازن في سياسة الإمام(عليه السلام).

٤ - الصلابة في المبدأ لدى الإمام(عليه السلام).

٥ - حياة الإنسان في قيادة الإمام(عليه السلام).

٦ - الإمام(عليه السلام) وردّة الواقفة.



التأريخ وقيادة الإمام:

وكان لابد لمكنون الأسرار أن يتراءىٰ، ولرتاج الأبواب المغلقة أن ينفتح. وللأحداث منطقها الصارخ في التوثيق، وقد تعرف حقيقتها بعد حين، وقد ينطق بها لسان الزمان لدىٰ انطلاقه، وقد لايتجاذبها غبار التضليل الأبدي، ولا يخترمها ليل النسيان المتعمد.

والتأريخ النقي الخالص يصنعه عقل العالم المجرد، ويدونه قلم الكاتب الموضوعي، وينشره تقييم المفكّر الحر، إذ ليس التأريخ النزيه ما يوحي بسيطرة السلاطين وأقزام الحكم، لا، ليس ذلك كذلك، فالتأريخ الصادق مجموعة من الاحداث المتناثرة يتبنىٰ جمع شتاتها قلم المؤرخ، وفكر المهندس، وعرق العامل، ودم الشهيد، ومال الواهب، وعطاء المناضل، وجهد العالم، وريشة الفنان، ويد المحارب، وخيال الأديب، وعقل الفيلسوف، وبذلك تخط بداية النهاية لأوضار الدجل السياسي، ولغة الحاكمين، وزيف الواقع المتحيّز، ويختفي في غياهب الظلام شبح الفكر المضادّ للحقائق كهنةً ودعاة وانتهازيين.

وقد يقال بأن هذا الاستقراء مثالي الأصول والفروع، وقد يكون كذلك حيناً، ولكنه لا يستمر في مثاليته ابد الآبدين، ولابد للأكاذيب الكبيرة التي شحنت بها مجلدات التأريخ الرسمي أن تبدو هزيلة مهلهلة، ولابد للأثر الصادق أن يتدفق ثراً - ولو تدريجياً - ليطوح بالمجد المفترىٰ، ولا لذوي النظر الموضوعي وهواة التغيير الجذري أن يقفوا من خلال البحث الرصين علىٰ تلك الحكايات والأساطير التي شوهت صفحة التاريخ، فيُقذَف بها وراء الجدران، ولابد للطوق الحديدي الذي ضرب حول تلك النزوات أن

ينكسر ويتلاشىٰ علىٰ مطرقة الحق فلولاً، وبذلك تنطوي عائدية العبث والاستغلال والتسبيح الكاذب بحمد السلاطين.

وفي هذا الضوء نستطيع إلغاء ذلك الامتياز الرسمي الذي قيّد الحرية العقلية بإخفائه أبراد القداسة المفتعله علىٰ مخلفات المتسلطين وشياطين العروش.

ومع وقوف تدوين التأريخ ضد مسيرة أهل البيت جملة وتفصيلاً، إلا أننا نلمس انسيابية بعض الأفكار الجريئة، وهي تزخر بشذرات نادرة من المخزون الثقافي والحضاري والفكري لأهل البيت، وتكشف عن نفائسه المدّخرة، بقدر ما يسمح به التمرد علىٰ قانون التأريخ العام في ذيليته للسلطة والحاكمين، ومع هذا كله تسرب هذا الضوء المحدود في استبانة الملامح العامة لفكر أهل البيت(عليهم السلام)، وما غيّب عنّا كان هو الأكثر بطبيعة الحال، ولدىٰ تعاملنا المعرفي مع هذا المتبقي الشامخ رايناه شيئاً ذا بالٍ لاستدراجه توثيق تلك اللقطات اللامعة التي لا تخبو، وهي تغالب حركة التدوين لآثار أهل البيت بعامة بكثير من الغموض والهدر التأريخي، وإن برز من بين هذين ما ملأ الخافقين، بحيث كان جديراً بالاهتمام الاستطلاعي بما أفاض به لفيف من قادة الفكر الغابر والمعاصر في إضمامة عطرة لموروث الإمام الرضا(عليه السلام) في التأثير بحياة الوعي النابض بالعرفان والتقييم المنطقي، وهو لوحة رسمت مراغمة للتأريخ الرسمي، ولكنها تعبير التأريخ الواقعي الرصين.

وأول ما يفجؤنا استكناه أبيه الإمام موسىٰ بن جعفر(عليه السلام) لكيان ولده الرفيع فيما لا يحصىٰ، إلا أننا نضع أيدينا علىٰ جملة منها:

١ - قال الإمام موسىٰ بن جعفر(عليه السلام): «ابني عليٌّ أكبر ولدي، وآثرهم عندي، وأحبهم إليَّ»[(١)].

---

(١) الأربلي / كشف الغمة ٣ / ٦٤.

٢ – «هذا ابني، كتابه كتابي، وكلامه كلامي، ورسوله رسولي، وما قال فالقول قوله»[١].

٣ – «إن علياً ابني ووصيي، والحجّة على الناس بعدي، وهو أفضل ولدي..»[٢].

٤ – وعن منصور بن يونس، عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)، قال: «يا منصور، أما علمتَ ما أحدثتُ في يومي هذا؟

قلت: لا، قال: قد صيرت علياً ابني وصيي، والخلف من بعدي، فادخل عليه وهنئه بذلك، وأعلمه أني أمرتك بهذا»[٣].

٥ – وقال الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) متحدثاً عن منزلة ولده العلمية: «هذا أخوكم علي بن موسى؛ عالم آل محمد، فاسألوه عن أديانكم، واحفظوا ما يقول لكم، فإني سمعت أبي جعفر بن محمد (عليه السلام) غير مرة، يقول لي: إن عالم آل محمد لفي صلبك، وليتني أدركه، فإنه سمي أمير المؤمنين علي (عليه السلام)»[٤].

وترشيح الإمام الكاظم لولده الرضا، وثناؤه العاطر عليه، لا ينطلق عاطفياً على الإطلاق، بل هو خالص من الشوائب، إذ قد يشاركه غيره من الأبناء في العاطفة، ولكنه دون إخوته من أبناء الإمام (عليه السلام) مختصٌ بالفضل والعلم والإمامة، والعاطفة والإمامة أمران متغايران.

والطريف في الأمر أن نشاهد المأمون يرى للإمام هذه المنزلة، سواء أكانت رؤيته صادقة أم يخالجها شيء من البعد السياسي، ولكنه على أية

---

(١) الأربلي / كشف الغمة ٣ / ٦٤.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٢٦.

(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٢٢.

(٤) المجلسي / بحار الأنوار ٤٩ / ١٠٠.

حالٍ: اعتراف بمنزلة الإمام، يقول المأمون: «ما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل - يعني الرضا - على وجه الأرض»[1].

وفي إقرار آخر، قال المأمون عن الرضا(عليه السلام):

«هذا خير أهل الأرض، وأعلمهم، وأعبدهم»[2].

وفي هذا الإقرار لمحٌ مبين بانه الإمام المفترض الطاعة باعتباره خير أهل الأرض، ولا يكون خير أهل الأرض إلاّ الإمام.

وكان بنو هاشم قد قال قائلهم: «إن المأمون قد استبصر في بيعته للإمام الرضا(عليه السلام)» فأجاب المأمون: «وأمّا ما ذكر تم من استبصار المأمون في البيعة لأبي الحسن الرضا(عليه السلام)، فما بايع المأمون إلا مستبصراً في أمره، عالماً بأنه لم يبقَ احد على ظهرها أبين فضلاً، ولا أظهر عفةً، ولا أروع ورعاً، ولا ازهد زهداً في الدنيا، ولا أطلق نفساً، ولا أرضى في الخاصة والعامة، ولا أشدّ في ذات الله منه...»[3].

وبعد هذا النصّ لا يسعني إلاّ أن أتمثل بقول الشاعر:

وإذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طويت ... أتاحَ لها لسانَ حسودِ

وقال معاصره ابو الصلت الهروي:

«ما رايت أعلم من علي بن موسى الرضا(عليه السلام)، ولا رآه عالمٌ إلا شهد له بمثل شهادتي، ولقد جمع المأمون في مجالس له ذوات عدد علماء الأديان، وفقهاء الشريعة والمتكلمين، فغلبهم عن آخرهم، حتى ما بقي أحد منهم إلاّ أقرَّ له بالفضل، وأقرَّ على نفسه بالقصور»[4].

---

(١) محسن الحسيني العاملي / أعيان الشيعة ٤ / ق ٣ / ١٣٣.
(٢) الصدوق / عيون الأخبار الرضا ٢ / ١٨٣.
(٣) المجلسي / بحار الأنوار ٤٩ / ٢١١.
(٤) المجلسي / بحار الأنوار ٤٠ / ١٠٠.

وهذا التقرير لا تزلف به ولا محاباة، لأنه تقرير حسٍّ ومشاهدة، وتقييم واقع معاصر قائم على العيان والإدراك الفعلي.

وإذا استرسلنا مع التأريخ في لسانه الناطق نجد العلماء والفقهاء والمحدثين وكتّاب السِّير والمؤرخين يتحدثون عن الإمام(عليه السلام) بلغة تنبيء عن فضله ومعارفه وموسوعيته.

يقول الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري (ت ٤١٣هـ): (وكان الإمام القائم بعد أبي الحسن موسى بن جعفر(عليهما السلام)، ابنه أبا الحسن علي بن موسى الرضا(عليهما السلام)، لفضله على جماعة أخوته، وأهل بيته، وظهور علمه وحلمه وورعه، واجتماع الخاصة والعامة على ذلك فيه، ومعرفتهم به منه، ولنصّ أبيه(عليه السلام) على إمامته من بعده، وإشارته إليه بذلك دون جماعة أخوته وأهل بيته»[١].

وقال ابن حجر: «كان الإمام الرضا من أهل العلم والفضل مع شرف النسب»[٢]. وكان ابن حجر بهذا الايجاز يغتصب نفسه اغتصاباً في التحدث عن الإمام.

ولم يكن الجاحظ ذا ميل لأهل البيت، وهو معاصر للإمام(عليه السلام)، ومن المطلعين على منزلته وامتيازه، وقد عدّه أحد العشرة الذين: «كل واحد منهم: عالم، زاهد، ناسك، شجاع، جواد، طاهر، زاكٍ، والذين هم بين خليفة أو مرشحّ لها»[٣].

وعدّه ابن تغري بردي: «سيد بني هاشم في زمانه، وأجلّهم، وكان المأمون يعظمه، ويجلّه، ويخضع له، ويتفانى فيه»[٤].

---

(١) المفيد / الإرشاد / ٣٤١.

(٢) ابن حجر / تهذيب التهذيب ٧ / ٣٨٩.

(٣) جعفر مرتضى / حياة الرضا / ١٤٧ نقلاً عن آثار الجاحظ / ٢٣٥.

(٤) ابن تغري بردي / النجوم الزاهرة ٢ / ٧٤.

ويكفي في هذا الملحظ ما أشار إليه المأمون في كتاب العهد الذي خطّه بيده، في العلة التي أوجبت ذلك، قال: «لما رأىٰ من فضله البارع، وعلمه الناصع، وورعه الظاهر، وزهده الخالص، وتخلّيه من الدنيا، وتسلمه من الناس؛ وقد استبان له ما لم تزل الأخبار عليه متوطنة، والألسن عليه متفقة، والكلمة فيه جامعة، ولمّا لم يزل يعرفه من الفضل يافعاً، وناشئاً، وحدثاً، ومكتهلاً...»[1].

وقال اليافعي متحدثاً عن منزلة الإمام(عليه السلام): «الإمام الجليل المعظم، وسلالة السادة الأكارم علي بن موسىٰ الكاظم، أحد الأئمة الاثني عشر، أولي المناقب الذين انتسبت الإمامية اليهم، وقصروا بناء مذهبهم عليهم»[2].

وقال سبط ابن الجوزي:

«كان علي بن موسىٰ - كما سمي - رضاً، جواداً، عدلاً، عابداً، مُعرِضاً عن الدنيا، ولولا خوفه من المأمون لما أجاب إلىٰ ولاية العهد»[3]. وهذا باب متسّع لا يحيط بمثله هذا التلميح.

فإذا غادرنا ذلك إلىٰ العلماء المعاصرين، اقتبسنا ألقاً لامعاً، يشير إلىٰ خصائص الإمام ومثله العليا بتعبير موجز يغني عن الإطناب.

يقول السيد هاشم معروف الحسني رحمه الله: «وامتاز الإمام الرضا(عليه السلام): بخلق رائع ساعده أن يجتذب بحبه العامة والخاصة، استمدّه من روح الرسالة التي كان من حفظتها والأمناء عليها، والوارثين لها»[4].

وقال الأستاذ عبد المتعال الصعيدي: (كان - يعني الإمام الرضا(عليه السلام) - علىٰ جانب عظيم من العلم والورع.

---

(١) الأربلّي / كشف الغمّة ٣ / ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) اليافعي / مرآة الجنان ٢ / ١١.

(٣) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام علي بن موسى الرضا ١ / ٦٤.

(٤) هاشم معروف الحسني / سيرة الأئمة الأثني عشر ٢ / ٣٥٩.

وقد قيل لأبي نؤاس :

فعلام تركت مدح بن موسىٰ　　　والخصال التي تجمّعن فيهِ

قلت : لا أستطيع مدح إمام　　　كان جبريل خادماً لأبيهِ

والله ما تركت ذلك إلاّ إعظاماً له ، وليس يقدر مثلي أن يقول في مثله»[1] .

واعتبر الأستاذ محمد حسن آل ياسين الإمام الرضا(عليه السلام) : «فرع شجرة النبوة ، ودوحة الرسالة ، وربيب مختلف الملائكة وموضع التنزيل ، وزبدة معدن العلم وأهل بيت الوحي .

ولن تستطيع مصطلحات أهل الدنيا في مجموع ما تدل عليه من فخامة ، وضخامة وسمو أن تصل إلىٰ عشر معشار هذا الشرف الأصيل والمجد الأثيل ، والإشراق الزاهر الباهر»[2] .

وقال عن إمامته الشرعية :

«واتجهت كلّ آراء طالبي المعرفة ، وأنظار الباحثين عن الحقيقة - بعد الفحص والتبيُّن والتدقيق - نحو الإقرار بعلي بن موسىٰ الرضا إماماً شرعياً واجب الاتِّباع ، ومفترض الطاعة علىٰ جميع أهل الدين ، تطبيقاً للقواعد المأثورة المتفق عليها لدىٰ المسلمين في اختيار الإمام وانتقائه ، بالنصّ كما يؤمن فريق منهم ، أو باجتماع الصفات كما يرىٰ فريق آخر»[3] .

اما الأستاذ باقر شريف القرشي ، فقد اعتبر الإمام الرضا(عليه السلام) : (ملتقىٰ الفضيلة بجميع ابعادها وصورها ، فلم تبقَ صفة شريفة يسمو بها الإنسان

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام علي بن موسى الرضا ١ /٦٢ وانظر مصدره.

(٢) محمد حسن آل ياسين / الإمام علي بن موسى الرضا / ١٦.

(٣) محمد حسن آل ياسين / المرجع نفسه / ٢٧.

إلا وهي من ذاتياته ونزعاته، فقد وهبه الله - كما وهب آباءه العظام - كل مكرمة، وحباه بكل شرف، وجعله عَلَمَاً لأمة جدّه، يهتدي به الحائر، ويرشد به الضال، وتستنير به العقول»[1].

واعتبر الشيء البارز في شخصية الإمام الرضا: «إحاطته التامة بجميع أنواع العلوم والمعارف, فقد كان بإجماع المؤرخين والرواة: أعلم أهل زمانه، وأفضلهم، وأدراهم بأحكام الدين، والفلسفة، والطب، وغيرها من سائر العلوم»[2].

ويقول الأستاذ محمد جواد فضل الله: «الإمام الرضا قاعدة من قواعد الفكر الإسلامي، وأحد منطلقاتها الغنية بالمعرفة، انتهت إليه بعد أبيه الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) أسرار الرسالة ومفاتيح كنوزها، فكان منهله منها، وعطاؤه من فيضها.

وهو أحد الأئمة الاثني عشر من أهل البيت الذين أغنوا الفكر الإسلامي بشتى صنوف المعرفة، مما أملوه على تلامذتهم، أو أجابوا به من سألهم، أو ما نقله التأريخ من محاوراتهم العلمية والعقائدية مع أصحاب المذاهب الأخرى»[3].

وهنا نشير أن الأستاذ باقر شريف القرشي قد أورد آراء خمسة وثلاثين باحثاً، وعالماً، ومفكراً، وأديباً، تحدثوا عن الإمام(عليه السلام)[4].

ولعل من جماع القول أن نختم هذا المبحث بما قرّر الأستاذ محمد حسن آل ياسين: قال: (وقد أجمعت كلمة مؤرخي الإمام الرضا(عليه السلام) وكتّاب سيرته على أنه استقى علومه ونهل معارفه من علم أبيه الإمام

---

(١) باقر شريف القرشي / حياة الإمام علي بن موسى الرضا ١ / ٣١.

(٢) باقر شريف القرشي / حياة الإمام علي بن موسى الرضا ١ / ٣٧.

(٣) محمد جواد فضل الله / الإمام الرضا - تاريخ ودراسة / ١٥.

(٤) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام علي بن موسى الرضا / ١٥.

الكاظم(عليه السلام) . . . . وعلى كونه مجمع علم آل محمد الذين خصّهم الله بكرائم خاصته، وآتاهم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين.

ويكفينا في معرفة مقام الإمام الرضا(عليه السلام) في العلم والفضل أن نستعيد في الذاكرة شهادات الحفاظ، واعترافات الأعلام بأنه: «كان من العلم والدين والسؤدد بمكان» وأنه الذي (أفتى وهو شاب في أيام مالك). وأنه «كان يفتي بمسجد رسول الله(صلى الله عليه وآله) وهو ابن نيف وعشرين سنة».

وقد اشتهر ذلك عنه وشاع خبره في أوساط علماء الفقه ورجال الحديث، لا في المدينة المنورة وحدها، بل في جميع مراكز العلم والحديث في العالم الإسلامي»[1].

ونلخص مما تقدم أن الإمام مرشح القيادة تأريخياً، وأن إرهاصات قيادته جاءت بلسان التأريخ بكثير من الضغط، ولكن حقيقة ذلك اخترقت الآفاق.

منهجية الإمام الرضا في العمق الاجتماعي:

وكان الإمام الرضا(عليه السلام) في تكوينه النفسي الرقيق، ضميراً نقيّاً خالصاً، وكان في تصميمه الإرادي قلباً قويّاً نفاذاً، وهو بين هذا الضمير الطاهر وذلك القلب النابض، يتحسس العزم والإخلاص والإيمان العميق، وقد تهيأ له المناخ العقلي الوقّاد يمدّه بطاقات هائلة من الوعي والإشراق، فوضح بين يديه الطريق، وتجلّى له الحق المبين، فاتخذهما منهجاً مهيعاً في العفة والاستقامة والصلاح، وكانت تجربته المثلى في رحاب أبيه(عليه السلام)، وفي مدينة جدّه(صلى الله عليه وآله)، ومنها أطلّ على العالم الخارجي بصورة نموذجية للمسلم

(١) محمد حسن آل ياسين / الإمام علي بن موسى الرضا / ٩٨ - ٩٩ وانظر مصادره.

الأرقىٰ في الاتجاهات الإنسانية جمعاء، فعاد مثقل القلب بهموم الأمة ومشكلات العصر، يتقاسمه التفكير الممض بين واجبات الإمامة ومسؤولية الرسالة من وجه، وبين النوازل العائمة التي تلقي بكلكلها علىٰ كاهل الناس فرادىٰ ومجتمعين.

فهو يلاحظ كيان الإسلام وقد انحرف به الحاكمون الرسميون، وهو مرهف الحس بمعاناة الشعب المسلم في حياة متعثرة واهنة.

وكان موقف الإمام دقيقاً للغاية، وعليه مواجهة الأحداث في منظور متوازن لا إفراط به ولا تفريض، ولم يكن له خيار إلاّ الدفاع قدر المستطاع دون الهجوم الصارخ الذي قد يؤدي إلىٰ نتائج سلبية، فهو يريد للأمة أن تنعم بحياة أفضل، وأن يتمتع الجيل الحالم بالخلاص بمستقبل مطمئن، ويريد للإسلام انتشاراً وازدهاراً واقعيين، دون زيغ السلطات وعبث الولاة، فجنّد طاقاته العملاقة لتحقيق هذين الهدفين الملحّين، فأعد العدّة البالغة في الهدىٰ والتوجيه والتعليم، وجرّد من نفسه مثالاً للسعي الحثيث، فحاضر وناظر وحاور، والتقىٰ الناس صغاراً وكباراً، وخاض غمار الأحداث في الصميم، حتىٰ اعذر فيما بينه وبين الله تعالىٰ، وأعذر فيما بينه وبين الناس، وأعذر فيما بينه وبين نفسه.

وكان لابد لهذا الإصرار من الإمتداد في رواقه الوارف إلىٰ أعماق الأمة ومشاعر الناس وافئدة الحالمين، يسكّن من اضطرابها، ويخفف من آلامها، وهذا ما أحيا روح المقاومة الإيجابية، فكان بديلاً من اليأس والذعر والاستسلام المشين.

وكان لابد للسلطان ان ينظر الإمام في موكب الرفض لانحداره السياسي، وأن يعدّه في عداد المعارضة لمشروعه في الاستغلال والأثرة وإرهاق الأمة، فكان يحذره كل الحذر، ويضيّق عليه اشدّ التضييق، إلا أن الإمام في مواهبه وعبقرياته لم يتح للحاكم الغاشم اية ثغرة ينفذ إليه من

خلالها، فهو يقظ حذر متحفّز، يتكئ في ممارساته القيادية على الوعي الأخلاقي الهادئ، بعيداً عن الصخب والتردد في المتاهة، فكان المقياس النوعي لشجب المفارقات التي تقترف باسم الإسلام، وهي لا تمت إلى الإسلام بصلة على مستوى النظرية ومستوى التطبيق، لأنها تنحدر من أهواء السلطان وهواياته في الضغط ومصلحة الحكم والاستغلال.

وكان منهج الإمام واضحاً لا لبس فيه: الإخلاص في الدعوة إلى الله والدين الحق، والثقة بالنفس في شق الطريق نحو المثل العليا، الثبات في إنقاذ الناس من الهوة، والإيثار في متابعة المستضعفين بالإمداد المادي والمعنوي، وأخيراً الإيمان الراسخ بالمبادئ الأساسية التي شرّعها الإسلام، والعمل من أجل بعثها وإحيائها عملياً. وهذه - كما ترى - مفردات ضخمة تتطلب جهداً مضاعفاً ونضالاً متواصلاً وأرضية صالحة، وهو ما يثير غضب السلطان وسخطه، ويزيد من مخاوفه وشكوكه، لأنه يعلم أن هذا النوع من الإيمان والعمل يرتبطان بقوة غيبية لا يستطيع مقاومتها من جهة، ولا يستطيع الصبر عليها من جهة أخرى، وهو يعرف جيداً أن الإمام(عليه السلام) يعرف سبيله إلى الله، وسبيله إلى الشعب، وسبيله إلى نبضات القلوب. وهو يدرك يقيناً بالنصر الإلهي المؤزر لمبادئ الإمام، وأن الإمام ذو ثقة عالية بما يحققه من نصر مستقبلي يعجز عن تحقيقه رجال الحكم وأتباع السلطان، وأن للحق صولة تقهر القوة المفتعلة في المال والجاه والأجهزة العاملة والمترقبة والمترصدة، إذن، لا بد مما ليس منه بدٌّ؛ ولا لغة إلاّ بالقوة والانتفاخ والغطرسة، ولا منطق إلا بالقهر والقمع والاستئثار.

ومع هذا كله، فقد لاحظ الحكم عن كثب، أن شخصيةً غنيةً بعناصر الوعي والمعرفة والتخطيط الرسالي تسيطر على الأفق بلسان لا يفتر عن ذكر الله، وجَنان لم يتعلق بحبل سوى الله، يستمد بهما العون دون هياج أو

ضجيج، فيقع ذلك من السلطان موقع عزيف الجن في ظلمات الليل، وموقع الزوابع العاتية وهي تسوق سحاباً ثقيلاً فيه رعد، وبرق، وصواعق، فيطوّح هذا الجو المفزع بتلك الأحلام الفجّة التي لا تعرف إلاّ لهَبَ السياط، ولا تأنس إلا بأنين المعذبين، ولا تألف إلا صوت الحزن والعويل والاستغاثة التي تنطلق من زنزانات السجون وأقبية المعتقلات الرهيبة: ظلم اجتماعي سافر، وتسلط همجي صفيق، وتعسّف لا يعرف الرأفة أو الرحمة، وقد كان صدىٰ هذا التردد السحيق يرجِّع نحيبه وشكواه في مسمع الأجيال، متقطعاً حيناً ومتوالياً حيناً، وكان الحكم في غيهب بهيم، ورجاله في سبات ابدي، والحياة متوترة الأعصاب، والآفاق شاحبة الأسارير، والشعب في صدور متلهفة للخلاص!!

وليس هذا وحده هو المناخ السائد، ولكنها الكوابيس المتناثرة هنا وهناك، والهواجس المفزعة من وراء القضبان الحديدية، والأحكام العرفية في عقوبات ما أنزل الله بها من سلطان، وقطع الأعناق ومنع الأرزاق، والتعالي والجبروت والاستفزاز، وهي جميعاً، ثقيلة الوقع، شديدة الأثر، سيئة القالة، كصراخ في الصحراء، ونعيب بومٍ في الخرائب، وهي تهاويل تسيطر تماماً علىٰ مسيرة الكائن البشري في العصر العباسي، وتختفي في ظلالها نبضات الخلايا الحيّة للإنسانية المستعبدة.

وتبقىٰ الأفئدة تخفق وتضطرب، ولا جديد تحت أديم السماء، والأرض لا تنفكّ من الدوران حول نفسها وحول الشمس، وهكذا لعبة الحاكمين في استمرارية وحركة وانتظام، وتتلاشىٰ حياة الإنسان بين زعيق الغيلان وسيطرة العفاريت، فلا تطمح بمعجزة تفجّر الأوضاع بالتغيير، ولا تصبو إلىٰ حالة تعمر بالدعة والاستقرار، ويريك الزمن بانقباضه القاتل ما ينطوي عليه الضمير الإنساني من الهول والذهول، ولكنه يستقبل ذلك

كله، راضياً أو ساخطاً، جاداً أو هازلاً، فهو أمرٌ لا مفرّ منه لأنه مغلوب على أمره، وهو الشبح المجهول الذي تتراءىٰ من خلاله أدوار الحيرة والذلّ والإذعان.

وكان هذا وحده حرياً بإحداث الغضب الجماعي كجمرة يكسوها الرماد، فهي هامدة ريثما تتوقد من جديد.

وكان الإمام الرضا(عليه السلام) يعايش هذا المعترك المرير، ويرقبه بأناة ورويّة، فالخطوات الجماهيرية لم تزل مترددةً بين الإقدام والإحجام، والأفكار حائرة بين الانطلاق والجمود، وإذا بالإمام يعيد لها الثقة بالنفس حيناً، ويشعرها بعزّتها وكرامتها حيناً آخر، وهو يحاول اجتثاث الوهم العالق في الأذهان، والجبن المحدق بالنفوس، والهلع المسيطر علىٰ المشاعر.

وكان توجيه الإمام مرناً لا عسر فيه، وواضحاً لا غموض به، فهو يغوص في العمق الاجتماعي بعفوية سمحة، ويخترق الحواجز بفطرة نقيّة، تتبنىٰ السير الهادئ في منهجية تنبع من أعماق الإسلام، وتستمد وحيها من رسالة السماء.

ولكن من أين يبدأ الإمام؟ ولابد من خطوة أولية نحو العمل الرائد، وإذا به يبدأ هذه المبادرة كما هو المتوقع قيادياً، بالإشارة بل التصريح إلىٰ المبدأ الأساس في الاستقامة والمصير والوعي المتبادل، وإذا به يقول لأحد أصحابه: «يا ابن أبي محمود، إذا أخذ الناس يميناً وشمالاً فالزم طريقتنا، فإنه من لزمنا لزمناه، ومن فارقنا فارقناه»[1].

وهنا تبدو حقائق الأشياء ويتضح السبيل باتباع منهج أهل البيت(عليهم السلام)، وهو نتيجة طبيعية للمقدمة الكبرىٰ بإرادة الاستقامة، فالاستقامة الحقّة هي التي تقود إلىٰ هذه النتيجة، وهذه النتيجة وحدها هي سبيل الاستقامة.

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٣٠٤.

وهذا المنهج هو السبيل الوحيد الذي يؤمن عثاره، والإمام يستمد الاستدلال عليه في هذا المجال، بالكثير من الدلائل القرآن في آياته، وهنا يشير إلى آية الأمانة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها**﴾[1] فرأى الإمام أن الأمانة هي الولاية الإلهية، من ادّعاها بغير حق فقد كفر[2]. ولا يكتفي الإمام الرضا في منهجية الاستدلال هذه بالقرآن الكريم وحده، وإنما يضيف إليه السنّة الشريفة فيما يرويه عن رسول الله(ﷺ) في قوله لأمير المؤمنين الإمام علي(ع): «... وأنتَ أول من يجوز الصراط معي، وإن ربي عز وجلّ أقسم بعزته أن لا يجوز عقبة الصراط إلاّ من معه براءة بولايتك وولاية الأئمة من ولدك..»[3].

وهنا نضع أيدينا على السر الكبير الذي حدبت السلطات الجائرة على كتمانه، وعدم إذاعته، وإحاطته بالسرّية التامّة، ولكنه انطلق كالبرق، وانفجر كالبركان ليملأ الخافقين صوتاً وصدى وتأثيراً، إنه الولاية العامة لأهل البيت(ع). وهنا تفترق النزعات في صراع شديد بين الحق والباطل، فتقبع أنظمة الجور والاستبداد على باطلها لأنه هو الذي يبيح لها حكم الناس، ووقف الحق - في اقليّة واعية - مشرئباً شامخاً في تأكيده على إحياء أمر الأئمة(ع)، والغاء ما عداه من الدعوات الفجّة الكاذبة، وما الإحياء إلا بتبليغ ذلك الصوت المرنان لأئمة أهل البيت في علمهم وهديهم وإضاءتهم في دعوة خالصة ذات عمق دلالي، والإمام الرضا يتبنى هذا المنحى في أبرز مصاديقه، وأقرب الطرق الموصلة إليه، بقوله لأبي الصلت الهروي: «رحم الله عبداً أحيا أمرنا».

---

(١) سورة الأحزاب / ٧٢.

(٢) ظ: الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ٣٠٦.

(٣) المصدر نفسه ١ / ٣٠٤.

فقال له أبو الصلت: وكيف يحيي أمركم؟

قال الإمام: «يتعلم علومنا ويعلمها الناس، فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا»[1].

فهل ترىٰ الإمام إلاّ واثقاً بما يقول؟ حينما يدعو إلىٰ تعلم علوم أهل البيت(عليهم السلام)، وتعليم الناس لها.

ولا يقف الإمام عند هذا حتىٰ يعقّب علىٰ ذلك نتائج هذا التعليم. وهو هداية الناس باتباعهم الأئمة.

وكانت هذه هي الخطوة الأساسية الأولىٰ في الطريق الطويل، الادرّاع بالعلم من موارده التي لا تنضب.

والإمام يدعو إلىٰ إحياء هذا الذكر، ويؤكد علىٰ عقد الأندية والمجالس في هذا الشأن فيقول: «. . . ومن جلس مجلساً يحيي فيه أمرنا، لم يمت قلبه يوم تموت القلوب. . »[2].

وفي هذا الضوء نجد الإمام(عليه السلام) في استيعابه للبعد الاجتماعي يؤكد مبدأ الإمامة بعامة، ويشير إلىٰ إمامته بخاصة، في ثلاثة نصوص:

١ - عن محمد بن الفضل، وهو يسأل الإمام الرضا(عليه السلام): «تكون الأرض ولا إمام فيها؟

فقال(عليه السلام): لا، إذنْ لساخت بأهلها»[3].

٢ - عن الحسن بن علي الوشا، قال: «قلت لأبي الحسن الرضا(عليه السلام): هل تبقىٰ الأرض بغير إمام؟

فقال الإمام: لا.

فقلت: فإننا نروي: أنها لا تبقىٰ إلا أن يسخط الله علىٰ العباد.

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ /٣٠٧.

(٢) المصدر نفسه ١ / ٢٩٤.

(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٢٧٢.

فقال(عليه السلام)، لا تبقىٰ، إذنْ لساخت»[1].

٣ - وعن جعفر بن سليمان الحميري، قال:

«سألت الإمام الرضا(عليه السلام)، فقلت: تخلو الأرض من حجّة؟

فقال(عليه السلام): لو خلت الأرض طرفة عين من حجّة لساخت بأهلها»[2].

هذه الروايات الثلاث متقاربة في اللفظ والمعنىٰ. وواحدة في الدلالة.

ولم يكن الإمام(عليه السلام) ليتحدث عن هذا الأمر، دون التصدّي له، باعتباره معنيّاً به، ومعداً إعداداً خاصاً للاضطلاع بمهمته ومسؤوليته، ولهذا نعتبر ما أورده ابن حجر وسواه أصلاً تاريخياً في هذا الملحظ بالذات.

يقول ابن حجر عن الإمام الرضا(عليه السلام):

«كان يفتي في مسجد رسول الله(صلى الله عليه وآله) وهو ابن نيف وعشرين سنة»[3].

وكذلك تأكيد الذهبي بقوله: «إن الإمام الرضا(عليه السلام) أفتىٰ، وهو شابٌّ أيام مالك»[4].

وهذا التفرغ للإفتاء في أول الشباب يتفرع من هذه المنهجية التي اختطها الإمام في الولوج إلىٰ العمق الاجتماعي، إذ الافتاء بالمدينة - آنذاك - مقتصر علىٰ طبقة الشيوخ من التابعين وتابعي التابعين، ومن قاربهم بالأعمار.

لقد حقق الإمام بهذه المنهجية: الولاية العامة لأهل البيت، معرفة وتعلم علوم أهل البيت، التأكيد علىٰ منصب الإمامة له وللأئمة المعصومين، حقق الغوص إلىٰ العمق الاجتماعي بإرساء هذه المبادئ لتكون القاعدة الصلبة التي تبني عليها أصول العمل للإسلام، وسنّ سبيل الهداية للأمّة.

---

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ٢٧٢.

(٢) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ٢٧٢.

(٣) ابن حجر / تهذيب التهذيب ٧ / ٣٨٧ / طبعة الهند / ١٣٢٦هـ.

(٤) الذهبي / سير اعلام النبلاء ٩ / ٣٨٧.

النضال المتوازن في سياسة الإمام:

ليس جديداً على الإمام الرضا(عليه السلام) أن يسلك سياسة النضال المتوازن حينما رآها هي الأصلح في الحفاظ على البقية الباقية من شعائر الإسلام، وهي الأولى بالاتبّاع للإبقاء على شيعته وأوليائه، فقد سبق لأئمة أهل البيت(عليهم السلام) اتخاذ هذه السياسة سبيلاً في الوقت الذي لمحّوا فيه بل صرّحوا عن إنحراف بني أمية وبني العباس عن النهج الإسلامي، وابتعادهم عن حظيرة الدين، وإيغالهم بالفساد الإداري والإذلال الجماعي لشرائح الشعب المختلفة، عدا الظالعين بركابهم، من علماء السوء ووعاظ السلاطين والخونة والانتهازيين.

وحينما اصطدم أهل البيت بسياسة الإرهاب الدموي التي شرّعها الطغاة، كان عليهم إمّا التفريط بأتباعهم وأصحابهم وأوليائهم، وهم من الاستضعاف بمكان، وإما الإعراض وعدم الاعتراف بالأنظمة السائدة، ورفض التعاون معها.

وكان الفرض الأول يعني الكفاح المسلّح، ولم تتهيأ أسبابه للأئمة باستثناء أمير المؤمنين وسيد الشهداء(عليهما السلام) في كل من الجمل وصفين والنهروان وكربلاء، وخوض اية معركة لا تحرز النصر آنياً او مستقبلياً يعني التضحية دون مسوّغ شرعي.

ولم يكن الإمام الرضا(عليه السلام) مضطراً إلى هذا الغرض لعدم توفّر أسبابه ودواعيه، فليس هناك من القوة القتالية في العدّة والعدد ما يرجح عنده العنف الثوري أو التغيير في ظل السلاح.

في هذه الحالة لم يبق إلا رفض التعاون مع الحكم، والابتعاد عن الإدارة وتصريف شؤون الدولة. وليس في هذا المنظور ما يضير قيادة الإمام، وليست إمامته مرتبطة في تسلم السلطة أو رفضها، في تقمص الخلافة أو خلعها، فهو إمام مفترض الطاعة حَكَمَ أو لم يَحْكُم.

وليس التعامل مع الظالمين إيجابياً، ولا الانخراط في صفوفهم، أو العمل في دواوينهم إلاّ الاعتراف بشرعية الحكم، وليس لدىٰ الإمام ما يبرر هذا اللون من الممارسة السياسية كلاً أو جزءاً، سيما وأن الحكم لا يتمتع بأية صنعة تؤهله لقيادة الأمة سياسياً وإدارياً ودينياً واجتماعياً، فقد كان الانحراف الكبير عن مبادئ الإسلام وتعليمات السماء لائحَ السِمات، وكانت الأثرة المفرطة واهتضام الحقوق كثيرة الفجوات، وكانت المظالم تسفع بسياطها الجباه والظهور، وكان الانفعال اللامعقول مما يمتاز به السلطان العباسي، فيدفعه إلىٰ ابتكار العقوبة واختراع الجناية، ولا يصدُّه عن ذلك مبدأ ولا نظام ولا عقل، وكانت القسوة الضارية صفة بارزة في هذا المنحنىٰ الخطير، كيفما يقرر الحاكم والولاة والأجهزة: سمل العيون، صم الآذان، خلع الأكتاف، قطع الأعناق، فصل الأطراف، وأمثال ذلك من الإجراءات التي ما أنزل الله بها من سلطان، وهنالك ما هو ابشع ظواهر في احكام العباسيين العرفية، ومن اقسىٰ مشاهده: دفن الإنسان حياً، وتغييبه - صبراً - وسط أسطوانات الأقبية وقواعد البناء، مما مارسوه بخسة قذرة لا سابق لها؛ وهنا تهتز مناكب الجلاوزة طرباً، وتبتهج نفوسهم فرحاً، استهانة بأرواح الناس، واستئناساً بصنوف الإجرام الجديد، وذلك سجل أسود حفل بأنواع العذاب، ولم تكن الدواعي لهذا الإغراق في العقاب إلاّ التهمة والظنة والحقد الدفين لا اكثر ولا اقلّ، بيد ان تأثير هذا الواقع الفظيع في الشعوب، كان شبيهاً بتأثير الزلازل المدمّرة، وهي تلتهم

العواصم والأقاليم، وكان فعل ذلك في نفوس الأمّة فعل البراكين المنبعثة من أعماق المحيطات لتشمل السهول والمرتفعات وأعالي الجبال، وقد انحطت عنها أشعة الشمس، وانجاب سناء القمر المنير، فكان الانهيار العام.

لا حراك للضمير الحاكم في مثل هذا الابتداع العريض، فالصفة العامة للوجه الرسمي كونه جامداً صلداً كأنما قدّ من حجر، لا يندىٰ جبينه بأية قطرة من رحمة، ولا تفصح تقاطيعه عن أي تعبير كريم.

والغريب في الأمر أن هذا النوع من الممارسات في سفك الدماء وابتداع العقوبات لدىٰ العباسيين، كان يتماشىٰ مع مسيرة الحاكم العباسي منذ توليه المنصب حتىٰ آخر لحظة من حياته، لا يكلّ ولا يملّ من التنكيل والتمثيل، فكان ذلك هو القاعدة العامة المتبعّة، أما الرأفة فهي الشذوذ والاستثناء.

فهذا هارون الرشيد، وقد طلب أحد المعارضة فتعذر عليه، فأُتي له بأخيه، فروىٰ الطبري (ت ٣١٠هـ) عن ابن جامع المروزي عن أبيه، قال: «كنت فيمن جاء إلىٰ الرشيد بأخ رافع، قال: فدخل عليه وهو علىٰ سرير مرتفع عن الأرض بقدر عظم الذراع، وعليه فرش بقدر ذلك أو قال أكثر، وفي يده مرآة ينظر إلىٰ وجهه، قال: فسمعته يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ونظر إلىٰ أخ رافع، فقال: أما والله يا ابن اللخناء، إني لأرجو أن لا يفوتني خامل، يريد رافعاً، كما لم تفتني!! فقال له: يا أمير المؤمنين قد كنت لك حرباً، وقد أظفرك الله بي، فافعل ما يحبّ الله، أكن لك سِلماً، ولعل الله أن يلين لك قلب رافع إذا علم أنك قد مننتَ عليَّ! فغضب وقال: والله لو لم يبقَ من أجلي إلاّ أن أحرك شفتي بكلمة، لقلت اقتلوهّ!! ثم دعا بقصّاب، فقال: لا تشحذ مداك، أتركها علىٰ حالها!! وفصّل هذا الفاسق، وعجّل، لا يحضرنّ أجلي وعضوان من أعضائه في جسمه!!

ففصّله حتىٰ جعله أشلاءً! فقال: عُدَّ أعضاؤه، فعُدّتْ له أعضاؤه، فإذا هي أربعة عشر عضواً، فرفع يديه إلىٰ السماء فقال: اللّهم كما مكنتني من ثأرك وعدّوك، فبلغت رضاك، فمكنّي من أخيه ثم أغمي عليه وتفرّق من حضرهُ»[1].

بهذا الإرهاب وأمثاله كانت تساس الأمة، وكانت الدهشة ترتسم علىٰ أسارير الشعب المضطهد، ولا حول له ولا طول، لردّة الفعل الطائشة التي يتخذها الحكم في وجه أي تحرّك مهما تضاءَل حجمه، وبدات الحياة جافة من الرواء، غليظة في التبعات، صعبة المراس، تجثم في مسالكها عفاريت الدمار والبلاء المستطير، ويتناهبها غول الجوع والبؤس، وتتنابها سحب متراكمة من الكآبة والأسىٰ ينقبض لها الصدر الرحيب، كغابة تتعرىٰ أشجارها من أوراقها، أو كصحراء يهماء لا ماء فيها ولا كلاء، وهنا تزدحم الآهات في نظرات يائسة تضاعف الألم، وتجترّ مشاهد الثكل والعري والاستبداد، متعثرة بطرق سحيقة من الترقب والانتظار، وينحسر الأفق عن هزائم متلاحقة في ظل زعامات كاذبة، تتلفع بالجبروت والطغيان.

وعلىٰ بقايا هذا الشعب المتهدم، ومن أمواله المصادرة، ومن فيئه المغتصب، ومن دمائه الحمراء، تقوم إمبراطورية ضخمة يعتليها أقزام الطغاة وهم يسيطرون علىٰ موارد الدولة، لتبدد في الملاهي والفجور والعبث الصارخ، وإتخام الولاة والأذناب بموائد العهر والقمار والخمور، وحبْكِ المؤامرات للإطاحة بكل ما هو شريف، والخليفة المزعوم قابع في برجه العاجي وقصوره المتناثرة هنا وهناك، بين الدعة واللذة، وفي أحضان الجواري والقيان والغلمان، والسواد الأعظم يتجرع الغصص في وحدة قاتلة، وغربة تقذف به في العذاب الأليم، واولو الأمر غارقون باللهو

---

(١) الطبري / تاريخ الأمم والملوك ٦ / ٥٢٥.

والسعة، يهزّهم الفرح الغامر بالتعذيب واستلال الأرواح، فلتذهب آلاف الضحايا في ركام الأحداث، ولتتعفر الجباه بالذل والانحناء والطاعة العمياء، ولا بارقة من أمل تلوح، ولا ترى إلا هرولة الأقدام السائرة إلى الهلاك.

وطالما تعملقت قوى الشر، واستطالت سورة الإرهاب، فلا مبالاة بأي صنيع، ولا إصغاء لأي نداء، فهذا النكر كله لا يحتاج إلى اعتذار أو إقالة، ما دامت شهوة الحكم ماسكة بالمخنّق من الرقاب، وهي تبرر هذا الاتجاه في الغدر والمثلة والاغتصاب والانتقام، فالمهم أن تشيع روح الرهبة في الجوانح، وأن يحكم المقبض الحديدي على المقدرات، أغضب الناس أم رضوا.

وليس من الصعب أن نتصور كلّ فرض للإصلاح مرفوضاً، وكل دعوة للتغير مخاطرة، وعلى المغامر بذلك أن يدفع ثمن الأخطاء في أية عملية تحرير سياسي أو إنقاذ اجتماعي، فالعواقب مجهولة العقبات، وكل تقدير - مهما بلغ في التخطيط - سيكون غامض النتائج.

والإمام الرضا(عليه السلام) وهو يشاهد هذه الفوضى العارمة في كل شيء، وينظر ذلك المزيج المتراكم من الأهواء، ويحس تلك الدفعات المتلاطمة من المظالم، ليس بإمكانه - من خلال موقعه القيادي - أن ينخدع بالأحاسيس الداعية إلى الثورة الدموية، وليس بمقدوره أن يغض الطرف عن هذا الانحدار الخطير في الممارسات والقيم والأعراف.

وابتعد الإمام(عليه السلام) عن كل المؤثرات الخارجية الغاضبة وهي تدعو إلى المزيد من إزهاق الأرواح، كما ابتعد عن كل الأصوات المسالمة وهي ترجح الإنصات لمغازلة الحاكمين، فكلاهما لا يصدران عن تصوّر دقيق في مصلحة الناس، ولا عن شعور يراعي حرمة الدين. وما عليه إلاَّ أن يتدرع

بالنضال المتوازن، وأن يتجنب المتاهات المغررة بتسلم السلطة حيناً، أو الانخراط في ركاب الدولة الجائرة حيناً آخر. والإمام في هذا السلوك الاعتدالي ينتصر على القوى المتشابكة في الدعوة إلى الثورة المسلّحة، وينتصر على الرغبات الآنية العجلى الداعية إلى المشاركة في الحكم، فهو أمر لا يتم بحسب تعبير الإمام نفسه فيما يحكيه عن آبائه(عليهم السلام)، كما سترى ذلك في موقعه من الكتاب.

ولما كان الإمام(عليه السلام) أميناً لله في أرضه، وحجّة له على عباده، فليس بإمكانه أن يتيح لأوليائه فرصة العمل عند السلطان المتجاوز لحدود الله، وليس باستطاعة أوليائه أن يتصرفوا بحرّية مطلقة تمثل الإسلام بشؤون الحكم، وليسوا هم من القوة بحيث يفرضون ما يريدون، أو يطبقون ما يعتقدون، لهذا كان الموقف من الإمام تجاه هذا المنحى متجسداً بالرفض المطلق أو الإيجاب المشترط.

روى الحسن بن الحسين الأنباري، وهو يعاود الإمام الرضا(عليه السلام) في النظر بأمره، أو إجازته في ولاية السلطان، يقول: «كتب إليه - يعني الإمام الرضا - اربع عشرة سنة أستاذنه في عمل السلطان، كان في آخر كتاب كتبته إليه اذكر: إني أخاف على خيط عنقي، وإن السلطان يقول: إنك رافضي؛ ولسنا نشك في أنك تركت العمل للسلطان للرفض».

فكتب إليّ أبو الحسن:

«قد فهمت كتابك وما ذكرت من الخوف على نفسك، فإن كنت تعلم انك إذا وُليت عملتَ في عملك بما أمر به رسول الله(صلى الله عليه وآله) ثم يصير اعوانك وكتابك أهل ملتك، فإذا صار إليك شيء واسيتَ به فقراء المؤمنين حتى تكون واحداً منهم، كان ذا بذا... وإلاّ فلا»[1].

---

(١) الكليني / الكافي ٥ / ١١١.

والإمام هنا لا يرفض المشاركة مطلقاً، ولكنه يشترط، وهو يكل الأمر إلى صاحبه في التمييز بين القبول والرفض، فمع الخوف على النفس لا مانع من العمل بشرط العمل بما أمر به رسول الله(ﷺ) أولاً، وبانتقاء العمال والكتّاب ثانياً، وبمواساة المؤمنين ثالثاً، فيكون كفارة عمل السلطان حينئذٍ بإزاء تنفيذ هذه الفقرات، وإن لم يتم للعامل هذا، فعليه الاجتناب.

اما الشك في ولاء الحكم، والاتهام بالرفض، فهما مما دأب عليه حكّام الجور بالنسبة لأولياء أهل البيت(عليهم السلام)، وبحسب المسلم أن يكون رافضاً للظلم، ملتزماً بالمبادئ الثابتة.

وكان الإمام مجاهراً بعدم شرعية الحكم، منبهاً أنه لا يعترف بالسلطان إماماً للناس، معلناً عن إمامته جهاراً. قال صفوان بن يحيى: «لما مضى أبو الحسن موسى بن جعفر(عليه السلام)، وتكلّم الرضا، خفنا عليه من ذلك. فقلت له: إنك قد أظهرت أمراً عظيماً، وإنما نخاف عليك هذا الطاغي (هارون الرشيد).

فقال الإمام: ليجهد جهده، فلا سبيل له عليَّ»[1].

وهذه صفحة من النضال المتوازن توحي بالمعارضة دون أن يخالف فيها ما رسم لنفسه من الخط العام.

قال له علي بن أبي حمزة:

«أما تخاف هؤلاء على نفسك؟

قال الإمام:

لو خفت عليها كنت عليها معيناً.

فقال له الحسين بن مهران: قد أتانا ما نطلب إن أظهرت هذا القول!!

---

(١) الصدوق / عيون الأخبار ٢ / ٢٢٦ + ابن شهراشوب / المناقب ٣ / ٤٥٢.

قال الإمام الرضا(عليه السلام): فتريد ماذا؟ أتريد أن أذهب إلى هارون فأقول له: إني إمام ولستَ في شيء؟ ليس هكذا صنع رسول الله(صلى الله عليه وآله) في أول أمره، إنما قال ذلك لأهله ومواليه ومن يثق به، فقد خصهم به دون الناس»[1].

وكان هذا الجهر بإمامته أيام هارون الرشيد، وقد أثار ذلك مخاوف أصحابه، ولكنه طمأنهم بلمح غيبي.

فعن محمد بن سنان، قال: قلت لأبي الحسن الرضا(عليه السلام) في أيام هارون: «إنك قد شهرت نفسك بهذا الأمر، وجلستَ مجلس أبيك، وسيف هارون يقطر الدمّ!!

قال الإمام الرضا: جرأني على هذا ما قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): إن أخذ أبو جهل من رأسي شعرة، فاشهدوا أني لستُ بنبي!!

وأنا أقول لكم: إن أخذ هارون من رأسي شعرة، فاشهدوا أني لست بإمام»[2]. وكان لابد للإمام ان يظهر نفسه، وأن يعلن إمامته لأمرين:

الأول: الردّ على الواقفة بزعمهم أن لا إمام بعيد أبيه الإمام بن جعفر(عليه السلام).

الثاني: إشعار الأمة بأنه الإمام المفترض الطاعة، دون أدعياء الإمامة أنى وجدوا، سيما طواغيت الحكم العباسي.

وهذا يعني أنه كيان مستقل بذاته، له مهماته وافكاره، والحكم شيء آخر في نزعاته وتصرفاته وأولاعه الشاذة.

وهذا يعني أيضاً عدم الاعتراف بممارسات الحكم الرسمي، ودعوة صريحة إلى رفضه من قبل الأولياء والأتباع، وتعرية مؤكدة لواقع الحكم الفاسد، وحملة توعية منظمة لمقاومة تلك الآثام العظيمة التي يقترفها النظام باسم الشرعية.

---

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ٢ / ٢١٣.

(٢) الكليني / روضة الكافي / ٢٥٧.

ولـم يكـن بمقـدور الإمـام تكليفـاً: التغـاضي عـن جرائـر الحـاكمين، أو الإغماض على استهتارهم بالحقوق، أو الإغضـاء عـن عبثهـم بالمقدسـات وأفكار الأمة، أضف إلى هذا كله تجريدهم الشعب من الملكية والحرية والإرادة والتعبير بوقت واحد، لذلك رفض الإمام مبدأ التعاون السياسي مع الحكم، واصرّ على الاستقلالية في القرار، وتمسك بمبدأ الإمام الداعي إلى العلم بكتاب الله وسنة نبيه ومسيرة أهل البيت(عليهم السلام)، نعم قد تقتضي مصلحة الإسلام العليا مداراة بعض الأوضاع، ومجاراة جزء من الطقوس، رعايةً للشكل العام الذي يخفف من آلام الأمّة، أو يحافظ على اسم الإسلام من الضياع.

ولم تستطع العواطف المشبوبة لأولياء الإمام، وهي تنبض بالحرارة والصدق وروح المغامرة، ان تؤثر شيئاً في طبيعة سلوكه القيادي، فهو اسمى تفكيراً، وأثبت جناناً، وأخبر تجربة، من أن ينجذب بإحساس طارئ ينهمر من هواجس الحب والمودّة، دون النظر الفاحص في النتائج المترتبة على ذلك الحماس.

ولو اراد الإمام أن يتحرك ثورياً لكانت ردّة فعل النظام العباسي مدمّرة، فالسيف مصلت لا يرحم، والإجراءات صارمة لا تقهر، وقد يرتدّ الطرف في ذعر واضطراب لما يشاهد من لهيب الانتقام الدامي، وقد يستفيق اتباع الإمام على ظواهر قاسية تنفث السمّ والرعب في النفوس، وتبعث من جديد مرارة التسلط وبطر الطغاة.. وربما زاغ البصر فلمح المزيد من أصناف التعذيب والنكال في سياط أحكام عرفية مروّعة، وحينئذ سيكون اندفاع الجرائم جارفاً كمياه الشلال المجنون المنحدر من أعالي القمم، فيسود الوجوم والأسى والتعسف بديلاً عن الهدف الأصل في الهدوء والحياة الكريمة.

وإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، فما على الإمام إلاّ المثول أمام تطلعاته القيادية المنظّمة دون تأثير عاطفي أو بعد ثوري، ويقرر الإبقاء على الطليعة المؤمنة في سلامة من الخطر المرتقب، ويضن عليها من القتل والأسر والاعتقال والتشريد، وهم قلّة من الناس تعدّ بالأصابع او تتجاوزها بقليل، وها هو الشعب

المسلم يربض مخدّراً ربضة المريض المنهك، لا يقوىٰ علىٰ الاتكاء فضلا عن التوازن، تأخذه الرعشة، ويهزه الاضطراب، وينتابه الترنح والميلان، ولا مغيث إلاّ التأوه المتقطع ينطلق من رئتين منقبضتين عزّ عليهما الهواء النقي، فنفثتا جُرَقاً وأنات، شأن الغريب التائه حينما يتشبث بالزبد والغثاء، محاولاً النجاة هو يخادع نفسه بذلك عند مصارعة تيار الأمواج المتلاطمة.

وقد تقتضي الضرورة الدينية أن يشير الإمام بالضوء الأخضر لأوليائه ممن هم من عمّال السلطان يخفف عن المؤمنين معاناتهم، وليدفع باحتياج الناس إلىٰ حرم آمن، فينبري إلىٰ الثناء علىٰ العاملين في ضوء سنن الإسلام من دفع البلاء، وتحقيق الأمل، وقضاء الحوائج، وتعجيل المبرّات، واكتساح المظالم، وذلك ما تفرضه طبيعة التخطيط باختيار الأصلح وتعيين الأمر الراجح لدىٰ الالتجاء إلىٰ الإدارة في رعاية شؤون الناس، فالمؤمن أولىٰ من الظالم، والعالم أحقّ من الجاهل في الحفاظ علىٰ النظام، ودرء الظلامات، وإغاثة الملهوف، وتخفيف روعة المؤمن وتأمينها.

فعن محمد بن إسماعيل بن بزيع أن الإمام الرضا(عليه السلام) قال: «إنّ لله تعالىٰ بأبواب الظالمين من نوّر الله له البرهان، ومكّن له في البلاد، ليدفع بهم عن أوليائه، ويصلح الله بهم أمور المسلمين، إليهم ملجأ المؤمن من النصر، وإليهم يفزع ذو الحاجة من شيعتنا، وبهم يؤمن الله روعة المؤمن في دار الظلمة، أولئك المؤمنون حقاً، أولئك أمناء الله في أرضه، أولئك نور في رعيتهم يوم القيامة ويزهر نورهم لأهل السماوات كما تزهر الكواكب الدرّية لأهل الأرض، أولئك مَنْ نورهم يوم القيامة يضيء منهم القيامة، خُلِقوا والله للجنّة وخلقت الجنّة لهم، فهنيئاً لهم، ما علىٰ أحدكم أن لو شاء لنال هذا كله.

قال: قلت: بماذا جعلني الله فداك؟

قال: يكون معهم، فيسرنا بإدخال السرور علىٰ المؤمنين من شيعتنا!!

فكن منهم يا محمد»[1].

وهذه المرونة في الإيجابية التعاملية مع الظالمين توحي بالإذن المشترط لدى التزاحم في الأقلّ.

ولم تكن الكلمة النافذة لتخطئ موقعها من لغة الإمام، لأنها الجذوة المتوقدة في ظلمة الكون، والإمام يصدع بها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، حتى إذ أدى ذلك إلى سخط السلطان.

يقول الشيخ المفيد: «وكان الرضا علي بن موسى(عليهما السلام) يكثر وعظ المأمون إذا خلا به، ويخوفه بالله، ويقبح ما يرتكبه من جلافه. فكان المأمون يظهر قبول ذلك منه، ويبطن كراهته، ودخل الرضا(عليه السلام) يوماً فرآه - المأمون - يتوضأ للصلاة، والغلام يصبّ على يده الماء، فقال الرضا(عليه السلام): لا تُشرك... بعبادة ربك أحداً، فصرف المأمون الغلام، وتولى تمام وضوئه بنفسه، وزاد ذلك في غيظه ووجده»[2].

وكان من ضغط المأمون على الرضا(عليه السلام) أن يقصده في الأزمات، متظاهراً بالاحتياج إليه، عسى أن يتورط في شيء من أمره، ولكن يحببه بما يراه صالحاً: بغض النظر أو المداراة، دون أن يتورط في شأنه وقد يوري في الكلام.

فعن محمد بن أبي عبادة، لمّا قتل المأمون الفضل بن سهيل؛ قال: دخل المأمون إلى الرضا(عليه السلام) يبكي، وقال له: هذا وقت حاجتي إليك يا أبا الحسن، فتنظر في الأمر وتعينني.

قال الإمام: عليك التدبير وعلينا الدعاء»[3].

ولم يكن الإمام ليجعل عليه سبيلاً في اعانة ظالم أو اغاثة حاكم، فقد سبق للمأمون أن كتب للفضل بن سهل أماناً، فذهب الفضل إلى الإمام

---

(١) النجاشي / الرجال / ٣٨١.

(٢) الشيخ المفيد / الإرشاد / ٣٥٤.

(٣) الصدوق / عيون اخبار الرضا ٢/١٦٤.

الرضا(عليه السلام)، ووقف بين يديه ساعة، يقول ياسر الخادم: فرفع أبو الحسن رأسه إليه، وقال له: ما حاجتك يا فضل؟

قال: يا سيدي: هذا ما كتبه أمير المؤمنين، وأنت أولى أن تعطينا مثل ما أعطى، إذ كنت ولي عهد المسلمين.

فقال له الرضا(عليه السلام): اقرأه، وكان كتاباً في أكبر جلد، فلم يزل قائماً حتى قرأه، فلما فرغ قال له الإمام الرضا(عليه السلام): «يا فضل، لك علينا هذا ما اتقيت الله عز وجل».

قال ياسر: فنقض عليه أمره في كلمة واحدة[1].

ولم يكن الإمام(عليه السلام) ينظر إلى الفضل إلا بازدراء مطلق، وكان يحذر المأمون من الأخذ بآرائه، ويضيف إلى ذلك أخاه الحسن، لأنهما استأثرا بشؤون الدولة، واضاعا حقوق الأمة، وكانت منزلتهما عند المأمون لا تدانيها منزلة، فهما وزيراه ورجلا مؤامراته السياسية، والمستقلاّن بالأمر والنهي دونه.

ولم يكن الإمام ليهادن أحداً في إنكار المنكر، وشجب الواقع السيئ، وربما اغاظ المأمون بهذا الملحظ، وهو يتناول وزيريه بالنقد الصادق، ويعرض عنده ما لا يرغب بسماعه.

يقول الشيخ المفيد: «وكان الرضا(عليه السلام) يزري على الحسن والفضل ابني سهل عند المأمون إذا ذكرهما، ويصف له مساويهما، وينهاه عن الإصغاء إلى قولهما، وعرفا ذلك منه، فجعلا يحرضان عليه عند المأمون، ويذكران له ما يبعده منه، ويخوفانه من حمل الناس عليه، فلم يزالا كذلك حتى قلبا رأيه فيه...»[2].

---

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ٢ / ١٦٤.

(٢) المفيد / الإرشاد / ٣٥٤، وانظر: الأربلي / كشف الغمة ٣ / ٧٥.

هذه الأحداث بملابساتها وظروفها الموضوعية، تفتح باباً جديداً في قيادة الإمام يمثل بصلابته في المبدأ، وهو ما يدعونا أن نقف عنده بمنظور ثابت استطرادي.

الصلابة في المبدأ لدى الإمام:

كانت النظرات الباهتة لدى الشعب المسلم تنصبّ على المشاهد المتلاحقة في الجور والظلم واستغلال الإنسان في حياة الحكم الأموي والعباسي، وما رافقهما من البذخ والإسراف وليالي اللهو والمجون لدى المتخالصين والمتماجنين من سلاطين السوء.

وكانت الهواجس الأليمة تلتهم كيان الفرد والأمة، وتبعث على الأسى والمرارة، وكان القاسم المشترك الأعظم الذي حصلت عليه الشعوب الإسلامية يمثل كابوساً ثقيلاً تضيق به الصدور، وتتدانى بأطيافه المرعبة أماني الناس إلى عالم مجهول والغاز مبهمة في الذهول والقنوط والدهشة.

وكان هذا المزيج القاتل نذيراً بثورة نفسية عاتية قد تطيح برؤوس الجريمة، ولكن هدوء الزوبعة وإخلاد الناس إلى الصبر والمعاناة قد يكون له ما يبرره في ذلك المناخ، فالمتوقع أن تكون ردّة فعل السلطان - لو حدث شيء ما- مجنونة بالعنف اللامعقول، وقد تكون الإجراءات الانتقامية مما لا يدور بخلد إنسان، وقد تتجاوز العقوبة المفروضة حدود الاحتمال والطاقة؛ وقوى الشعب المنهكة تعيش حياة الإنذار والطوارئ: أعراض تنتهك، وقتول تتجدد، ورؤوس اينع حصادها، وضحايا تتجاذب أطراف الحديث، ولا حديث إلاّ السيف والإرهاب الدموي، واستطاعت هذه القسوة أن تلتقط أنفاس كل حركة، وتقمع أصوات كل معارضة، وتخمد جذوة كل دعوة، ولا أمل في التغيير، ولا بارقة من عفو او رحمة. وخلا الجو لدعاة

السوءِ، وسبّحوا بحمد الطغيان، وباركوا الجلاد وهو يستأصل جذور الرافضين، وما اكتفوا بذلك حتىٰ أضفوا علىٰ الحاكم الغاشم هالة كبيرة من الأبّهة والإجلال، واعتبروه ظل الله في الأرض، والله ورسوله والمؤمنون براء من فراعنة الأمة ورسل الجريمة.

وكان علىٰ الإمام الرضا(عليه السلام) أن يعالج هذه الظاهرة بحكمة وأناة، ومع ما كان عليه الإمام من رقة في طبعه، وتواضع في سلوكه، إلا أنه صلب الإرادة في المبدأ، صعب المراس في ذات الله، لا تأخذه في الحق لومة لائم.

وقد أنكر الإمام علىٰ النظام الاستهتار بأمر الناس، والتمادي بالجبروت، وإضاعة حقوق الأمة، وجابه المأمون بما ينبغي أن يقابله به، فقد افتتحت إحدىٰ قرىٰ كابل، وقرأ المأمون كتاب الفتح علىٰ الإمام(عليه السلام)، فقال له الإمام: وسرك فتح قرية من قرىٰ الشرك؟ فقال له المأمون: أوليس في ذلك سرور؟.

فقال الإمام الرضا للمأمون:

«. . . اتَّقِ الله في أمة محمد(صلى الله عليه وآله)، وما ولاّك الله من هذا الأمر وخصك به، فإنك قد ضيعت أمور المسلمين، وفوضت ذلك إلىٰ غيرك، يحكم فيهم بغير حكم الله عزَّ وجلّ، وقعدت في هذه البلاد، وتركت بيت الهجرة ومهبط الوحي، وإن المهاجرين والأنصار يُظلمون دونك، ولا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمّة، يأتي علىٰ المظلوم دهر يتعب فيه نفسه، ويعجز عن نفقته، فلا يجد من يشكو إليه حاله، ولا يصل إليك. فاتَّقِ الله يا أمير المؤمنين في أمور المسلمين، وارجع إلىٰ بيت النبوّة، ومعدن المهاجرين والأنصار، اما علمت. . ان والي المسلمين مثل العمود في وسط الفسطاط، من أراده أخذه؟

قال المأمون: يا سيدي فما ترىٰ؟

قال الإمام الرضا(عليه السلام): أرىٰ أن تخرج من هذه البلاد، وتتحول إلىٰ موضع آبائك وأجدادك، وتنظر في أمور المسلمين، ولا تكلهم إلىٰ غيرك، فإن الله عزَّ وجلَّ سائلك عمّا ولاّك..»[1].

ولم تكن هذه النفثة بالأمر المستطاع في مجابهة رأس النظام وجهاً لوجه، ولكنه الإمام الرضا وكفىٰ!!.

وكان الإمام خبيراً بما يجري وراء الكواليس، فَجَابَهَ المأمون بالقول: «... إن النصح واجب لك، والغش لا ينبغي لمؤمن، وإن العامة تكره ما فعلت بي، وإن الخاصة تكره ما فعلت بالفضل بن سهل، فالرأي لك: أن تنحينا عنك حتىٰ يصلح أمرك»[2].

وكانت سبيل الإمام(عليه السلام) إلىٰ المصارحة الكاشفة عن صلابته لا تقتصر علىٰ الحاكمين. وإنما هي سجيته الفطرية حتىٰ مع أقرب المقربين إليه نسباً، واشد المرتبطين به ولاءً.

فقد كان اخوه زيد قد تجاوز النهج الشرعي في حركته الدموية، فلم تمنع الإمام لحمة النسب أن يجابهه بما هو أهل له.

فقد أدخل زيد بن الإمام موسىٰ بن جعفر(عليه السلام) علىٰ أخيه الإمام الرضا(عليه السلام)، بعد خروجه، فقتل من قتل، وأحرق ما أحرق، حتىٰ سمي (زيد النار).

قال له الإمام(عليه السلام): يا زيد اغرّك قول حمقىٰ أهل الكوفة: إن فاطمة احصنت فرجها، فحرّم الله ذريتها علىٰ النار؟

ذلك للحسن والحسين(عليهما السلام) خاصة.

إن كنت ترىٰ أنك تعصي الله وتدخل الجنة، وموسىٰ بن جعفر(عليه السلام) أطاع الله ودخل الجنة، فأنتَ إذن أكرم علىٰ الله من موسىٰ بن جعفر(عليه السلام)!!

والله ما ينال احد عند الله عزَّ وجلَّ إلا بطاعته.

---

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ٢ / ١٥٩ + المجلسي / البحار ٤٩ / ١٦٥.
(٢) الأربلي / كشف الغمة ٣ / ١٠٢.

وزعمتَ أنك تناله بمعصيته !! فبئس ما زعمت.

فقال له زيد: أنا أخوك وابن أبيك.

فقال له أبو الحسن(عليه السلام): أنت أخي ما أطعت الله عزَّ وجلّ، إن نوحاً(عليه السلام) قال:

﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ﴾[1].

فقال الله عز وجلّ: ﴿يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ﴾[2].

فأخرجه الله عزَّ وجلّ من أن يكون من أهله بمعصيته»[3].

ولم يكن تأنيب زيد فيما بينه وبين الإمام(عليه السلام)، ليمنع الإمام من تأنيبه علناً حتى أمام السلطان. فقد دخل زيد بن الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) على المأمون فأكرمه، وعنده الرضا(عليه السلام)، فسلّم زيدٌ عليه فلم يجبه، فقال: انا ابن أبيك، ولا تردّ عليَّ سلامي !!.

فقال له الإمام الرضا(عليه السلام):

أنت أخي ما أطعت الله، فإذا عصيت الله لا إخاء بيني وبينك[4].

وهكذا كان الإمام(عليه السلام) أشدّ الناس إنكاراً على أخيه، ورفضاً لممارساته التي لا يقرّها الشرع والعقل.

وكان من صلابته تمسكه بالحق وبالدلالة عليه، وبالدعوة إلى سبيل ربّه في مجابهةّ مؤدّبة، وصراحة هادفة.

---

(١) سورة هود / ٤٥.

(٢) سورة هود / ٤٦.

(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ٢٣٤ + البحار / المجلسي ٤٩ / ٢١٨ + كشف الغمة / الأربلي ٣ / ١٠٤.

(٤) ابن شهراشوب / المناقب ٤ / ٣٦١ + المجلسي / البحار ٤٩ / ٢٢١.

قال(عليه السلام) للحسن بن الجهم :

«يا ابن الجهم : من خالف دين الله فابرأ منه كائناً من كان، من أي قبيلة كان. ومن عادىٰ الله فلا تواله، كائناً من كان، من أي قبيلة كان.

فقلت له : يا ابن رسول الله ؛ ومن الذي يعادي الله؟ قال : من يعصيه»[1].

وكان الإمام(عليه السلام) كارهاً لولاية العهد، ولم ينعم للمأمون بالقبول إلا بعد التهديد - كما سترىٰ ذلك في موقعه من الكتاب -. وكان محمد بن أبي عبّاد، قد عاود الإمام الرضا(عليه السلام) بولاية العهد، وكأنه استبطأ الإمام في قبول ذلك، فقال للإمام :

«لِمَ أخرتَ - اعزك الله - ما قال لك المأمون وأبيته؟

فقال الإمام(عليه السلام) : ويحك يا أبا الحسن !! لستُ من هذا الأمر في شيء.

قال : فرآني قد اغتممت، فقال لي : وما لك في هذا؟

لو آل الأمر إلىٰ ما تقول !! وانتَ مني كما انت عليه الآن، ما كانت نفقتك إلاَّ في كمكَ، وكنت كواحد من الناس»[2].

وهذه المحادثة تشير بتأكيد أن الإمام الرضا(عليه السلام) يقطع جازماً بأن الأمر لا يصل إليه، ولو قدر أن يصل إليه من باب الفرض، فيتولىٰ السلطة، لكان ابن أبي عباد كبقية الناس، وموقعه من الإمام في الذروة، لكان كالآخرين، فالإمام يؤمن بالعدالة الاجتماعية بين الناس، فيعاملهم علىٰ حد سواء، فلا تمييز ولا تفاضل بينهم في الحقوق والواجبات. وإن هذا الفرد المخلص للإمام(عليه السلام) سوف لا يناله شيء متميز عن إخوانه، بل إن نفقته ستكون في (كِمّه) تعبيراً مجازياً عن قلتها وضآلتها.

---

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ٢ / ٢٣٥.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٦٤.

وفي قول الإمام تعريض بطبيعة هؤلاء الحاكمين الظلمة في إيثارهم أتباعهم بالهبات والمال والعطاء، والإمام لا يسيغ هذا ولا يفعله، لأنه ينافي منهج العدل والمساواة في التشريع الإسلامي.

ومن هنا كان الإمام معنياً بشؤون الإنسان لا الحكم، كما سترى.

حياة الإنسان في قيادة الإمام:

ووهب الإمام الرضا (عليه السلام) حياته وشخصيته لأخيه الإنسان، حدباً، مشفقاً، جاهداً، عاملاً، وموجهاً. وتلك صفة الصديقين من عباد الله الأبرار، فهم شموع تضيء الطريق بين يدي السائرين.

وهكذا كان الإمام شعلة متوهجة في مسيرة الإنسان، بصّره الرشد، ولقّنه الهدىٰ، وجنبّه مزالق الضلال، ومنحه الثقة الكبرىٰ في بناء النفس وتقويم الذات، وكان هذا هو الكنز الثمين الضائع في أمواج الحياة، وقد استطاع الإمام استخراجه واستدراجه في سلسلة رصينة من التعليمات والوصايا، وجعلها مناراً في الدرب الشائك.

إن المثل العليا التي نهد بإفاضتها الإمام تمثل أقصىٰ درجات التأهب في مكافحة الجهل والغرور والابتعاد عن الله تعالىٰ، ولو سلكها الإنسان واتبع سبيلها، لمثّل القمّة في الأخلاق والسيرة وجلائل الأعمال، ولسنا بإزاء حصر أبعاد هذه القيّم، فهي من السعة والازدهار بحيث تستوعب عملاً مستقلاً ضخماً ومتخصصاً، ولنا أن نقتطف من رياض تلك الحقول اليانعة، ثمار فلسفة الإمام في حياة الإنسان، وروائع توجيهه الرفيق، وهو ما تحيا به النفوس وتنمو المدارك، لأنها بحيث تخلق الإنسان الأنموذج، وتجسد الفرد الأكمل.

ولو التزم شبابنا المعاصر هذه الشذرات في رصدها الإيحائي، لتسنم ذروة المركز الإنساني الرفيع، ولأصبح متنسماً عبقات العزة والكرامة والعهد السعيد، ولظفر بمدارج النبل والمروءة والإحساس الرقيق.

إن تلك التعليمات التي سيّرها الإمام في دقة وأصالة، تبرز في عطائها الثرّ المتموج، نموذجاً متميز الألوان في ميادين البرّ، والمعروف، والإيثار، والرفعة، والشموخ، والإيمان، والاطمئنان، ومراقبة النفس.

وقد جمع الإمام في وصاياه وحكمه ونوادر أمثاله عصارة الفكر الإنساني المتطلع إلى العالم المثالي الفاضل الذي يبحث عن السعادة الأزلية في مفاهيم جديدة فجأت العصر بطابعها الاجتماعي المنقذ، مما يوحي أن وراء هذه الأفكار قوة خارقة تستمد شجاعتها في التعبير وأصالتها في الدلالة من ذلك الفيض الإلهي والتوجيه النبوي، فالمعاني التي تبعثها هذه الألفاظ البليغة في صياغتها الفريدة، تعطي من الظواهر في أشعتها: بناء الإنسان على نحو متكامل بعد أن انحرفت به مسارب السياسة المتهورة، فأبعدته عن المناخ الصالح الذي أراده له الإسلام في قوانينه ونظمه ودساتيره.

فالإمام – مثلاً – يعطي للتواضع مفهوماً حديثاً يُعنى بالإيثار والمواساة والمساواة، فيقول (عليه السلام):

«التواضع أن تعطي للناس ما تحب أن تُعطاه»[1]. وينحو الإمام بالعامل الاجتماعي في إغاثة الملهوف، وكشف الكروب نحواً يربط به الفاعل بالملحظ الأخروي، فيقول: «من فرّج عن مؤمن فرّج (فرّح) الله قلبه يوم القيامة»[2]. ولك أن تتأمل طويلاً فيما جمع به الإمام من فضائل القناعة في مقومات النفس الإنسانية بين مكارم الدنيا ورغائب الآخرة، سعياً وراء

---

(1) ابن شعبة / تحف العقول / ٣٣٢.

(2) الكليني / الكافي ٢ / ٢٠٠.

الأجر، ورفضاً لطائلة اللئام، وشوقاً إلى الزهد الزكي؛ يقول الإمام: «القناعة تجمع إلى صيانة النفس، وعز القدر، طرح مؤنة الاستكثار والتعبد لأهل الدنيا، ولا يسلك طريق القناعة إلاّ رجلان: إمّا متقلل يريد أجر الآخرة، أو كريم متنزه عن لئام الناس»[1].

ودعا الإمام بصورة تلقائية إلى العمل الدؤوب في سبيل الاعالة، وعدّ الناهض به في درجة عليا من المجاهدين، فقال(عليه السلام): «إن الذي يطلب من فضل، يكفّ به عياله، أعظم أجراً من المجاهدين في سبيل الله»[2].

وتحدث الإمام عن أثر الولد الصالح لدى تربيته ورعايته فقال: «الولد الصالح ريحان من رياحين الجنّة»[3].

وشملت رعاية الإمام للإنسان أن تحدث عن خير الناس وأفضل العباد، ورجال الإنابة، وصنائع الله، فقال: «الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤوا استغفروا، وإذا أُعطوا شكروا، وإذا ابتلوا صبروا، وإذا غضبوا عفوا»[4].

وأضفى الإمام ظلاً وريفاً على المعنى الرفيع للعبادة، وجعل التفكر في أمر الله أبرز مصاديقها، وأدلّ مظاهرها، فقال: «ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ»[5].

وأضاف للعبادة شرطاً أساسياً، يستشعر منه النبل والصفح والعفو الكريم، فقال(عليه السلام): (لا يكون الرجل عابداً حتى يكون حليماً»[6].

---

(١) الأبي / نثر الدر ١ / ٣٦١.
(٢) ابن شعبة / تحف العقول / ٣٣٢.
(٣) المجلسي / بحار الأنوار ١٠ / ٣٦٨.
(٤) ابن شعبة / تحف العقول / ٣٣٢.
(٥) الكليني / الكافي ٢ / ٥٥.
(٦) المصدر نفسه ٢ / ١١١.

واعتبر الإمام محاسبة المرء نفسه من الربح فيما يوحيه المجاز العقلي، والغفلة من الخسران بالملحظ نفسه، إذ ليس هناك تجارة - هنا - تعنى بزيادة رأس المال أو خسرانه ونقصانه، وإنما عدّ المحاسبة ربحاً باعتبار عمر الإنسان رأس ماله، وكذلك الخسران، فقال(ع): «من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر»[1]. وأعتبر الإمام: الحلم والعلم من علامات المعرفة والثقافة، وأضفى على الصمت صفة من الحكمة، وصبغةً من المحبة، وصيغةً من الخير، فقال:

«من علامات الفقه: الحلم والعلم والصمت. إن الصمتَ باب من أبواب الحكمة، إن الصمت يكسب المحبّة، إنه دليل كل خير»[2].

وحذّر الإمام من العجب، وعدّه في ملحظين بارزين: نظر العبد لعمله السيئ باعتباره حسناً، وإيمان العبد فيمنّ بإيمانه على الله تعالى، وكلاهما من الجهل المركّب الذي يفسد الإيمان، ويبطل العمل.

قال الإمام: «العجب درجات: منها أن يزّين للعبد سوء عمله فيراه حسناً، ويحسب أنه يحسن صنعاً. ومنها أن يؤمن العبد فيمنّ على الله، ولله المنة عليه فيه»[3].

وللإمام نظرة فاحصة لمعاصي العباد حينما يبتكرونها ويبتدعونها لاسيما الطغاة والجبابرة، فينزل الله بهم من العذاب صوراً جديدة لم تكن بالحسبان، ويسلّط عليهم محناً يصبُّ فيها البلاء صباً.

قال الإمام: «كلما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون»[4].

---

(١) المصدر نفسه ٢ / ١١١.

(٢) الكليني / أصول الكافي ٢ / ١٢٤.

(٣) المجلسي / بحار الأنوار ٧٨ / ٣٣٥.

(٤) الحر العاملي / وسائل الشيعة ١١ / ٢٤٠.

وهذا من اللمسات الصارخة التي تحكي الواقع المعاصر في كل العصور، وقد شاهدناه جهاراً في عصرنا هذا، ودهمنا بجحيمه المستعرّ حتى لم يعد نهارنا نهاراً، ولا ليلنا ليلاً من شدّة الفتن، تلك الفتن التي فجأتنا بما لا عهد للبشرية فيه، وكأن الإمام الرضا(عليه السلام) بنظرته الثاقبة في عمق الأحداث، كأنه ينظر إلينا وإلى أمثالنا ممن يحترقون بالجرائر الخارقة لطبيعة الأشياء.

وقد أولى الإمام العقل وشؤونه اهتماماً بالغاً، وتناول أبعاده بمنظور جديد يكشف عن كثير من الخصائص الكامنة فيه.

قال(عليه السلام): «صديق كل امرئ عقله، وعدّوه جهله»[1].

ولو تمعنت في هذه الحكمة من عدة جوانب لأفادت بأن الإمام(عليه السلام) يكرّم العقل في تدبير الأمور، ويؤكد على حركيته في إرادة الفرد، وعلى مقدرته في إضاءة الدرب، وعلى ضرورته في دفع الجهل، وعلى إدارته في لطف التقدير، ويضيف الإمام إلى هذا اعتبار التدين الصحيح مقروناً بالعقل، فلا يعبأ بدين من لا عقل له.

قال الإمام(عليه السلام): «لا يُعبأ بأهل الدين ممن لا عقل له»[2].

وحرر الإمام الإنسان بالعقل من رقّ الجمود والإنكار، واخذ بيده في العقل إلى نعمة المعرفة حينما قال: «أفضل العقل معرفة الإنسان نفسه»[3].

وعدّ الإمام العقل السليم منحة من الله تعالى وليس تكلفاً، وإنما هي هبة فطرية لا تؤخذ بالتكلف، ولا تحرز بالاكتساب، ومن تكلّف ذلك لم يزدد به إلا جهلاً مطبقاً، وقارن بينه وبين الأدب.

---

(١) الحر العاملي / وسائل الشيعة ١١ / ٢٤٠.

(٢) الكليني / الكافي ١ / ٢٨.

(٣) محسن الأمين الحسيني العاملي/أعيان الشيعة٤/ ق٣ /١٩٦.

قال الإمام(ع): «العقل حباء من الله، والأدب كلفة، فمن تكلّف الأدب قدر عليه، ومن تكلّف العقل لم يزدد به إلاّ جهلاً»[1].

وتحدث الإمام بشيء من التفصيل عن كمال العقل نظراً لأهميته في الميزان، فتناول تمامية أبعاده، وما يشترط في ذلك من آداب، وما يتحقق به من خصال، وما يترتب عليه من آثار، وما يكمن فيه من فضائل، وما يتفتح عنه من عوالم، تجعل من الفرد مثلاً أعلى، وتخلق من المجتمع أمة رائدة، وتبعث من التدّين ظاهرة حضارية، وتبدع من الاعتدال مناخاً عصرياً، وفي هذا كله يتحقق الكمال المستطاع بقدر الطاقة البشرية.

قال الإمام: «لا يتم عقل امرئ مسلم حتى يكون فيه عشر خصال:

الخير منه مامول.

والشر منه مأمون.

يستكثر قليل الخير من غيره.

ويستقلّ كثير الخير من نفسه.

لا يسأم من طلب الحوائج إليه.

ولا يملّ من طلب العلم دهره.

الفقر في الله أحبّ إليه من الغنى.

والذل في الله أحبّ إليه من العزّ في عدوه.

والخمول اشهى إليه من الشهرة.

ثم قال(ع): العاشرة!! وما العاشرة؟ قيل له: ما هي؟ قال(ع): (لا يرى أحداً إلا قال: هو خير مني وأتقى!! إنما الناس رجلان: رجل خير منه وأتقى، ورجل شرّ منه وأدنى، فإذا لقي الذي شر منه وادنى قال: لعل خير

---

(١) الكليني / الكافي ١ / ٢٣.

هذا باطن، وهو خير له، وخيري ظاهر وهو شرٌّ لي، وإذا رأىٰ الذي هو خير منه وأتقىٰ، تواضع له ليلحق به، فإذا فعل ذلك فقد علا مجده، وطاب خيره، وحسن ذكره، وساد أهل زمانه»[1].

وكان للإيمان عند الإمام مفهومه الدقيق، معتمداً علىٰ أركان تقوّمه وتجسّده، وهي التي تبعث فيه الحرارة والدفء والحياة، وقد حدد الإمام أركانه فيما يروىٰ عنه أنه قال:

«الإيمان أربعة أركان: التوكل علىٰ الله، والرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله، والتفويض إلىٰ الله. قال العبد الصالح، وهو يعني مؤمن آل فرعون: **﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾**[2][3].

وكان لتقويم الإمام(عليه السلام) للمؤمن ملحظ تكاملي يتماشىٰ مع تعليمات السماء، وقوانين الأصالة والثبات والتحدي، وهو منظور لم أعثر علىٰ مثاله روعة، وتنظيراً، واستقامة، واستيعاباً.

قال الإمام(عليه السلام): «لا يكون المؤمن مؤمناً حتىٰ يكون فيه ثلاث خصال؛ سنّةٌ من ربه، وسنّة من نبيه، وسنّةٌ من وليه،

فأما السنّة من ربه فكتمان السرّ.

وأما السنّة من نبيه فمداراة الناس.

وأما السنّة من وليّه فالصبر في البأساء والضراء»[4].

وتحدث الإمام عن حسن الظن بالله تعالىٰ، والرضا بالرزق المتاح، والتأكيد علىٰ حلّية المؤنة، مستشهداً بقوله تعالىٰ:

---

(١) ابن شعبة / تحف العقول / ٤٤٣.

(٢) سورة غافر / ٤٤ – ٤٥.

(٣) ابن شعبة / تحف العقول / ٤٤٥.

(٤) محسن الأمين الحسيني العاملي / أعيان الشيعة ٤ / ق ٣ / ١٩٢.

﴿اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾[1].

وقائلاً بتوجيه وتسديد، وهو يعني ما يقول: «أحسن الظن بالله، فإنَّ من حَسُنَ ظنه بالله كان الله عند ظنه، ومن رضي بالقليل من الرزق قُبل منه اليسير من العمل، ومن رضي باليسير من الحلال خفّت مؤونته، ونعم أهله، وبصّره الله داء الدنيا ودواءها، وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام»[2].

وأكد الإمام على النبل والمروءة وكرامة الطباع، ووثاقة الأرومة، ومخافة الله في معايير فائقة تضمن خير الدنيا والآخرة، وتجابه الحياة المادية المنحرفة بالتقويم الأمثل.

قال الإمام: «خمس من لم تكن فيه فلا ترجوه لشيء من الدنيا والآخرة: من لم تعرف الوثاقة في أرومته، والكرم في طباعه، والرضا في خلقه، والنبل في نفسه، والمخافة لربّه»[3].

ونهى الإمام عن صفات السوء وخصال الأنانية، ووضع إزاءها مساوئها وردّة أفعالها، في تحذير وترهيب وتوجيه.

قال الإمام: ليس لبخيل راحة، ولا لحسود لذة، ولا لملولٍ وفاء، ولا لكذوب مروءة»[4].

وكما نهى الإمام عن خصال السوء، فقد نهى عن التعلق بجمع المال، إذ لا يتم ذلك إلا بأبشع الوسائل.

قال الإمام: «لا يجمع المال إلاّ بخصال خمس: ببخل شديد، وأمل طويل، وحرص غالب، وقطيعة الرحم، وإيثار للدنيا على الآخرة»[5].

---

(١) سورة سبأ / ١٢.

(٢) ابن شعبة / تحف العقول / ٤٤٨.

(٣) المصدر نفسه / ٤٤٦.

(٤) محسن الأمين الحسيني العاملي / أعيان الشيعة ٤ / ق ٣ / ١٩٥.

(٥) المرجع نفسه ٤ / ق ٣ / ١٩٦ وانظر مصدره.

ووجه الإمام(عليه السلام) الإنسانية بحكم قصار هي آية بالبلاغة، وروعة في الأسلوب وإيجاز في اللفظ، واستيفاء للمعنى.

قال الإمام(عليه السلام): «من خاف أمن، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم».

وقال الإمام(عليه السلام): «صديق الجاهل في تعب، وأفضل المال ما وقي به العرض... والمؤمن إذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا قدر لم يأخذ أكثر من حقه»[1].

هذه رشحات ندية من تلك الدفعات المتوالية من الحكم والأمثال والنصائح، اقتصرنا فيها على ما رأيت، ولسنا بإزاء استقصائها، فهي كثيرة المفردات، متعددة الجوانب، وحسبنا أن ذكرنا نماذج منها تعنى بتهذيب النفس الإنسانية، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان، وهي ثمار تفكير الإمام(عليه السلام) في حياة الإنسان.

«الإمامُ وردَّة الواقفة»

كانت حالة اللاوعي، والفوضى الاجتماعية، تشكلان تحالفاً بغيضاً وسيطرة فجّة على المناخ العقلي، وكانت تلك السيطرة بمخلفاتها راسخة لا تتزلزل، وثابتة لا تتحول.

وكان الإحساس بالضياع والانحلال يتفاقم بين لحظة وأخرى، والشعور بمرارة الأسى يتجدد باستمرار.

وكان الإمام الرضا(عليه السلام) يعيش المأساة السياسية بكل أبعادها، وإذا به يصطدم بمأساة جديدة تنبع بين عشية وضحاها من صميم أصحاب أبيه الإمام

(١) محسن الأمين الحسيني العاملي / أعيان الشيعة ٤ / ق ٣ / ١٩٦.

موسىٰ بن جعفر(عليه السلام)، ويتولىٰ كبرها وكلاء أبيه علىٰ بيت المال في مصر والمدينة المنورة والكوفة الغراء؛ هذه المأساة تتمثل بالقول - في ردّة مضللة - بالوقف علىٰ إمامة موسىٰ بن جعفر(عليه السلام)، وادّعت بأنه حيٌّ لم يمت ولا يموت، فهو القائم المنتظر من آل محمد الذي يملأ الدنيا عدلاً وقسطاً، بعد ان ملئت ظلماً وجوراً، وفي ضوء ذلك أنكروا إمامة الرضا(عليه السلام)، وجحدوا النص عليه بذلك من أبيه.

وقد قوبلت دعاوىٰ هذه الفرقة الضالة بالسخرية والاشمئزاز من قبل الإمامية؛ لأنها كاذبة، وذات أهداف أخرىٰ، تظهر شيئاً وتخبّئ شيئاً آخر، ولا تستند في دعواها إلىٰ دليل نصي أو شرعي أو اجتماعي ينهض بزعمها المرتجل.

قال الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ):

«أمّا الذي يدل علىٰ فساد مذهب الواقفة.. فما ظهر من موته(عليه السلام) (يعني الإمام الكاظم(عليه السلام)) واشتهر واستفاض كما اشتهر موت أبيه وجده ومن تقدمه من آبائه.. علىٰ أن موته اشتهر ما لم يشتهر موت أحد من آبائه(عليهم السلام)، لأنه اظهر، فقد أحضروا القضاة والشهود، ونودي عليه ببغداد علىٰ الجسر، وقيل: هذا الذي تزعم الرافضة انه حيٌّ لا يموت، مات حتف أنفه»[1].

وكان الذي تولّىٰ كبر هذا الأفك ثلاثة من أصحاب الإمام موسىٰ بن جعفر، وهم:

١ - علي بن أبي حمزة البطائني.

٢ - زياد بن مروان القندي.

٣ - عثمان بن عيسىٰ الرواسي.

وكان هؤلاء رؤوس القائلين بالوقف وانضم إليهم آخرون.

ولم يكن هذا القول منهم عقيدة صادقة، وإنما هو محض افتراء ينبئ عن أمر خفيّ، تسره نفوسهم وتضطم عليه جوانحهم، وهو الخيانة. وهذه

---

(١) الشيخ الطوسي / الغيبة / ٢٠.

الخيانة تختص باحتجاز الأموال الشرعية وعوائد الإمام المالية، والتلاعب بمقدرات الأمة دون وازع من ضمير، أو إحساس من تأنيب، بل سولت لهم أنفسهم هذا الخداع، وهم يخادعون أنفسهم.

فالدافع المادي المقيت وراء هذا الزعم المفترىٰ، وإيثار الدنيا علىٰ الدين جرّهم إلىٰ هذا القول الرخيص. ورغم علم هؤلاء بصحة إمامة الرضا بالنص من أبيه عليه، إلا انهم تمسكوا بالضلال بدلاً عن الهدىٰ، وبالهوىٰ بدلاً عن الدليل، وكان الدليل بين أيديهم لا يحجبه شيء عنهم، إلا ذلك الغشاء الضيق من العمىٰ؛ وقد أدرك الإمام موسىٰ بن جعفر (عليه السلام) في حياته ما يدور بخلد هؤلاء النفر، فجمع عيون أصحابه - كما عن عبد الله بن الحارث، وقال لهم: «أتدرون لِمَ جمعتكم؟

قلنا: لا. قال: اشهدوا أن علياً ابني هذا وصيي، والقيّم بأمري، وخليفتي من بعدي»[1].

وعن حيدر بن أيوب قال:

«كنّا بالمدينة في موضع بالقبا، فيه محمد بن زيد بن علي، فجاء بعد الوقت الذي يجيئنا فيه فقلنا له: جعلنا فداك ما حبسك؟ قال: دعانا أبو إبراهيم (يعني الإمام الكاظم (عليه السلام)) اليوم سبعة عشر رجلاً من ولد علي وفاطمة (صلوات الله عليهما)، فاشهدنا لعليٍّ ابنه بالوصية والوكالة في حياته وبعد موته، وان أمره جائز عليه وله.

ثم قال محمد بن زيد: والله يا حيدر، لقد عقد له الإمامة اليوم، وليقولن الشيعة به من بعده»[2].

وأعيان الواقفة قد تصرفوا بغباء في دعواهم الفارغة، وخلعوا برد الإنسانية عن التفكير، ومالوا إلىٰ الدنيا، وتركوا عقولهم وراء ظهورهم،

---

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ /٢٧.

(٢) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ٢٨.

وهذا ما حدا بالإمام موسىٰ بن جعفر(عليه السلام)، أن يشير إلىٰ هذا الملحظ في ضلالهم، فقد روىٰ ابن أبي داود، قال: كنت أنا وعيينة بيّاع القصب عند علي بن أبي حمزة البطائني - وكان رئيس الواقفة - فسمعته يقول:

قال: أبو إبراهيم (موسىٰ بن جعفر) (عليه السلام):

«إنما أنت وأصحابك يا عليّ أشباه الحمير»!!

فقال لي عيينة: أسمعت؟

قلت: أي والله لقد سمعت.

فقال: (لا والله، لا أنقل إليه قدمي ما حييت)[1].

وقال ربيع بن عبد الرحمن: «كان والله موسىٰ بن جعفر(عليه السلام) من المتوسمين، يعلم من يقف عليه بعد موته، ويجحد الإمام بعد إمامته»[2].

وكان الإمام موسىٰ بن جعفر(عليه السلام) يتوسم هذا الحدث، ويستشعر هذه الفتنة، فأكد علىٰ إمامة ولده الرضا(عليه السلام)، وكشف عن جزء مما يجول في صدره من الألم فيما رواه محمد بن سنان؛ قال: «دخلت علىٰ أبي الحسن (موسىٰ بن جعفر) قبل أن يحمل إلىٰ العراق بسنة، وعليّ ابنه بين يديه. فقال لي: يا محمد، قلت لبيّك، قال: ستكون في هذه السنة حركة، فلا تجزع منها، ثم اطرق ونكث بيده في الأرض، ورفع رأسه إليّ؛ وهو يقول: ﴿يُضِلُّ اللهُ الظّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ﴾[3].

قلتُ: وما ذاك جعلت فداك؟

قال: مَنْ ظلم ابني هذا حقه، وجَحَدَ إمامته من بعدي، كان كمن ظلم علي بن أبي طالب(عليه السلام) حقه، وجحد إمامته من بعد محمد(صلى الله عليه وآله).

---

(١) الطوسي / الغيبة / ٤٩.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٧٢.

(٣) سورة إبراهيم / ٢٧.

فقلت: إنه قد نعىٰ إليَّ نفسه، ودلّ علىٰ ابنه!!

فقلت: «والله لئن مدّ الله في عمري لأسلمن إليه حقه؛ ولأقرن له بالإمامة، واشهد أنه من بعدك حجّة الله تعالىٰ علىٰ خلقه، والداعي إلىٰ دينه....»[1].

بيد ان قسماً من الواقفة عدلوا عن موقفهم، ورجعوا إلىٰ الصواب، بعد أن ظهرت لهم دلائل الإمام الرضا(عليه السلام)، وكانوا من أعيان الشيعة ورجالها المعدودين، وعودتهم إلىٰ المنهج السوي كانت بتأثير الحجة البالغة التي لزمتهم، وقد ذكر أغلبهم الشيخ الطوسي[2].

إلا ان بعضاً منهم قد نأىٰ بجانبه، واعرض صفحاً عن الحق من بعد عرفانه، فهذا منصور بن يونس يدخل علىٰ الإمام الكاظم(عليه السلام) فيقول له الإمام: أما علمتَ ما أحدثت في يومي هذا؟

قلت: لا، قال: صيرت علياً ابني وصيي والخلف من بعدي، فادخل عليه وهنئه بذلك، وأعلمه أني أمرتك بهذا.

قال: فدخلت عليه، فهنأته بذلك، وأعلمته أن أباه أمرني بذلك. ثم جحد منصور بعد ذلك، فاخذ الأموال التي كانت في يده وكسرها[3].

وهذا يعني التمادي من قبل منصور بن يونس بالضلال، لان الإمام موسىٰ بن جعفر(عليه السلام) قد لقنه الحجة سافرة، واشهده عليها بين يدي الإمام الرضا(عليه السلام)، إذ امره ان يدخل عليه مهنئاً بالإمامة، وان يعلمه ان هذا بامر من أبيه الكاظم مباشرة، إلا أن الاغترار بالمال، والتمرد علىٰ اوامر الأئمة هي التي دفعت به إلىٰ الهلاك.

---

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ - ٣٢ - ٣٣.

(٢) الطوسي / الغيبة / ٥١.

(٣) الكشي / الرجال / ٣٩٨.

وهذا زياد بن مروان القندي، يروي نفسه ما حدث به الإمام موسىٰ بن جعفر(عليه السلام) يقول: «دخلت علىٰ أبي إبراهيم وعنده عليّ ابنه، فقال لي يا زياد: هذا - وأشار إلىٰ الإمام الرضا - كتابه كتابي، وكلامه كلامي، ورسوله رسولي، وما قال فالقول قوله»[1].

وعن أحمد بن محمد الميثمي، وكان واقفياً، قال: حدثني محمد بن الفضل الهاشمي، قال: «دخلت علىٰ أبي الحسن موسىٰ بن جعفر، وقد اشتكىٰ شكايةً شديدة، قلت له: إن كان ما أسأل الله أن لا يريناه!! فإلىٰ من؟

قال: إلىٰ عليّ ابني، وكتابه كتابي، وهو وصيي وخليفتي من بعدي»[2].

فإذا كان الميثمي راوية هذا الحديث، فلِمَ لا يعمل به؟ ولماذا ظلّ واقفياً منكراً لإمامة الرضا مع عرفانه؟ إنه العناد والإصرار علىٰ الجهل، والميل كل الميل إلىٰ الدنيا، والاستئثار بأموال المسلمين، وهي ودائع لديهم، وأمانات تسلّم للإمام القائم بالأمر.

ولم يكن هذا شأن الميثمي وحده، فقد روي أن الإمام موسىٰ بن جعفر(عليه السلام) حينما مات شهيداً مسموماً، اختانه بعض أصحابه في الأموال التي كانت بحوزتهم.

فكان عند زياد بن مروان القندي سبعون ألف دينار!!

وكان عند حمزة بن بزيع سبعون ألف دينار!!

وكان عند علي بن أبي حمزة البطائني ثلاثون ألف دينار!!

وكان عند عثمان بن عيسىٰ الرواسي ثلاثون ألف دينار وخمس جوارٍ!!

وكان عند أحمد بن أبي بشر السراج عشرة آلاف دينار!![3]

---

(١) الكليني / الكافي ١ / ٣٨١ + المفيد / للارشاد / ٣٤٣.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٢٠.

(٣) ظ: ابن شهر اشوب / المناقب ٣ / ٤٤٨، والنظر الهامش اللاحق.

فبعث إليهم الإمام الرضا أن احملوا ما قبلكم من المال، وما كان اجتمع لأبي عندكم من اثاث وجوارٍ فإني وارثه، وقائم مقامه، فأنكر ذلك البطائني والقندي.

وأما عثمان بن عيسى الرواسي، وكان بمصر، وعنده مال كثير وجوارٍ، فبعث إليه أبو الحسن الرضا(عليه السلام) فيهن، وفي المال، فكتب إلى الإمام: إن أباك لم يمت، وهو حيٌّ قائم، ومن ذكر انه مات فهو مبطل، واعلم أنه قد مضى كما تقول، فلم يأمرني بدفع شيء إليك!!

وأما الجواري؛ فقد اعتقتهن، وتزوجت بهن»[1].

وانبرى الإمام الرضا للواقفة، ففنّد آراءها، وسفّه أحلامها، وحذّر شيعته من انحرافها، وأبان ضلالهم وزندقتهم لئلا ينخدع بهم أحد، أو يصبو لمذهبهم أحد.

لقد سأل الإمام الرضا(عليه السلام) مرة: ما فعل الشقي حمزة بن بزيع؟

فقال إبراهيم بن يحيى بن أبي البلاد: هو ذا قد قدم!!

فقال الإمام الرضا(عليه السلام): يزعم أن أبي حيٌّ!! هم اليوم شكّاك، ولا يموتون غداً إلاّ على الزندقة!!

يقول صفوان بن يحيى: فقلتُ في نفسي: شكّاك قد عرفتهم؛ فكيف يموتون على الزندقة؟ فما لبثنا إلا قليلاً، حتى بلغنا عن رجل منهم أنه قال عند موته: هو كافرٌ بربٍّ أماته!!

فقلت: هذا تصديق الحديث»[2].

---

(١) ظ: الصدوق / علل الشرائع / ٣٦، طبع النجف + الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١١٢ + الطوسي / الغيبة / ٤٦ + الكشي / الرجال / ٣٠٧ + المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢٥٢.

(٢) الطوسي / الغيبة / ٤٩ + ابن شهراشوب / المناقب ٣ / ٤٤٨ + المجلسي / بحار الأنوار ٤٨ / ٢٥٦.

ولقد أبان الإمام الرضا(عليه السلام) في إحدى رسائله إلى أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي، أسباب ودواعي بعض أقطاب الواقفة للقول بالوقف، قال الإمام الرضا(عليه السلام):

«أما ابن السرّاج؛ فإنما دعاه إلى مخالفتنا، والخروج من أمرنا، أنه عدا على مال لأبي الحسن عظيم، فأقتطعه في حياة أبي الحسن، وكابرني عليه، وأبى أن يدفعه، والناس كلهم مسلّمون ومجتمعون على تسليمهم الأشياء كلها إليَّ، فلما حدث ما حدث من هلاك أبي الحسن، اغتنم فراق علي بن أبي حمزة وأصحابه إياي وتعلل، ولعمري ما به من علة إلا إقتطاعه المال، وذهابه به»[(١)].

وكان تصديق ما قاله الإمام بالضبط ما رواه صهر ابن السراج عنه أنه قال لما حضرته الوفاة:

«إنه كان عندي عشرة آلاف دينار وديعة لموسى بن جعفر، فدفعت ابنه عنها بعد موته، وشهدت أنه لم يمت، فالله الله خلصوني من النار وسلّموها للرضا، فوالله ما أخرجنا حبّة، ولقد تركناه يصلى في نار جهنم»[(٢)].

وامّا علي بن أبي حمزة البطائني راس الواقفة، فقد شرح الإمام الرضا دوافعه للقول بالوقف، مضافاً إلى احتجازه الأموال.

قال الإمام: «وامّا ابن أبي حمزة، فإنه رجلٌ تأول تأويلاً لم يحسنه، ولم يُؤتَ علمه، فألقاه إلى الناس فلجّ فيه، وكره إكذاب نفسه في إبطال قوله، بأحاديث تأولها ولم يحسن تأويلها، ولم يُؤتَ علمها. ولكنه قصر علمه عن غايات ذلك وحقائقه، فصار فتنة أو شبهة عليه، وفرّ من أمر فوقع فيه...»[(٣)].

ومعنى هذا أن ابن أبي حمزة لم يستوعب دلائل أحاديث الأئمة، وقد قصر علمه عن إدراكها، وتداعى فهمه عن استكناهها، فوقع في شبهات لم يستطع

---

(١) الحميري / قرب الأسناد / ٢٠٦.

(٢) الطوسي / الغيبة / ٤٨.

(٣) الحميري / قرب الاسناد / ٢٠٦.

الخروج منها، ولم يردّ إتهام نفسه أو تكذيبها. فيما ذهب إليه، فقاده هذا وذاك إلى إنكار وفاة الإمام الكاظم، وإلى الخيانة باقتطاع الحقوق والأموال.

وكان تصدي الإمام الرضا للبطائني واتباعه ضرورة عقائدية تفرضها مسؤولية الإمامة بدحض الباطل، وحفظ بيضة الإسلام، لئلا يستميل هؤلاء بعض المغفلين فيشمل الضلال مساحة أوسع.

قال محمد بن سنان:

«ذكر ابن أبي حمزة عند الإمام الرضا(عليه السلام)، فلعنه، ثم قال: إن علي بن أبي حمزة أراد أن لا يعبد الله في سمائه وأرضه، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون، ولو كره اللعين المشرك.

قلت: المشرك؟

قال الإمام الرضا: نعم والله رغم أنفه، كذلك هو في كتاب الله:

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[1].

وقد جرت فيه وفي أمثاله، إنه اراد أن يطفئ نور الله»[2].

وقد اكد الإمام الرضا(عليه السلام) هذا المعنى في مواقف تاريخية جديرة بالنظر والاعتبار، وهو في هذا يذهب إلى كشف خفايا الأمور والأحداث بهدف هداية الناس وصدق الكلمة.

روى أحمد بن محمد بن أبي النصر البزنطي، قال: «وعدنا أبو الحسن الرضا(عليه السلام) ليلةً إلى مسجد دار معاوية، فجاء فسلّم(عليه السلام) فقال: إن الناس قد جهدوا على إطفاء نور الله حين قبض الله تبارك وتعالى رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وأبى الله إلاّ أن يتم نوره، وجهد علي بن أبي حمزة على إطفاء نور الله حين مضى أبو الحسن(عليه السلام)، فأبى الله إلا أن يتم نوره، وقد هداكم الله لأمر جهله الناس، فاحمدوا الله على ما منّ عليكم به.

---

(١) سورة التوبة / ٣٢.

(٢) الطوسي / الغيبة / ٥٠.

إن جعفراً (عليه السلام) كان يقول: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[1].

فالمستقر ما ثبت من الإيمان، والمستودع المعار»[2].

وقد يتحدث الإمام عن هؤلاء بلمح الغيب، كما روى الحسن بن علي الوشا، قال: «دعاني سيدي الرضا (عليه السلام) بمرو، فقال: يا حسن، مات علي بن أبي حمزة البطائني في هذا اليوم، وادخل في قبره الساعة، ودخل عليه ملكا القبر، فساءلاه:

من ربك؟ فقال: الله.

ثم قالا من نبيك؟ فقال: محمد.

فقالا: من وليّك؟ فقال: علي بن ابي طالب.

قالا: ثم مَنْ؟ قال: الحسن.

قالا: ثم مَنْ؟ قال: الحسين.

قالا: ثم مَنْ؟ قال: علي بن الحسين.

قالا: ثم مَنْ؟ قال: محمد بن علي.

قالا: ثم مَنْ؟ قال: جعفر بن محمد.

قالا: ثم مَنْ؟ قال: موسى بن جعفر.

قالا: ثم مَنْ؟ فلجلج، فزجراهُ، وقالا: ثم مَنْ؟ فسكت.

فقالا له: أفموسى بن جعفر أمرك بهذا؟

ثم ضرباه بمقمعة من نار، فالهَبا عليه قبره إلى يوم القيامة.

قال: فخرجت من عند سيدي، فورخت ذلك اليوم، فما مضت الأيام حتى وردت كتب الكوفيين بموت البطائني في ذلك اليوم، وانه ادخل قبره في تلك الساعة»[3].

---

(١) سورة الأنعام / ٩٨.

(٢) الحميري / قرب الاسناد / ٢٠٢.

(٣) ابن شهراشوب / المناقب ٣ / ٤٤٩.

ولئن جهد الإمام الرضا في صدّ مفتريات الواقفة وخياناتهم، فلقد تصدى لهم أصحاب الإمام وأصحاب أبيه، وصمدوا لهم صمداً عجيباً، فهذا يونس بن عبد الرحمن، قد لاحق البطائني وزياداً القندي ملاحقة شديدة، وكذّب أُحدوثتهما، فحاولا صدّه عند ذلك، وبذلاله الأموال، ولكنه صدح بالحق.

يقول يونس بن عبد الرحمن: «مات أبو إبراهيم (الإمام الكاظم) وليس من قوامه أحد إلا وعنده المال الكثير، وكان سبب وقفهم وجحدهم موته: طمعاً في الأموال؛ وكان عند زياد القندي سبعون ألف دينار، وعند علي بن أبي حمزة ثلاثون ألف دينار، فلمّا رأيت ذلك وتبينتُ الحق، وعرفت من أمر أبي الحسن ما عرفت، ودعوت الناس إليه، فبعثا إلي وقالا: ما يدعوك إلى هذا؟ إن كنتَ تريد المال فنحن نغنيك، وضمنا لي عشرة آلاف دينار، وقالا لي: كفَّ، فأبيت.

وقلت لهما: إنّا روينا عن الصادقين()، أنهم قالوا: «إذا ظهرت البدع، فعلى العالم أن يظهر علمه، فإن لم يفعل، سلب نور الإيمان. وما كنت لأدع الجهاد في أمر الله على كل حال، فناصباني وأضمرا لي العداوة»[1].

وهكذا كانت هذه الرّدة مدعاة إلى صدع الصف وتفريق الكلمة، ولكنها ما لبثت أن تبخرت كقطعة ثلج في وهج الشمس.

وكان هذا ببركة قيادة الإمام الرضا الرائدة.

❖ ❖ ❖

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ١١٣.

الفصل الثالث

حياة القرآن في قيادة الإمام الرضا (عليه السلام)

١ - القرآن في فكر الإمام(عليه السلام).

٢ - التفسير الدلالي عند الإمام(عليه السلام).

٣ - قصص القرآن في أسلوب الإمام(عليه السلام).

٤ - التفسير العام في أبعاد موضوعية.



القرآن في فكر الإمام

ولمّا كان القرآن العظيم معجزة محمد(ﷺ) الخالدة، والأصل الأول للتشريع الإسلامي الحنيف، وكتاب العربية الأكبر، فقد مازج فكر الإمام الرضا(عليه السلام) علماً وعملاً، فأولاه عناية خاصة، ودعا إلى الاعتصام به، وأكدّ على التقيّد الدقيق بأوامره وزواجره ونواهيه، وألمح إلى الاستضاءة بنور هديه، وحمل المسلمين على تدبّر معانيه ومبانيه، والسير وفق خططه في الريادة والاستنباط، وقد عبر عنه الإمام الرضا: «أنه المهيمن على الكتب كلّها، وانه حقٌّ من فاتحته إلى خاتمته، نؤمن بمحكمه ومتشابهه، وخاصه وعامه، ووعده ووعيده، وناسخه ومنسوخه، وقصصه وأخباره، لايقدر احد من المخلوقين أن يأتي بمثله»[1].

وهذا العرض من تعبير الإمام عن القرآن، والدعوة إلى الأخذ بتعليماته، والإيمان بعلومه ليس أمراً طارئاً، بل هو من صميم العقيدة التي يحملها بين جنبيه، تلك العقيدة التي تعدّ القرآن سراج الدين والدنيا، وكتاب الهداية والنور المبين الذين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لذا كان اعتداده بالقرآن مقترناً بالنظر الموضوعي لكيانه الخاص، فهو يقول عنه: (هو حبل الله المتين، وعروته الوثقى، وطريقته المثلى، المؤدّي إلى الجنّة، والمنجي من النار، لا يخلق على الأزمنة، ولا يغثّ على الألسنة، لأنه لم يجعل لزمان دون زمان، بل جعل دليل البرهان والحجّة على كل إنسان، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»[2].

---

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ٢ / ١١٢.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٣٠.

وكان اعتداد الإمام(ع) بالقرآن منسجماً مع اعتماره في ظلاله، واضطلاعه بترديد آياته، والإنصات إلى بليغ عباراته فقد كان يختمه(ع) في كل ثلاثة أيام، ويقول: لو أردت أن أختمه في أقرب من ثلاثة تختمت، ولكنني ما مررت بآية قطّ إلا فكرّت فيها، وفي أي شيء نزلت، وفي أي وقت؟ فلذلك صرت أختم في كل ثلاثة أيام»[1].

وهذا التعلّق الذاتي في القرآن من قبل الإمام تلاوة وتذكيراً، وعبادة وتفكيراً، يعبّر عن مدى الاعتداد به، والإمعان فيه، والتلبّث عنده، فلا يمرّ به مروراً عابراً، بل أفاد منه عظة وعبرة وتجربةً، فقد روي عنه أنه(ع):

«كان يكثر بالليل في فراشه من تلاوة القرآن، فإذا مّر بآية فيها ذكر الجنة أو النار بكى، وسأل الله الجنة، وتعوّذ من النار»[2].

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين في هذا الصدد:

«وكما أراد - يعني الإمام الرضا - من المسلمين الارتفاع عن مستوى القراءة السطحية لألفاظ القرآن المجيد إلى درجة الفهم والإدراك لأفكاره ومطالبه لأنه (دليل البرهان، والحجة على كل إنسان) ليزدادوا بهذا التدّبر والتّفكر إيماناً بربهم، وتمسكاً بدينهم، فإنه أراد منهم أن يجعلوا عباداتهم التي يتقربون بها إلى الله تعالى على هذا المستوى أيضاً في مصاحبتها للوعي والتعمق، وحسن الخلق، وصفاء النفس، واستقامة السلوك مع الناس»[3].

وكان هذا التوجه نحو القرآن بهذه النظرة الثاقبة نابعاً من الفكر الهادف لدى الإمام باعتبار تلاوة القرآن نوعاً من العبادة، فينبغي أن تكون هذه العبادة أداة للوعي الاجتماعي العام، وسبيلاً إلى الإدراك الجوهري

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ١٨٠.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٨٠.

(٣) محمد حسن آل ياسين / الإمام علي بن موسى الرضا / ١٠٦.

الخاص، لا مجرد طقوس جامدة بعيدة عن الفكر والحياة، والإمام يكرر هذا الملحظ ويؤكده بقوله: «ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر في أمر الله عز وجل»[1].

ومن هذا المنطلق الباهر كانت ريادة الإمام في الغوص بأعماق القرآن ضمن إيحاء تقويمي للذات الإنسانية، وفي سياق إرشادي سليم، بعيد عن الإغلاق والإبهام، قريب من الإبانة والوضوح، ولأول مرة في تاريخ القرآن نشاهد الإمام الرضا(ع) يرى من خلال إعجاز القرآن؛ أن معجزة كل نبي تتمشى باتجاه ما يلائم عصر ذلك النبي، وبما ينسجم مع فنون جيله، ويتقارب من تجارب زمنه، ويُعزى إلى حياة قومه، ولو في وجه بارز من الوجوه الناظرة إلى مدارك الإعجاز.

فقد سأل ابن السكيّت الإمام الرضا(ع) قائلاً: لماذا بعث الله عز وجل موسى بن عمران بالعصا ويده البيضاء وآله السحر؟ وبعث عيسى بالطب؟ وبعث محمداً(ص) بالكلام والخطب؟

قال الإمام في جوابه:

«إن الله تبارك وتعالى لمّا بعث موسى(ع)، كان الأغلب على أهل عصرِه السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم، وإن الله بعث عيسى(ع) في وقت قد ظهرت فيه الزمانات، وإحتياج الناس إلى الطب، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيا به الموتى، وأبرا الأكمة والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجّة عليهم. وإن الله بعث محمداً(ص) في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام، - وأظنه قال الشعر - فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجّة عليهم:

---

(١) الكليني / الكافي ٢ / ٥٥.

فقال ابن السكّيت: تالله ما رأيت مثلك قط!! فما الحجّة على الخلق اليوم؟

قال الإمام الرضا(عليه السلام): العقل يعرض به الصادق على الله فيصدقه، والكاذب على الله فيكذبه».

فقال ابن السكّيت: هذا والله هو الجواب[1].

وفي هذا الملحَظ استدل الإمام الرضا على إعجاز القرآن بحروف المعجم العربي، ومنه الحروف المقطعة في أوائل السُّور القرآنية فقال(عليه السلام):

«إن الله تبارك وتعالى أنزل هذا القرآن بهذه الحروف التي يتداولها العرب، ثم قال: **﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾**[2][3].

وتجرد الإمام لحياة القرآن في تفسيره في ضوء المنطق الاستقرائي والدليل البديهي، وهما يتضافران في إحكام التفسير دون عفثٍ وإرهاق.

وظاهرة أخرى لها اهميتها لدى الإمام لأن بها تمام التفسير متكاملاً، وذلك في ردّه متشابه القرآن إلى محكمه، وهو يدعو إلى هذا المنهج، كما في قوله(عليه السلام):

«من ردّ متشابه القرآن إلى محكمة هُدي إلى صراط مستقيم»[4].

ولمّا كان الإمام من الراسخين في العلم دون ريب، فهو أولى من يردّ متشابه القرآن إلى محكمه، وقد كان ذلك.

والمأمون العباسي كان يتحين الفرص بسؤال الإمام عن مشكلات القرآن وغوامضه، والاستفسار عن مبهماته ومجملاته، مما يحتاج إليه المفسر علماً آخر من ذي علم، مع التعليل المنطقي الذي تتسع له ذهنية

---

(١) الكليني / أصول الكافي ١ / ٢٤.

(٢) سورة الاسراء / ٨٨.

(٣) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ١٣٠.

(٤) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ٢٩٠.

المتلقي بيسر وإسماح، يضاف إلى ذلك القناعة التامة بصدق الإيراد والاستدلال وروح التفسير.

وساكتفي بأنموذج فيما يترصده المأمون ويتصنعه!!

فعن أبي الصلت الهروي، قال: سأل المأمون أبا الحسن علي بن موسى الرضا(عليه السلام) عن قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1].

فقال الإمام الرضا(عليه السلام):

«إن الله تبارك وتعالى خلق العرش والماء والملائكة قبل خلق السماوات والأرض، فكانت الملائكة تستدل بأنفسها وبالعرش والماء على الله عزّ وجل، ثم جعل عرشه على الماء ليظهر بذلك قدرته للملائكة، فيعلموا أنه على كل شيء قدير، ثم رفع العرش بقدرته، ونقله وجعله فوق السماوات السبع، ثم خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهو مستوٍ على عرشه، وكان قادراً أن يخلقها في طرفة عين، ولكنه تعالى خلقها في ستة أيام ليظهر للملائكة منها شيئاً بعد شيء، فيستدل بحدوث ما يحدث على الله مرة بعد مرة، ولم يخلق الله العرش لحاجة به إليه، لأنه غنيٌّ عن العرش، وعن جميع ما خلق، لا يوصف بالكون على شيء لأنه ليس بجسم، تعالى عن صفة خلقه علواً كبيراً.

وامّا قوله تعالى: **﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾**.

خلقهم ليبلوهم بتكليف طاعته وعبادته، لا على سبيل الامتحان والتجربة، لأنه لم يزل عليماً بكل شيء»[2].

---

(١) سورة هود /٧.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٣٤ – ١٣٥.

والمتلقي يرىٰ في هذه الإجابة الشاملة عدة ملاحظ دقيقة :

١ - كون الله تعالىٰ خلق العرش والماء والملائكة قبل خلق السموات والأرض .

٢ - إن الله تعالىٰ بجعله العرش علىٰ الماء أراد إظهار قدرته للملائكة ، ثم رفع العرش بقدرته ونقله من موقعه ، وجعله فوق السماوات السبع .

٣ - إن الله تعالىٰ خلق السموات والأرض تدريجياً في ستة أيام ، مع القدرة علىٰ خلقها بطرفة عين بأمر منه (كن فيكون) . وقد أراد بهذا الاستدلال علىٰ إحداث ما يحدثه علىٰ التوالي مرة بعد مرة دلالة علىٰ ذاته القدسية ، وليري الملائكة كيفية هذا الخلق الجديد شيئاً بعد شيء ، وهذ كله مما يضاعف عظمته ، ويظهر قدرته أمام الملائكة .

٤ - إن الله سبحانه وتعالىٰ حينما يستوي علىٰ العرش ، ويخلقه ، فهو ليس بحاجة إليه ، لأنه غني عن العرش ، وعن جميع ما خلق من المحدثات .

٥ - والله تعالىٰ حينما خلق العرش ، لا يوصف بالكون علىٰ شيء ، لأنه ليس بجسم ، والعرش بهذا حقيقة كبرىٰ فوق حقائق الأشياء .

٦ - وكان وراء هذا الخلق العظيم للسماوات والأرض وسواهما الابتلاء بالتكليف طاعة وعبادة وخلوصاً .

٧ - وهذا التكليف والابتلاء بتنفيذه ، لم يكن من قبل الله عزَّ وجلَّ علىٰ سبيل الامتحان والتجربة ، فهو العليم بها ابتداءً ، ولم يزل عليماً بكل شيء .

هذا التسلسل التفسيري في متابعة الإمام له ، يكشف عن مدىٰ ارتباطه بآبائه وأجداده دون حجاب ، وذلك أن المعلومات التي فصّلها الإمام بدقة وموضوعية ، كانت جديدة علىٰ عصر الإمام ، وجديدة علىٰ المستوىٰ المعرفي ، وهو بهذا العرض الوثيق والتعليل السليم ، يوحي بتلقيه من مصادر

عليا تتصل بالرسول الأعظم(ﷺ)، وتحكي عن مخزون أهل البيت(عليهم السلام) في الإمداد التفسيري المتطور الذي لا يسمع مستمعه معه إلا التسليم.

وكان الفكر القرآني في تراث الإمام مركز دائرة الموسوعات القرآنية النادرة، وقطب رحاها الراسخ، فهو يعنى بملكوت السماوات والأرض، ويحدب على تنزيه الباري عن الشبيه والنظير والجسم والكيفية والأين، وهو يعنى بأسماء الله الحسنى، ويعرض لقصص القرآن، ويتناول حديث الأنبياء وأممهم، ويعلل بعض الآيات تفسيراً محكماً، ويعنى بفقه القرآن وأحكامه؛ ولمّا كان هذا البحث جزءاً من الكتاب، كان من العسير الإحاطة بهذا المدّ المتدافع إلا لماماً، كما سترى.

التفسير الدلالي عند الإمام

ولعل ابرع ما تجده عند الإمام الرضا(عليه السلام) في معالم التفسير، هو ذلك التعليل الناطق بآثاره الدلالية، من قبل أن يُكتشف مصطلح الدلالة قبل أحد عشر قرناً من الزمان. وذلك هو التفسير الذي تقرأ في حناياه بعداً دلالياً مقصوداً إليه، وعادة ما يرتكز ذلك على رصد جديد في استقراء المجهول وفصول الخطاب.

وقد تتولد من خلاله نظرية (معنى المعنى) التي نهد بها الغربيون بعد الإمام بأكثر من الف عام، فتجد في إضاءة الإمام وإفاضته التأكيد على المعنى الأولي والإيحاء بالمعنى الثانوي للآية، وذلك ما يتطلب ذائقة فنية من جهة، وجهداً إضافياً في التفسير من جهة اخرى، وقد نهض الإمام الرضا(عليه السلام) بهذه المهمّة مظفراً، وسجّل فيها سبقاً علمياً، وابتكر من خلالها فكراً موضوعياً.

وكانت طبيعة الحياة الفكرية في عصر الإمام قد اكتسبت روح الجدل، وتمحورت حول موضوعات معينة من القرآن الكريم يطول فيها النقاش ويكثر الخصام، وقد تكون بوادرها متأثرة تأثُّراً شديداً بالعمق الكلامي والنظر الفلسفي، ولكنهما في موضوعهما الرئيس قد جعلا القرآن في تفسيره مدخلاً لتلك البحوث الدائرة بإطاره، وقد تخرج عنه لمناخ آخر.

وكان الإمام(عليه السلام) في كشفه الدلالي يصدر عن فطرة نقيّة تغوض في العمق القرآني فيضاً وعطاءً، فيكسبها زخماً لغوياً نابضاً، أو رصداً روحياً جديداً، وثراءً أخلاقياً بين ذلك، وبذلك يلتقي الهدف الديني السمح بالهدف الفنّي الأصيل. والإمام(عليه السلام) في هذا المنهج الرائد يلقي ظلالاً وارفة في دلالة القرآن على المعنى المراد، ومعنى المعنى في القرآن.

سأل رجل الإمام عن قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1].

فأفاض الإمام(عليه السلام) مبادئ المعاني السامية للتوكل على الله، وأضاف المفاهيم الدلالية لدرجات التوكل على الله، وأشاد بأصالة إلى أهمية تفويض العبد أمره في شؤونه كافة إلى الله، مما يوحي بما يضمُّه النص القرآني في طياته من إشارات سامية.

قال الإمام: «التوكل درجات منها: ان تثق به في أمرك كله فيما فعل لك، فما فعل بك كنت راضياً، وتعلم انه لم يالك إلاّ خيراً ونظراً، وتعلم ان الحكم في ذلك له، فتوكل عليه بتفويض ذلك إليه، ومن ذلك الإيمان بغيوب الله التي لم يحط علمك بها، فوكلت علمها إليه وإلى أمنائه عليها، ووثقت فيها وفي غيرها»[2].

---

(١) سورة الطلاق / ٣.

(٢) ابن شعبة / تحف العقول / ٤٤٣.

والإجابة هنا لا تعنى بلفظ (التوكل) لغوياً، ولكنها تعنى به دلالياً في إضاءة لمعنى المعنى المنشود، وقد يكون الجواب مما لا يحظر على ذهن السائل إيراده، ولكن الإمام أراد بهذا الأداء الرفيع إذكاء هذه المعاني بحركة فاعلة تنطلق من صميم عائدية التفسير.

وكان نهج الإمام الرضا(عليه السلام) في إرادة المعاني الثانوية للآية متوافراً على لمسات حيّة يعرضها الإمام بأداء مقارن لطبيعة التوجه من السؤال في أبعاد تتردد بين خاصة العلماء والباحثين، لاشتمالها على عمق فلسفي، أو بحث عقائدي، أو رأي كلامي، مما يحقق مهمة التفسير في استقراء دلالة الألفاظ روى الحسن بن علي بن فضال، قال:

«سألت الرضا علي بن موسى(عليه السلام) عن قول الله عزَّ وجل:

﴿كَلَّاۤ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[1].

فقال الإمام: إن الله تبارك وتعالى لا يوصف بمكان يحلّ فيه فيحجب عنه عبادُه، ولكنه يعني أنهم عن ثواب ربهم محجوبون»[2].

وهنا نلحظ الإمام(عليه السلام) قد نزه الباري عزَّ وجل وجرّده عن المكان، وأعطى للآية دلالتها الإيحائية في حجب العباد عن الثواب.

وسأله عن قوله تعالى: ﴿وَجَاۤءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[3].

فقال الإمام: «إن الله عزَّ وجل لا يوصف بالمجيء والذهاب، تعالى الله عن الانتقال، إنما يعني بذلك: وجاء أمر ربك والملك صفاً صفاً»[4].

قال: وسألته عن قول الله عزَّ وجل: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾[5].

---

(١) سورة المطففين / ١٥.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٢٥.

(٣) سورة الفجر / ٢٢.

(٤) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٢٥.

(٥) سورة التوبة / ٧٩.

وعن قوله تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ﴾[1].

وعن قوله عزَّ وجل: ﴿يُخادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ﴾[2].

فقال الإمام الرضا(عليه السلام):

«إن الله تبارك وتعالىٰ لا يسخر، ولا يستهزئ، ولا يمكر، ولا يخادع، ولكنه عزَّ وجل يجازيهم جزاء السخرية، وجزاء الاستهزاء، وجزاء المكر والخديعة.

تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً»[3].

والإمام بهذا التفسير وما قبله يضع أساس المجاز العقلي في القرآن منذ عهد مبكر، ومن قبل أن يكتشفه عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) بأكثر من قرنين ونصف من الزمان.

والإمام في التفسير الدلالي لا يكتفي بالدلالة المركزية للألفاظ، وإنما يعطيها معنىً إضافياً متحركاً، وقد يقرع الحجّة بالحجّة، وينتزع الإقرار في ذلك عفوياً من الخصم، لأنه يضعه بين يدي الحقيقة العلمية مجردة عن اللبس والإيهام والغموض.

وقد كان المأمون العباسي، وهو ذو ثقافة جيدة، يتعمد نوعاً خاصاً من المحاورة والاستفهام للإمام، بحضور من يجمعه حول الإمام من العلماء والسائلين وأهل النظر، عسىٰ أن يخرج الإمام في شيء من ذلك بحسبانه، فيبلغ ما يريد استفزازاً أو تشفّياً، إلا أن المأمون قد سجل علىٰ نفسه الخسران، فأخفق في نتائج هذه الأدوار وإن أحسن تمثيلها، وعاد يسحب ذيل الخيبة والفشل، فقد حضر الإمام(عليه السلام) مجلس المأمون «وقد اجتمع فيه

---

(١) سورة آل عمران / ٥٤.

(٢) سورة النساء / ١٤٢.

(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٢٦.

جماعة من علماء أهل العراق وخراسان، فقال المأمون: أخبروني عن معنى هذه الآية:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[1].

فقالت العلماء: أراد الأمّة كلها!!

فقال المأمون: ما تقول يا أبا الحسن؟

فقال الإمام الرضا: لو أراد الأمة لكانت أجمعها في الجنة!!

فسألته العلماء: أخبرنا يا أبا الحسن عن العترة هم الآل أو غير الآل؟

فقال الإمام الرضا: هم الآل.

فقالت العلماء: فهذا رسول الله(ﷺ) يؤثر عنه أنه قال: (أمتي آل) وهؤلاء أصحابه يقولون بالخبر المستفيض الذي لا يمكن دفعه: آل محمد أمته.

فقال الإمام الرضا: أخبروني هل تحرم الصدقة على آل محمد؟

قالوا: نعم، قال(ع): فتحرم على الأمة؟ قالوا: لا.

قال الإمام: هذا فرق بين الآل وبين الأمة..»[2].

وثمة انطلاقات قيّمة للإمام في مجال التوحيد من خلال تفسير القرآن دلالياً، ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[3].

قال الإمام الرضا(ع):

«للناس في التوحيد ثلاثة مذاهب: نفي، وتشبيه، وإثبات بغير تشبيه. فمذهب النفي لا يجوز، ومذهب التشبيه لا يجوز، لأن الله تبارك وتعالى لا يشبهه شيء. والسبيل في الطريقة الثالثة: إثبات بلا تشبيه».

---

(١) سورة فاطر / ٣٢.

(٢) ابن شعبة / تحف العقول / ٣١٨ - ٣١٩.

(٣) سورة الأنعام / ١٩.

روىٰ هذا الطباطبائي، وعلّق عليه شارحاً:

«المراد بمذهب النفي: نفي معاني الصفات عنه تعالىٰ، كما ذهبت إليه المعتزلة. وفي معناه إرجاع الصفات الثبوتية إلىٰ نفي ما يقابلها، كالقول بأن معنىٰ القادر أنه ليس بعاجز، ومعنىٰ العالم أنه ليس بجاهل. والمراد بمذهب التشبيه أو يشبهه تعالىٰ بغيره - وليس كمثله شيء - أي أن يثبت له من الصفة معناه المحدود الذي فينا المتميز من غيره من الصفات، بأن يكون قدرته كقدرتنا، وعلمه كعلمنا، وهكذا، ولو كان ماله من الصفة كصفتنا، احتاج كاحتياجنا، فلم يكن واجباً، تعالىٰ عن ذلك.

والمراد بمذهب الإثبات من غير تشبيه: أن يثبت له من الصفة أصل معناه، وتنفي عنه خصوصيته التي قارنته في الممكنات المخلوقة، اي تثبت الصفة وتنفي الحد»[1].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[2].

سئل الإمام(عليه السلام) عن إرادة العباد وإرادة الله، فقال:

«إن الإرادة من العباد الضمير، وما يبدو بعد ذلك من الفعل، وأمّا من الله عزّ وجل فالإرادة للفعل إحداثه، إنما يقول: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾[3] بلا تعب وكيف»[4].

ونحن نرىٰ الإمام في الآية الأولىٰ متحدثاً عن التوحيد في إطار كلامي وفلسفي، وأن الله واحد لا شريك له، ونفىٰ معاني الصفات عنه تعالىٰ،

---

(١) الطباطبائي / الميزان في تفسير القرآن ٧ / ٤١ - ٤٢.

(٢) سورة النساء / ٢٦.

(٣) سورة آل عمران / ٥٩، وسواها.

(٤) السبزواري / مواهب الرحمن ١ / ١٤٠ وانظر مصدره.

ونفى المعنى المحدود وبمذهب التشبيه له تعالى، وأثبت للباري عزَّ وجل من الصفة أصل المعنى مع نفي الحدّ.

وفي الآية الثانية، نرى الإمام(عليه السلام) متحدثاً حديثاً تكوينياً عن الفروق المميزة بين إرادة الله تعالى وإرادة العباد.

وفي الآيتين بدا البعد الكلامي مسيطراً على التفسير في دلالته وفقاً لما يتطلبه الوعي العقائدي الذي يسعى إليه الإمام.

وكان المجتمع الإسلامي في ظروفه السياسية وواقعه الاجتماعي، وفي ضوء حياة الترجمة للآثار عن اللغات العالمية، وفي عصر الزندقة والإلحاد في الموجة الوافدة على المسلمين، حريصاً على هذا النوع من الأسئلة، لكثرة المفارقات والمداخلات التي أقلمت الأذهان بهذا النوع من الإشكاليات، فكان الإمام(عليه السلام) مدرّعاً باستعداد باهر للإجابة عن ماهية هذه الأسئلة، ليواجه بذلك المناخ المتشعب لدى فصائل كثيرة من الباحثين في خوضهم احاديث الشبه والتجسيم. ففي قوله تعالى: ﴿**وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ**﴾[1].

يقول الإمام الرضا(عليه السلام): «إن الله لا يوصف بالترك كما يوصف خلقه، ولكنه متى علم أنهم لا يرجعون عن الكفر والضلالة، منعهم المعاونة واللطف، وخلّى بينهم وبين اختيارهم..»[2].

وكان الزخم المتصاعد في هذه الإيرادات منطلقاً من سياسة قصد إليها النظام العباسي إثارة للشبهات من وجه، وإشغالاً للأمة عن التفكير في المصير من وجه آخر، لذا نجد الإمام - وقد عرف دخائل الأمور - جاداً في عطائه الذي لا ينفد.

---

(١) سورة البقرة / ١٧.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٢٣.

فعن عبد العزيز بن مسلم، قال: سألت الرضا(عليه السلام) عن قول الله عزّ وجل: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[1].

فقال: إن الله لا ينسى ولا يسهو، وإنما ينسى ويسهو المخلوق المحدث، الا تسمعه عزّ وجل يقول: ﴿وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾[2] وإنما يجازي من نسيه ونسي لقاء يومه بأن ينسيهم أنفسهم كما قال عزّ وجل: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا﴾[4].

أي نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا»[5].

قال الإمام: الإقرار بانه لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، وأنه مثبت قديم، موجود غير مقيد، إنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[6][7].

وعن محمد بن علي الخراساني خادم الإمام الرضا(عليه السلام)، قال: قال بعض الزنادقة لأبي الحسن(عليه السلام): هل يقال لله أنه شيء؟

قال الإمام: نعم، وقد سمى نفسه بذلك في كتابه، فقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[8]. فهو شيء: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[9][10].

---

(١) سورة التوبة / ٦٧.

(٢) سورة مريم / ٦٤.

(٣) سورة الحشر / ١٩.

(٤) سورة الأعراف / ١٥.

(٥) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٢٥.

(٦) سورة الشورى /١١.

(٧) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٣٣.

(٨) سورة الأنعام / ١٩.

(٩) سورة الشورى /١١.

(١٠) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٣٤.

وعن إبراهيم بن أبي محمود، وقد سأل الإمام الرضا عن قوله تعالىٰ: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ﴾[1].

قال الإمام: الختم هو الطبع على قلوب الكفار عقوبة علىٰ كفرهم كما قال عزَّ وجل: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَليلاً﴾[2].

قال: وسألته عن الله عزَّ وجل: هل يجبر عباده علىٰ المعاصي؟

فقال الإمام: بل يخيّرهم، ويمهلهم حتىٰ يتوبوا.

قلت: فهل يكلف عباده ما لايطيقون؟

فقال: كيف يفعل ذلك؟ وهو يقول: ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾[3].

ثم قال(عليه السلام): حدثني أبي موسىٰ بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد(عليهما السلام)، أنه قال:

«من زعم أن الله تعالىٰ يجبر عباده علىٰ المعاصي، أو يكلّفهم ما لا يطيقون، فلا تأكلوا ذبيحته، ولا تقبلوا شهادته، ولا تصلّوا خلفه، ولا تعطوه من الزكاة شيئاً»[4].

وانت ترىٰ في جميع هذه الشذرات الثمينة من إفاضات الإمام التفسيرية، أنه لا يعطي معنىٰ الآية التحليلي أو اللغوي، وإنما يؤكد عن المراد الدلالي منها في تنزيه الله سبحانه وتعالىٰ عما يصفه به بعض المتكلمين، فهو في هذا كله يبحث عن (معنىٰ المعنىٰ) في الآية.

وكما نزَّه الإمام الله تعالىٰ في هذا النحو من التفسير، فقد نزّه الأنبياء عن الزلل والخطأ والشرك والذنب كما سترىٰ هذا في موقعه.

---

(١) سورة البقرة /٧.

(٢) سورة النساء / ١٥٥.

(٣) سورة فصلت /٤٦.

(٤) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ١٢٣ - ١٢٤.

وهنا نورد إجابته(عليه السلام) لصفوان بن يحيى وهو يسأل عن قوله تعالى - حاكياً ذلك عن إبراهيم(عليه السلام) : ﴿وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1] .

قال للإمام : أكان في قلب إبراهيم شك؟

قال الإمام : لا ، كان على يقين ، ولكنه أراد من الله الزيادة في يقينه»[2] .

وفيما قدمنا من عرض إيجازي ، يتجلى البعد الدلالي العام في حديث الإمام التفسيري .

قصص القرآن في أسلوب الإمام

وقصص القرآن الكريم من القصص الحق ، ولم يكن ذلك القصص من نسج الخيال ووضع الذاكرة ، فهو ليس من قبيل الأدب المفترى في القصة الاوروبية الحديثة ، ولا من جنس الرواية المسرحية في فن القصة العربية المعاصرة ، وليس من الأساطير التي حفلت بها كتب القدامى ، وإنما هي تصوير الواقع الذي جرى لا اكثر ولا اقلّ ، ولسان الصدق الذي يروي الأحداث كما هي دون تزيّد أو تلميع ، ذلك هو الحق الصراح بأبعاده التأريخية المحضة ، وليس القرآن كتاب تأريخ بالمعنى الشائع ، ولكن المشاهد التأريخية التي ذكرها للعبرة والاستذكار والشهادة والاستدلال جزء لا يتجزأ من الصورة الكائنة في تأريخ البشرية الطويل ، لهذا تجد عطاء القصص القرآني يمتاز بعنصر إثبات الوقائع وتدوين الحقائق ، فهو قصص اريد به الصدق الخالص حيث يرتفع بمستوى الفن القصصي إلى الذروة ، خلافاً للقصص الدنيوي الوافد أو المستورد الذي يعتمد الخيال والرواية الكاذبة في مبدأ السرد والأسماء والأماكن والمشاهد ، ويستند إلى إثارة الرغبة في

---

(١) سورة البقرة / ٢٦.

(٢) القمي / التفسير / تفسيره للآية.

الانتقال من صورة إلى أخرى، وفي التخطي من فصل إلى فصل معتمداً التأثير في المتلقي سواء أكان الحديث صادقاً أم كاذباً، وذلك أن أسلوب القصة في الأدب تمليه أولاع القاص وأفكاره، وتفرضه حيثيات التعبير التراجيدي، وهو قطعاً قد يتعرض لشطحات الخيال وزلل الأهواء، بينما يتحدث فن القصة الصادق في القرآن عن الحقيقة حيثما وجدت في سنن الحياة والكون والاجتماع، ومسالك الأنبياء في الدعوة والهداية ومظاهر الإعجاز، وبقاء الأمم وفنائها، وبلغة قاطعة ولهجة يقينية لا مكان معهما إلى الخيال المخترع، ولا ابتداع لأبطال القصة، فهو طراز خاص يرعى المناخ النفسي للإنسان في تدريبه على عنصر الصدق وصحة الرواية وواقع الحدث.

ولم يدع الإمام الرضا (عليه السلام) التأكيد على هذا الجانب، كما لم يدع قصص القرآن بعطائها الثر وعبرتها الناطقة مجرد حدث جرى في أمم قد خلت، ولا مسألة رواية لمشاهد قد وقعت، وإنما تحدث عنها في الصورة والمعطيات فأجزل الحديث، وأوضحها في دقائقها في تبيين مبهمها وتفصيل مجملها، ورسم دلالتها معللاً ذلك بما اكتسبه من علم وراثي ولدني بحسب روايته أو بحسب درايته مضافاً إلى منصبه في الإمامة.

وساكون بإزاء التقاط بعض الذخائر من هذا المخزون الفيّاض المتموج على حسب منهجنا في التلميح والإيجاز.

فعن بقرة بني إسرائيل في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ * قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ * قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النّاظِرِينَ *

قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَإِنّا إِنْ شاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ * قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَما كادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارَأْتُمْ فِيها وَاللهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتى وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

فإننا نجد الإمام(عليه السلام) يتحدث عنها بأسلوبه الجزل بأصالة موضوعية، وبعمق تأريخي مفصّل، وبعرض سهل ممتنع، ذلك بما رواه أحمد بن محمد بن ابي النصر البزنطي، قال:

سمعت ابا الحسن الرضا يقول:

«إن رجلاً من بني إسرائيل قتل قرابة له، ثم أخذه وطرحه على طريق افضل سبط من اسباط بني إسرائيل، ثم جاء يطلب بدمه. فقالوا لموسى.. فأخبرنا من قتله؟ قال: ائتوني ببقرة. (قالوا أتتخذنا هزواً قال اعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) ولو عمدوا إلى اي بقرة اجزأتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم. (قالوا ادع لنا ربّك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر) يعني لا صغيرة ولا كبيرة (عوان بين ذلك) ولو أنهم عمدوا إلى اي بقرة أجزأتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم، (قالوا ادع لنا ربّك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسرُّ الناظرين) ولو انهم عمدوا إلى اي بقرة لأجزأتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم (قالوا ادع لنا ربّك يبين لنا. ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ❖ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق...).

---

(١) سورة البقرة / ٦٧ - ٧٣.

فطلبوها فوجدوها عند فتىً من بني إسرائيل، فقال: لا أبيعها إلاّ بملاء مسكنها ذهباً، فجاؤوا إلىٰ موسىٰ(عليه السلام) فقالوا له ذلك؛ فقال: اشتروها، فاشتروها وجاؤوا بها، فأمر بذبحها، ثم أمر أن يضرب الميّت بذنبها، فلمّا فعلوا ذلك حيي المقتول، وقال: يا رسول الله إن ابن عمي قتلني دون من يدّعي عليه قتلي، فعلموا بذلك قاتله، فقال رسول الله موسىٰ بن عمران لبعض أصحابه: إن هذه البقرة لها نبأٌ، فقال: وما هو؟ قال: إن فتىً من بني إسرائيل كان براً بأبيه، وإنه اشترىٰ بيعاً، فجاء إلىٰ أبيه، ورأىٰ أن المقاليد [المفاتيح] تحت رأسه، فكره أن يوقظه فترك ذلك البيع، فاستيقظ أبوه فأخبره، فقال له: أحسنت، خذ هذه البقرة فهي لك عوضاً لما فاتك!!

قال: فقال رسول الله موسىٰ بن عمران(عليه السلام): أنظروا إلىٰ البّر ما بلغ بأهله؟»[1] وأسلوب الإمام الرضا في أدائه هذا لا يحتاج إلىٰ شرح وبيان، فهو من الوضوح والسلامة الفنيّة بمكان رفيع.

وفي جزء من قصة يوسف(عليه السلام) يتحدث الإمام بتعبيره الرائع عن تملك يوسف في مصر في سني القحط والجفاف والمجاعة، ويشير إلىٰ إدارته للشؤون الاقتصادية، وإشرافه المباشر علىٰ خزائن الأرض، من خلال قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾[2].

قال الإمام الرضا(عليه السلام)؛ وهو يعرض هذا الجانب من القصة في معلومات جديدة مذهلة، ووقائع تفصيلية تحمل بين طياتها العظة والعبرة: «واقبل يوسف علىٰ جمع الطعام في السبع سنين المخصبة يكبسه في الخزائن، فلما مضت تلك السنون، واقبلت السنون المجدبة، اقبل يوسف علىٰ بيع

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ٢ / ١٣ – ١٤.

(٢) سورة يوسف / ٤٧.

الطعام، فباعهم في السنة الأولى بالدراهم والدنانير، حتى لم يبق بمصر وما حولها دينار ولا درهم إلا صار في ملك يوسف. وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر، حتى لم يبق بمصر وما حولها حليّ ولا جواهر إلا وصار في ملكه.

وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي حتى لم يبق بمصر وما حولها [شيء منها] إلا وصار في ملكه.

وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا أمة إلاّ صار في ملكه.

وباعهم في السنة الخامسة بالدور والفناء، حتى لم يبق في مصر وما حولها دار ولا فناء إلاّ وصار في ملكه.

وباعهم في السنة السادسة بالمزارع والأنهار حتى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة إلا صار في ملكه.

وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حر إلاّ وصار عبداً ليوسف.

فملك احرارهم وعبيدهم وأموالهم، وقال الناس: ما سمعنا بملك أعطاه الله الملك ما أعطى هذا الملك حكماً وعلماً وتدبيراً.

ثم قال يوسف للملك: ما ترى فيما خولني من ملك مصر وما حولها؟

اشر علينا برايك، فإنني لم اصلحهم لأفسدهم، ولم انجهم من البلاء ليكون بلاءً عليهم، ولكن الله انجاهم بيدي.

قال الملك: الراي رايك.

قال يوسف: إني اشهد الله، واشهدك ايها الملك اني قد اعتقت اهل مصر كلهم، ورددت عليهم اموالهم وعبيدهم، ورددت عليك الملك وخاتمك وسريرك وتاجك، على ان لا تسير إلاّ بسيرتي، ولا تحكم إلاّ بحكمي.

قال الملك: إن ذلك توبتي وفخري، أن لا أسير إلاّ بسيرتك، ولا أحكم إلاّ بحكمك، ولولاك ما توليت عليهم ولا اهتديت له، وقد جعلت سلطاني عزيزاً ما يرام، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك رسوله، فاقم على ما وليتك فإنك لدينا مكين أمين»[1].

وكان المأمون العباسي يتطلع إلى حديث الإمام الرضا(عليه السلام) عن قصص القرآن - بغض النظر عن أهدافه الأخرى - ويتطاول لمعرفة أحداثها في بعض فصولها، ويعرض على الإمام التحدث عنها في محاور قد يحددها السؤال، والإمام(عليه السلام) يدلي بحديثه الممتع في يسر وبيان، لا يجد معهما المأمون الاستزادة من الإيضاح، بل ينقلب شاكراً ذاكراً داعياً للإمام في دفاعه عن الأنبياء.

وسأختار لذلك نموذجين من مسائل المأمون التي طرحها على الإمام الرضا تتعلق بأجزاء معينة من قصص القرآن.

وتدور أحداث النموذج الأول حول إبراهيم(عليه السلام) في شأن عبادته. وتدور أحداث النموذج الثاني حول موسى(عليه السلام) لقتله أحد أتباع فرعون.

الأول: سأله المأمون أن يخبره عن قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام علي بن موسى الرضا ١ / ٣١١ - ٣١٢ عن البرهان.
(٢) سورة الأنعام / ٧٦ - ٧٩.

وكان جواب الإمام(عليه السلام) دقيقاً في موضوعيته، وعميقا في أغواره، ويتلخص أن إبراهيم(عليه السلام) لم يداخله الشك على الإطلاق، وإنما وقع من قومه إلى ثلاثة أصناف:

صنف يعبد الزهرة، وصنف يعبد القمر، وصنف يعبد الشمس!!

فما مضى من قول بالنسبة للكوكب والقمر والشمس كان على نحو الإنكار والاستخبار، لأن الأفول من صفات المحدث، لا من صفات القدم.. وبذلك ألزمهم إبراهيم الحجّة إذ أبان لهم بطلان دينهم بالدليل بما يثبت أن العبادة إنما تستحق لخالق هذه المحدثات وخالق السماوات والأرض.

وكان ما احتجَّ به على قومه مما ألهمه الله تعالى وآتاه كما قال الله عزَّ وجل: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ﴾[1].

فقال المأمون: لله درّك يا ابن رسول الله[2].

وما كان من إبراهيم(عليه السلام) في هذا التنقل من الزهرة إلى القمر إلى الشمس عبارة عن محور جديد يبتكره القرآن لدحض دعاوى المشركين والوثنيين في عبادة غير الله، وكان هذا الاتجاه دليلاً استقرائياً يصعب على قوم إبراهيم ردّه، لأنه يتساوق مع الفطرة والبداهة في الاستدلال على وحدانيته تعالى، وعلى بطلان عبادتهم المترددة بين مخلوقاته المحدثة.

الثاني: وسأله المأمون عن المراد بقوله تعالى:

﴿فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ﴾[3].

قال الإمام الرضا(عليه السلام): إن موسى دخل مدينة من مدائن فرعون على حين غفلة من أهلها، وذلك بين المغرب والعشاء، ﴿وَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ﴾[4].

---

(١) سورة النعام / ٨٣.
(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٩٧.
(٣) سورة القصص / ١٥.
(٤) سورة القصص / ١٥

فقضى موسى على العدو بحكم الله تعالى ذكره، (فوكزه) فمات ﴿قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ﴾[1] يعني الاقتتال الذي وقع بين الرجلين، لا ما فعله موسى(عليه السلام) من قتله، أنه يعني الشيطان ﴿عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾[2].

فقال المأمون: فما معنى قول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾[3].

قال الإمام الرضا(عليه السلام): يقول إني وضعت نفسي في غير موضعها بدخول هذه المدينة، ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾[4] أي استرني لئلا يظفروا بي فيقتلوني: ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[5].

قال موسى(عليه السلام): ﴿رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾[6] من القوة حتى قتلت رجلاً بوكزه ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾[7] بل اجاهد في سبيلك بهذه القوة.. ﴿فَأَصْبَحَ﴾[8] موسى(عليه السلام) في المدينة ﴿خائفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾[9] على آخر ﴿قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾[10] قاتلت رجلاً بالأمس، وتقاتل هذا اليوم لأوذينك، وأراد أن يبطش به ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما﴾[11] وهو من شيعته، ﴿قالَ يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ

---

(١) سورة القصص / ١٥.
(٢) سورة القصص / ١٥.
(٣) سورة القصص / ١٦.
(٤) سورة القصص / ١٦.
(٥) سورة القصص / ١٦.
(٦) سورة القصص / ١٧.
(٧) سورة القصص / ١٧.
(٨) سورة القصص / ١٨.
(٩) سورة القصص / ١٨.
(١٠) سورة القصص / ١٨.
(١١) سورة القصص / ١٩

جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾[1].

فقال المأمون للرضا(عليه السلام): جزاك الله عن أنبيائه خيراً يا أبا الحسن..[2].

ويرد في القرآن العظيم ذكر الأنبياء أولي العزم وهم: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

يرد هذا الذكر مقترنا بموج هائل من الأحداث، والقصص، والعبر، وشؤون الهداية، وعوالم التشريع، فيتحدث الإمام عن ذلك: (إنما سمي أولو العزم أولي العزم لأنهم كانوا أصحاب الشرائع والعزائم. وذلك أن كل نبي بعد نوح(عليه السلام)، كان على شريعته ومنهاجه، وتابعاً لكتابه إلى زمن إبراهيم الخليل(عليه السلام)، وكل نبي كان في أيام إبراهيم وبعده كان على شريعته ومنهاجه، وتابعاً لكتابه إلى زمن موسى(عليه السلام)، وكل نبي كان في زمن موسى(عليه السلام) وبعده كان على شريعة موسى ومنهاجه، وتابعاً لكتابه إلى أيام عيسى(عليه السلام)، وكل نبي كان في أيام عيسى(عليه السلام) وبعده، كان على منهاج عيسى وشريعته، وتابعاً لكتابه إلى زمن نبينا محمد(صلى الله عليه وآله وسلم). فهؤلاء الخمسة أولو العزم، فهم أفضل الأنبياء والرسل(عليهم السلام)، وشريعة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) لا تنسخ إلى يوم القيامة، ولا نبي بعده إلى يوم القيامة، فمن ادَّعى بعده نبوة، أو أتى بعد القرآن بكتاب، فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه»[3].

إن هذا الأسلوب المشرق الذي تناول به الإمام عرض قصص القرآن يواكب التطلع إلى الاستضاءة بحياة تلك القصص وعبرها وأحداثها، وينسجم مع الذائقة الفنية في سلامة الديباجة وحسن الأداء، وهو بعد أسلوب خالٍ من التعقيد، وفيه إشارات إلى اللمح الغيبي الذي يتخلل قصص الأنبياء، مما نعتبره كنزاً تراثياً لإحياء القرآن.

---

(١) سورة القصص / ١٩

(٢) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ١٩٨ - ١٩٩.

(٣) الصدوق / عيون اخبار الرضا ٢ / ٨٠.

ولم يكن رجوع العلماء والسائلين للإمام الرضا(عليه السلام) في كشف مبهمات القرآن، ولا الاتجاه إليه في تفسير آيات القرآن أمراً اعتباطياً، بل كان نظراً موضوعياً يعتمد الإمعان والتدقيق، ويرفض الارتجال.

فالإمام من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويل القرآن، وموارده أعذب الموارد التي يصدر عنها الناس، فهو نبعٌ صافٍ خالص من الشوائب، يتحرىٰ البيان البهي دون إيهام، ويتبنىٰ الإيضاح السليم دون إغلاق، يبتعد عن مبهم الدلالة، وينأىٰ عن غريب التعبير، فجاء تفسيره العام لآيات من القرآن سمحاً ينساب برقةٍ، وغزيراً يتدفق بدفء، وفوق هذا كله تجده قريباً من المتبادر الذهني، وأثيراً بالعرف العربي في صوره العديدة، فهو يمتلك تلك الأداة المعبّرة عن المعنىٰ المراد بأسلوب رائع رصين.

ونماذج تفسير الإمام لكثير من آيات القرآن الكريم، قد تنهض بعمل أكاديمي مستقلّ، وقد لا يسعها بالطبع هذا الموجز الذي يعنىٰ برؤية التمثيل والتنظير، لا الإحاطة والشمول، إلا أننا نستاف أرجاً ندياً من تلك الأشذاء، ونقتطف باقةً ذكية من ذلك الحقل البهيج، وللمتلقي أن يستدل بما نذكره هنا علىٰ ما لم نذكر، وله أن يتطلع إلىٰ المزيد الشافي من خلال رجوعه إلىٰ الموسوعات التدوينية، ليظفر بروائع التراث لدىٰ الإمام.

وفي ضوء هذا الإيجاز الذي أرجو أن يكون غير مخلٍ بالكشف التراثي للإمام(عليه السلام)، بالإمكان أن تلمح هذه النماذج: ففي قوله

تعالى: ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾[1].

تجد الإمام الرضا (عليه السلام) كاشفاً عن أبعاد جديدة لا علم لأغلب المسلمين بحقائقها، ولا معرفة سبقت لهم بها، والإمام يتحدث عن ذلك بما يرويه عن آبائه (عليهم السلام): إن المسلمين قالوا لرسول الله: لو أكرهت يا رسول الله من قدرت عليه من الناس على الإسلام لكثر عددنا، وقوينا على أعدائنا.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ما كنت لألقى الله عزّ وجل ببدعة لم يحدث إليَّ فيها شيئاً، وما أنا من المتكلفين.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾[2] على سبيل الإلجاء والاضطرار في الدنيا، كما يؤمنون عند المعاينة ورؤية البأس في الآخرة، ولو فعلت ذلك بهم لم يستحقوا مني ثواباً، لكني أريد منهم أن يؤمنوا مختارين غير مضطرين، ليستحقوا مني الزلفى والكرامة، ودوام الخلود في جنة الخلد ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[3]. وأما قوله تعالى: ﴿وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾[4] فليس ذلك على سبيل تحريم الإيمان عليها، ولكن على معنى: «أنها ما كانت لتؤمن إلا بإذن الله، وانه أمره لها بالإيمان، وما كانت مكلفة متعبدة»[5].

---

(١) سورة يونس / ٩٩ – ١٠٠.

(٢) سورة يونس / ٩٩.

(٣) سورة يونس / ٩٩.

(٤) سورة يونس / ١٠٠.

(٥) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٣٥.

وقد يعطي الإمام الحكم الشرعي لدىٰ التفسير، ويعقّب عليه بما فيه صلاح الأمة وإعزاز الإسلام، كما أبدىٰ هذا في قوله تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبارَ﴾[1].

قال الإمام(عليه السلام): «حرم الله الفرار من الزحف لما فيه من الوهن في الدين، والاستخفاف بالرسل والأئمة العادلة، وترك نصرتهم علىٰ الأعداء، والعقوبة لهم علىٰ ترك ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبية وإظهار العدل، وترك الجور، وإماتة الفساد، لما في ذلك من جراءة العدو علىٰ المسلمين، وما يكون من ذلك من السبي والفعل، وإبطال دين الله عزَّ وجل وغيره من الفساد»[2].

وأنت ترىٰ الإمام في هذا العرض لا يكتفي بإيراد الحكم بحرمة الفرار من الزحف، حتىٰ يضيف إليه علة الحكم ودواعيه، وما يترتب علىٰ الفرار من آثار تضعف الدعوة إلىٰ الدين، وتساعد علىٰ الفساد في الأرض.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[3]. يذهب الإمام(عليه السلام) أن الله سبحانه وتعالىٰ يقدر في ليلة القدر ما يكون من السنة إلىٰ السنة، من حياة، أو موت، أو خير، أو شر، أو رزق. فما قدره في تلك الليلة فهو المحتوم[4].

وقد يتحدث الإمام عن أمر ما، فيستشهد بالقرآن مستدلاً علىٰ نصاعة حديثه، أو تثبيتاً للأفكار الواردة به، أو برهاناً علىٰ صحة ما يقول، فيضيف إلىٰ المخزون الذي يفيضه علىٰ الناس موروث القرآن العظيم في شأنه.

---

(١) سورة الأنفال / ١٥.

(٢) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام علي بن موسى الرضا ١ / ٣١٠ وانظر مصدره.

(٣) سورة القدر / ١.

(٤) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ١٨٢.

فقد حدث ياسر الخادم، قال: سمعت الإمام أبا الحسن الرضا(ع) يقول: إن أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد، ويخرج من بطن أمه، ويرى الدنيا.

ويوم يموت، فيعاين الآخرة وأهلها.

ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا.

وقد سلّم الله عزَّ وجل على يحيى في هذه الثلاثة المواطن وأمن روعته، فقال: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾[1].

وقد سلّم عيسى بن مريم على نفسه في هذه الثلاثة المواطن، فقال: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾[2].

ومن بديع ما ذهب إليه الإمام الرضا(ع)، ما أجاب به الحسين بن خالد حينما سأل الإمام: اخبرني عن قول الله: ﴿وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ﴾[3].

قال الإمام: «هي محبوكة إلى الأرض»، وشبك بين أصابعه.

فقلت: كيف تكون محبوكة إلى الأرض، والله يقول: ﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾[4].

فقال الإمام(ع): اليس الله يقول: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾[5].

فقلت بلى: فقال الإمام: فثم عمد و لكن لا ترونها[6].

وقد يجيب الإمام بإيجاز بليغ، مؤكداً على المعنى بتعبير حيّ.

ففي قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[7].

---

(١) سورة مريم / ١٥.

(٢) سورة مريم / ٣٣.

(٣) سورة الذاريات / ٧.

(٤) سورة لقمان / ١٠.

(٥) سورة لقمان / ١٠.

(٦) القمي / التفسير / تفسيره للآية.

(٧) سورة الحجر / ٨٥.

قال الإمام: العفو من غير عتاب[1].

وكذلك الحال في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾[2].

قال الإمام: خوفاً للمسافر، وطمعاً للمقيم[3].

وهكذا الأمر، وهو يؤكد قيادة الأئمة(عليهم السلام)، حينما سئل عن قوله تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[4]. فحدّث عن آبائه(عليهم السلام) عن رسول الله(صلى الله عليه وآله): أن المراد بأولي الأمر في الآية: «الأئمة من ولد علي وفاطمة(عليهما السلام) إلىٰ أن تقوم الساعة»[5].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدى * وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى﴾[6].

كشف الإمام النقاب عما يجول في أحاسيس الناس من الشبهات البعيدة عن الفهم القرآني الأصيل، وقد أجاب بذلك المأمون حينما سأله.

قال الإمام: قال الله تعالىٰ لنبيه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى﴾[7].

يقول: الم يجدك وحيداً فآوىٰ إليك الناس؟

﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ﴾[8] يعني عند قومك ﴿فَهَدَى﴾[9] أي هداهم إلىٰ معرفتك ﴿وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى﴾[10].

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٢٩٤.
(٢) سورة الرعد / ١٢.
(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٢٩٤.
(٤) سورة النساء /٥٩.
(٥) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ١٣١.
(٦) سورة الضحى / ٦ – ٨.
(٧) سورة الضحى /٦.
(٨) سورة الضحى / ٧.
(٩) سورة الضحى / ٧.
(١٠) سورة الضحى / ٨.

يقول أغناك بأن جعل دعاءك مستجاباً.

فقال المأمون: بارك الله فيك يا ابن رسول الله[1].

وقد يتناول الإمام الآية بفكر جديد، يخوض به أبعادها إلى تلك الوظيفة الرادعة التي تحمل الإنسان على الكفّ عن المعاصي بإرادة نفسية، وقد تتجه به إلى الله تعالى في لحة خاطفة تمثل صدق النية وتأنيب الضمير على ما بدر منه، عسى أن يتفضل الله سبحانه بلطفه، فيخفف عنه العقاب ويدرأ العذاب.

فالإمام حينما يقف عند قوله تعالى: **﴿فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾**[2]. فإنه يذكر تلك الحالة المؤثرة التي كان عليها قوم يونس وهم يستقيلون من ذنوبهم، ويستقبلون التوبة الصادقة من أعماقهم، ويضجّون إلى الله تعالى منيبين مستغفرين، فيقول: «إن يونس أمره الله بما أمره، فأعلم قومه، فأظلهم العذاب، ففرقوا بينهم وبين أولادهم، وبين البهائم وأولادها، ثم عجوا إلى الله، وضجّوا، فكفّ الله العذاب عنهم»[3].

والإمام حينما يتحدث عن الهداية والضلال في مدارج قوله تعالى:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[4].

فإنه يعهد بالتفسير العام في الآية الكريمة إلى الإيماء بالهداية بمرغباتها، وإلى التحذير من الضلال بالابتعاد عن مسبباته، فيقول(عليه السلام): «... من يُرِدِ الله أن يهديه بإيمانه في الدنيا إلى جنته ودار كرامته في الآخرة، يشرح

---

(١) البحراني / البرهان في تفسير القرآن / تفسيره للآيات.

(٢) سورة يونس / ٩٨.

(٣) الطباطبائي / الميزان ١ / ١٣٠ نقلاً عن تفسير العياشي.

(٤) سورة الأنعام / ١٢٥.

صدره للتسليم لله، والثقة به، والسكون إلىٰ ما وعده من ثوابه حتىٰ يطمئن إليه ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾[1] عن جنته ودار كرامته في الآخرة لكفره به، وعصيانه له في الدنيا، يجعل صدره حرجاً ضيّقاً حتىٰ يشك في كفره، ويضطرب في اعتقاد قلبه، حتىٰ يصير ﴿كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[2][3].

وفيما حكىٰ الله عن قول أخوة يوسف ﴿قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[4] نجد الإمام(عليه السلام) يتحدث بتفصيل ما أجمله القرآن من قصة السرقة المدعاة، فيما أفاده علماً سابقاً متوارثاً، فيقول: (كانت لإسحاق النبي(عليه السلام) منطقة يتوارثها الأنبياء الأكابر، وكانت عند عمة يوسف، وكان يوسف عندها وكانت تحبه، فبعث إليها أبوه، وقال: ابعثيه إلي وأردّه عليك، فبعثت إليه: دعه عندي الليل أشمه، ثم أرسله إليك غدوة.

قال الإمام: «فلمّا أصبحت أخذت المنطقة فربطتها في حقوه، وألبسته قميصاً وبعثت به إليه، فلمّا خرج من عندها، طلبت المنطقة، وقالت: سرقت المنطقة!! فوجدت عليه، وكان إذا سرق أحد في ذلك الزمن دفع إلىٰ صاحب السرقة، فكان عنده..)[5].

وقد يتحدث الإمام(عليه السلام) عن ابرز مصاديق الآية، بهدف الإشارة الموحية إلىٰ اهمية ذلك المصداق والتاكيد عليه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إِلى أَهْلِها﴾[6].

---

(١) سورة الأنعام / ١٢٥.

(٢) سورة الأنعام / ١٢٥.

(٣) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ١٣١.

(٤) سورة يوسف / ٧٧.

(٥) الصدوق / عيون اخبار الرضا ٢ / ٧٦.

(٦) سورة النساء / ٥٨.

فقد سأله بريد العجلي عن تفسير هذه الآية ، فقال الإمام الرضا(عليه السلام) : «هم الأئمة من آل محمد(صلى الله عليه وآله) [أمروا] أن يؤدوا الأمانة إلى من بعده ، ولا يخصّ بها غيره ، ولا يزويها عنه»[1] .

كان ما قدمناه غيضاً من فيض إمدادات الإمام الرضا(عليه السلام) في التفسير العام ، وقد أورده الإمام بأبعاد موضوعية تنطق عن واقع الأمر ، وتيسر للدارسين الإحاطة بغوامض ما جهلوا .

وبهذا ننهي حديثنا عن حياة القرآن العظيم في قيادة الإمام الرضا(عليه السلام) ، وقد كنا به مختصرين إلى الحدّ الذي لا تخرج به الأطروحة عن الحدّ المرسوم لها ، لذا كانت موجزة ، ولكنه الإيجاز الذي يلقي بالأضواء على مختلف الألوان والصور .



(١) السبزواري / مواهب الرحمن ٨ / ٣٦٧ وانظر مصدره.

الفصل الرابع

البعد التشريعي في قيادة الإمام الرضا (عليه السلام)

١ ـ حياة الإمام(عليه السلام) العلمية والتشريعية

٢ ـ مسيرة التشريع الإسلامي لدى الإمام(عليه السلام).

٣ ـ التراث التدويني للإمام(عليه السلام).

٤ ـ تلامذة الإمام الرضا(عليه السلام).



حياة الإمام(عليه السلام) العلمية والتشريعية

ليس من اليسير على البحث أن يستوفي الجانب المشرق لحياة الإمام التشريعية، وقد شمل الإنسانية جمعاء باتساع آفاقه المعرفية، وارتفع بالمستوى العلمي حيث الذروة بالعطاء الجزل، وما أنباء فتاواه ومحاججاته ومناظراته ومحاوراته إلا قبس من ذلك البهاء السرمدي الذي ضرب بأطنابه في حنايا القلوب وأعماق الجوانح، وما بحوثه في الشريعة والفقه والأحكام إلا دليل ذلك، وقد غصت بها كتب الحديث وأسفار التدوين ومجموعات الأمالي، مما يجعل البحث مقصراً في استيعاب موسوعيتها الضخمة، والقلم عاجزاً عن الإحاطة بشموليتها الامتدادية على طول التشريع وعرضه، ومن ألفه إلى يائه دون استثناء.

ولا نحتاج إلى كبير عناء لإثبات هذه الحقيقة، فلها من شواهدها المتناثرة في بطون الكتب والأسفار انصع الأدلة وارقى درجات التوثيق، ولنا فيما روي عنه في شتى فروع الأحكام وأمهات المسائل غناء ما بعده غناء، ومما يؤكده موضوعياً كثرة تلامذته واصحابه من الطبقات كافة، ومن شتى المذاهب الإسلامية، وهم يعدون بالمئات، ممن أرتاد رياض إفاداته الغراء، فكتبت بأحرف من نور على جبين الدهر.

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

«كان تراث الإمامة المأثور عن الإمام الرضا(عليه السلام)، شامخاً كشموخ أصله الممتد الفروع عبر شواهق أسلافه الأصفياء الميامين، وعظيماً كعظمة مصدره الرفيع الأسمى الذي نزل به الروح الأمين، وجامعاً بحكم ذلك كله بين وحي السماء الذي تلقاه أهل البيت عن جدهم الأكرم(صلى الله عليه وآله) وعطاء الإلهام والإشراق الروحي الذي منَّ الله تعالى به على هذه النخبة المختارة

من بني البشر، لتكون على مستوى التأهيل والإعداد للقيادة في جميع ميادين المعرفة الإنسانية، فكراً وثقافة وتعليماً، وفي مختلف مجالات البناء الراسخ السليم للفرد والمجتمع بما يضمن استمرار نهوضهما، واطّراد تطورهما إلى الأمام، وعلى الدوام».

وليس عجيباً أن يكون ذلك المأثور الرضوي بهذه الدرجة من المكانة والأهمية، وبتلك المثابة من علو الشأن وسمو المقام، بعد أن سمع المسلمون من نبيهم الأعظم(ﷺ) إشادته بعلم علي(عليه السلام) وقضائه وفقهه، وشهادته بكونه أقضى الصحب وأعلمهم وأفقههم[1].

وكان علم الإمام الرضا(عليه السلام) مستمداً من تلك السلسلة الذهبية عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين(عليه السلام) عن رسول الله(ﷺ) وما بعد ذلك من طريق أصح، ولا سند أرقى، ولا أثر أبقى.

ولمّا كان علم الإمام الرضا(عليه السلام) متلئباً في سعته، فسنقف منه عند بعض المقتطفات على عادتنا، وحسبنا أن نشير إلى قول المأمون للإمام: «جعلت فداك، إن آباءك موسى وجعفراً ومحمداً وعلي بن الحسين(عليهم السلام)، كان عندهم علم ما كان، وما هو كائن إلى يوم القيامة. وأنت وصيّ القوم ووارثهم»[2].

ولعل المأمون يشير بهذا إلى اللمح الغيبي الذي يجري على ألسنة الأئمة(عليهم السلام) في التحدث عما وراء الظاهر المعاصر لهم، وكان الإمام الرضا كذلك، وهو ما حيّر بعض المعاصرين للإمام، ولكن الإمام الرضا(عليه السلام)

---

(١) ظ: ابن حنبل / المسند ٥ / ٢٦ + ابو نعيم / حلية الأولياء ١ / ٦٦ + ابن عبد البر / الاستيعاب ٣ / ٣٨ + الخطيب البغدادي / تاريخ بغداد ٢ / ٣٧٧ + ابن حجر / مجمع الزوائد ٩ / ١٠١ و١١٤.

(٢) ظ: ابن عبد البر / الاستيعاب ٣ / ٣٨ + ابن الأثير / أسد الغابة + محب الدين الطبري / الرياض النضرة ٣ / ٢٠٤ طبع القاهرة / ١٣٩٠هـ

استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾[1].

فاوضح بما لا يقبل الردّ: «أن لدى الأئمة من هذا المحيط الهادر أمواجاً معرفية، فهو علم من ذي علم، أطلعه عليه الله، وأطلع عليه محمداً(ﷺ) حملة رسالته وورثة علمه. قال الرضا: أوليس الله يقول: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ﴾[2].

فرسول الله عند الله مرتضى، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله على ما شاء من غيبه، فعلّمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة»[3].

ولم يكن المسلمون يجهلون هذا الأمر، وإن تجاهل ذلك بعضهم، فمخزون الإمام الفكري لم يكن مستمداً من أساتيذ وشيوخ، وإنما هو امتداد طبيعي لعلم رسول الله(ﷺ).

والواقع المعاصر للإمام يشهد بأنه لم يتتلمذ على أحد سوى أبيه(ع)، تلك التلمذة المتصلة بالينابيع الأولى للإسلام، وهكذا بقية الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم.

وقد كتبنا عن هذا الملحظ بحثاً مفصلاً في كتابنا عن الإمام الصادق[4]. وذكرنا أن علمهم على نوعين: علم لدني: ﴿وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾[5] وعلم كسبي وراثي ليس غير، ومن أراد المزيد من الاستدلال فليراجعه[6].

وبعد هذا فليس جديداً على البحث وموضوعه الأصل ما رواه أبو الصلت الهروي: يقول: لقد سمعت علي بن موسى الرضا(ع) يقول:

---

(١) محمد حسن آل ياسين / الإمام علي بن موسى الرضا / ٩٧.

(٢) سورة الجن / ٢٦ – ٢٧.

(٣) الراوندي / الخرائج والجرائح / ٢٠٤ + المجلسي / البحار ٤٩ / ٧٥.

(٤) ظ: المؤلف / الإمام جعفر الصادق / زعيم مدرسة اهل البيت ٢٤٥ – ٢٥٥.

(٥) سورة الكهف / ٦٥.

(٦) ظ: المؤلف / الإمام جعفر الصادق / زعيم مدرسة اهل البيت / ٢٤٥ – ٢٦٩.

«كنت أجلس في الروضة – في المسجد النبوي بين المنبر وقبر النبي – والعلماء بالمدينة متوافرون، فإذا أعيا الواحد منهم في مسألة، أشاروا إليَّ بأجمعهم، وبعثوا إليَّ بالمسائل، فأجيب عنها»[1].

ولمّا كان الإمام مصدراً من مصادر المعرفة الكونية، فقد أتيحت له بعض الفرص العابرة في عصر المأمون، فأفاض من خلالها على العلماء والباحثين وقادة الفكر ذخائر لا تفنى، هي بحاجة ان تمتد لها الأيدي الأمينة الواعية لتبحثها بتجرد علمي، وعلى المتخصصين الجدد الاجتهاد في استكناه مواردها ومصادرها، واسترفاد مناهجها وأعماقها، وتسجيل شاردها وواردها بأمانةٍ ودقّة.

إن الرصيد العلمي المتميّز الذي يمتلكه الإمام، كان شائعاً بين الناس، فلم يكن حكراً على طائفة، او أقليم، أو قومية، وإنما كان للمسلمين كافةً، فمن اتبع نهجه فقهاً فقد اغترف من تعليمات السماء، ومن اعرض ونأى بجانبه فقد أخطأ حظه، وما على الإمام إلا ان يؤدي ما عليه، اخذ بذلك أو لم يؤخذ، ومن هنا رأينا الأقاليم الإسلامية تدفع بأبنائها زرافاتٍ ووحداناً نحو الإمام للاستزادة من علمه، وهي ظاهرة فريدة له ولآبائه، وحتى الفِرق التي لم تذعن للنصّ على إمامته، كانت تسير في ظل لوائه، حتى قال الدكتور الشيبي:

«وكان الرضا من قوة الشخصية، وسمو المكانة: ان التفّ حوله المرجئة، وأهل الحديث، والزيدية، ثم عادوا إلى مذاهبهم بعد موته . . . »[2].

وكان هذا من مظاهر استقطاب الإمام لذوي الفكر وقادة النحل، وأصحاب التأثير الاجتماعي، وما ذاك إلاّ لنفوذ شخصيته في القلوب،

---

(١) المجلسي / بحار الأنوار ٤٩ / ١٠٠ وانظر مصدره.

(٢) كامل مصطفى الشيبي / الصلة بين التصوف والتشيع / ٢١٤.

وشموله عامة المسلمين برعايته القيادية العلمية، يقول الدكتور الشيبي: «إن الإمام الرضا لم يكن بعد توليته العهد إمام الشيعة وحدهم، وإنّما مرّ بنا: أن الناس، حتىٰ أهل السنة، والزيدية، وسائر الطوائف الشيعية المتناحرة، قد اجتمعت علىٰ إمامته وإتباعه والالتفاف حوله...»[1].

وقد أتيح هذا الشمول للإمام، وحياة الدولة السياسية في اضطراب شامل حيناً، وهدوء نسبي حيناً آخر، فنهض الإمام بنشر مبادئ الإسلام، وعلمه، وفقهه، وفروعه، واصوله، مما أوجد طبقة كبيرة من المؤلفين والباحثين والمتكلمين ورواة الحديث، وأعيان المنتسبين إلىٰ مدرسته العلمية الكبرىٰ كما سترىٰ ذلك.

ولم يكن الإمام ليستغل مركزه القيادي في سبب من أسباب الدنيا، أو الحكم، أو السياسة، أو إدارة الدولة، وإنما كان كده وجهده ينصبّان في إطار خلق جيل ناهض يحمل رسالة الإسلام.

وبهذا المنظور المشرق اتسعت قاعدة الإمام العلمية، وأخذت بالتطور والازدهار. والتمعت ومضات دائرته الفكرية فغمرت بأشعتها الآفاق، واكتسب الإمام بذلك شهرة كبيرة ذاع صيتها في الأقاليم، فتناقلت الأنباء مجالس إفاضاته ومحافل مناظراته.

وكان المنهج العلمي للإمام الرضا متزامناً معه منذ شبابه حتىٰ اكتهاله، وقد المعنا فيما سبق لجزء من هذا الزخم في وثائقه التاريخية لدىٰ العلماء والمحدثين، فكانت شهاداتهم نصوصاً باهرة تشير إلىٰ اضطلاعه بالأعباء العلمية منذ زمن ابيه الإمام موسىٰ بن جعفر (عليهما السلام)، وانه ذو منزلة عليا في عالم الفقه والعلم، وذو شخصية مؤثرة في الأعداد والتنوّع والموسوعية، حتىٰ اخترق ذلك الضمير الإنساني في عطاء منقطع المثال، وانفتحت بين

---

(١) المرجع نفسه / ٢٥٦.

يديه أبواب المعارف المتعددة قبل حقبة إمامته، وعند تسلمه منصب الولاية الإلهية في إمامته الشرعية الشاملة، كان قد تمحض للتوعية وإضاءة السبيل المعرفي أمام روّاد العلم الأوائل وحماة الإسلام.

وكان الانفتاح النوعي، وسياسة التطوير المنهجي من المهمات الأساسية في هذا الجو المشحون بآثار الفكر الخلاّق، فلم تقتصر إفاضات الإمام على رافد معين، وإنما خاض غمار العلوم وتخصصات جمة، ولم يهذّها هذّاً بل عمد إلى إحياء روح البحث والمناظرة وسبل المعالجة الموضوعية في الأطروحة والأسلوب والأداء، وهو ما تفتقر له الدراسات الرصينة حتى اليوم.

ولئن أرسى الإمام الرضا(عليه السلام) أصول المنهج الحديث للبحث العلمي، فإنه بذلك يتجاوز طاقة عصره في هذا الإدراك المبكر، ويسبق زمنه بوضع الأسس العلمية التي تنتهجها أعرق الجامعات الكبرى في العالم.

وعلى الرغم من الرصد السياسي الذي قيّد حركة الإمام الفكرية، الرقابة المريرة التي فرضها الاضطهاد اللا إنساني على مسيرته، ورغم إحاطة تلامذة الإمام وأصحابه بطوق أمني جائر، فقد فرض الجانب العلمي للإمام أصالته بصورة مذهلة، وغطّى مساحات واسعة في تأريخ التحرك العلمي، وتقييد خطواته بالابتكار والإبداع.

يقول الأستاذ محمد جواد فضل الله رحمه الله:

«ولسنا بحاجة إلى شهادة أي إنسان للتدليل على تميّز الإمام الرضا بعلمه على سائر الخلق، بل يكفينا ان نتطلع إلى كتب الحديث التي امتلأت بأقواله وأماليه في شتى الفنون، والتي لا يسع أي إنسان مهما بلغت منزلته بالعلم والمعرفة، إلاّ أن يتصاغر أمامه، ويشعر من نفسه القصور عن الارتفاع إلى مستواه»[1].

---

(١) محمد جواد فضل الله / الإمام الرضا - تاريخ ودراسة / ٤٢.

وكان هذا قدراً خاصاً بالإمام في عصره، فقد ارتمى بين يديه قادة الفكر، وأحاط به رجال الحديث، وجلسوا جميعاً للأخذ منه مجلس التلامذة من الأستاذ الجليل، وشهادات القوم بهذا تتوالى، واعتدادهم بأبوته العلمية والتربوية يتعاظم، حتى ليحق لنا أن نسمي عصره المعرفي بالعصر الذهبي للإسلام، شأنه بذلك شأن جده الإمام جعفر الصادق(ﵺ)، واشتهاره به شهرة الإمام محمد الباقر(ﵺ)، فكان ثالث ثلاثة (صلوات الله عليه).

وليس بمقدور البحث أن يحيط بتراث الإمام الفكري، ولا الوقوف على آفاقه المترعة بروافد العلم والفضل والعطاء الرائد، بل يحاول جاهداً أن يلوّح لأبرز الآثار وأعمقها أصالةً في فكر الإمام(ﵺ) مشيراً لجزء من أطاريحه في توعية الأمة، وتكوين جيل العلماء، مما لا يعدو أن يكون قبساً لامعاً من ذلك التوهج الخارق.

مسيرة التشريع الإسلامي لدى الإمام

لو استعرضنا الكتب الأربعة عند الإمامية: الكافي للكليني، ومن لا يحضره الفقيه للصدوق، وتهذيب الأحكام والاستبصار للشيخ الطوسي، يضاف إليها الوافي ووسائل الشيعة، وعيون أخبار الرضا، وعلل الشرائع، وبحار الأنوار وسواها، لرأينا بصمات الإمام التراثية بارزة في حياة التشريع وفروع الأحكام في العبادات والمعاملات والحدود والقصاص والديات.

ومع مختلف الضغوط والأساليب التي مارسها الحكم العباسي في تحجيم فكر الإمام، وحظر انتشاره في الآفاق، وتعقب تلامذته في أمنهم ورزقهم، فقد انتشر فقه الإمام الرضا مما وصل إلينا تدوينه، أمّا الذي لم يصل إلينا نتيجة التأريخ الرسمي والبعد الطائفي والعامل السياسي، فيرجح أن يكون هو الأكثر عادة.

لقد أورد صاحب المناقب عن محمد بن عيسى اليقطيني قوله:

«لمّا اختلف الناس في أمر أبي الحسن الرضا(عليه السلام)، جمعتُ من مسائله، مما سئل عنه وأجاب فيه: ثمانية عشر ألف مسألة»[1].

فهذا راوٍ واحد، أو مؤلف واحد، جمع للإمام هذا العدد الهائل من المسائل، فما بالك في مئات الرواة عنه؟ فأين ذهب هذا التراث الحافل بأمهات المسائل؟ ومع هذا التمحّور الظالم والمتعمد تجاه مسيرة الإمام العلمية، فإنه وسواه لم يستطع أن يحجب لمعان الأضواء المنبعث من نور هدايته في قمع الضلال وإرشاد الضال، وتسيير تلك المعارف الهادفة، حتى عاد بذلك مَعْلماً فيصلاً في الأحكام والفروع والنوادر الثمينة، وكان سبب هذا التلاحم على كثرة المثبطات كونه يستمد قوته ونماءه وإحياءه من آبائه المعصومين حتى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).

ولست اعلم فرعاً من فروع الفقه الإسلامي لا راي فيه للأئمة الطاهرين استيعاباً وشمولاً، مما جعل الثروة التشريعية كنزاً لا تفنى جواهره في تراث أهل البيت الفقهي.

ولم تستطع عاديات الزمن، ولا التجاوزات السياسية أن تخمد ذلك اللهب اللامع، ولا أن تطفئ جذوته المتوقدة، لأن التراث التشريعي لدى المعصومين امتزج بعدهم بالعملية الاجتهادية لدى أعاظم فقهائنا نتيجة فتح باب الاجتهاد، مما اكسبه حيوية ومرونة، وسيرورة أبدية في سجل التاريخ ومحافل الإفتاء.

يقول الأستاذ باقر شريف القرشي:

«ليس من الغلو في شيء: القول بأن فقه اهل البيت(عليهم السلام) هو من افضل ما قنن في عالم التشريع، فهو يساير الفطرة، ويساير العقل، ولا يشّذ عن

---

(١) ابن شهراشوب / المناقب ٣ / ٤٦١.

سنن الكون، وليس في بنوده عسر ولا حرج، ولا جمود، وإنما هو متوازن ومتطور ومتكامل، قد عالج قضايا الإنسان، ووضع لها الحلول الحاسمة على ضوء الفكر والمنطق.

وثمة ميزة أخرى بالغة الأهمية لهذا الفقه، وهو انه قد أُخذ عن أئمة الهدى الذين هم من ركائز الوعي والهدي في دين الإسلام، وقد أعلن كل واحد منهم أنه لم يفتِ في واقعة أو نازلة عن رأيه واجتهاده الخاص، وإنما هو مستمدٌ ومأخوذ عن جدهم النبي(ﷺ)، فقد آثرهم بعلمه، وخصهم بحكمته، وجعلهم سفن النجاة وأمن العباد، وألزم الأمّة باتباع منهجهم، والاقتداء بسلوكهم. . والإمام الرضا(عليه السلام) من أعلام أئمة الهدى، فقوله وفعله من السنّة، وقد أثرت عنه كوكبة من أحكام التشريع. . .»[1].

وكان مدار هذا الفقه متداولاً بين أصحاب الإمام الرضا(عليه السلام) حينما يُسال ويجيب، فهو ثمرة لآلاف الأسئلة وآلاف الأجوبة، ويأتي دور (علم الدراية) لتصنيف الرواة، ودراسة سند الرواية وقفها، فيؤخذ بصحيح ما روي عنه، ويعمل بالموثوق منه، ويتوقف عند المرسل والضعيف، إلاّ أن يكون الحديث مروياً في كتب الأصول الصادرة عن الإمام، أو أن متنه وقوته في الأداء، يكشفان انه من كلام المعصوم على رأي، فتعتبر فيه الصحة، مما هو معروف صناعة عند أرباب هذا الفن.

وكان الاهتمام بتدوين ما يصدر عن الإمام(عليه السلام) قائماً في جزء كبير منه، ولكن بعضه قد يصدم بأخبار أخرى تعارضه، فيلجؤون إلى الإمام نفسه لحل هذه الإشكالية، وفي كيفية ترجيح بعض المرويات على بعض، وكان الإمام الرضا(عليه السلام) قد أرسى قواعد هذا البناء لدى تضارب الروايات وتعارض النصوص، وأشار إلى ما ينبغي أن يتبع في هذا الوجه، فقد

---

(١) باقر شريف القرشي / حياة الإمام علي بن موسى الرضا ١ / ٣٢٧.

سئل(عليه السلام) فيما روي عنه، وقد اجتمع عنده قوم من أصحابه، وكانوا يتنازعون في الحديثين المختلفين عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، في الشيء الواحد!!

فقال الإمام الرضا(عليه السلام):

«إن الله عزَّ وجل حرّم حراماً، وأحلّ حلالاً، وفرض فرائض، فما جاء في تحليل ما حرّم الله، أو تحريم ما أحل الله، أو دفع فريضة في كتاب الله، رسمها بيّن قائم بلا ناسخ نسخَ ذلك، فذلك مما لا يسع الأخذ به، لأن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن ليحرّم ما أحلّ الله، ولا ليحلل ما حرّم الله، ولا ليغيّر فرائض الله وأحكامه، كان في ذلك كله متبّعاً مسلماً مؤدّياً عن الله، وذلك قول الله عزَّ وجل:

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ﴾[1].

فكان(عليه السلام) متبعاً لله، مؤدّياً عن الله ما أمره به من تبليغ الرسالة. قال السائل، فإنه يرد عنكم الحديث عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) مما ليس في الكتاب وهو في السنّة، ثم يرد خلافه!!

فقال الإمام: وكذلك قد نهى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) عن أشياء نهيَ حرام، فوافق في ذلك نهيه نهي الله تعالى، وامر باشياء فصار ذلك الأمر لازماً كعدل فرائض الله تعالى، ووافق في ذلك أمرُهُ أمر الله تعالى، فما جاء في النهي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) نهيَ حرام، ثم جاء خلافه، لم يسع استعمال ذلك، وكذلك فيما امر به، لانا لا نرخص فيما لم يرخص فيه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولا نامر بخلاف ما امر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إلاّ لعلة خوف ضرورة، فامّا ان نستحلّ ما حرّم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، أو نحرّم ما استحلّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فلا يكون ذلك ابداً، لانا تابعون لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) مسلّمون له،

---

(١) سورة يونس / ١٥.

كما كان رسول الله(ﷺ) تابعاً لأمر ربّه عزّ وجل مسلماً. وقد قال الله عزّ وجل:

﴿ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[1].

وإن رسول الله(ﷺ) نهىٰ عن أشياء ليس نهيَ حرامٍ بل إعافة وكراهة، وأمر بأشياء ليس أمر فرض وواجب، بل أمر فضل ورجحان في الدين، ثم رخص في ذلك للمعلول وغير المعلول، فما كان عن رسول الله(ﷺ) نهي إعافة أو أمر فضل، فذلك الذي يسع استعمال الرخص فيه، إذا وردَ عليكم عنّا الخبران باتفاق من يرويه في النهي ولا ينكره، وكان الخبران صحيحان معروفين باتفاق الناقلة فيهما، يجب الأخذ بأحدهما أو بهما جميعاً، أو بأيهما شئت وأحببت، موسع ذلك لك من باب التسليم لرسول الله(ﷺ) والرّد إليه وإلينا، وكان تارك ذلك من باب العناد والإنكار وترك التسليم لرسول الله(ﷺ) مشركاً بالله العظيم، فما ورد عليكم من خبرين مختلفين فاعرضوهما علىٰ كتاب الله، فما كان في كتاب الله موجوداً حلالاً أو حراماً، فاتبعوا ما وافق الكتاب، وما لم يكن في الكتاب فاعرضوه علىٰ سنن النبي(ﷺ) فما كان في السنّة موجوداً منهياً عنه نهيَ حرام، أو مأموراً به عن رسول الله(ﷺ) أمر إلزام، فاتبعوا ما وافق نهي رسول الله(ﷺ) وأمره، وما كان في السنة نهي إعافة وكراهة، ثم كان الخبر الآخر خلافه، فذلك رخصة فيما عافه رسول الله(ﷺ) وكرهه ولم يحرمه، فذلك الذي يسع بهما جميعاً، أو بأيهما شئت وسعك والاختيار من باب التسليم والاتّباع والردّ إلىٰ رسول الله(ﷺ) وما لم تجدوه في شيء من هذه الوجوه فردّوا إلينا علمه، فنحن أولىٰ بذلك، ولا تقولوا فيه بآرائكم، وعليكم الكف والتثبت والوقوف وأنتم طالبون باحثون، حتىٰ يأتيكم البيان من عندنا»[2].

---

(١) سورة الحشر / ٧.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ٢٠- ٢١.

وكانت هذه الإفاضة من الإمام تعنى بحياة التشريع في أخذ الأحكام، ومجنّاً للأمان في صورة تعارض الروايات، وطريقاً موصلاً للعمل بالحكم الشرعي من مصادره في ضوء البحث والتمحيص.

التراث التدويني للإمام

وقد ينسب للإمام الرضا(عليه السلام) جملة من المؤلفات، قد تصح نسبة بعضها له، وقد لا تصح نسبة بعضها الآخر. فهناك ما وسم بـ(فقه الرضا) وقد يعبّر عنه بـ(الفقه الرضوي) وقد طبع مراراً، وهو ينسب للإمام.

وقد ذكر الأستاذ كارل بروكلمان: أن الطبعة الأولى للكتاب كانت عام ١٢٧٤هـ في طهران، وفيها مقدمة في الدفاع عن صحة نسبة الكتاب للإمام الرضا[١].

وكان هذا الكتاب محور تحقيق كبير في نسبته هذه، وقد أشار الشيخ اقابزرك (قدس سره) إلى ما أثاره الكتاب من جدل، وذكر ان «المولى مهدي بن أبي ذر النراقي كتب نسخة منه بخطه، وكتب عليها أنه كتبها من نسخة المكتبة الرضوية التي هي إمّا خط الإمام الرضا، وإمّا مستنسخة من خطه(عليه السلام)»[٢].

وقد اعتمده طائفة من الأساطين كالمجلسيين، وصاحب الحدائق الشيخ يوسف البحراني، والسيد محمد مهدي بحر العلوم، والشيخ الميرزا حسين النوري، وسواهم من الأعلام.

وقد ذهب جمع من العلماء: ان الكتاب لا تصح نسبته للإمام قبل زمان المجلسيين، فإذا كان الكتاب له، فما بال المحققين لم يتناولوا ذلك

---

(١) بروكلمان / تاريخ الأدب العربي ٣ / ٣٣٦.

(٢) اغابزرك / الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١٦ / ٢٩٢ - ٢٩٣.

بالنقل عنه، والإفادة منه، لاسيما الشيخ الصدوق الذي جمع أعلى آثار الرضا(عليه السلام)، ولم يشر إلى توافر كتاب له بهذا الاسم.

ولم يثبت عند سيدنا الأستاذ الإمام الخوئي قدس سره كون الكتاب من تأليف الإمام الرضا(عليه السلام)، بل فيه شواهد على كونه من فتاوى بعض العلماء، ولموافقة جملة ما فيه لرسالة ابن بابويه لولده،

وللسيد حسن الصدر رسالة في عدم حجية الكتاب، وذكر أنه للشلمخاني[1]. يقول السيد محسن الأمين: (كتاب (فقه الرضا) وهو كتاب في أبواب الفقه لم يكن معروفاً قبل زمن المجلسي الأول، واشتهر بزمانه إلى اليوم. . وممن جزم بصحة نسبته السيد محمد مهدي بحر العلوم الطباطبائي في فوائده الرجالية، والشيخ يوسف البحراني وغيرهم، وممن جزم بذلك من المعاصرين المحدّث الشيخ ميرزا حسين النوري، فأدرجه في كتابه (مستدرك الوسائل) وفرّق ما فيه على أبوابه.

وعدّه صاحب الوسائل (الحر العاملي) من الكتب المجهولة المؤلف، وكذا صاحب الفصول في الأصول، وغيرهما، وجماعة توقفوا فيه.

وربما احتمل بعضهم أن يكون هو رسالة علي بن بابويه والد الصدوق لولده لأن اسمه علي بن موسى، وفي أوله يقول عبد الله علي بن موسى الرضا[2].

ويرى الأستاذ محمد جواد فضل الله: أن نسبة الكتاب للإمام لا تخلو من شبهة ربما تصل إلى الظن المتاخم للعلم في أن الكتاب ليس من تأليف الإمام[3].

---

(١) ظ: محمد جواد فضل الله / الإمام الرضا / تاريخ ودراسة / ١٩٠ - ١٩١.

(٢) ظ: محسن الأمين العاملي / أعيان الشيعة ٤ / ق ٣/ ١٨٥.

(٣) محمد جواد فضل الله / الإمام الرضا / ١٩٢.

وقد يكون الكتاب جمعاً لروايات صادرة عن الإمام الرضا(ع)، صنّفه بعضهم، فاعتقد كثيرون أنه من تأليف الإمام. والله العالم.



وقد نسبوا للإمام الرضا(ع) مجموعة من الأحاديث في الفقه وعلوم الشريعة باسم (مسند الرضا) أو (صحيفة الرضا).

وقد أحصى بعض الأصحاب حديثها عدداً، فكان مائتين وأربعين حديثاً، وهي مرويّة، بإسناد ثقة الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي المفسر (ت ٥٤٨هـ) أملاها يوم الخميس غرة رجب عام ٥٢٩ هـ عن أبي الفتح، عبد الله بن عبد الكريم بن هوزان القشيري، قراءة عليه بالحضرة الغروية غرة رمضان عام ٥٠١ هـ. . . عن أبي القاسم عبد الله بن أحمد بن عامر الطائي بالبصرة، قال: حدثني أبي (عام) ٢٠٦ هـ قال: حدثني علي بن موسى الرضا(ع)، (عام) (١٩٤ هـ).

وقد ترجم النجاشي لعبد الله بن احمد بن عامر، وذكر له الكتاب معبّراً عنه بالنسخة عن الرضا، وقد طبعت في بمبي، وطبعت بإيران، وعند الشيخ هادي كاشف الغطاء أظن ان فيها زيادات فراجعها، ونسخة خط محمد الغائني التي كتبها بمشهد الرضا في عاشر رمضان ٩٤٨ هـ، عند الشيخ شير محمد الهمداني في النجف، ونسخة ثمينة في مكتبة امير المؤمنين (في النجف) عليها كتابة بتاريخ ١١٠٣ هـ[1].

وذكر الشيخ اغا بزرك قدس سره أن هذه الصحيفة قد طبعت باسم (مسند الرضا) في آخر مسند زيد في مطبعة المعارف العلمية بمصر سنة ١٣٤٠هـ[2]

---

(١) ظ: اغا بزرك / الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١٥ / ١٧ - ١٨ + محمد حسن آل ياسين / الإمام علي بن موسى الرضا / ١٢٠ - ١٢١.

(٢) اغابزرك / الذريعة إلى تصانيف الشيعة ٢١ / ٢٦ - ٢٧.

«وتعبّر هـذه الصحيفة أو المجموعة تعبيراً جليّاً عن عناية الإمام بالحديث الشريف، واهتمام أصحابه بتدوين ما يسمعون منه فيما يحدثهم به ويدلهم عليه، وفيما يجيبهم على اسئلتهم المختلفة المعنية بعلم الحديث وتصحيح إسناده»[1].

ولو أردنا إستعراض دور الإمام(عليه السلام) في علم الحديث، وتشجيعه على تدوين ذلك، وتأكيده على المرويات الصحيحة، لاحتجنا إلى مؤلف خاص باعتباره من السنّة القولية، والسنة تلي الكتاب الكريم باعتبارها مصدراً من مصادر التشريع، ولك أن تغور وتنجد في ساحة كتب الأحاديث التي تروي عن الإمام الرضا(عليه السلام)، لترى العجب العجاب، فقد ذكر ابن شهرأشوب عن كتاب الجلاء والشفاء، قال: محمد بن عيسى اليقطيني: لما اختلف الناس في أمر أبي الحسن الرضا(عليه السلام) جمعت من مسائله مما سُئِلَ عنه، وأجاب فيه، ثماني عشرة الف مسألة.

وروى الشيخ الطوسي عن اليقطيني مثله، إلاَ أنه قال: خمس عشرة الف مسألة[2].

وكان حديث الإمام ركناً اساسياً في حياة التشريع، فعن طريق روايته تبين لشيعة أهل البيت رايه الفقهي الذي يستنبطه المجتهدون في ضوء معايير فنية.

ولكن الأمر الجدير بالأهمية القصوى أن حديث الإمام، حديث أبيه، وحديث أبيه حديث جده، وحديث جده حديث أمير المؤمنين(عليه السلام)، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وهذا ما لم يتوفر لغير ائمة أهل البيت(عليهم السلام) في سند هذه السلسلة الذهبية.

---

(١) محمد حسن آل ياسين / الإمام علي بن موسى الرضا / ١٢٢.
(٢) ظ: محسن الأمين العاملي / أعيان الشيعة ٤ / ق ٣ / ١٠٠.

وكان العلماء والفقهاء والمحدثون من شتى المذاهب الإسلامية حريصين على سماع هذا السند، والاعتزاز به، كما في الحديث الآتي:

عن محمد بن عبد الله بن طاهر، قال: «كنت واقفاً على أبي، وعنده أبو الصلت الهروي، وإسحاق بن راهويه، وأحمد بن محمد بن حنبل، فقال أبي: ليحدثني كل رجل منكم بحديث!! فقال أبو الصلت الهروي:

حدثني علي بن موسى الرضا(ع)، وكان والله رضا كما سُمّي، عن أبيه موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين عن أبيه علي(ع)، قال: قال رسول الله(ص): الإيمان قول وعمل.

فلما خرجنا قال أحمد بن محمد بن حنبل: ما هذا الإسناد؟

فقال له أبي: هو سعوط المجانين، إذا سعط به المجنون آفاق»[1].

وكان من هذا الباب ما ذكره الشيخ الصدوق عن الفضل بن شاذان، قال: سأل المأمون علي بن موسى الرضا أن يكتب له (محض الإسلام) على سبيل الإيجاز والاختصار، فكتب له ذلك الإمام الرضا(ع)[2].

والنص الموجود في عيون أخبار الرضا لا يتعدى الصحائف العشر، إلاّ أنها قد اشتملت على أحكام لم يلتزم بها مذهب أهل البيت فقهياً، مما يدلل أن النسبة قد لا تصح، ويحتمل أن تكون من تأليف بعض العلماء، ونسبت للإمام الرضا لشيء فيها قد ينسب للإمام.

يقول الأستاذ محمد جواد فضل الله:

«على أن أسلوب هذه الرسالة أسلوب مضطرب، تتخلله تعابير قلقة، يبعد أن تكون من إملاء الإمام نفسه، مع اشتمالها على بعض الأحكام التي

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٢٢٨ + المجلسي / البحار ٤٩ / ٢٧٠.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٢١.

لم يثبت الالتزام بها في مذهبنا، كإيجاب القنوت في الصلوات الخمس، ووجوب الصلاة على النبي في كل موطن. . . ووجوب التكبير في العيدين. . وقعود النفساء عن الصلاة ثمانية عشر يوماً إذا استمرّ معها الدم.

وذكر في الرواية الثانية للرسالة: أن ذنوب الأنبياء صغائر موهوبة، وهو منافٍ لقوله(ﷺ) بعصمتهم من الصغائر والكبائر[1].

وهنالك آلاف المسائل التي أجاب عنها الإمام(ﷺ)، وقد دوّنت وعدّت في تراثه، وهو كذلك ولكنها ليست مؤلفات تنسب إليه، كما هي الحال في أجوبته لمسائل ابن سنان[2].

وكذلك في العلل التي ذكرها الإمام في الأحكام للفضل بن شاذان[3] وقد يكون الفضل دونها، وجمع ما ورد عن الإمام فيها، فكان من السابقين لذلك.

نعم للإمام (الرسالة الذهبية) في الطب، ولها من الشهرة في النسبة إليه ما يطمئن معه على صحتها، وسندها ينتهي بعضه إلى محمد بن جمهور، وبعضه إلى الحسن بن محمد النوفلي، وقد وثقه النجاشي.

وقد قام بشرحها والتعليق عليها أكثر من عشرين باحثاً وعالماً، كما ترجمت إلى عدة لغات عالمية[4].

وقد طبعت هذه الرسالة ضمن كتاب طبّ الإمام الرضا(ﷺ)[5].

وقد شرحها أخيراً الدكتور صاحب زيني، وتناولها بالبحث المقارن بينها وبين الطب الحديث، ونشرت بعنوان: طب الرضا[6].

---

(١) محمد جواد فضل الله / الإمام الرضا - تاريخ ودراسة / ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) ظ: الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ٨٨ - ٩٩.

(٣) ظ: المصدر نفسه ٢ / ٩٩ - ١٢١.

(٤) ظ: محمد جواد فضل الله / الإمام الرضا / ١٩٧ + باقر شريف القرشي / حياة الإمام الرضا ١ / ٢٠٠ - ٢٠١.

(٥) نشرته المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٨٥ هـ.

(٦) نشرته: سلسلة ملتقى العصرين / بغداد.

ويرجح الأستاذ محمد جواد فضل الله: أن الرسالة من تأليف الإمام الرضا(عليه السلام) للشهرة المستفيضة التي اعتبرها الكثيرون من المحققين، كطريق من طرق الإثبات الشرعي[1].

والرسالة هذه وإن كانت خارجة عن نطاق الفقه والتشريع، ولكنها طبّ شرعي وهي داخلة ضمن تراث الإمام الرضا(عليه السلام) في ريادتها لهذا الفن الجديد على عصره في تفصيلاته، وبذلك الأسلوب الفريد.

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

«وتطالعنا - بهو وإشراق - تلك الرسالة القيّمة الرائدة في الطب التي اشتهرت باسم (الرسالة الذهبية) أو (المذهبة)... وقد عنيت بمجموعها كما يقول الشيخ أغابزرك بشؤون (حفظ صحة البدن، وتدبيره بالأغذية والأشربة والألبسة والأدوية الصالحة، والفصد، والحجامة، والسواك، والحمام، والنورة وغير ذلك».

وقيل: انه أول كتاب دوّن في الإسلام في علم الطبّ وحفظ صحة الأبدان، فإن ما بلغنا عن النبي(صلى الله عليه وآله) في متفرقات الطب قد جمعها ودوّنها الشيخ ابو العباس المستغفري المتوفى ٤٣٢هـ، وكذا ما جمعه ابن بسطام في كتاب طبّ الأئمة[2].

وقد أورد نص الرسالة المجلسي في البحار[3].

يقول الأستاذ باقر شريف القرشي مؤكداً صحتها، وذاكراً سبب تاليفها:

«وتميز بلاط المامون بانه كان في معظم الأوقات ندوة من ندوات العلم والأدب، خصوصاً في عهد الإمام الرضا عملاق هذه الأمّة، ورائد نهضتها

(١) محمد جواد فضل الله / الإمام الرضا - تاريخ ودراسة / ١٩٣.

(٢) ظ: محمد حسن آل ياسين / الإمام علي بن موسى الرضا / ١٢٧ - ١٢٨ + آغابزرك / الذريعة ١٠ / ٤٦.

(٣) ظ: المجلسي / بحار الأنوار ٦٢ / ٣٠٨.

الفكرية والعلمية؛ ومن بين البحوث العلمية التي عرضت في تلك الندوة ما يضمُّه بدن الإنسان من الأجهزة والخلايا العجيبة، وبدائع تركيب أعضائه التي تجلت فيها حكمة الخالق العظيم، وروعة قدرته، وخاض القوم فيما يصلح بدن الإنسان... وضمت الجلسة:

١ - الإمام الرضا(عليه السلام).

٢ - المأمون العباسي.

٣ - يوحنا بن ماسويه.

٤ - جبرئيل بن بختيشوع.

٥ - صالح بن بهلة الهندي.

وقد خاض القوم - سوى الإمام - في البحوث الطبية، والإمام ساكتٌ لم يتكلم بشيء، فانبرى له المأمون قائلاً:

«ما تقول يا أبا الحسن في هذا الأمر الذي نحن فيه اليوم، والذي لابدّ منه من معرفة هذه الأشياء، والأغذية النافع منها والضار وتدبير الحسن»[1].

قال الإمام: (عندي من ذلك ما جربته، وعرفت صحته بالاختبار ومرور الأيام، مع ما أوقفني عليه من مضى من السلف، مما لا يسع الإنسان جهله، ولا يعذر في تركه، فأنا أجمع ذلك مع ما يقاربه مما يحتاج إلى معرفته..)[2].

وخرج المأمون إلى بلخ، فكتب للإمام يستنجزه ما وعده، فكتب الإمام له جواب ذلك في رسالة سميت الذهبية، لأن المأمون حينما اطلع عليها أمر أن تكتب بماء الذهب، وتوضع في خزانة الحكمة.

---

(١) باقر شريف القرشي / حياة الإمام علي بن موسى الرضا ١ / ١٩٩.

(٢) محسن الأمين العاملي / أعيان الشيعة ٤ / ق ٣ / ١٨٣.

والرسالة من أنفس منح تراثنا الإسلامي في مجال الطب، فقد جاءت مختصراً لعدد من العلوم الطبية: كعلم التشريح، وعلم الأحياء، وعلم وظائف الأعضاء، وعلم الأمراض، وعلم حفظ الصحة، ودلت على القسم الأعظم من الطب الوقائي، وعلم الأغذية، وعلم الكيمياء[1].

وقد احتفل المأمون بهذه الرسالة، فقال في تعريفها والثناء عليها، ما نصه: «أما بعد؛ فإني نظرت في رسالة ابن عمي الأديب، والفاضل الحبيب، والمنطقي الطبيب في إصلاح الأجسام، وتدبير الحمّام، وتعديل الطعام، فرأيتها في أحسن التمام... ورددت نظري فيها متفكراً، فكلما أعدت قراءتها والنظر فيها، ظهرت لي حكمتها، ولاحت لي فائدتها، وتمكنت من قلبي منفعتها، فوعيتها حفظاً، وتدبرتها فهماً، إذ رأيتها من أنفس العلائق، وأعظم الذخائر، وأنفع الفوائد، فأمرت ان تكتب بالذهب لنفاستها وحسن موقعها، وعظم نفعها، وكثرة بركتها... ولأنها خرجت من بيوت الذين يوردون حكم النبي المصطفى، وبلاغات الأنبياء، ودلائل الأوصياء، وآداب العلماء، وشفاء الصدور والمرضى من أهل الجهل والعمى. رضوان الله عليهم ورحمته وبركاته، أولهم وآخرهم وصغيرهم وكبيرهم، فعرضتها على خاصتي من أهل الحكمة والطب، وأصحاب التاليف والكتب، والمعدودين في أهل الدراية، والمذكورين بالحكمة، وكلٌّ مدحها وأعلاها، ورفع قدرها وأطراها، إنصافاً لمصنفها، وإذعاناً لمؤلفها، وتصديقاً له فيما حكاه...»[2].



(١) ظ: محمد جواد فضل الله / الإمام الرضا - دراسة وتاريخ / ١٩٤.

(٢) ظ: المرجع السابق / ١٩٥ وانظر مصدره + القرشي / حياة الإمام علي بن موسى الرضا ١٢ / ٢٠٢.

وتراث الإمام التشريعي حافل بالفتاوىٰ الفقهية والأحكام والفروع، ومن تراثه الشائع آثاره في علل الشرائع، وفيها من الترغيب والترهيب والعظة والاعتبار والدواعي والأسباب الشيء الطريف، يستدل من خلالها علىٰ حكمة التشريع وصلاحية الشريعة وهما يقومان علىٰ أساس المصلحة والمنطق.

فقد تحدث فيما روي عنه، عن علل الشرائع والأحكام، فيما كتب به إلىٰ محمد بن سنان في جواب مسائله - إن صح ذلك -.

فكانت العلل المبرمجة لذلك تتناول: أحكام الطهارة، وعلل الغسل في العيدين والجمعة، وغسل الميت ومسه، وعلة الوضوء في الغسل والمسح، وعلة الزكاة من أجل قوت الفقراء، وعلة الحج في الوفادة علىٰ الله تعالىٰ وعلة وضع البيت الحرام وسط الأرض، وعلة الطواف بالبيت، وعلة استلام الحجر، وعلة الصوم لعرفان مسّ الجوع والعطش، وعلة تحريم قتل النفس إلاّ بالحق، وعلة تحريم عقوق الوالدين لما فيه من الخروج علىٰ التوقير، وعلة تحريم أكل مال اليتيم ظلماً لوجوه كثيرة. وعلة تحريم الفرار من الزحف لما فيه من الوهن في الدين، وعلة تحريم التعرّب بعد الهجرة للرجوع عن الدين، وعلة تحريم ما أهل به لغير الله. لئلا يسوّىٰ بين ما تقرب به إلىٰ الله، وبين ما جعل عبادة للشياطين والأوثان... وعلة تحريم سباع الطير والوحش لأكلها من الجيف.. وعلة تحريم الأرنب لأنها بمنزلة السنوّر، ولها مخالب، وعلة تحريم الربا لما فيه من فساد الأموال، وعلة تحريم الخنزير لأنه مشوّه.. علىٰ ما مسخ من خلقته.. وعلة تحريم الميتة لما فيها من فساد الأبدان والآفة، وعلة تحريم الدم لما فيه من فساد الأبدان، وعلة تحريم الطحال لما فيه من الدم، لأنه يجري مجراها ومجرىٰ الميتة.

وعلة وجوب المهر على الرجال، وعلة التزويج للرجل أربع نسوة، وعلة الطلاق ثلاثاً... وعلة تحريم المرأة بعد تسع تطليقات، وعلّة ترك شهادة النساء في الطلاق والهلال، وعلة الشهادة على الزنا بأربعة شهداء، وعلة قطع يمين السارق، وعلة حرمة السرقة، وعلة ضرب القاذفة، وشارب الخمر، والزاني. وعلة تحريم اللواط والسحاق لانقطاع النسل، وفساد التدبير، وعلة ميراث المرأة...[1].

وأنت ترى هذه المفردات في كثرتها واتساعها، والإحاطة بعللها تنبئ عن علم غزير في وجوه حكمتها، وتتبع عظيم في حياة أسبابها، ولك أن تقيس عليها أمثالها مما ضن علينا به التأريخ.

وهناك علل أخرى رواها الفضل بن شاذان، وأنه سمعها من الإمام الرضا(عليه السلام) مرة بعد مرة، وشيئاً بعد شيء، فجمعها، وأطلق لعلي بن محمد بن قتيبة النيسابوري روايتها عنه عن الإمام الرضا(عليه السلام)، وهي مذكورة في كتب الصدوق[2].

وتشتمل على مباحث ذات قيمة تراثية في أصول التوحيد وعلل الأحكام، وفروع المسائل الفقهية، وتحرير فضائل القرآن من خلال جملة من سور القرآن.

ولعل من الطريف في باب تراث الإمام الرضا، أن ينبري(عليه السلام) لتعداد قسم كبير من كبائر الذنوب التي يجب اجتنابها في مسح شامل ذكر فيه أغلبها، وهي:

«قتل النفس التي حرّم الله، وشرب الخمر، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتامى ظلماً، وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وما

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ٨٨ – ٩٨.

(٢) ظ: الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ١٢١ – ١٢٧.

أهلّ به لغير الله، من غير ضرورة به، وأكل الربا والسحت بعد البينة، والميسر، والبخس في الميزان والمكيال، واليأس من روح الله، ومعاونة الظالمين، والركون إليهم، واليمين الغموس، وحبس الحقوق من غير عسر، والكبر، والكفر، والإسراف، والتبذير، والخيانة، وكتمان الشهادة، والملاهي التي تصدُّ عن ذكر الله مثل: الغناء وضرب الأوتار، والإصرار على الصغاير من الذنوب...»[1].

وهذا الاستيعاب لأغلب الكبائر في ذكره جزء من كلي التراث التشريعي لدى الإمام، وبضمه الى ما سبق تتضح الشمولية المطلقة لأبواب التراث التدويني للإمام وهو في مركز العطاء العلمي.

تلامذة الإمام الرضا

وكانت رسالة الإمام الرضا(عليه السلام) إنسانية العطاء، عالمية الدلالة، وكان كالبحر يخرج لآليه وكنوزه، وكالقطر يدفع بسحبه وأنوائه، كان للناس كلهم، فلم يكن ملكاً لطائفة، ولا زعيماً لمؤسسة، بل كان ملك البشرية جمعاء، يهب هذا، ويمنح ذاك، ويجود على آخرين، وإذا تحررت النفس من المناخ الإقليمي انفتحت على الكون، وهكذا كان الإمام في تفكيره المعرفي الهادف، يؤدي مهمته في رحابة أفق وسعة إدراك، فلم يبخل بمكنون علمه على أهله، فكانت أبوابه دون رتاج للسائلين ورواد الثقافة، ولم يكن هذا الانفتاح مقتصراً على الإمام الرضا وحده، وإنما هو حقيقة تأريخية في سيرة آبائه وأجداده حتى رسول الله(صلى الله عليه وآله)، المنبع الأول لروافد العلم المتدفقة.

وكانت القصبات الإسلامية والمدن والدساكر ترمي بأفلاذ أكبادها إلى المدينة المنوّرة حيث يقيم، وإلى مرود خراسان حيث الهجرة المفروضة من

---

(١) ابن شعبة / تحف العقول / ٤٢٣.

النظام، وكانت مدرسة الإمام تحتضن أفذاذ الأساتيذ وعباقرة التلامذة، وتتسع لمختلف الرواة وجمهرة المحدثين، حيث العلم الخالص والفقه الأمثل، وحيث كان الإمام الفرد الأكمل في الأمة، حتىٰ عاد عصره العلمي عصراً ذهبياً في الإفاضة العلمية، ووجهاً مشرقاً لمعالم التشريع السائرة، فأفاد منه علماء كل فن، ونهل من نمير علم الإمام فقهاء الأمة، وتمرّس علىٰ يديه أهل الكلام، وبرع أرباب الجدل والمناظرة، وروىٰ عنه طبقات من المؤلفين والمصنفين، وكتب أماليه نوابغ القوم، والتف حوله الشارد والوارد من شداة التحصيل، وبإزائه أولياؤه ومحبوه وأتباعه وحتىٰ أصحاب الدواوين، وهم جميعاً عيال علىٰ موارده المتلاطمة الأمواج، وسعاة إلىٰ حضرته الشريفة، وهي كخلية النحل عملاً ونشاطاً وحيوية، وجامعة تخرج أجيال العلم وأساطين القادة الأمناء وقد ذكر السيد الأمين أن جماعة من المصنفين رووا عن الإمام منهم: أبو بكر الخطيب في تاريخه، والثعلبي في تفسيره، والسمعاني في رسالته، وابن المعتز في كتابه وغيرهم، وروىٰ عنه عبد السلام بن صالح الهروي، وداود بن سليمان، وعبد الله بن العباس القزويني.

كما روىٰ عنه ابنه الإمام محمد الجواد (عليه السلام)، كما عن تهذيب التهذيب، وأبو عثمان المازني النحوي، وعلي بن علي الدعبلي، وايوب بن منصور النيسابوري، والمأمون العباسي، وعلي بن مهدي بن صدقة له عنه نسخة، وعامر بن سليمان الطائي له عنه نسخة كبيرة، وابو جعفر محمد بن محمد بن حبّان التمار وآخرون.

وفي تاريخ نيسابور روىٰ عنه من أئمة الحديث: آدم بن أبي إياس، ونصر بن علي الجهضمي، ومحمد بن رافع القشيري وغيرهم[1].

---

(١) ظ: محسن الأمين العاملي / اعيان الشيعة ٤ / ق ٣ / ١٧٩ – ١٨٠.

وهـؤلاء جهـابذة عصـره وحقبتـه الخـالدة، عـدا الـرواة الآخريـن، والتلامذة والمؤلفين ممن سنعرض لهم.

يقـول الأستاذ بـاقر شريف القرشي، وهـو بإزاء تعـداد وترجمـة مـن أحصاه من تلامذة الإمام ورواة حديثه، ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً: «وكـان الإمام الرضا في عصره: عملاق الفكر الإسلامي، وأعلم إنسان علىٰ وجه الأرض - كما يقول المـامون - وقـد أمّـد العـالم الإسـلامي بجميـع مقومـات النهـوض والارتقـاء، وقـد اتخـذ الجـامع النبـوي - زاده الله شـرفاً - معهـداً لدروسه ومحاضرته، وقد احتفىٰ به العلماء والرواة وطلبة الفقه، وهـو ابـن نيف وعشرين عاماً، وهم يسجّلون فتواه، ومـا يدلـي بـه مـن روائـع الحكـم وفنون الآداب.

ووجد العلماء في أحاديثه امتـداداً ذاتيـاً لأحـاديث جـده الرسـول(ﷺ)، الملهم الأول لقضايا الفكر والعلـم في الأرض وامتـداداً مشـرقاً لآبائـه الأئمـة الطاهرين، رواد النهضة العلمية والحضارية في دنيـا الإسـلام.. وقـد حظـي بالرواية عنه بعض تلامذة جـدّه الإمـام الصـادق(عليه السلام)، وبعـض تلامـذة أبيـه الإمام موسىٰ(عليه السلام)، كما روىٰ عنه جمهرة من العلماء المعاصرين له»[1].

وقد قام الأستاذ القرشي بعرض تفصيلي (الفبائي) لأبرز تلامـذة الإمـام الرضا(عليه السلام) وترجم لأغلبهم ترجمات تناسب العرض، وقد توصل بجهـده المشكور مـن خـلال البحـث والمقارنـة وكتـب الرجـال: ان ثلاثمائـة وسـبعة وستين تلميذاً قد درسوا علىٰ يد الإمام، ممن استطاع ان يقف عليهم عدا من اغفله الزمن واهملته كتب التاريخ، معتمداً بذلك علىٰ أهـم المصـادر وأبـرز الوثائق التاريخية[2].

---

(١) بـاقر شـريف القرشـي / حيـاة الإمـام علـي بـن موسـى الرضـا ٢ / ٨٥ - ٨٦.

(٢) ظ: بـاقر شـريف القرشـي / حيـاة الإمـام علـي بـن موسـى الرضـا ٢ / ٨٦ - ١٨٠.

وقد عدد من خلال ذلك مصنفات بعضهم، ومؤلفات آخرين، بما نعتبره سرداً إحصائياً دقيقاً يرجع إليه الباحث لدى التوسع.

أمّا الأستاذ الشيخ محمد حسن آل ياسين، فقد قام بجهد نادر أكثر عمقاً، وأبلغ ريادة، فعمد إلى إحصاء المؤلفين والمصنفين من تلامذة الإمام، وقدّم لذلك بقوله:

«ومن حق التاريخ وأمانة البحث... أن نقف وقفة أخرى لأداء الواجب والاعتراف بالجميل، فنزجي آيات الإكبار والإقرار بالفضل، لأولئك الذين سمعوا ذلك التراث فوعوه ورووه، وأنصتوا المحدّثهم العظيم إنصات الحافظ المدرك، فأنهوا إلينا ما حدّث به وأفاد، حضروا تلك المجالس حضور المتعلم الحريص، فاستوعبوا ما تعلّموه، وقيّدوه بالرواية وبالكتاب، خوفاً عليه من الضياع والنسيان.

وإذا كان من أضعف الإيمان، وأدنى درجات الشكر والامتنان - حينما يضيق المجال عن تعريف كل واحد من هؤلاء بما يقتضيه واجب التعريف من ترجمة وبيان - ان نقدّم مسرداً باسماء أولئك الكرام الذين أوصلوا إلينا علم النبوة، ونور الرسالة، واقباس الوحي والتنزيل، ولكن مجرد السرد لتلك الأسماء... قد يعدّ خروجاً على ما التزمنا به من اختصار وتلخيص.. ولمّا كان الإهمال المطلق لذكر هؤلاء جميعاً قد لا يخلو من غمط ومصادرة لحقوقهم التاريخية المشروعة، بل قد يخلّ بشمولية البحث ومنهجيته، رايت الأكثر التصاقاً بلباب الموضوع، والأبعد عن شائبتي الإهمال والتطويل، ان اقتصر على إيراد من نُسِبَ إليه كتاب أو أكثر من أولئك الرواة مع ذكر اسماء مؤلفاتهم المنصوص عليها في المصادر المعينة...»[1].

---

(١) محمد حسن آل ياسين / الإمام علي بن موسى الرضا / ١٣١ _ ١٣٢.

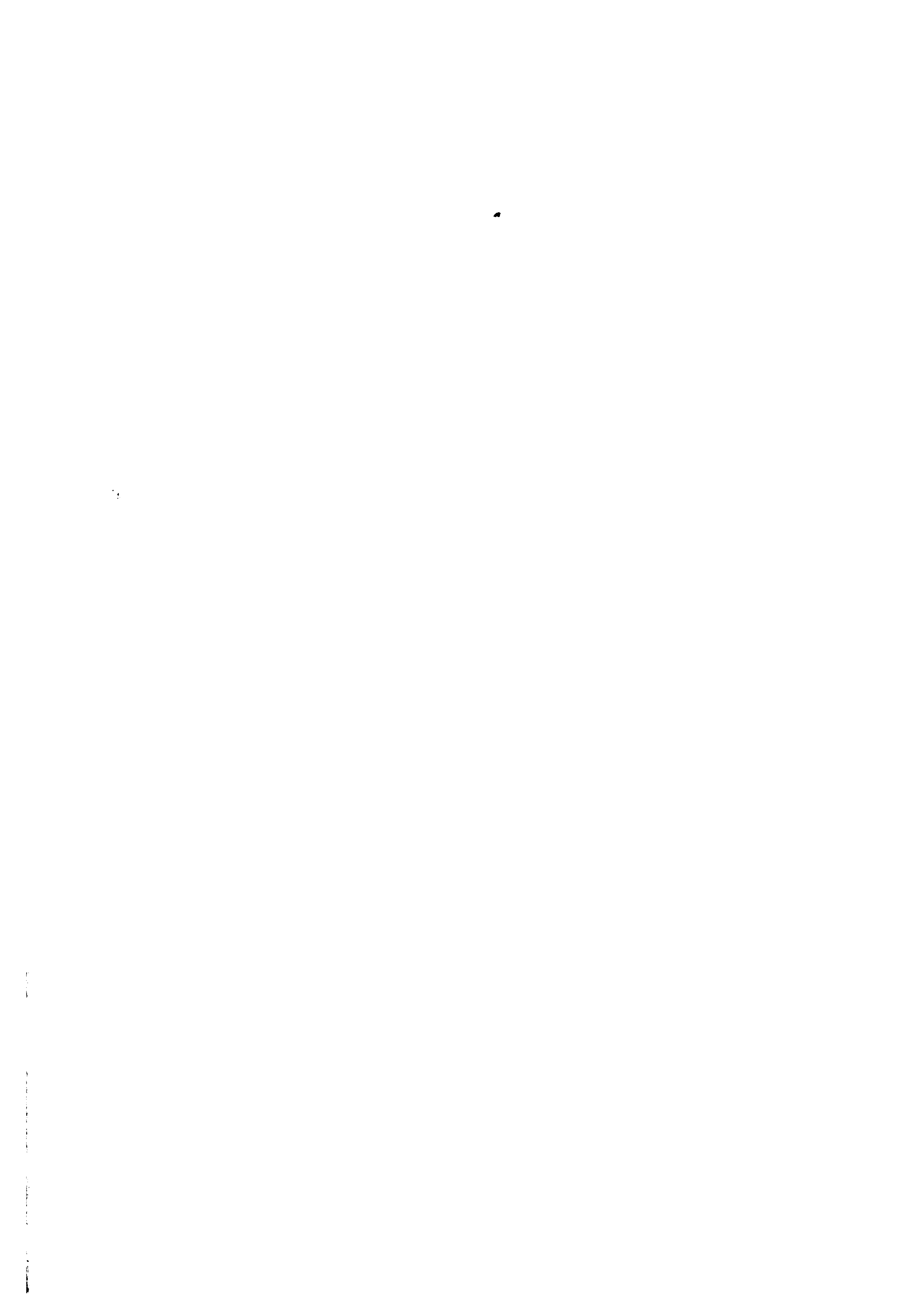
وكانت مصادره المعتمدة لهذا الإحصاء الكريم: هو ما جمعه الشيخ عناية الله علي القهبائي في كتابه الجليل (مجمع الرجال) بما ضم بين دفتيه من رجال الكشي، ورجال النجاشي، ورجال الشيخ الطوسي المعبّر عنه بـ(الفهرست).

كما رجع إلى فهرست ابن النديم في إيراده لمصنفات تلامذة الإمام. وكانت نتيجة هذه الجولة التحقيقية أن ظفر بمائة وثلاثة مؤلفين من تلامذة الإمام، صنفوا وألفوا زهاء خمسمائة كتاب ومُؤَلَّف، ومصنف، ورسالة في تخصصات شتى أبرزها: علوم القرآن - تفسير القرآن - الحديث الشريف - الفقه - الرجال - أصول العقائد - النوادر - الاحتجاج - التراجم - التأريخ - السيّر - الأخلاق - الفلسفة - الطب - الأدب - وسوى ذلك[1].

إن هذا الزخم الهائل من المؤلفات التي يغلب على أكثرها طابع القرآن والسنة والتشريع والفقه والإفتاء، ليعدّ بحقّ مصدراً من مصادر علم الإمام الرضا(عليه السلام)، ذلك المصدر الغني بأبعاده التشريعية التي تعنى بتكليف الإنسان، وتعيين وظيفته الدينية ضمن تعليمات وأفكار أهل البيت(عليهم السلام) التي تنطلق مباشرة من الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) باعتبار المشرّع الأعظم.



(١) ظ: المرجع نفسه / ١٣٣ - ١٦٦.



الفصل الخامس

الفِكر الكلامي في قيادة الإمام الرضا (عليه السلام)

١ ـ المناخ العقلي في عصر الإمام(عليه السلام).

٢ ـ الإلهيات وتنزيه الباري.

٣ ـ النبّوة وعصمة الأنبياء.

٤ ـ الإمامة وأهل البيت(عليهم السلام).

المناخ العقلي في عصر الإمام(ع)

امتزجت الثقافة الإنسانية في عصر الإمام الرضا(عليه السلام) بعضها ببعض، وألقت بثقلها المتراكم منذ العهد الإغريقي حتى العصر العباسي على الميدان العلمي، فاتسعت حركة الترجمة إلى العربية، واشرأبت حياة الفكر في التلاقح الثقافي لدى المسلمين، وعاد التراث العالمي في الحكمة والفلسفة في متناول العلماء والمتخصصين، وهبّت رياح الزندقة والإلحاد والشعوبية، وتطاير غبار الجدل والخصام ثائراً من جديد في أكثر من صعيد واحد، وتعاظم المدّ الإسلامي في التشعّب العقلي، فكانت الإمامية والأشاعرة والمعتزلة والمرجئة والقدرية وسواها، وكثر الإنكار والاستفسار، وبدأت علامات الاستفهام تتعالى من الأفواه، وشقّ المتكلمون طريقهم في ظل شبهات مبهمة، وانفجر المخزون التراثي للأمم في موجات متلاحقة، وسادت حالة من الغموض في المجتمع العربي الإسلامي، فبدأ يتساءل!! وبدأ يتناول!! وبدأ يحقق!! واختفت عوالم الاطمئنان والتعايش المستقر، وغزا الأفق سحاب كثيف من التعدد المذهبي، وكان من مهمته أن يعصف بالفكر الإمامي، وهو اقدمها تأريخاً، وانصعها فصولاً، واقربها برسول الله(صلى الله عليه وآله) صلة ولحمة وأواصر، وساعد المناخ بما استطاع من حول وطول ان يمدّ هذا التوجه بزخم كبير من الدعم والتشجيع، عسى أن يطاح بذلك الشاخص الماثل أمام الأنظار وهو مبدأ أهل البيت(عليهم السلام)، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ويأبى الله إلاّ ان يتم نوره، وإن كثر الضغط، وتنمّر المسؤولون، وتطاول الإرهاب، وصودرت الحرية الفكرية.

ومهما يكن من أمر، فقد احتدم الصراع الكلامي بين فصائل لا التقاء بين أكثرها، فالدهريون - كما يقال - في دوامة من الارتداد، والزنادقة في

متاهات من الشك والارتياب، والمسلمون في تزاحم فلسفي واحتجاجي وعقائدي لا أول له ولا آخر، حتىٰ عادت الأحاسيس متوترة، والعواطف ساخنة، والحكم في مأمن من اليقظة الشعبية أو الوعي الجماعي، فقد خدّرت أطراف الشعب الأعزل، وشدّت أعصابه بوثاق من حديد، وعمد الحكم إلىٰ إشغاله بهذه الحياة القائمة علىٰ النزاع والزعيق والصراخ، ليصفو له السلطان، وعقد لذلك المحافل والندوات باسم العلم تارة، وباسم الخصومة البريئة تارة أخرىٰ، وإن كان واقع ذلك منصبّاً في أهدافه علىٰ إفحام الإمام الرضا(عليه السلام) وإحراجه ولو مرة واحدة كما سترىٰ.

وكانت حياة الزهد المصطنع والتقشف الزائف نتيجة البذخ والسرف في العصر، قد استعادت كيانها والتقطت أنفاسها، فعاد للتصوّف المتصنع حضور بارز علىٰ السطح، وللدجل والرياء مكان معروف في المتاهات السحيقة، تخدع بهذا وذلك السذج والبسطاء، فاختلط الحابل بالنابل، وكادت أن تسود الفوضىٰ في خضمّ هذه المؤشرات الحائمة في الأفق الشاحب.

ومهما يكن من أمر، فإن البعد الكلامي قد بدأ يتضخم ويتفاعل ويشتدّ حتىٰ عاد ظلاً شاخصاً يمثل الاتجاهات المتضاربة، فتعصب كلّ فريق لمذهبه الكلامي، وتمسكت كل طائفة بفكرها الاحتجاجي، وأصبحت الساحة مشحونة شحناً قوياً بهذا التيّار المتصاعد.

وكان لابد للإمام الرضا(عليه السلام) أن يقابل هذا الانقضاض الصاعق بحكمة وأناة، وأن يجابه هذه المفارقات بعلم وعزم، وأن يأخذ بيد الأمة إلىٰ شواطئ الثقة والأمان.

وقد شمّر الإمام عن ساعديه للنهوض بهذه المهمة الشاقة، فالتزم البحث الموضوعي في أطاريحه، وانتهج السبيل القويم في معالجاته، وبذلك أعاد للأمة وعيها، وللجدل البنّاء أصالته، وهو يقرع الحجة بالحجة.

وكان يطيب للمأمون أن يجمع المتكلمين من أهل الملل والنحل في برنامج سياسي، عسى أن يحرج الإمام ليقول: إنه ليس هناك. ولكن الإمام كان بالمرصاد لهذه الدعوات غير البريئة، كشف عن ضآلتها، وفضح مؤامراتها، ونشر من علم الكلام والاحتجاج والمقالات ما ملئت به الصحف وكتب الالتحام العقلي.

وكان لهذا المناخ أمثال كثيرة دوّن بعضها، وأنباء أخرى ضن علينا بها التدوين، تبعاً للتأريخ الرسمي السائر في ركاب السلطة.

وكان الفضل بن سهل هو الرأس المدبّر لهذه الاحتجاجات بأمر مباشر من المامون، وقد شاء في إحدى المناسبات الحافلة ان يجمع للإمام اصحاب المقالات الكبرى مثل: «الجاثليق، ورأس الجالوت، ورؤوساء الصابئين، والهربذ الأكبر، وأصحاب زرادشت، ونسطاس الرومي، والمتكلمين...»[1].

ورحب بهم المأمون، ودعاهم إلى مناظرة الإمام الرضا(عليه السلام)، وأمرهم بالتبكير عليه. ففعلوا ذلك، وبدأ الحديث مع الجاثليق، فاحتج عليه الإمام بالإنجيل، لرفض الجاثليق الاحتجاج بالقرآن لانه ينكره، وكانت الجولة قد تناولت النبوة في الإنجيل، وبشارته بنبوة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ثم بالإمامة التي ذكرت فيه، وعرض حديث الإمام لحواري عيسى وعدتهم، فتكلّم عن عبادة المسيح، وإحيائه الموتى بإذن الله تعالى، وإبراء الأكمة والأبرص.

فكانت نتيجة الجولة ان انتصر الإمام على الجاثليق، واستشهد عليه راس الجالوت، واستشهد الإمام بالتوراة، وتلا منه بعض الفقرات، فترنح راس الجالوت (زعيم اليهود) لذلك وتعجب. وشمل الحديث الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وعن الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر

---

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ١٥٤.

الموت، وعن إبراهيم الخليل، وعن أصحاب موسى السبعين الذين اختارهم. ثم أنكر على الجاثليق اتخاذ النصارى المسيح رباً، وفند حججهم.

وبعد الانتهاء أقرّ له الجاثليق بالسبق، وقال: القول قولك، ولا إله إلا الله. ثم التفت الإمام إلى رأس الجالوت، وكانت المناظرة قائمة على قدم وساق، وتمكن الإمام من إفحامه من خلال التوراة، وحكم العقل، والدليل الاستقرائي في آيات موسى (عليه السلام) وسواها في أحاديث يطول عرضها، ولم يُحِرْ رأس الجالوت جواباً، فافحم. ثم دعا الإمام (عليه السلام) بالهربذ الأكبر، وهو كبير علماء المجوس، وحاججه، وجادلته، وناقشه، فانقطع الهربذ مكانه.

ثم قام للإمام عمران الصابي، فحاجَّهُ الإمام في التوحيد، وحدود خلق الله، وهو يسأل والإمام يجيب: في الإبداع، والمشيئة، والإرادة، والكينونة المطلقة في قوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾[1].

والحروف وتأليفها، والسكون والحركة، والحساب، والثواب، والعقاب، والاستدلال على الله... وكانت نتيجة ذلك ان قال الإمام لعمران الصابي: أفهمت يا عمران؟ قال: نعم يا سيدي قد فهمت، وأشهد الله على ما وصفت ووحدت، وأشهد أن محمداً عبده المبعوث بالهدى ودين الحق، ثم خرّ ساجداً نحو القبلة، وأسلم[2].

قال الحسن بن محمد النوفلي: فلما نظر المتكلمون إلى كلام عمران الصابي، وكان جدلاً لم يقطعه احد عن حجته قط، لم يدنُ من الرضا (عليه السلام) أحد منهم، ولم يسالوه عن شيء، وامسينا، فنهض المأمون والرضا (عليه السلام) فدخلا، وانصرف الناس، وكنت مع جماعة من أصحابنا، إذ بعث إليَّ محمد بن جعفر الصادق (عليه السلام) (عم الإمام) فاتيته، فقال لي:

---

(١) سورة آل عمران / ٥٩ وسواها.

(٢) ظ: تفصيل ذلك: الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ١٥٤ - ١٧٧.

يا نوفلي: أما رأيت ما جاء به صديقك؟ لا والله، ما ظننت أن علي بن موسى الرضا(عليه السلام) خاض في شيء من هذا قط!! ولا عرفناه به.. إني أخاف عليه أن يحسده هذا الرجل (المأمون) فيسمّه، أو يفعل به بليةً، فأشر عليه بالإمساك عن هذه الأشياء. قلت: إذن لا يقبل مني!! وما أراد الرجل (المأمون) إلاّ امتحانه، ليعلم هل عنده شيء من علوم آبائه(عليهم السلام)؟ قال لي: قل له إن عمك قد كره هذا الباب، وأحبّ أن يمسك عن هذه الأشياء!!...

فلمّا انقلبت إلى منزل الرضا أخبرته.. فتبسم، وقال: حفظ الله عمي، ما أعرفني به!! لِمَ كره ذلك[1].

وقدم سليمان المروزي متكلم خراسان على المأمون فأكرمه ووصله... وقال له: إنما وجهت إليك لمعرفتي بقوتك، وليس مرادي إلا أن تقطعه في حجة واحدة فقط... فاجتمع بالإمام الرضا بديوان المأمون، وجرى الحديث عن البداء، فأثبته الإمام من القرآن، وقال:

إن لله عزَّ وجل علمين؛ علماً مخزوناً مكنوناً لا يعلمه إلا هو؛ من ذلك يكون البداء، وعلماً علّمه ملائكته ورسله، فالعلماء من أهل بيت نبينا يعلمونه.

وإذا بسليمان يقول للإمام: زدني، جُعلت فداك.. فردّ الإمام اليهود على مقالتهم التي حكاها الله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾[2] ثم جرى الحديث عن ليلة القدر.... قال الإمام: يا سليمان؛ ليلة القدر يقدر الله عزَّ وجل فيها ما يكون من السنة إلى السنة من حياة أو موت، أو خير أو شر، أو رزق، فما قدره في تلك الله من المحتوم...

---

(١) المصدر السابق ١ / ١٧٧ – ١٧٨.

(٢) سورة المائدة / ٦٤.

وجرىٰ الحديث عن الإرادة اسماً وصفةً في أخذ وردّ، فتكلم بذلك الإمام في ضوء المنطق العلمي، فأفحم سليمان، فما حار جواباً، وانقطع.

وأخذ الإمام في بيان أن المريد غير الإرادة، وأبطل قولهم أن الإرادة والمريد شيء واحد.

وسأله الإمام عن علم الله في الخلق في جميع ما في الجنة والنار... وعندهم أن ليس يحيط علمه بما يكون فيهما... فنزه الإمام الله عن ذلك لأنه إذا لم يحط علمه بما يكون فيهما، لم يعلم ما يكون فيهما قبل ذلك، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً.

وتناول الاحتجاج الخلود في الجنة والنار، وعدم انقطاع الزيادة، واستشهد الإمام علىٰ ذلك بآيات بينات من القرآن، فلم يحر سليمان جواباً.

وسأله الإمام عن الإرادة: أفعلٌ هي أم غير فعل؟

فغالط سليمان في الجواب، واعتبر الإرادة إنشاءً!!

وتحدث الإمام: ان نفي المعلوم ليس نفياً للعلم، ونفي المراد نفي الإرادة ان تكون، والزمه الحجة بذلك، وقال له: يا خراساني، ما أكثر غلطك؟

واستمر الاحتجاج بالإرادة، والإمام ينقض علىٰ سليمان ما ابرم، ويشرح له ما لم يفهم، حتىٰ ضجر المأمون، فقال لسليمان:

ويلك يا سليمان! كم هذا الغلط والتردد؟ اقطع هذا وخذ في غيره، إذ لست تقوىٰ علىٰ غير هذا الردّ... واستطال الحديث في الموضوع، وتناوله الإمام من كل جهاته، فانقطع سليمان، فقال المأمون عند ذلك:

يا سليمان هذا اعلم هاشمي[1].



(١) ظ: الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٧٩ - ١٩١.

وهذا النموذج من الحياة العقلية في عصر الإمام كما قرأته، يسلط الأضواء على عناصر إثارته من جهة، ويكشف عن النوايا الخفيّة للحكم من جهة أخرى، وفي الوقت نفسه نجده يبرز أهم المعطيات الخارقة للقدرة التي يمتلكها الإمام في ردّ الشبهات، وتحليل الموقف المعاصر، والقضاء على كل التحركات المشبوهة في الإثارة والاستفزاز، والأشد من ذلك في التوجه لتسفيه أحلام المسلمين.

لقد جهد المأمون أن يفحم الإمام ولو مرة واحدة فيما هيأه من مناخ للمتكلمين، وما جمعه من أشتات المناظرين والمحاورين، وما أولاه من التخطيط الحثيث لذلك، لأن الإمام الرضا(عليه السلام) مع معرفته الكاملة بالدواعي والدوافع لعقد مثل هذه الندوات، ودعوة أمثال هؤلاء العلماء لمحاورته، فإنه كان ذا هدف أسمى، يُعنى بتوحيد الجهود ورصّ الصفوف لنصرة الإسلام في معركته ضد هؤلاء، وقد استطاع بأسلوبه العلمي الرصين، وبطبعه الهادئ المتّزن، وببيانه الساحر الجريء أن يحقق هذا الهدف رغم الاتجاه المعاكس، ورغم التعقيدات المفتعلة في الطريق، وقد خرج منها جميعاً منتصراً بالحجّة والبرهان.

الإلهيات وتنزيه الباري

وقد عني الإمام الرضا(عليه السلام) في هذا الموضوع عنايةً خاصة، وذلك لارتباطه بتوحيد الله تعالى، وما يتفرع عن ذلك من أفكار، وما يتخللها من طروحات تعنى بمسائل التوحيد، والقدم، والأزلية، والتشبيه، والجبر، والتفويض، والأمر بين الأمرين، والإرادة، والمشيئة، والصفات، والتجسيم.

وكان للإمام(عليه السلام) في هذا المحور الشاقّ جولات لا تحصى، وما ذكر منها تأريخياً ينهض برسالة كبرى، ولنا أن نقتطف من رياض تلك الجنان العطرة

بعض أزهارها الفيحاء، وأن نستخرج من معادنها بعض الجواهر التي لا تقدر بثمن.

ففي مجال توحيد الله تعالى، ونفي الصفات عنه، خطب الإمام الرضا(عليه السلام) بمحضر المأمون، وجمع من بني هاشم فقال:

«.... أول عبادة الله تعالى معرفته، وأصل معرفة الله توحيده، ونظام توحيد الله نفي الصفات عنه، لشهادة العقول أن كل صفة وموصوف مخلوق، وشهادة كل موصوف أن له خالقاً ليس بصفة ولا موصوف، وشهادة كل صفة وموصوف بالاقتران، وشهادة الاقتران بالحدوث، وشهادة الحدوث بالامتناع عن الأزل الممتنع من الحدوث.

فليس الله من عرف بالتشبيه ذاته، ولا إياه وحدّه من أكتنهه، ولا حقيقته أصاب من مثّله، ولا به صدق من نهاه، ولا صمد صمده من اشار إليه، ولا إياه عنى من شبهه، ولا له تذلل من بعّضه، ولا إياه أراد من توهمه، كل معروف بنفسه مصنوع، وكل قائم في سواه معلول، بصنع الله يستدل عليه، وبالعقول تعتقد معرفته، وبالفطرة تثبت حجته...»[1].

وهنا يبدأ الإمام بأصل المعرفة وهي توحيد الله عزّ وجل، ونفي الصفات عنه باعتبارها محدثة، والمحدث مخلوق، وهو القديم الأزلي الخالق العظيم، ويفصّل في هذا الموضوع في صغرياته وكبرياته ونتائجه منطقياً، ثم ينفي عن الباري الشبه والتوهم والإدراك، فلا يشار إليه، ولا يدرك كنهه، ولا يمثل بشيء.

وبصنع الله تعالى يستدل عليه، وبالعقل السليم يُعرف، وبالفطرة الخالصة النقيّة تثبت حجته.

---

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ١٥٠ - ١٥١.

وعرض الإمام للقدم والأزلية والأسماء فيما رواه عنه الحسين بن خالد: «إعلم علّمك الله الخير، أن الله تبارك وتعالىٰ قديم، والقدم صفة دلّت العاقل علىٰ أنه لا شيء قبله، ولا شيء في ديمومته، فقد بان لنا بإقرار العامة معجزة الصفة، أنه لا شيء قبل الله، ولا شيء مع الله في بقائه، وبطل قول من زعم: انه كان قبله أو كان معه شيء، وذلك أنه لو كان معه شيء في بقائه لم يجز أن يكون خالقاً له، لأنه لم يزل معه، فكيف يكون خالقاً لمن لم يزل معه؟

ولو كان قبله شيء، كان الأول ذلك الشيء لا هذا، وكان الأول أولىٰ بان يكون خالقاً للأول، ثم وصف نفسه تبارك وتعالىٰ باسماء... فسمّىٰ نفسه: سميعاً، بصيراً، قادراً، قاهراً، حيّاً، قيوماً، ظاهراً، باطناً، لطيفاً، خبيراً، قويّاً، عزيزاً، حكيماً، عليماً، وما أشبه هذه الأسماء....»[1].

وقد يُسال الإمام عن صفة الله تعالىٰ، ويجيب الإمام باستحالة ذلك، لأن اية صفة مهما عظمت فلا تحيط بالذات الإلهية، لأنها حقيقة كبرىٰ فوق حقائق الأشياء.

فقد ساله ابو هاشم الجعفري: هل يوصف الله؟

قال الإمام: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلىٰ....

قال الإمام: اما تقرأ قوله تعالىٰ: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ﴾[2].

قال: وما هي؟ ابصار العيون!!

قال الإمام: إن اوهام القلوب اكبر من ابصار العيون، فهو لا تدركه الأوهام، وهو يدرك الأوهام»[3].

---

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ١٤٥.

(٢) سورة الأنعام / ١٠٣.

(٣) الكليني / اصول الكافي ١ / ٩٩.

وفي مجال آخر يفنّد الإمام الرؤية ، ويردّ على دعوى الصفة ، فيقول (سبحانك ما عرفوك ، ولا وحدوك ، فمن أجل ذلك وصفوك ، سبحانك لو عرفوك : لوصفوك بما وصفت به نفسك ، سبحانك كيف طاوعتهم أن يشبهوك بغيرك ؟ اللهمَّ لا أصفك إلاّ بما وصفت به نفسك ، ولا أشبهك بخلقك ، أنت أهل لكل خير ، فلا تجعلني من القوم الظالمين .

ثم التفت الإمام إلى السائلين فقال :

«ما توهمتم من شيء فتوهموا الله غيره . . . »[1] .

وللإمام في هذا الملحظ نظرات فاحصة ، وأجوبة هادرة في سجل وثائق علم الكلام ، نزّه بها الباري عما يصفه به الواصفون[2] .

ونفى الإمام عن الله دعوى الجبر والتفويض ، فعن أحمد بن محمد ابن أبي نصر البزنطي ، انه قال للإمام الرضا : إن أصحابنا بعضهم يقول بالجبر ، وبعضهم يقول بالاستطاعة (التفويض) .

فقال الإمام (ع) له : اكتب ، قال الله تعالى :

«يا ابن آدم بمشيئتي كنت الذي تشاء ، وبقوتي أديت لي فرائضي ، وبنعمتي قويت على معصيتي ، جعلتك سميعاً ، بصيراً ، قوياً ، ما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وذلك اني أولى بحسناتك منك ، وأنت أولى بسيئاتك مني ، وذلك اني لا أسألُ عما أفعل ، وأنتم تسألون ، وقد نظمت لك كل شيء تريد»[3] .

وردد الإمام هذا المعنى بتفصيل آخر ، حينما ساله الحسن بن علي الوشّا عن ذلك :

---

(١) الكليني / أصول الكافي ١ / ١٠١.

(٢) ظ: الصدوق / التوحيد / ٦٠ — ٦٥.

(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٤٤ — ١٤٥.

«قال الوشّا: الله فوّض الأمر إلى العباد؟

قال الإمام الرضا(عليه السلام): هو أعزّ من ذلك.

فقلت: أجبرهم على المعاصي؟

قال الرضا(عليه السلام): الله أعدل وأحكم من ذلك، ثم قال:

قال الله عزَّ وجل: يا ابن آدم أنا أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني، عملت المعاصي بقوتي التي جعلتها فيك.»[1].

وعرض الإمام الرضا هذا الموضوع بدليله العلمي بأسلوب آخر، فعن سليمان بن جعفر الحميري، عن أبي الحسن الرضا(عليه السلام)، قال سليمان: ذكر عنده الجبر والتفويض، فقال:

الا اعطيكم في هذا اصلاً لا تختلفون فيه، ولا يخاصمكم عليه أحد إلا كسرتموه؟

قلنا: إن رأيت ذلك.

قال الإمام: إن الله لم يطع بأكراه، ولم يعصَ بغلبة، ولم يهمل العباد في ملكه، هو المالك لما ملكهم، والقادر على ما اقدرهم عليه، فإن ائتمر العباد بطاعته، . لم يكن الله عنها صاداً، ولا منها مانعاً، وإن ائتمروا بمعصيته، فشاء ان يحول بينهم وبين ذلك، فعل، وإن لم يحل فعلوا، فليس هو الذي أدخلهم فيه.

ثم قال(عليه السلام): «من يضبط حدود هذا الكلام فقد خصم من خالفه»[2].

وتحدث الإمام عن الجبر والتشبيه في حكمهما في الشريعة الإسلامية، وأن أهل البيت يبرؤون ممن يقول بذلك، فعنه انه قال:

---

(١) المصدر نفسه ١ / ١٤٣.

(٢) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ١٤٤.

«من قال بالتشبيه والجبر فهو كافر مشرك، ونحن منه براء في الدنيا والآخرة. . .»[1].

وفصّل الإمام القول بالأمر، شارحاً قول جد الإمام الصادق(عليه السلام)، بأداء تعبيري جديد، فعن بريد بن عمير بن معاوية الشامي، قال: (دخلت على علي بن موسى الرضا بمرو، فقلت له: يا ابن رسول الله، روي لنا عن الصادق جعفر بن محمد(عليهما السلام) أنه قال: لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين أمرين. فما معناه؟

قال الإمام(عليه السلام): من زعم أن الله يفعل أفعالنا، ثم يعذبنا عليها، فقد قال بالجبر، ومن زعم أن الله عزّ وجل فوّض أمر الخلق والرزق إلى حججه(عليهم السلام)، فقد قال بالتفويض، والقائل بالجبر كافر، والقائل بالتفويض مشرك.

فقلت له: يا ابن رسول الله؛ فما أمر بين أمرين؟

فقال الإمام: وجود السبيل إلى إتيان ما أمروا به، وترك ما نهوا عنه.

فقلت له: فهل لله عزّ وجل مشيئة وإرادة في ذلك؟

فقال الإمام: فأما الطاعات فإرادة الله، ومشيئتهُ فيها: الأمر بها، والرضا لها، والمعاونة عليها. وإرادته ومشيته في المعاصي: النهي عنها، والسخط عليها.

قلت: فهل لله فيها القضاء؟

قال الإمام: نعم، ما من فعل يفعله العباد من خير أو شر، إلاّ لله فيه القضاء.

قلت: ما معنى هذا القضاء؟

---

(١) المصدر نفسه ١ / ١٤٣.

قال الإمام: الحكم عليها بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة»[1].

وتحدث الإمام عن الكون والكيف والأين، وهي مصطلحات كلامية، فعن أحمد بن محمد بن أبي النصر البزنطي، قال: جاء قوم من وراء النهر إلى أبي الحسن الرضا(عليه السلام)، فقالوا: جئنا نسألك عن ثلاث مسائل، فإن أجبتنا علمنا أنك عالم!! فقال: سلوا. فقالوا: اخبرنا عن الله تعالى: أين كان؟ وكيف كان؟ وعلى أي شيء كان اعتماده؟

فقال(عليه السلام): «إن الله تعالى كيف الكيف فهو بلا كيف، وأين الأين فهو بلا أين، وكان اعتماده على قدرته».

فقالوا: نشهد إنك عالم[2].

ويتحدث الإمام(عليه السلام) عن هذه القدرة التي كان اعتماده عليها، فيعتبرها ذاته المقدسة، لأن القدرة من صفات الذات، فعن عيسى بن محمد بن عرفة، قال: قلت للرضا(عليه السلام): خلق الله الأشياء بالقدرة أم بغير القدرة؟

قال الإمام(عليه السلام): «لا يجوز ان يكون خلق الأشياء بالقدرة، لأنك إذا قلت: خلق الأشياء بالقدرة، فكأنك قد جعلت القدرة شيئاً غيره، وجعلتها آلة له، بها خلق الأشياء، وهذا شرك، وإذا قلت خلق الأشياء بغير قدرة، فإنما تصفه أنه جعلها باقتدار عليها وقدرة، ولكن ليس هو بضعيف، ولا عاجز، ولا محتاج إلى غيره، بل هو سبحانه قادر لذاته لا بالقدرة»[3].

وأكد الإمام هذا الأمر باعتبار صفاته تعالى عين ذاته، فعن الحسين بن خالد، قال: سمعت الرضا(عليه السلام) يقول: لم يزل الله عالماً، قادراً، حياً قديماً، سميعاً، بصيراً.

---

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ١٢٤.

(٢) المصدر نفسه ١ / ١١٧.

(٣) المصدر نفسه ١ / ١١٨.

فقلت له : يا ابن رسول الله : إن قوماً يقولون : لم يزل الله عالماً بعلم ، وقادراً بقدرة ، وحياً بحياة ، وقديماً بقدم ، وسميعاً بسمع ، وبصيراً ببصر ! !

فقال(عليه السلام) : «من قال ذلك ودان به ، فقد اتخذ مع الله آلهة أخرىٰ ، وليس من ولايتنا بشيء . ثم قال(عليه السلام) : لم يزل الله عزَّ وجل عليماً ، قادراً ، حياً ، سميعاً ، بصيراً لذاته ، تعالىٰ الله عما يقول المشركون والمشبهون علواً كبيراً»[1] .

وفنّد الإمام شبهات القدرية ، ونهىٰ عن القول بقولهم ، وأنكر مقالتهم ، وقال ليونس بن عبد الرحمن :

«يا يونس لا تقل بقول القدرية ، فإن القدرية لم يقولوا بقول اهل الجنّة ، ولا بقول أهل النار ، ولا بقول إبليس ، فإن أهل الجنة قالوا :

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللهُ﴾[2] .

وقال أهل النار : ﴿رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ﴾[3] .

وقال إبليس : ﴿رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي﴾[4] .

قال يونس : والله ما اقول بقولهم ، ولكني اقول : لا يكون إلاّ بما شاء الله وأراد ، وقدّر ، وقضىٰ .

قال الإمام الرضا(عليه السلام) : «يا يونس ليس هكذا ، لا يكون إلاّ ما شاء الله ، وأراد ، وقدّر ، وقضىٰ ، يا يونس : تعلم ما المشيئة؟ . . .

هي الذكر الأول . تعلم ما الإرادة؟ هي العزيمة علىٰ ما يشاء .

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١١٩.

(٢) سورة الأعراف / ٤٣.

(٣) سورة المؤمنون / ١٠٦.

(٤) سورة الحجر / ٣٩.

تعلم ما القدر؟ قال الإمام: هي الهندسة، ووضع الحدود من البقاء والفناء، والقضاء هو الإبرام وإقامة العين.

فقام يونس، وقبل رأس الإمام، وقال له: فتحت عليّ شيئاً كنت عنه في غفلة..»(١).

وتحدث عن خلق العالم وحدوثه بالدليل البديهي، فقد سأله رجل قائلاً: «يا ابن رسول الله(ﷺ)، ما الدليل على حدوث العالم؟

قال الإمام: أنت لم تكن فكنت، وقد علمت أنك لم تكوّن نفسك، ولا كوّنك من هو مثلك..»(٢).

وكان التيار الكلامي يصطدم بأعمال العباد في الخلق والتقدير، فأوضح الإمام ذلك بلمح غيبي في علم الله تعالى:

فعن حمدان بن سليمان، قال: كتبت إلى الرضا(عليه السلام) أسأله عن افعال العباد: أمخلوقة أم غير مخلوقة؟

فكتب(عليه السلام): «افعال العباد مخلوقة في علم الله قبل خلق العباد بألفي عام(٣).



إن ما عرضناه عبارة عن صورة مصغرّة جداً مما أفاض به الإمام، وقد جاءت على سبيل الاستدلال على ما أبقاه الإمام من تراث في الإلهيات، ولم نجمع إلى هذا ما ورد في مناظراته ومحاجاته مع الفرق والأديان والملل والنحل والأهواء، وكان في أغلبه مما دبّره المأمون لأغراض سياسية.

يقول الأستاذ هاشم معروف الحسني رحمه الله:

---

(١) الكليني / أصول الكافي ١ / ١٥٧.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ١٣٤.

(٣) المصدر نفسه ١ / ١٣٦.

«جاء في بعض المرويات أن المأمون كان يسأله عن بعض الآيات التي يبدو فيها أن الله سبحانه مركب من أجزاء يستعملها كما يستعمل الإنسان أعضاءه وأطرافه لقضاء حوائجه . . في آيات لوهم التشبيه والتجسيم ، وقد أجابه الإمام(عليه السلام) عنها بأجوبة تتناسب مع تنزيه الله سبحانه عما تنزه عنه من مشابهة مخلوقاته . . . بقي أن بعض الروايات التي وصفت مجالس المأمون مع الرضا(عليه السلام) ، لم تبلغ مرحلة الأطمئنان من حيث أسانيدها ، ولكن ذلك لا يمنع من الوثوق بمضامينها ما دامت متفقة مع أصول المذهب ، ومع الروايات الصحيحة التي نزهت الله سبحانه عن كل ما يشبه مخلوقاته . . . »[1] .

بهذه الملحوظة نختتم هذا المبحث لنطل على ما بعده .

النبوة وعصمة الأنبياء

وكانت الشبهات التي يوردها أهل الكلام توحي بتوهم ان الأنبياء(عليهم السلام) غير معصومين ، ويتمسكون بدعواهم هذه بظواهر بعض الآيات القرآنية ، وأنهم بشر مثلنا يخطئون ويصيبون تاركين وراء ظهورهم الخصائص الغيبية للأنبياء ، فهم وإن كانوا بشراً مثلنا ، ولكنهم يوحىٰ إليهم ، والوحي إليهم يعني انهم أمناء الله علىٰ وحيه ، وإذا كان الأمر كذلك ، وهو كذلك ، فهذا ينتهي بعصمتهم في الذات وفي التبليغ ، لاستحالة ان يأتمن الله علىٰ وحيه من لا يؤديه ، أو من يضيف إليه ، أو من يختزل منه ، أو من يتجاوز عليه ، وإذا تم هذا التصنيف تمت العصمة دون أدنىٰ ريب . ولو أن القائلين بخلاف هذا من المتكلمين ردّوا تفسير القرآن إلىٰ من يعلم تأويله من الراسخين في العلم لما اصطدموا بهذه المتاهات التي قاربت بينهم وبين الضلال ، ولما الصقوا بأنبياء الله تعالىٰ تلك الأباطيل التي لا تستند إلىٰ دليل استقرائي او تأريخي ، لأنها رجم بالغيب .

---

(١) هاشم معروف الحسيني / سيرة الأئمة الاثني عشر ٢ / ٤٢٠ – ٤٢١.

وقد تمحض الإمام الرضا(عليه السلام) للردّ على هذه الشبهات بما أوتي من قوة تعبيرية، واضطلاع موضوعي بخصائص القرآن العظيم، ومعرفة حقيقية بتفسير آياته الكريمة، فهو يكشف عن غوامضها، ويشير إلى دلالتها، ويفرّق بين المفهوم الساذج والمفهوم النابع من قيمها وأعماقها، ويعطي الآية نصاعتها في المراد، دون الالتفاف عليها من خارج النص.

وكان الإمام في هذا الفهم المتناسق سياقياً، وإفرازه الاستعمال الحقيقي والاستعمال المجازي، وتفريقه بين الأمر المولوي والأمر الإرشادي، وإضاءته في البيان لردّ الشبهات، يصدر عن أفق كلامي وتفسيري مزدوج، وحسبي أن تقف على ما استبدل به على عصمة الأنبياء عقليّاً ونصيّاً في محاوراته ومناظراته، ولك - على سبيل المثال - أن تتصفح ما ألخصه لك من مناظرته مع علي بن محمد بن الجهم، فيما رواه أبو الصلت الهروي، قال: لما جمع المأمون لعلي بن موسى الرضا(عليه السلام) أهل المقالات من أهل الإسلام والديانات من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين وسائر أهل المقالات، فلم يقم أحد إلاّ وقد ألزمه الحجة، كأنه ألقم حجراً!! قام للإمام علي بن محمد بن الجهم، فقال له:

يا ابن رسول الله: أتقول بعصمة الأنبياء؟

قال الإمام: نعم.

قال: فما تفعل في قول الله عزّ وجل: ﴿وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى﴾[1].

وفي قوله عزّ وجل: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[2].

وفي قوله عزّ وجل في يوسف(عليه السلام): ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها﴾[3].

---

(١) سورة طه / ١٢١.

(٢) سورة الأنبياء / ١٧.

(٣) سورة يوسف / ٢٤.

وفي قوله عزَّ وجل في داود: ﴿وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ﴾[1].

وقوله تعالىٰ في نبيه محمد(ﷺ): ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾[2].

وانبرىٰ الإمام - بعد تحذيره للسائل - بالإجابة الناجعة، فقال عن آدم: إن الله عزَّ وجل خلق آدم حجة في أرضه، وخليفة في بلاده، لم يخلقه للجنّة، وكانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض، وعصمته يجب أن تكون في الأرض ليتم مقادير الله...[3].

وذو النون، إنما ظن بمعنىٰ استيقن، أن الله لن يضيق عليه رزقه... ولو ظن أن الله لا يقدر عليه، لكان قد كفر.

وبالنسبة ليوسف الصديّق قال الإمام: إنها همت بالمعصية، وهمّ يوسف بقتلها ان أخبرته لعظم ما تداخله، فصرف الله عنه قتلها والفاحشة، وهو قوله عزَّ وجل: ﴿كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ﴾[4].

يعني القتل والزنا.

واستفسر الإمام عن قولهم في مسألة داود، فنسب ابن الجهم لداود أسطورة إسرائيلية لا أصل لها، فأبان الإمام: أن في أيام داود كانت التي يموت أو يقتل بعلها لاتزوج، فأباح الله ذلك لداود، فتزوج بامراة أوريا لمّا قتل، وانقضت عدتها منه.

وأمّا محمد(ﷺ)... فإن الله عزَّ وجل عرّف نبيه(ﷺ) أسماء ازواجه في دار الدنيا، وأسماء أزواجه في دار الآخرة... وسمّىٰ له زينب بنت جحش، وهي يومئذٍ تحت زيد بن حارثة، فأخفىٰ اسمها في نفسه...

---

(١) سورة ص / ٢٤.

(٢) سورة الأحزاب / ٣٧.

(٣) هكذا وردت الرواية وفيها تأمل، ولعل فيها تصحيفاً او نقصاً من قبل النسّاخ.

(٤) سورة يوسف / ٢٤.

وإن الله تعالى ما تولّى تزويج أحد من خلقه إلا تزويج حواء من آدم (عليه السلام)، وزينب من رسول الله (صلى الله عليه وآله) بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾[1]، وفاطمة من علي (عليهما السلام).

فبكى علي بن محمد بن الجهم، وقال: يا ابن رسول الله، أنا تائب إلى الله عزّ وجل من أن انطق في أنبياء الله (عليهم السلام) بعد يومي هذا إلاّ بما ذكرته[2].

وما انفك المأمون يثير هذه الشبهة بكل ما يستطيع من لفّ ودوران لأسباب سياسية، ففي مجلسه، قال المأمون للإمام الرضا: يا ابن رسول الله!! أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟

قال الإمام: بلى.

قال المأمون: فما معنى قول الله عزّ وجل: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[3].

وقد ذهب الإمام في الجواب مذهباً جديداً على العصر، فابان أن الله نهى آدم وحواء عن الاقتراب من شجرة معينة، ولم ينههما عن الأكل منها، ومما كان من جنسها، وامتثلا الأمر، ولكن إبليس موّه عليهما، فطلب أن يأكلا من غيرها ومن جنسها، وحلف لهما أنه من الناصحين، ولم يدرْ بأذهانهما من يحلف بالله كاذباً.

وكان ذلك من آدم قبل النبوة، ولم يكن ذلك بذنب استحق عليه النار... فلمّا اجتباه الله تعالى وجعله نبياً كان معصوماً، لا يذنب صغيرة ولا كبيرة، قال الله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[4][5].

---

(1) سورة الأحزاب / ٣٧.
(2) ظ: الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ١٩١ - ١٩٥.
(3) سورة طه / ١٢١.
(4) سورة طه / ١٢١ - ١٢٢.
(5) ظ: الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ١٩٥ - ١٩٦.

والمعروف عند الإمامية أن الأمر بعدم الاقتراب من الشجرة والأكل منها إنما كان أمراً إرشادياً، لا أمراً مولوياً، وحينما خالفه آدم، فإنه كان قد فعل غير الأولى، ولم يكن ذلك بصغيرة ولا كبيرة، وما رُوي في هذا الشأن عن الإمام الرضا(عليه السلام)، يتحمل مسؤولية ما فيه الراوي، وهو علي بن محمد بن الجهم.

وما فتئ المأمون يتعمد هذا المنحنى من التساؤلات، وهو يظهر الاستفهام والاستفسار، والإمام يجيب بمنتهى الجدارة العلمية التي لا تنازل، ويتحلى بثبات العرض الموضوعي.

ففي إحدى ندوات المأمون التي عقدت لهذا الغرض، اتجه المأمون إلى الإمام الرضا(عليه السلام)، وسأله عن قوله تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا﴾[1].

قال الإمام الرضا: يقول الله عزَّ وجل: **﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾**[2].

من قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا، جاء الرسل نصرنا.

فقال المأمون: لله درّك يا أبا الحسن، فأخبرني عن قول الله عزَّ وجل: **﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾**[3].

قال الإمام الرضا(عليه السلام):

(لم يكن أحد عند مشركي أهل مكة أعظم ذنباً من رسول الله(صلى الله عليه وآله)، لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاث مائة وستين صنماً، فلمَّا جاءهم(صلى الله عليه وآله)، بالدعوة إلى كلمة الإخلاص، كبر ذلك عليهم وعظم، وقالوا: (فيما حكاه الله تعالى).

---

(١) سورة يوسف / ١١٠.

(٢) سورة يوسف / ١١٠.

(٣) سورة الفتح / ٢.

﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلهاً واحداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ * ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾[1].

فلما فتح الله عزَّ وجل على نبيه(ﷺ) مكة، قال له يا محمد: ﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ﴾[2] عند مشركي أهل مكة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم وما تأخر، لأن مشركي مكة أسلم بعضهم، وخرج بعضهم عن مكة، ومن بقي لم يقدر على إنكار التوحيد عليه، إذ دعا الناس إليه، فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم.

فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن[3].

وما أوردنا في هذا السياق كان تنزيهاً للأنبياء من الزلل، وقولاً بعصمتهم، خلافاً لمن جوّز عليهم الذنوب، من ذوي الآراء الغليظة الجافة.

الإمامة وأهل البيت

وكان للإمام الرضا(عليه السلام) حضور بارز في التأكيد على أصل من أصول الدين، وهو الإمامة بمصطلحها الشرعي وعائديتها القيادية، ورصد دورها الريادي في الاستخلاف، وتعميق موقعها الرسالي في ذاتية الدعوة إلى الله، وكونها العنصر الفاعل في تبليغ رسالة السماء، مجرّداً من مميزات الإمامة وخصائص الإمام منهجاً في الاحتجاج لأئمة أهل البيت بما ورد في القرآن

---

(١) سورة ص / ٥ – ٧.

(٢) سورة الفتح ١ / ٢.

(٣) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٢٠٢.

والأثر، واصفاً الإمامة بصفاتها الخاصة التكوينية، وذاكراً ما للإمام المعصوم من حدود، مؤكداً على خصوصية أمير المؤمنين علي(عليه السلام) بما هو أهله من المنزلة العظمى من بين الأئمة، ومتحدثاً عن سمات العترة الطاهرة موضوعياً.

ولم يكن حديث الإمام عن هذه الابعاد الشاملة لمفهوم الإمامة ومصداقها، حديثاً عاطفياً، او متحيزاً، او مبالغاً فيه، وإنما كان منطلقاً بنبرات خالصة الأداء من الإضافة والإقحام، تهدف إلى توعية الأمة وتعبئة الشعب المسلم في ميدان الهداية والنور والحياة.

والإمام الرضا(عليه السلام) في هذا المنظور الواقعي يمثل إجماع أئمة أهل البيت(عليهم السلام) على حقيقة من الثوابت التي لا تتحول، فما اتفق ولا مرة واحدة ان تخلى أحد الأئمة عن مسؤوليته الرسالية، وما اتفق أن نفى احدهم الإمامة عن نفسه، ولا تنازل عن صحة الأثر في النص عليه، وكان ذلك المجهر الناظر يلتمع في اشد الظروف غلياناً، واقسى المحن اشتداداً، ولم يقف بهم عن ذلك خوف الظلمة، او تطاول السلطان، بل ولا سياط الإرهاب.

ولمّا كانت الإمامة في مبدأ الأئمة امتداداً طبيعياً للنبوة، تقوم مقام الوصاية والخلافة الحقة، فهي منصب إلهي لا مجال معه للاختيار البشري، وهم يستندون إليه بهذا المدرك الشرعي ولا يتهاونون بالجهر به مهما كانت العقبات، وهذا يعني دون ريب أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم على الإطلاق.

وهذا حقٌّ كله، ولابد للحق ان ينتصر ولو بعد حين، فليس من شأن اللطف الإلهي أن يترك الخلق هملاً، ولا ان يكون النظام الإسلامي متردداً، ولا للكمال التشريعي أن يبدو ناقصاً، كيف؟

وقد قال تعالىٰ : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[1] .

ومن هذا المنطلق كانت تطلعات الإمام الرضا(عليه السلام) لهذا الهدف المركزي ، ومن هذا التوجه كان حديث الإمام عن الإمامة وأهل البيت .

يقول الإمام الرضا(عليه السلام) :

« . . . إن الإمامة هي منزلة الأنبياء ، وإرث الأوصياء ، إن الإمامة خلافة الله عزَّ وجل ، وخلافة الرسول ، ومقام أمير المؤمنين ، وميراث الحسن والحسين(عليهما السلام) . إن الإمامة زمام الدين ، ونظام المسلمين ، وصلاح الدنيا ، وعزّ المؤمنين ، إن الإمامة أس الإسلام النامي وفرعه السامي .

بالإمام تمام الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحجج ، والجهاد ، وتوفير الفيء والصدقات ، وإمضاء الحدود والأحكام ، ومنع الثغور والأطراف ، الإمام يحلّ حلال الله ، ويحرّم حرام الله ، ويقيم حدود الله ، ويذبّ عن دين الله ، ويدعو إلىٰ سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، والحجة البالغة .

الإمام كالشمس الطالعة للعالم وهي بالأفق ، بحيث لا تنالها الأيدي والابصار .

الإمام : البدر المنير ، والسراج الزاهر ، والنور الساطع ، والنجم الهادي في غياهب الدجىٰ والبيد والقفار ولجج البحار .

الإمام : الماء العذب علىٰ الظماء ، والدال علىٰ الهدىٰ ، والمنجي من الردىٰ . . .

الإمام : السحاب الماطر ، والغيث الهاطل ، والشمس المضيئة ، والأرض البسيطة ، والعين الغزيرة . . .

---

(١) سورة المائدة / ٦٧.

الإمام: الأمين الرفيق، والوالد الرقيق، والأخ الشفيق، ومفزع العباد في الداهية.

الإمام: أمين الله في أرضه، وحجته في عباده، وخليفته في بلاده، الداعي إلىٰ الله، والذاب عن حرم الله.

الإمام: المطهّر من الذنوب، والمبرأ من العيوب، مخصوص بالعلم، موسوم بالحلم، نظام الدين، عزّ المسلمين...

الإمام: واحد دهره، لا يدانيه أحد، ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل، ولا له مثل ولا نظير، مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه ولا اكتساب، بل اختصاص من المفضل الوهّاب، فمن ذا يبلغ معرفة الإمام، ويمكنه اختياره»[1].

وذكر قوم في في مرو أمر الإمامة واختلاف الناس فيها، فعمد عبد العزيز ابن مسلم، فأخبر الإمام بذلك، فقال الإمام:

«يا عبد العزيز، جهل القوم، وخدعوا عن أديانهم، إن الله تبارك وتعالىٰ لم يقبض نبيه(ﷺ) حتىٰ أكمل له الدين، وانزل عليه القرآن، فيه تفصيل كل شيء، بيّن فيه الحلال والحرام والحدود والاحكام، وجميع ما يحتاج إليه كملاً، فقال عزَّ وجلّ: ﴿ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[2].

وانزل في حجة الوداع، وهي آخر عمره(ﷺ): ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[3].

وامر الإمامة من تمام الدين، ولم يمضِ(ﷺ) حتىٰ بيّن لأمته معالم دينهم، واوضح لهم سبيلهم، وتركهم علىٰ قصد الحق، واقام علياً(عليه السلام)

---

(١) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) سورة الأنعام / ٣٨.

(٣) سورة المائدة / ٦٧.

علماً وإماماً، وما ترك شيئاً تحتاج إليه الأمة إلاّ بيّنه، فمن زعم أن الله عزّ وجلّ لم يكمل دينه، فقد ردّ كتاب الله عزّ وجلّ، ومن ردّ كتاب الله تعالىٰ فهو كافر، هل يعرفون قدر الإمامة ومحلها من الأمة؟ فيجوز فيها اختيارهم!! إن الإمامة أجلّ قدراً، وأعظم شأناً، وأعلىٰ مكاناً، وأمنع جانباً، وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم، وينالوها بآرائهم، أو يقيموا إماماً باختيارهم.

إن الإمامة خصّ الله بها إبراهيم الخليل (عليه السلام) بعد النبوة. والخلّة مرتبة ثالثة، وفضيلة شرفه الله بها، وأشاد بها ذكره، فقال عزّ وجلّ: **﴿إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً﴾**[1] فقال الخليل (عليه السلام) سروراً بها: **﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾**[2] قال الله عزّ وجلّ: **﴿لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**[3].

فابطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلىٰ يوم القيامة، وصارت في الصفوة، ثم أكرمه الله عزّ وجلّ بان جعلها (في) ذريته أهل الصفوة والطهارة... فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض، قرناً فقرناً، حتىٰ ورثها النبي (صلى الله عليه وآله)... فكانت له خاصة، فقلدها (صلى الله عليه وآله) علياً بامر الله عزّ وجلّ... فصارت في ذريته الأصفياء الذين آتاهم الله العلم والإيمان[4].

وتحدث الإمام بأصالة عن مواصفات الإمام الذاتية بأبرز مؤشراتها، باعتبارها هادية إلىٰ معرفة الإمام، وعلامات تدل عليه، فقال: «للإمام علامات: يكون أعلم الناس، وأحكم الناس، وأتقىٰ الناس، وأحلم الناس، وأشجع الناس، وأسخىٰ الناس، وأعبد الناس...»[5].

---

(١) سورة البقرة / ١٢٤.

(٢) سورة البقرة / ١٢٤.

(٣) سورة البقرة / ١٢٤.

(٤) الصدوق / عيون اخبار الرضا ١ / ٢١٦ – ٢١٨.

(٥) الكليني / اصول الكافي ١ / ١٩٣.

وهذه الصفات بهذا السياق الشمولي، يترشح منها الفرد الأكمل في الأمة، باعتباره النموذج الأمثل في أفضليته على الناس بالعلم، والحكم، والتقوى، والحلم، والشجاعة، والسخاء، والعبادة.

وإذا توافرت هذه الشرائط في أحد في عصر ما، فهو الإمام دون منازع، ولم يجد هذا المفهوم مصداقاً له إلاّ في أئمة أهل البيت(عليهم السلام) استقراءً تاريخياً لا مبالغة فيه.

وكان تأشير الإمام على سابقة جدّه أمير المؤمنين علي(عليه السلام)، تتمثل في عدة ملامح في منزلته، ومقامه، وابتلائه، وبلائه، وشؤونه الأخرى، وسبقه إلى الإيمان والهجرة والجهاد، وما يدور حوله من إرهاص وإرجاف، وما سوى ذلك، فقد سأله المأمون: يا أبا الحسن؛ أخبرني عن جدك علي ابن أبي طالب، بأي وجه هو قسيم الجنة والنار؟

فقال: يا أمير المؤمنين ألم تروِ عن أبيك عن آبائه عن عبد الله بن عباس انه قال: سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول:

«حبّ عليٍّ إيمان وبغضه كفرٌ».

فقال المأمون: بلى، قال الرضا(عليه السلام): فقسّم الجنة والنار.

فقال المأمون: لا أبقاني الله بعدك يا أبا الحسن، أشهد انك وارث علم رسول الله[1].

وفي أثر آخر أن الإمام أجاب المأمون بما هو، ولم يكشف عن كل الحقائق التي يحتملها الأمر، وذلك بما رواه أبو الصلت الهروي، وكان حاضراً المجلس لدى السؤال والجواب.

قال أبو الصلت: فلما انصرف الرضا(عليه السلام) إلى منزله أتيته، فقلت له: يا ابن رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ما أحسن ما أجبت به المأمون!! قال الإمام الرضا:

---

(١) الأربلّي / كشف الغمّة ٣ / ١٧٣.

يا أبا الصلت ، إنما كلمته من حيث هو ، ولقد سمعت أبي يحدّث عن آبائه عن علي(عليه السلام) ، أنه قال : قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) :

«يا علي أنت قسيم الجنة يوم القيامة ، تقول للنار : هذا لي وهذا لك . . »[1] .

كما أجاب الإمام الرضا(عليه السلام) عن بعض الشبهات التي تدور في أذهان بعضهم ، وطلب التفسير لجملة من الظواهر التي لاحت علائمها في الأفق في مسيرة الإمام بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله) .

فعن الحسن بن فضال عن الإمام الرضا(عليه السلام) :

قال : سألته عن أمير المؤمنين(عليه السلام) ، كيف مال الناس عنه إلىٰ غيره؟ وقد عرفوا فضله وسابقته ومكانه من رسول الله(صلى الله عليه وآله)؟

قال الإمام الرضا(عليه السلام) : لأنه قتل من آبائهم وأجدادهم وإخوانهم وأعمامهم وأخوالهم وأقربائهم المحادّين لله ولرسوله عدداً كبيراً ؛ فكان حقدهم عليه لذلك في قلوبهم ، فلم يحبّوا أن يتولىٰ عليهم ، ولم يكن في قلوبهم علىٰ غيره مثل ذلك ، لأنه لم يكن له في الجهاد بين يدي رسول الله(صلى الله عليه وآله) مثل ما كان له ، فلذلك عدلوا عنه ومالوا إلىٰ سواه[2] .

وكان من هذا السنخ ما أبداه الهيثم بن عبد الله الرماني ، قال : سألت علي بن موسىٰ الرضا(عليه السلام) ، فقلت له :

يا ابن رسول الله ؛ أخبرني عن علي بن أبي طالب(عليه السلام) ، لم يجاهد أعداءه خمساً وعشرين سنة بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله) ، ثم جاهد في أيام ولايته؟

فقال الإمام الرضا(عليه السلام) : لأنه اقتدىٰ برسول الله(صلى الله عليه وآله) في تركه جهاد المشركين بمكة بعد النبوة ثلاثة عشرة سنة ، وبالمدينة تسعة عشر شهراً ،

---

(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢ / ٨٦.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٨١.

وذلك لقلة أعوانه عليهم، وكذلك عليّ(عليه السلام) ترك مجاهدة أعدائه لقلة أعوانه عليهم، فلمّا لم تبطل نبوة رسول الله(صلى الله عليه وآله) مع تركه الجهاد ثلاث عشرة سنة، وتسعة عشر شهراً، فكذلك لم تبطل إمامة علي مع تركه الجهاد خمساً وعشرين سنة، إذ كانت الصلة المانعة لهما واحدة...[1].

وقد ناضل الإمام الرضا(عليه السلام) نضالاً مشرّفاً عن العترة الطاهرة في خصوصيتها ومنزلتها والنصّ عليها مستشهداً على ذلك بالقرآن الكريم فقد حضر الإمام الرضا(عليه السلام) - فيما رواه الريّان بن الصلت - مجلس المأمون بمرو، وقد اجتمع في مجلسه جماعة من أهل العراق وخراسان، فقال المأمون: أخبروني عن معنى هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[2].

فقالت العلماء: أراد الله عزَّ وجل بذلك الأمة كلها!!

فقال المأمون: ما تقول يا أبا الحسن؟

فقال الإمام الرضا(عليه السلام): لا أقول كما قالوا، ولكني أقول: أراد الله عزَّ وجلّ بذلك العترة الطاهرة.

فقال المأمون: وكيف عنى العترة من دون الأمّة؟

فقال له الرضا(عليه السلام): إنه لو أراد الأمة لكانت أجمعها في الجنة، لقول الله عزَّ وجل: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[3].

ثم جمعهم كلهم في الجنة، فقال عزَّ وجلّ:

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾[4].

فصارت الوراثة للعترة لا لغيرهم.

---

(١) المصدر نفسه ٢ / ٨١ - ٨٢.

(٢) سورة فاطر / ٣٢.

(٣) سورة فاطر / ٣٢.

(٤) سورة فاطر / ٣٣.

فقال المأمون: مَنْ العترة الطاهرة؟

قال الإمام الرضا(عليه السلام): الذين وصفهم الله في كتابه فقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1].

وهم الذي قال رسول الله(صلى الله عليه وآله):

«إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، الا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما؟ أيها الناس لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم....»[2].

وكان الإمام منفتحاً على كتاب الله الأعظم في تفضيل العترة، يصدر عنه، ويستدل به، فقد سأله المأمون: هل فضّل الله العترة على سائر الناس؟ فقال الإمام الرضا(عليه السلام): إن الله ابان فضل العترة على سائر الناس في محكم كتابه. فقال المأمون: واين ذلك من كتاب الله؟

فأجاب الإمام الرضا(عليه السلام) إجابات هادرة صادعة بالأمر مع الشرح والاستدلال والتفسير والاستنباط، وقد بداها بآية الاصطفاء: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

وابان انّ الله تعالى فسّر الاصطفاء في اثني عشر موضعاً من القرآن، وخلص منه إلى الاستدلال على ما أراد.

وبدأ الإمام(عليه السلام) يسلسل الآيات التي تخص الموضوع، وهو يوردها، ويبين مجملها ويفسر مرادها على النحو الآتي:

---

(١) سورة الأحزاب / ٣٣.

(٢) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٢٢٩.

(٣) سورة آل عمران / ٣٣ - ٣٤.

١ - آية الانذار: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[1].

٢ - آية التطهير: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[2].

٣ - آية المباهلة: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ﴾[3].

٤ - الاستدلال بابقاء بيت علي(عليه السلام) ضمن المسجد، وإخراج من سواه وما سواه.. واستشهد عليه بقوله تعالىٰ: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾[4].

٥ - آية القربىٰ: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾[5].

٦ - آية المودّة: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[6].

٧ - آية الصلاة علىٰ النبي(صلى الله عليه وآله): ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[7].

قالوا: يا رسول الله؛ فكيف الصلاة عليك؟ فقال(صلى الله عليه وآله): تقولون: اللهم صل محمد وآل محمد كما صليت علىٰ إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

٨ - آية الخمس: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾[8].

---

(١) سورة الشعراء / ٢١٤.

(٢) سورة الأحزاب / ٣٣.

(٣) سورة آل عمران / ٦١.

(٤) سورة يونس / ٨٧.

(٥) سورة الإسراء / ٢٦.

(٦) سورة الشورى / ٢٠.

(٧) سورة الأحزاب / ٥٦.

(٨) سورة الأنفال / ٤١.

فقرن سهم ذي القربىٰ بسهمهم وسهم رسول الله(ﷺ).

٩ - آية الذكر: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[١].

١٠ - آية التحريم / النساء / ٢٣ في نفي جواز زواج رسول الله(ﷺ) من إحدىٰ بنات الأئمة، لأنهن بناته.

١١ - آية مؤمن آل فرعون: ﴿وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾[٢].

وهو ابن خال فرعون، فنسبه إلىٰ فرعون بنسبه، وكذلك خصصنا نحن.

١٢ - قوله تعالىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ﴾[٣].

فخصهم الله بهذه الآية، قال الإمام: «فخصنا الله تبارك وتعالىٰ بهذه الخصوصية إذ أمرنا مع الأمة بإقامة الصلاة، ثم خصصنا من دون الأمة...»[٤].

وزيادة في الاستدلال أضاف الإمام السنة الشريفة إلىٰ جنب القرآن، ليكون الموضوع آهلاً بالحجة القاطعة.

فروىٰ عن رسول الله(ﷺ) جملة من الأحاديث الآتية:

١ - قوله(ﷺ): «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصرْ من نصره، واخذلْ من خذله».

٢ - «شيعة علي هم الفائزون يوم القيامة».

---

(١) سورة النحل / ٤٣.
(٢) سورة غافر / ٢٨.
(٣) سورة طه / ١٣٢.
(٤) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١ / ٢٣١ - ٢٤٠.

٣ - «من سرّه أن ينظر إلى القضيب الياقوت الأحمر الذي غرسه الله بيده، ويكون مستمسكاً به، فليتولَّ علياً والأئمة من ولده، فإنهم خيرة الله عزَّ وجلّ، وصفوته، وهم المعصومون من كل ذنب وخطيئة».

٤ - «من مات وليس له إمام من ولدي، مات ميتة جاهلية، ويؤخذ بما عمل في الجاهلية والإسلام».

٥ - «أنا وهذا (يعني علياً) يوم القيامة كهاتين، وضم بين إصبعيه، وشيعتنا معنا، ومن أعان مظلومنا كذلك».

٦ - «من أحب أن يتمسك بالعروة الوثقى فليتمسك بحب علي وأهل بيتي».

٧ - «الأئمة من ولد الحسين(عليه السلام)، من أطاعهم فقد أطاع الله، ومن عصاهم فقد عصى الله عزَّ وجلّ، هم العروة الوثقى، وهم الوسيلة إلى الله عزَّ وجلّ».

٨ - «يا علي: أنت وولداي خيرةُ الله من خلقه».

٩ - «خلقت أنا وعلي من نور واحد».

١٠ - «من أحبنا أهل البيت حشره الله تعالى آمناً يوم القيامة».

١١ - وقال رسول الله(صلى الله عليه وآله) لعلي: «من أحبك كان من النبيين في درجتهم يوم القيامة، ومن مات وهو يبغضك فلا يبالي مات يهودياً أو نصرانياً».

١٢ - وفي قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾[1] قال(صلى الله عليه وآله): عن ولاية علي(عليه السلام).

١٣ - قال(صلى الله عليه وآله) لعلي وفاطمة والحسن والحسين(عليهم السلام)... «أنا حرب لمن حاربكم، وسلم لمن سالمكم».

---

(١) سورة الصافات / ٢٤.

١٤ - قال(ﷺ) لعلي: «انت مني وأنا منك».

١٥ - وقال: «أنت خير البشر، لا يشك فيك إلاّ كافر».

١٦ - وقال: «عليّ أول من اتبعني، وهو أول من يصافحني بعد الحق».

١٧ - وقال: «بغض علي كفرٌ، وبغض بني هشام نفاق».

١٩ - وقال: «الحسن والحسين خير أهل الأرض بعدي وبعد أبيهما، وأمهما أفضل نساء الأرض».

٢٠ - وقال: «أول ما يُسأل عنه العبد: حبنا أهل البيت».

٢١ - وقال: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض».

٢٢ - «لا يحب علياً إلا مؤمن، ولا يبغضه إلاّ كافر».

٢٣ - وقال لعلي: «محبك محبي، ومبغضك مبغضي».

٢٤ - وقال: «الناس من أشجار شتى، وانا وانت من شجرة واحدة».

٢٥ - وقال: «من كنت وليّه فعليٌّ وليُّه، ومن كنت إمامه فعليّ إمامه».

٢٦ - وقال: أنا مدينة العلم وعلي بابها.

٢٧ - وقال: «كفّ عليٍّ كفي».

٢٨ - وقال: «من سبّ علياً فقد سبني، ومن سبني فقد سبّ الله».

٢٩ - وقال: «أنت يا علي في الجنة، وانت ذو قرنيها».

٣٠ - وقال(ﷺ) لعلي(ؑ):

«إني أحبّ لك ما أحبّ لنفسي، وأكره لك ما أكره لها».

٣١ - وقال له: «بشّر لشيعتك أني الشفيع لهم يوم القيامة، يوم لا ينفع إلاّ شفاعتي».

٣٢ - وروىٰ الإمام عن النبي عن جبرئيل عن الله تعالىٰ:

«من عادىٰ أوليائي فقد بارزني بالمحاربة، ومن حارب أهل بيت نبيي، فقد حلّ عليه غضبي، ومن أعزّ غيرهم فقد آذاني، ومن آذاني فله النار».

٣٣ - «وسط الجنة لي ولأهل بيتي».

٣٤ - «أنا خاتم النبيين، وعلي خاتم الوصيين»[١].

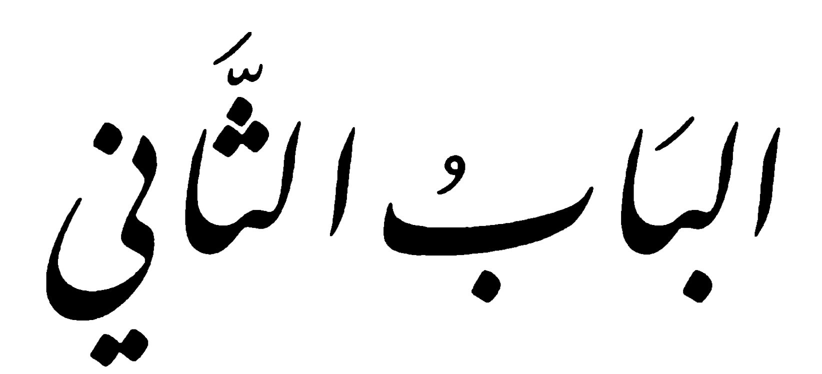
وجاهد الإمام بسبيل ولاية أهل البيت(عليهم السلام) جهاداً مريراً، وخصّهم بالقول إنهم: «أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي، ومعدن الرسالة، وخزّان العلم، ومنتهىٰ الحلم، وأصول الكرم، وقادة الأمم، وأولياء النعم، وعناصر الأبرار، ودعائم الأخيار، وساسة العباد، وأركان البلاد، وأبواب الإيمان، وأمناء الرحمن، وسلالة النبيين، وصفوة المرسلين، وعترة خيرة رب العالمين، وأئمة الهدىٰ، ومصابيح الدجىٰ، وأعلام التقىٰ، وذوي النهىٰ، وأولي الحجىٰ، وكهف الورىٰ، وورثة الأنبياء، والمثل الأعلىٰ، والدعوة الحسنىٰ، وحجج الله علىٰ أهل الآخرة والأولىٰ»[٢].

ولم تكن الرقابة السياسية المفروضة علىٰ الإمام لتحول بينه وبين هذا الإعلان الخطير في مضمونه ومحتواه.



(١) الصدوق / عيون أخبار الرضا ٢٠ / ٤٧ - ٧٤، وقد اخترناها من مجموع ثلاثمائة وخمسين حديثاً.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٢٧٢ - ٢٧٣.



الإمامُ الرضا (عليه السلام) وولايةُ العهدِ

الفصل الأول: الإمامُ (عليه السلام) وخلفاءُ بني العباس

الفصل الثاني: الإمامُ (عليه السلام) وولاية العهدِ

الفصل الثالث: ما وراءَ ولاية العهدِ من دوافع

الفصل الرابع: ما بعدَ ولايةِ العهدِ من مؤامرات

الفصل الخامس: اغتيال الإمام (عليه السلام) واستشهاده

الفصل الأول

الإمام (عليه السلام) وخلفاء بني العباس

١ - الترف الأرستقراطي في البلاط العباسي

٢ - العصر العباسي والنظام الطبقي

٣ - الإسراف في سفك الدماء وطبيعة الحكم

٤ - دولة هارون الرشيد

٥ - الإمام(عليه السلام) في عهد الأمين

٦ - الإمام(عليه السلام) في عصر المأمون:

آ- المامون يتسلم الحكم .

ب- تقييم المامون .

ج- سياسة المأمون .

د- دعوى تشيّع المامون .

الترف الأرستقراطي في البلاط العباسي

عاصر الإمام الرضا (عليه السلام) ثلاثة من ملوك العباسيين هم: الرشيد والأمين والمأمون.

وقبل الخوض بغمرة الحدث السياسي في ظل هؤلاء السلاطين، نشير إلى المناخ الأرستقراطي الذي أحياه هؤلاء الخلفاء فيما يزعم، متلبساً بالبذخ والسرف وحياة العبث والفساد والمجون.

وكانت حياة الأمراء الثلاثة فارهة هانئة لا تشتكي هماً، ولا تعاني بؤساً، وأنى يتفق ذلك؟ والليالي حمراء ناعسة، والأيام ضاحكة مستبشرة، وأطياف الرفاه بنفسجية الألوان وارفة الظِلال، والعصور العامرة تتهادى فيها القيان والجواري والراقصات والمغنيات، والموائد الملكية فيها ما لذّ وطاب، والندمان والغلمان في حركة دائمة وسمر عارم، والخزائن فيها الذهب الأحمر يخطف الأبصار، والبدر والجوائز تتناثر رقاعها للمخنثين والشعراء ودعاة الفسق والفجور، يشاركهم في اقتناصها وعّاظ السلاطين، وولاة السوء، وجمهرة الانتهازيين وجملة النصّابين والمشعوذين، والتبريكات تنطلق من حناجر المتزلفين والشطّار ورجال السلطة، والجلاوزة الأشداء في كل صوب وحدب، وبيدهم السيوف والحراب والنصال وأسلحة الإبادة.

وهنالك مجالس اللهو والمجون الخفي والدعارة السِّرِّيَّة، الخمور بأنواعها، والقمار بموائده، وحفلات الرقص الخليع، وقد ضربت الستائر الذهبية في الليالي، بينما تنتشر في ضحى النهار وأصيل الشمس بين حدائق الورد في أشكالها الهندسية المتناسقة، ولدى أزهار الياسمين العطرة، وهالات الرياحين المصفوفة، ويستبق الفتيان إلى الرقص بجنب فتيات الروم

والفرس والمولدات، ويدير الندمان الكؤوس، ويكرع فيها بنهم على أوتار العود والقانون، وتطيب نكهتها لدى سماع أصوات الغناء الرقيق الهامس، ويلتقي هذا بذاك، وكل مع محظيته وعشيقته، ويعلو الصخب تارة، ويسود الهدوء تارة أخرى، وتتراصف المناغات الحالمة من خلال الحالات ثائرة ومستقرة، فكل له مناسبته ومقامه ومراسيمه الخاصة.

وكانت ليالي البلاط العباسي عامرةً باللذّة المحرمة، وساعاتها محمومة بالشهوة الآثمة، إفراغ لشحنات الهوى والشباب، وانصهار بأصناف المجون الصاعق، فلا تخبو لذة عابرة إلا بلذة مشتعلة متوثبة، ولا تمر لحظة حالمة إلا بلحظة أفراح عارمة، ويتمادى الشوق والحنين إلى درجة الغليان، ويتعالى البغي والغي إلى حد التضخم والإشباع، وهكذا كانت ليالي ألف ليلة وليلة، وهكذا أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح، في معجم من المغريات المتنوعة، وقاموس من الاشتهاء الفاحش، وإسراف في الغواني والأغاني، وانفجار في الكؤوس والشراب والندمان، واحتفاء بمظاهر البذخ والإسراف، واندماج في موائد الفجور الحافلة بكل جديد عربي وهجين، ورومي وتركي وفارسي، وملونين من الجنسين.

وساعد هذا الموج الهائل من الانزلاق في متاهات اللذائذ: تيه الفتوّة لدى العباسيين، وعنفوان الشباب عند التابعين والأذناب، مما أوجد ضجيجاً متنافراً أطلق العنان للغرائز المكبوتة فنشطت عن عقال، وفلت الضبط للشهوات الكامنة فثارت بعنف واصطدام، واكتسحت معالم الحياء والتستر والاختفاء ذلك الحجاب الرقيق من الحشمة، فعادت الظواهر رتيبة مكشوفة لا يُخجل منها، ولا يعاب عليها، ولا يتخفى بها، وإنما هو الاستسلام التام للدواعي والبواعث على تحطيم القيد الاجتماعي، والخروج عن الموروث الديني.

وقد ساعد الدخل العام للدولة على هذا الضياع الشامل، فكانت واردات الدولة من الخراج وحده أربعمائة مليون درهم، وكان الذهب الذي تحظى به خزائن الرشيد وحده، لا يعدّ عداً لكثرته، بل يوزن وزناً، فكانوا يقولون: إنه ستة أو سبعة آلاف قنطار من الذهب[1] وكان المأمون في جولة بدمشق، فأصابته ضائقة اقتصادية عارضة، فحملت إليه ثلاثون مليون درهم من الخراج[2].

وقد سبق لنا الحديث عن واردات الدولة أيام الرشيد فيما يقدر بآلاف الملايين في عمل مستقل سابق (الإمام موسى بن جعفر / ضحية الإرهاب السياسي)، ومن المؤسف حقاً أن تلك الأموال الهائلة لم تنفق على تطوير حياة المسلمين وإنعاش الفقراء والمحرومين، وإنما كان الكثير ينفقه الملوك ووزراؤهم وأبناؤهم وحاشيتهم على ملاذهم وشهواتهم، وقد أنفقوا على لياليهم الحمراء ما لا يحصى، كما حظي المغنون والعابثون والماجنون بالثراء العريض[3].

واضع بين يدي الباحث الموضوعي أنموذجاً واحداً من هذا السرف العجيب، متمثلاً في زواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل، وما أنفق فيه، مما لم يتحدث التأريخ الفرعوني بل العالمي عن نظير له، وأكتفي منه ببعض مظاهر البذخ الطاغوتي:

١ - كان مهر الزواج ألف ألف دينار من الذهب الخالص.

٢ - نثر على العسكر في الزواج بـ(فم الصلح): ألف ألف دينار ذهباً.

٣ - كان الغلمان في العرس ثلاثين ألفاً، والجواري سبعة آلاف.

---

(١) ظ: ابن خلون / المقدمة / ١٧٩ - ١٨٠.

(٢) ظ: ابن الأثير / الكامل في التاريخ ٦ / ٤٣٣.

(٣) باقر شريف القرشي / حياة الإمام علي بن موسى الرضا ٢ / ١٩٠.

٤ – كان المعسكر بفم الصلح متكوناً من أربعمائة ألف فارس، وثلاثمائة ألف راجل، وقد حبي الجميع بالحباء العريض.

٥ – كان الحسن بن سهل يذبح لهؤلاء الضيوف – ضيوف الزواج الميمون – ثلاثين ألف رأس من الغنم، ومثليها من الدجاج، وأربعمائة بقرة، وأربعمائة جمل.

٦ – كانت نفقات المأمون على الزواج ٣٨ مليون درهم من النثريات.

٧ – جاد المأمون على الحسن بن سهل والد زوجه بمبلغ عشرة ملايين درهم فقط من خراج فارس، وأقطعه (فم الصلح)[١].

٨ – نثر الحسن بن سهل من سطح داره بنادق عنبر، في كل بندقة رقعة بمبلغ ألف دينار، أو عشرة ثياب، أو غلام[٢].

٩ – انفق المأمون على قادة جيشه بهذه المناسبة السعيدة خمسين ألف ألف درهم[٣].

هذا عدا ما جرى في مراسم زفاف الزواج المصون.

وكان هذا من الخراج وحده، ناهيك في واردات الدولة من الضرائب والمعادن والمكاسب والفتوح والرقيق!!

ولكن كيف كان يؤخذ هذا الخراج؟

لقد تحدث ابو يوسف القاضي عن مرارة استخراج الخراج بالعسف والظلم والتعدي على حد تعبيره[٤].

---

(١) ظ: الزبير بن بكار / الموفقيات / ٩٨.

(٢) ظ: الطبري / تاريخ الأمم والملوك / أيام المأمون.

(٣) ظ: تزيين الأسواق ٣ / ١١٧.

(٤) ابو يوسف القاضي / كتاب الخراج / ١١٦ – ١١٨.

ويقول: «وبلغني أنهم - عمال الخراج - يقيمون أهل الخراج في الشمس، ويضربونهم الضرب الشديد، ويعلقون عليهم الجرار، ويقيدونهم، بما يمنعهم عن الصلاة، وهذا عظيم عند الله، شنيع في الإسلام»[١].

وقد أتاحت هذه الأموال المغتصبة للرشيد والأمين والمأمون الغوص في المحرمات دون تأثم وتحرج، فكان في قصر الرشيد ثلاثمائة جارية من الحسان يعزفن ويغنين[٢].

ونظرة فيما كتبه أبو الفرج في الأغاني تجعلك محاطاً بمئات الصفحات عن حياة الغناء والطرب والرقص، وتصنيف الرشيد لطبقات المغنين ووظائفهم وأعمالهم ونوعية معازفهم.

وولع الرشيد بشرب الخمر، واللعب بالنرد، وكان يقامر حتى مع إسحاق الموصلي، وله معه أخبار في غاية المهانة[٣].

وكان يلعب الشطرنج إذا سافر في دجلة[٤].

وقد جدّ الأمين في طلب أهل الملاهي[٥].

واعتبره المسعودي: «قبيح السيرة، ضعيف الرأي، سفّاكاً يركب هواه، ويهمل أمره، ويتكل في جليلات الأمور على غيره»[٦].

وعدّه القلقشندي: «منهمكاً في اللذات واللهو... رفض النساء واشتغل بالخصيان، ووجه إلى البلدان في طلب الملهين، واستخف حتى بوزاراته وأهل بيته»[٧].

---

(١) ابو يوسف القاضي / كتاب الخراج / ١١٦ - ١١٨.

(٢) جورجي زيدان / تاريخ التمدن الإسلامي ٥ / ١١٨.

(٣) ظ: ابو الفرج / الأغاني ٥ / ٦٩ - ٧٠.

(٤) المصدر نفسه ٩/ ٦٤.

(٥) السيوطي / تاريخ الخلفاء / ١٣٤.

(٦) المسعودي / التنبيه والأشراف / ٣٠٢.

(٧) القلقشندي / مآثر الإنافة ١ / ٢٠٤ - ٢٠٥.

وجاء في ترجمته: «وكان - الأمين - قد هان عليه القبيح فاتبع هواه، ولم ينظر في شيء من عقباه، وإنه كان أبخل الناس على الطعام، وكان لا يبالي أين قعد؟!! ولا مع من شرب!!»[1].

واستسلم إلى العبث الماجن، وترك قيادة بغداد بيد الجيش، حتى حوصرت وهو بين نثيله ومعتلفه، يتقلب بين غلمانه وخصيانه، حتى أحيط بقصره، وقبض عليه، وقتل شر قتلة، وبعث طاهر الخزاعي برأسه إلى المأمون، فأمر بنصب رأس أخيه في صحن الدار، وقد وضع على خشبة..[2].

وانتهت أيام الأمين بين زقٍ وباطية، وقيانٍ وجوارٍ، وشيّع إلى حيث مصيره، فما بكت عليه السماء ولا الأرض.

حتى إذا حكم المأمون كان من صفته أن شغف حباً بالشطرنج، وقد مدحها شعراً[3].

وكان معتكفاً على إدمان الخمر ليلاً ونهاراً[4].

وكان مولعاً بالغناء حتى استهتر فيه، وكثر إعجابه بإسحاق الموصلي، ومدحه مدحاً غريباً[5].

وكان تبذيره للمال جزءاً لا يتجزأ من حياته العامة كما أسلفنا. إن ما أورده البحث عن نماذج يكاد يكون هو القاعدة الأساس في البلاط العباسي، أمّا سواه فهو الشذوذ.

ويضاف إلى هذا كله، أساليب الشطّار ومسالك العيّارين، وهي تبتكر من المقالب والأفكار، وقد عمر بها الميدان لا سيما في بغداد، وكانت

---

(١) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام الرضا ٢ / ٢٣١ نقلاً عن عيون التواريخ.

(٢) ظ: المسعودي / مروج الذهب ٣ / ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٣) ظ: ابن عبد ربه / العقد الفريد ٣ / ٢٥٤ + الأبهيشي / المستطرف ٢ / ٢٤٣.

(٤) ظ: باقر شريف القرشي / حياة الإمام علي بن موسى الرضا ٢ / ٢٤٣.

(٥) ظ: جاك. س. ريسلر / الحضارة العربية / ١٠٨.

تستعمل أذكى سبل المغامرات في ابتزاز الأموال، واستغفال البسطاء، ونشر الرعب والهلع في النفوس.

وإلى جانب هؤلاء تتعملق مسيرة الصعاليك والشحاذين والمتسكعين في فصائل كبيرة من الجياع والمحرومين وذوي الفقر المدقع، ونشأ في ظل هذا الأفق القاتم رعيل من قطاع الطرق والعصابات المسلحة تداهم وتصادم وتقاوم في سبيل تأمين القوت لا أكثر ولا أقل.

وهنالك آلاف المختبئين - سياسياً - من النظام في شرائح عدة من العلويين والفقهاء والعلماء الرافضين لسياسة الجور والانتهاك، وهؤلاء المشردون من أسوأ الناس حالاً، وأشدهم فقراً، فهم بين مغيّر لهويته، وبين موغل بإخفاء شخصيته، وقد تلبس كل منهم بالاستتار المرير عن أعين السلطة وأجهزة الحكم.

وانخرط جيل هائم حائر في مسالك الإثم المتعمد، وتهاوى فصيل من الشباب في مزالق الفسق، وتناوب آخرون على تلبية الرغبات المحرمة، فراراً من واقع سيِّئ إلى واقع سيِّئ مثله، وتعبيراً عن نكسة في الأخلاق والقيم، بعد أن فقد الأمل في حياة الكرامة والاطمئنان، فاستبدلت بالضياع والتمزق.

وهناك طبقة كبيرة من عامة الناس، آثرت العزلة والانكماش، فاغتربت بأفكارها وأشخاصها في ميل الى زهد مفروض مثَّله الهروب من واقع الحياة، والابتعاد عن مشكلات الأمّة، والاعتزال من الناس.

وكان هنالك غشاء رقيق أو ضعيف من الحزن الكئيب والألم الشاحب يلوح على الوجوه، ويستقر في حنايا الشعب، وهو يتردد بين جوع كافر، وفقر مدقع، ومرض قاتل. والناس من هذا المناخ بعمومه بين اثنين: باكٍ على دينه، وباكٍ على دنياه، فلا الباكي على دينه بمطمئن عليه، ولا الباكي على دنياه بالمقترب منها.

العصر العباسي والنظام الطبقي

وكانت إفرازات الترف الأرستقراطي في البلاط العباسي أن أسفرت عن التفاوت الطبقي في صفوف الأمة بانقسام مشين، لا يمت إلى روح الإسلام بصلة، لا من قريب ولا من بعيد، فالمعروف اجتماعياً أن التمايز الطبقي يمثل ظاهرة متخلفة ترجع بخطوطها إلى العصور المظلمة الوسطى، وقد كان الأمر كذلك، وبدت هنالك في عصر خلفاء الجور من بني العباس طبقتان:

الطبقة الأرستقراطية المنعمة، وتضم السلطان وولاة السوء وحواشي القصر العباسي وبطانة الخليفة، ومن سار في ركاب هؤلاء، وبيدهم الأمر والنهي والعزل والنصب، ولديهم المال والضياع والمقتنيات، وعندهم القصور والممتلكات والبساتين والمنتجعات، وإليهم الحكم المطلق في الرقاب والعقار والأفكار، ولا همّ لهم سوى الاستمتاع بالغريزة الهائجة في كل أولاعها وشهواتها، وإلاّ المؤامرات في تقريب الطغام وتبعيد الأشراف، وبذلك كانت الحياة لهم وحدهم، رافلة بكل المباهج الرخيص منها والغالي، وبيت مال المسلمين يمدّهم بما ارادوا، أبوابه قد فتحت للنهب والسلب، وموارده قد اقتصرت على الذئاب والأذناب، واللذائذ تترى بين كرّ وفرّ، وماكرّ منها فعالمه النهم والإشباع، وما فرّ منها يقتنص قدر المستطاع، وهكذا كان عرش المسلمين في تخمة من الشهوات واللذائذ.

والطبقة الثانية هي طبقة المحرومين من متاع الدنيا، فلا الحياة ميسّرة، ولا الوجوه مستبشرة، ولا الأيام سعيدة، والجميع نكد في نكد، يتنفس عن الشجا وانقباض النفس، والناس في غصص ومظالم لا تنتهي، والكراهية

تتجدد آناء الليل وأطراف النهار، والمتاعب لا تقف عند حدود، فهي موحشة نافرة تجوس خلال الجوانح، ولا تنفك جاثمة على الكواهل والاعناق، تستيقظ على الأزمات، وتنام على أمض من الجمر، وهكذا كانت حياة الأغلبية من الفقراء والمرضى والمنبوذين والمعارضين السياسيين، وهكذا كان الشعب المسلم فريسة جاهزة تمزّقها مخالب الوحوش الكاسرة، وبضاعة مهينة تتاجر فيها حماقات السلطان، حتى عادت تلك الكتل البشرية والمستعبدة آلة ميكانيكية تجري دون إرادة إلى غاية غامضة.

وهنا تلحظ على السطح الاجتماعي ظاهرتين متقابلتين، تتصارعان صباح مساء، ظاهرة الترف الناعم الغزير ينعم به خلفاء الجور وولاة السوء، وتتمتع به القيان والراقصات، ويكرع بشهواته جهاز الحكم والتابعون والسائرون بالركاب.

وفي الجانب الاكبر والأوسع تلوح المأساة شاحبة مدمّرة في ظاهرة الحرمان والبؤس والشقاء، فالأعناق الأبيّة تتطاول في عناءٍ سعياً وراء الرغيف، وغول البلاء يفغر فاه ملتهماً سواد الناس، وزعماء القوم، وامل الأمة، وهم مع هذا السوط الناري يدفعون ضريبة الدم في البعوث، لا للدفاع عن الإسلام، أو الحفاظ على بيضه الدين، بل لتثبيت عروش الطغاة، والإبقاء على مراكزهم العليا في التحكم والأثرة واسترقاق الأحرار.

وفق هذا الترف الأرستقراطي والتمايز الطبقي المقيت، يتماشى شبح الاستثمار الإقطاعي، فالعراق بستان قريش من الحاكمين، وأرض السواد أرض الغلاّت والألبان والحبوب والتمور، وكل هذه الخيرات في قبضة عصابة تلتهم ولا تشبع، وتغتصب ولا تتخم، وترى الرؤوس منحنية امام عظمة أولئك الإقطاعيين، وهم يشربون دماء الناس واصحاب الأرض الحقيقيين، ويتحلبون جهود العمال والفلاحين والمزارعين، ولكل والٍ

مقاطعة، ولكل عامل قصبة، ولكل انتهازي رستاق، وكفى بأرض العراق والشام وخراسان معيناً لا ينضب من الخيرات من زروع وبساتين وغلال، والبان وأبقار ومواشٍ، وفواكه وأشجار وأثمار، والشقاء يخيم بطول البلاد وعرضها، والسفينة تترنح في بحر هائج لا تدرك سواحله، والعواصف تقصف بزوابعها ورعودها، ولا جديد تحت أديم السماء إلا التذمر والجزع والدموع.

ولم يكن عجيباً أن يخضع المحرومون لسلطان بني العباس قهراً، ولكن العجيب حقاً ان يخادع خلفاء بني العباس أنفسهم، فيعتقد كلٌّ منهم، أو يغالط ليعتقد - وبكل صلف - أنه الحاكم المطلق بتفويض إلهي، ليحكم الناس دون شورى منهم، ولا ولاية عليهم، ولا مسوّغ لهذا التحريف إلا الكذب على النفس وعلى الأمة وعلى الدين، لان كلاً منهم يعلم يقيناً أنه واسلافه من الغاصبين للحكم بالقسر والضغط والقوة والإكراه، وانهم في وادٍ والإسلام بآخر.

ومع هذا كله، فالدولة والولاة والعمال يتحركون بمثل هذا الفهم الخاطئ لتضليل الأمة وسحق كرامتها، فتستقر الظلمة الخانقة في ضمير الشعب الأعزل في كابوس ابدي، ويأتي بعد هذا دور الوصوليين من سماسرة الحكم ودهاة الفساد الإداري، ليحيطوا هذا التمردّ الشاّذ بهالة من الهيبة الكاذبة، ويرحب بذلك خلفاء التمثيل المسرحي في ساحة الأحداث، فينعمون عليهم بالأعطيات الضخمة والإقطاع العريض، وتتراجع الأنفاس المفعمة بالجراح، وينسلّ العقل انسلالاً مريعاً، ويسرع الحكم بارتكاب الأخطاء المتعمدة، ويستبق إلى اقتراف العبث المشين، فكل شيء في غير موقعه المناسب، ولكنه التسلط الحافل بالفوضى التي تجعل المستحيل ممكناً، والشذوذ قاعدة، وتقدمهما طبقاً شهياً تبتلعه افواه الحاكمين.

ولك أن تترصد هذه المهزلة في أدوارها، وتتمثل أبعادها في لوحات كاريكاتورية متعاقبة، وهي تصور البؤس والترف، والذل والتسلط، والجوع والتخمة، والفقر والثراء، والاستغلال والحرمان، والقصور والأكواخ، وليالي الغناء وأماسي البكاء.

الإِسرافُ في سفك الدماء وطبيعة الحكم

لم يكن الحكم العباسي حكماً شرعياً فيما يُشترط بالخليفة من شرائط ومواصفات لدى المسلمين، ولم يكن حكماً ديمقراطياً يعنى بتمثيل الشعب أو الاستجابة لرغباته، ولم يكن حكماً شورويّاً يعنى بالانتخاب ووصاية أهل الحلّ والعقد، ولم يكن حكماً إنسانياً يقيم موازينه على أساس الحب والرحمة ومودّة الإنسان لأخيه الإنسان.

وفي غياب هذه الافتراضات جميعها، يتجلى بوضوح أنه حكم فردي دكتاتوري، لا علاقة له بمبادئ الإنسان، ولا رابطة تشدّه بأساليب الدولة المتحضرة، أو الحكم العادل.

وقد أقام الحكم العباسي بطريقته الخاصة امبراطورية شاذة على هرم ذي ثلاث شعب من جماجم الثائرين، وعرق الكادحين، وبيت مال الأمة، واعتمد لذلك ثلاثة أساليب هي: القتل والانتقام ومصادرة الحقوق، وقد برع في تنفيذ ذلك بفلسفة السفك الدموي، وهو يجوس خلال الديار، وقدم على مذبح الطغيان والجبروت قرابين الفداء من الأبرياء والرافضين، معبراً عن الغضب الساخط، ومصوراً شهوة الانتقام بأبشع صورها، فتتساقط الأيدي والسواعد والأكتاف أشلاء ممزقة هنا وهناك، وتتناثر الجثث والأبدان والأطراف ضحايا منهكة، وهي تجار بظلامتها إلى السماء، ولا منقذ ولا مجير، ويستقيم الملك شامخاً بأكذوبة، متعالياً بزيف كبير،

والناس يرسفون في القيود والأغلال والسلاسل، شاؤوا ذلك أم أبوا، فهو الأمر الواقع.

ولم يكشف السجل الإرهابي لهؤلاء الخلفاء في حكمهم هذا، إلاّ عن وحوش متعطشة للدم البريء، فلا تلمس رحمة أو شفقة، ولا تجد رحمة أو رقّة، ولا تشاهد في الشفق الكئيب بارقة من التنازل عن الاعتساف المتصاعد!! كيف؟ والمناخ مشحون شحناً غريباً بالعنف والقتل والأسر والسجن والتشريد، وهذا منهج عام منتظم في سيرة من يرشح لارتقاء العرش منذ أيامه الأولىٰ: أيام السفاح، والمنصور، والمهدي، والهادي، والرشيد، والأمين، والمأمون.

فكلّ من هؤلاءِ يقترف ما يشاء من أثم، ولا يكتفي بذلك وحده، بل يعهد بوصاياه المخيفة الضاربة إلىٰ من ينفذها من بعده حينما يشارف علىٰ الموت، فالحكم في منظوره السياسي لا يستقرّ إلاّ علىٰ الأشلاء، ولا تجري بعروقه الحياة إلاّ بالدماء. ودع عنك أسطورة (العصر الذهبي) كما سماه المؤرخون الرسميون، فأي عصر هذا الذي ينزف بالجراح، ويشرق بالدموع والحسرات، ويفيض بالظلم والتشفي وقطع الأعناق، إنه المسلسل الإجرامي الفظيع الذي مثل دوره في تراجيدية دامية، أجهزة علىٰ القيم العليا، وانحدرت ببشاعتها إلىٰ عصر الغاب.

كان النظام قاسياً بكل ما للقسوة من معنىٰ، قاسيا بالنسبة للشعب المسلم بعامة، ولأتباع أئمة أهل البيت بخاصة، ولم تكن قسوته نتيجة جرائر ارتكبت، أو قوانين خولفت، ولكنها تنبعث من خلال هواجس قاتلة تغري بالأحقاد أن تشتعل، وبالحريق أن يلتهم كل شيء، وتلك الهواجس لا تلبث أن تشكل قاعدة لا استثناء معها لتصفية جميع أشكال المعارضة قولاً أو عملاً، والمعارضة دونها حز الرقاب، وقد يُحمل عليها عدم التأييد والصمت الحزين.

وكانت المعارضة كالظمآن الذي يمنع من الماء فيزداد أواراً، والعنف أدعىٰ للعنف، وهذا ما دعا إلىٰ تدفق الدماء وسيلانها، وكان النظام مسؤولاً عن جريان هذه الدماء الحمراء.

كانت دعوة العباسيين في أوائل تحركهم الثوري تحمل شعار البيعة إلىٰ (الرضا من آل محمد) دون الإشارة إلىٰ أحد، وكان التوجه العام للمسلمين بهذا الإطلاق يفهم منه أن المراد هم أهل البيت بالتحديد، فتوسم الناس الصلاح والإصلاح بعد الفساد الأموي العارم، وأمّلوا حكماً رشيداً في ظل العدل، بما يوحي به منهج أمير المؤمنين علي (عليه السلام) السياسي.

«لكن ذلك المثل الأعلىٰ للعدالة والمساواة الذي انتظره الناس من العباسيين، قد أصبح وهماً من الأوهام، بشراسة المنصور والرشيد وجشعهم، وجور أولاد علي بن عيسىٰ وعبثهم بأموال المسلمين، يذكرنا بالحجاج، وهشام، ويوسف بن عمرو الثقفي.

وعمّ الاستياء أفراد الشعب، بعد أن استفتح عبد الله المعروف بـ(السفّاح) وكذلك المنصور بالإسراف في سفك الدماء، علىٰ نحو لم يعرف من قبل»[1].

وقد تبخرت الأحلام في إقامة صرح العدل، وانفجر البركان ملتهماً الأرواح والحريات، وسالت الدماء كل مسيل، وانتهبت الثروات والممتلكات، وارتطم الناس بدولة صماء لا تستمع إلىٰ أحد، وعصابة حمقاء لا يندىٰ لها جبين، حتىٰ غمر الناس سيل جارف من النكر والمكر، ودهمتهم عاصفة من الجور والظلم، ولم يخطئ أحمد بن أبي نعيم في تصوير ذلك حين قال:

---

(١) احمد محمود صبحي / نظرية الإمامة / ٣٨١.

«ما أحسب الجور ينقضي وعلىٰ الناس أميرٌ من آل عباسٍ فنفاه المأمون إلىٰ السند»[1] .

والمثير حقاً للإنكار هو تلك الدماء التي سفكها دعاة العباسيين وهم يمهدون لإقامة دولة بني العباس .

فهذا ابو مسلم الخراساني وحده ، قد أحصي من قتله في حروبه ، فكانوا ألف ألف وستمائة ألف من المسلمين[2] .

حتىٰ كتب إلىٰ المنصور يذكرّه بذلك .

«فوترت أهل الدنيا في طاعتكم وتوطئة سلطانكم»[3] .

وهو يشرح ذلك ويفصله في كتاب آخر للمنصور نفسه ، فيقول : «إن أخاك - يعني السفاح أو إبراهيم الإمام - امرني أن أجرد السيف ، وآخذ بالظنة ، واقتل علىٰ التهمة ، ولا اقبل المعذرة ، فهتكت بأمره حرماتٍ حتم الله صونها ، وسفكت دماءً فرض الله حقها ، وزويتُ الأمر عن أهله ! ! ووضعته في غير محله ! !»[4] .

فهو يعترف بجرائره في السفك الدموي بأمر قادة الدعوة ، وهو يقرّ بأنه زوىٰ الأمر عن أهل البيت ، وهم محله ، ووضعه في غير محله ، ومع هذه الخدمات الكبرىٰ التي قدمها ابو مسلم للعباسيين ، فقد غدر به المنصور ، وقتله شر قتلة ، بعد أن استجوبه بقوله :

«فأخبرني عن ست مائة ألف من المسلمين قتلتهم صبراً؟؟

فأجابه أبو مسلم : لتستقيم دولتكم»[5] .

---

(١) المسعودي / مروج الذهب ٣ / ٤٣٥ + النويري / نهاية الأرب ٨/ ١٧٥.

(٢) القلقشندي / صبح الأعشى ١ / ٤٤٥.

(٣) ابن كثير / البداية والنهاية ١٠ / ٦٩.

(٤) الخطيب البغدادي / تأريخ بغداد ١ / ٢٠٨ + ابن كثير / البداية والنهاية ١٠ / ١٤.

(٥) فاروق عمر / طبيعة الدولة العباسية / ٢٤٥ وانظر مصدره.

ولك تقدير مدىٰ قسوة أبي مسلم وفظاظته في تركيبه العدواني الآثم، فما إن تنداح سحابة من الغدر والختل في ممارسته، حتىٰ تتجمع سحابة دكناء من القتل والإسراف فيه، لتجلل الحياة بالإثم الفادح والحقد الأسود والسياسة الخرقاء، حتىٰ تحاشاه الناس من البدو والحضر وأهل القرىٰ والأعراب، فحينما أراد الحج: «هربت الأعراب عن المناهل التي يمّر بها ذهاباً وإياباً، فلم يبقَ منهم أحد، لما كانوا يسمعونه من سفكه للدماء»[1].

وهو نفسه يعترف علىٰ نفسه في المجازاة بقوله: «ومن جازيناه بجزائه وضعت سيفي فلم يبقَ بَرٌّ ولا فاجر إلا قتلته»[2].

وهو الذي نسج ذلك الستار الرقيق في الدعوة إلىٰ الرضا من آل محمد، ولكنه دعا علىٰ دولة الظلم والطغيان باعترافه، فقال متأسفاً:

«إني نسجت ثوباً من الظلم لا يبلىٰ ما دامت الدولة لبني العباس»[3].

وكان زياد بن صالح من دعاة العباسيين ورجال الدولة في إقامتها، فقتله أبو مسلم شر قتلة لأنه قال: «إنما بايعنا علىٰ إقامة العدل، وإحياء السنن، وهذا جائر ظالم، يسير بسيرة الجبارين»[4].

وكان سفك أبي مسلم للدماء مضرب المثل، فأشعل الثورة بوقود من الدم الفوار، حتىٰ قال متأففاً نادماً فيما يبدو:

«إني أطفيت من بني أمية جمرة، وألهبت من بني العباس نيراناً، فإن أفرح بالأطفاء، فواحزناً من الإلهاب»[5].

وكان الإرهاب الدموي في سياسة بني العباس نظاماً استراتيجياً لا يفترون عن تنفيذه في قمع التحرك الثوري، ففي الموصل وحدها ذبح

---

(١) المقريزي / النزاع والتخاصم / ٤٦.

(٢) المصدر نفسه / ٤٧.

(٣) البيهقي / المحاسن والمساوئ ١ / ٤٨٢.

(٤) المقريزي / النزاع والتخاصم / ٤٦.

(٥) البيهقي / المحاسن والمساوئ ١ / ٢٩٨.

عشرات الآلاف، ولم يبق من أهل الموصل إلا اربعمائة إنسان، وكان ذلك الذبح على يد عامل السفاح، وهو ابن اخيه يحيى، الذي أمر جنوده بعد هذه المجزرة الرهيبة بقتل النساء، فبقوا ثلاثة أيام يقتلون النساء لأنه سمع أنهن يبكين رجالهن. . . وأن نفوس أهل الموصل قد ذلت بعد تلك المذبحة، ولم يسمع لهم بعدها صوت، ولا قامت قائمة[1].

حتى قال شريك بن شيخ المهري، وقد خرج على العباسيين في ثلاثين الفاً في بخارى، وهو من دعاة العباسيين:

«ما على هذا بايعنا آل محمد، تسفك الدماء، ويعمل بغير الحق»[2].

على ان الذي جوبه به العلويون من قبل ابناء عمهم، كان قد تجاوز الحسبان، يقول الأستاذ محمد الخضري بك شيخ الجامع الأزهر:

«فكان نصيب آل علي في خلافة بني هاشم، اشد واقسى مما لا قوة في عهد خصومهم من بني أمية، فقُتلوا، وشُرِّدوا كلَّ مشرَّد، وخصوصاً في زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بني العباس، وكان اتهام شخص في هذه الدولة بالميل إلى واحد من بني علي كافياً لإتلاف نفسه ومصادرة ماله، وقد حصل فعلاً لبعض الوزراء وغيرهم»[3].

وهذا الجلودي الذي اغار على منازل آل علي (ﷺ) في المدينة المنوّرة في عهد الرشيد، يقول للمأمون لدى عقد ولاية العهد للإمام الرضا (ﷺ):

«اعيذك بالله يا امير المؤمنين ان تخرج هذا الأمر الذي جعله الله لكم، وخصكم به، وتجعله في أيدي اعدائكم، ومن كان آباؤك يقتلونهم، ويشردونهم في البلاد»[4].

---

(١) ظ: تفاصيل مذبحة الموصل في كل من: ابن الأثير / الكامل في التاريخ ٥ / ٢١٢ + ابن خلدون / التاريخ ٣ / ١٧٧ + المقريزي / النزاع والتخاصم /٤٨.

(٢) ابن قتيبة / الإمامة والسياسة ٢ / ١٣٩ + ابن الأثير / الكامل ٤ / ٣٤٢.

(٣) محمد الخضري بك / محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ١ / ١٦١.

(٤) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ٢٦٧+ البحار ٤٩/ ١٦٦.

وكان سلوك أئمة أهل البيت(عليهم السلام) : هو النبع الطاهر الذي موّج تلك الحياة الصاخبة، بالأشذاء الندية، وكان المنقذ الأعظم للأمة في حبكة الظلم الاجتماعي، والمهدئ الروحي في حومة الاعتداء الصارخ، وروح الأمان الحالم في ضجيج الكراهية والانتقام، مما جعل بني العباس يصابون بالذعر والهلع من استقطاب الأئمة(عليهم السلام) لمشاعر الجماهير، وقد حاولوا بالوسائل كافة إخماد ذلك الصوت المتعالي بالشعبية العارمة، وإطفاء ذلك النور الهادي إلى الحقيقة المتصدعة، ولكن الزخم الهائل لشمائل أئمة أهل البيت(عليهم السلام) قد طغى على تلك الأحقاد، وأذاب صخريتها المتحجرة من القواعد، رغم الأساليب الجامحة التي خططت لإبعاد الأئمة عن الأمة في عهود المنصور والمهدي والهادي والرشيد والمأمون. يقول الأستاذ جعفر مرتضى العاملي :

«لم يكن يروق للقوى الحاكمة، ان تظهر تلك الوجوه الظاهرة على الصعيد العام، وتتعرف عليها الأمة الإسلامية، وعلى فضائلها وكمالاتها، لأن الناس حينئذٍ سوف يدركون الواقع المزري لأولئك الحكام والمتزلفين لهم، والذين كانوا يتحكمون بمقدرات الأمة وإمكاناتها، وإذا أُدرِكَ ذلك، فإن من الطبيعي -للناس- ان لا يترددوا في تأييد الأئمة(عليهم السلام)، ومساعدة أية نهضة أو ثورة من قبلهم، ولهذا فقد جهد الحاكمون أن يزووهم ويبعدوهم ما امكنهم عن الناس، ووضعوهم تحت الرقابة الشديدة، وفي أحيان كثيرة في غياهب السجون..»[1].

وقد شاءت الأقدار ان يعيش الإمام الرضا(عليه السلام) غصته المريرة في أعتاب هذه المآسي المتلاحقة، دون أن يجد إلى الطمأنينة سبيلاً، وهو بين اثنين: حياة مليئة بالآلام، وسياسة غارقة بالإجرام.

---

(١) جعفر مرتضى العاملي/ حياة الإمام الرضا/ ١٧٤

يقول الأستاذ محمد جواد فضل الله ، وهو يتحدث عن هذه الحقبة : «اتسمت حياته -يعني الإمام الرضا- بالطابع المأساوي الكئيب من بدايتها الحزينة حتى نهايتها الأليمة ، فما كانت المرارة تفارق روحه في العشرات التي عاشها بين حكم الرشيد وبداية حكم المأمون»[1] .

وهكذا نجد الإمام يعاصر بقية ملك الرشيد بعد أن أجهز على أبيه الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) ، وأكثر من ثلاث سنين من عهد الأمين ، والسنين الأولى من ملك المامون الذي سلك سياسة خادعة جديدة معه ، وأناط به ولاية العهد ، و تظاهر في الآفاق بغير وجهه الحقيقي .

دولة هارون الرشيد

وتمتع هارون الرشيد بحياة مريئة في أروقة دولةٍ مترامية الأطراف ، وبسط نفوذه في أقطار الأرض المختلفة ، واستولى على بقاع عظيمة في أنحاء العالم ، وامتدت مملكته من أفريقيا فآسيا حتى الصين ، وحفلت قصوره بما لذ وطاب من المطاعم والمشارب والتحف والجواهر والمقتنيات ، وجلبت إليه الجواري والمولدات من اقاصي الدنيا ، وعكف على اللهو والعبث والمجون ، ولم يمسك نفسه عن ارتكاب أشنع مظاهر الإثم في الأمة والدولة والنفس ، وكان نموذجاً همجياً للسفاك الدموي الذي ضحّى بالآلاف في سبيل الملك العقيم ، وكان ضحاياه مجاميع عديدة من علويين وهاشميين ورافضيين ، وسواهم من القوّاد والأجناد والزعماء وذوي المكانة المرموقة في المجتمع .

وكان ضيق العطف ، شديد الحقد ، سريع الانفعال ، محبّاً للقتل وبتر الأعضاء ، والمثلة ، يبطش بطش الجبارين ، ويحكم حكم القياصرة والفراعنة ، حتى ملّه أقرب المنتفعين به ، وهاجمه أهل الرواية والحديث

(١) محمد جواد فضل الله/ الإمام الرضا - تاريخ ودراسته/ ٩.

والحفّاظ، وهجره جملة من وعاظ السلاطين، ذلك لتماديه المفرط في المخالفات، ولاستهتاره المبطنّ بكل المثل العليا، ولانسياقه وراء الهوىٰ، وولعه بالخمر والنساء، والغناء، والإسراف بأموال بيت مال المسلمين، والانغماس في الملاهي والرقص والقمار، ولقد قيّم الحافظ الذهبي تمادي الرشيد بالشهوات فقال عنه: «صاحب أخبار وحكايات في اللهو واللذات المحظورة والغناء»[1].

وعدّه الأمير شكيب أرسلان أحد جبابرة الشرق، فقال:

«وكان جبّاراً سفاكاً للدماء، علىٰ نمط من ملوك الشرق المستبدين»[2]

ومن مظاهر ذلك ولعه باجتثاث أصول التشيّع، فهو «يكره الشيعة ويقتلهم»[3].

وكان «يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم..»[4].

«وكان شديد الوطأة علىٰ العلويين، يتتبع خطواتهم ويقتلهم»[5].

«ولم يكن يخاف الله، وافعاله بأعيان آل علي (عليه السلام) وهم أولاد بنت نبيه، لغير جرم، تدل علىٰ عدم خوفه من الله تعالىٰ»[6].

وقد شدّد علىٰ نفسه، واستنكر صبره، واقسم علىٰ إبادة أهل البيت وشيعتهم، ونفذ ذلك، وقال:

«حتام أصبر علىٰ آل بني ابي طالب، والله لأقتلنهم، ولاقتلن شيعتهم، ولأفعلن وافعلن»[7].

---

(١) السيوطي/ تاريخ الخلفاء/ ١٩٠.

(٢) جعفر مرتضى العاملي/ حياة الإمام الرضا/ ١١٩ وانظر مصدره.

(٣) احمد شلبي/ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ٣٥٢/٣.

(٤) ابن عبد ربه الأندلسي/ العقد الفريد ١٨٠/٢.

(٥) المصدر نفسه ١٤٢/١.

(٦) ابن الطقطقي/ الفخري/ ٢٠.

(٧) ابو الفرج الأصفهاني ٢٢٥/٥.

وما اكتفى بهذا بل «أمر عامله على المدينة بأن يضمن العلويون بعضهم بعضاً»[1].

وحينما قام محمد بن جعفر بثورته ضد العباسيين، واستولى عليه الجلودي قائد هارون الرشيد، أمره الرشيد أن يغير على دور آل أبي طالب، في المدينة، ويسلب ما على نسائهم من ثياب وحلي، ولا يدع على واحدة منهن إلا ثوباً واحداً[2].

ومن ابشع أعماله، وجراته على الشعائر «هدم قبر الإمام الحسين(عليه السلام)، وحرث أرض كربلاء، وقطع السدرة التي كان يستظل بها الزائرون لقبر الحسين»[3].

وادع الحديث في تقويم شخصية الرشيد ذي العصر الذهبي إلى أحد السفيانين: سفيان الثوري أو سفيان بن عيينة، فقد كتب الرشيد لأحدهما يستميله، ويخطب ودّه، بحجة الاستماع إلى موعظته، والامتثال لأمره ونهيه دجلاً ورياءً، فردّ عليه سفيان الثوري فيما أعتقد، بهذا الكتاب الصارخ:

«من العبد الميّت سفيان إلى العبد المغرور بالآمال هارون الذي سلب حلاوة الإيمان، ولذة قراءة القرآن، أما بعد:

فإني كتبت إليك اني صرمت حبلك، وقطعت ودّك، وإنك جعلتني شاهداً عليك، بإقرارك على نفسك في كتابك، بما هجمت على بيت مال المسلمين، فانفقته في غير حقه، وانفذته بغير حكمه، ولم ترضَ بما فعلته، وأنت ناءٍ عني، حين كتبت إلي تشهدني على نفسك، فأمّا أنا فقد شهدت عليك أنا واخواني الذين حضروا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل.

---

(١) عبد الجواد الكليدار/ تاريخ كربلاء/ ١٩٦ وانظر مصدره.

(٢) ظ: الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ١٦١ + البحار ٤٩/ ١٦٦.

(٣) الشيخ الطوسي/ الأمالي/ ٣٣٠ + عبد الله نعمة/ عقيدة الشيعة/ ٨٩.

يا هارون: هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضي بفعلتك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله، والمجاهدون في سبيل الله، وابن السبيل؟ أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم؟ أم رضي بفعلك الأيتام والأرامل؟ أم رضي بذلك خلق من رعيتك؟

فشدّ يا هارون مئزرك، واعد للمسأله جواباً، وللبلاء جلباباً!! واعلم انك ستقف بين يدي الله الحكم العدل، فاتقِ الله في نفسك، إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذة قراءة القرآن، ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك ان تكون ظالماً، وللظالمين إماماً.

يا هارون: قعدت على السرير، ولبست الحرير، وأسبلت ستوراً دون بابك، وتشبهت بالحجة برب العالمين، ثم اقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك، يظلمون الناس ولا ينصفون، ويشربون الخمر ويحدّون الشارب، ويزنون ويرجمون الزاني، ويقتلون ويقتلون القاتل، افلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل ان يحكموا بها على الناس؟

فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادي من قبل الله:

احشروا الظلمة واعوانهم، فتقدمت بين يدي الله ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يكفّهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك، وانت لهم إمامٌ وسائق إلى النار.

وكأني بك يا هارون، وقد أخذت بضيق الخناق، ووردت المساق، وانت ترى حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك على سيئاتك بلاء على بلاء، وظلمة فوق ظلمة، فاتقِ الله يا هارون في رعيتك، واحفظ محمداً(ﷺ) في امته، واعلم ان هذا الامر لم يصر إليك إلا وهو صائر إلى غيرك، وكذلك الدنيا تفعل بأهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من

تزوّد زاداً نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإياك أن تكتب إلي بعد هذا، فإني لا أجيبك، والسلام».

ثم بعث بالكتاب من غير طيّ ولا ختم[1].

وكان هذا الكتاب صرخة في وادٍ، وبقي هارون متمادياً في غيّه. ومهما يكن من أمر، فإن لنا وقفة مع هارون في معاصرته للإمام الرضا.

كان للحقبة التاريخية التي أدركها الإمام الرضا(عليه السلام) من عهد هارون الرشيد آثارها السلبية في بدايتها المكبوتة التي اتسمت بعنصر الأرزاء المخيف، وقد تجلى ذلك في مأساة أبيه الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) مغادراً لمدينة جدّه رسول الله(صلى الله عليه وآله) ليحيا حياة الاضطهاد في سجون البصرة وبغداد، حتى انتهى به الأمر إلى الشهادة مسموماً.

وكانت هذه الذكرى الكئيبة تلوح لعيني الإمام الرضا، وتتجسد له في يقظته وأحلامه، فتبعث الألم والحزن العميق، وتثير الشجون والشؤون، فيعتصر الأسى قلبه، وتذكي شرارته شعلة الأسى كالإعصار، فيردّها الإمام بقوة الاطمئنان لقضاء الله وقدره.

ولكن السؤال المثير للجدل ان هارون كان عازماً -بادئ ذي بدء- على قتل الإمام الرضا(عليه السلام) في رواية، ومؤثراً بقاء الإمام في رواية أخرى.

والذي يعلل هذا الملحظ ان جملة من أتباع الرشيد كانوا يحرضونه على تصفية الإمام، ويحثونه على التخلص منه، ويثيرون بين يدي هذا الإصرار الشكوك، فتستعر في نفس الرشيد شهوة القتل، ويستجيب لنداء الإغواء والتزلف الذي يجأر به الانتهازيون من عملائه وأجهزته، فعن أبي الصلت الهروي، قال:

---

(١) الدميري/ حياة الحيوان ٢/١٨٨.

كان الرضا(عليه السلام) ذات يوم جالساً في منزله، إذ دخل عليه رسول هارون، فقال: أجب امير المؤمنين!!

فقام(عليه السلام)، وقال لي: يا أبا الصلت إنه لا يدعوني في هذا الوقت إلا لداهية، فو الله لا يمكنه ان يعمل بي شيئاً أكرهه، لكلمات وقعت لي من جدي رسول الله(صلى الله عليه وآله).

قال: فخرجت معه حتى دخلنا على هارون الرشيد، فلمّا نظر إليه الرضا(عليه السلام)، قرأ تلك الكلمات [التي تحرز بها].

فلما وقف بين يديه نظر إليه هارون الرشيد، وقال: يا أبا الحسن قرَّ أمرنا لك بمائة الف درهم، واكتب حوائج أهلك. فلما ولّىّ عنه علي بن موسى، وهارون ينظر إليه في قفاه، قال:

«أردت، وأراد الله، وما أراد الله إلا خيراً»[1].

وكان إنابة الإمام لله عز وجل، والتجاؤه إليه، كفيلين بنجاته عمّا همّ به هارون، وببركة الكلمات التي تلقاها الرضا(عليه السلام) من رسول الله(صلى الله عليه وآله) فدفعت عنه ما أراد الرشيد، وكانت إرادة الله هي العليا.

وهناك واقعة أخرى تشدّنا إلى القول بأن الرشيد أراد الإيقاع بالإمام الرضا(عليه السلام) وزعزعة استقراره.

فقد خرج محمد بن جعفر الصادق على الرشيد في المدينة المنوّرة، فبعث الرشيد بأحد قواده، وهو المعروف بالجلودي للقضاء عليه في جيش كبير، وأمره بضرب عنقه إن ظفر به، وأن يغير على دور آل أبي طالب، ويسلب ما على نسائهم من ثياب وحلي وحلل، ولا يدع على واحدة منهن إلا ثوباً واحداً.

---

(١) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ١١٦ عن مهج الدعوات.

ونفّذ الجلودي أمر الرشيد، فهجم على دار الإمام الرضا(عليه السلام) بخيله، فلمّا نظر إليه الإمام جعل النساء كلهن في بيت واحد، ووقف على باب البيت، فقال الجلودي لأبي الحسن الرضا(عليه السلام):

لا بد من ان أدخل البيت فأسلبهن كما أمرني الرشيد!! فقال الإمام: أنا اسلبهن لك، وأحلف اني لا أدع عليهن شيئاً إلا اخذته، فلم يزل الإمام يطلب إليه، ويحلف له، حتى سكن ووافق.

فدخل ابو الحسن، فلم يدع عليهن شيئاً حتى اقراطهن وخلاخيلهن وازرهن إلا أخذه منهن، وجميع ما كان في الدار من قليل وكثير[1].

وإذا ضممنا هذه الواقعة إلى مثيلاتها، وقارنا بين سلوك هارون الرشيد في سفك دماء أهل البيت والطالبيين بعامة، خرجنا بنتيجة عدم الاستبعاد لمحاولته الانقضاض على الإمام، ويؤيده قول الرشيد عند إشرافه على الموت: «واسوأتاه من رسول الله»[2].

ومن جانب تاريخي آخر نجد تانيب الضمير عند الرشيد مصاحباً لحب الانتقام لديه، وقد يستفهم استفهاماً إنكارياً من اولئك الذين يؤكدون على تصفية الإمام، بالدعوة إلى الإطاحة بمن نصبه أبوه الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) إماماً بعده.

فعن موسى بن مهران قال:

«سمعت جعفر بن يحيى يقول: سمعت عيسى بن جعفر يقول لهارون حيث توجه من الرقّة إلى مكة: اذكر يمينك التي حلفت بها في آل ابي طالب، فإنك حلفت إن ادّعى احد بعد موسى بن جعفر الإمامة ضربت عنقه صبراً!! وهذا علي ابنه يدّعي هذا الأمر، ويقال فيه ما يقال في ابيه!!

---

(١) ظ: الصدوق/ عيون اخبار الرضا ٢/١٦١.

(٢) ابن الاثير/ الكامل في التاريخ ٥/١٣٠.

فنظر إليه مغضباً فقال: وما ترىٰ؟ تريد ان اقتلهم كلهم؟

قال موسىٰ بن مهران: فلما سمعت ذلك صرت إلىٰ الإمام الرضا(عليه السلام) فأخبرته، فقال(عليه السلام): مالي ولهم؟ والله لا يقدرون إليّ علىٰ شيء»[1].

ويبدو أن الرشيد كان عازماً علىٰ أمره وعدل عنه.

وكان حقد البرامكة علىٰ أهل البيت شديداً، فهذا يحيىٰ بن خالد يشارك مشاركة فاعلة في التأليب علىٰ الإمام موسىٰ بن جعفر(عليه السلام)، وذلك بإغراء هارون به، وإرصاد العيون عليه، وتلفيق التهم حوله[2].

وها هو يجدد سعيه بالانتقام من الرضا(عليه السلام) ويدعو الرشيد إلىٰ قتله جهاراً. قال يحيىٰ بن خالد للرشيد:

هذا عليّ ابنه (ابن الإمام موسىٰ بن جعفر) قد قعد، وادّعىٰ الأمر لنفسه!! فقال له الرشيد: ما يكفينا ما صنعنا بأبيه؟ تريد ان نقتلهم جميعاً؟[3].

ومع هذا كله، فقد أعلن الإمام عن هويته، وصرّح بإمامته أيام الرشيد، غير عابئ بأي تحفّظ من أوليائه وأتباعه، فقد قال له صفوان بن يحيىٰ: إنك اظهرت أمراً عظيماً، وإنّا نخاف عليك من هذا الطاغي!!

فقال الإمام: «يجهد جهده، فلا سبيل له علي»[4].

ومضت أيام الرشيد سراعاً، واخترمه الأجل في طوس، وانبرىٰ الإمام في تحمّل مسؤوليته الكبرىٰ، فشمّر عن ساعديه متفرغاً لشؤون الرسالة وقيادة الأمة ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً.

---

(١) الصدوق/ عيون اخبار الرضا ٢/٢٢٦.

(٢) ظ: الشيخ الطوسي/ الغيبة/ ٢٢.

(٣) الصدوق/ عيون اخبار الرضا ٢/٢٢٦.

(٤) الكليني/ الكافي ١/٤٨٧.

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين :

«وبموت الرشيد وحدوث الفتن بين الأمين والمأمون تنفس الإمام الصعداء أكثر فأكثر، وحظي بمزيد من الأمن والحرية بما انفسح له من متسع في مجالات التعليم والتثقيف والرواية، ومحاورة السائلين، ومناقشة ذوي الآراء»[1] .

ولكن هذه الأيام لم تطل، فقد أعقبتها أحداث وظواهر قاسى منها الإمام الأمرّين، ولكنه ظل شامخاً في ذروة العطاء العلمي مع كل التناقضات التي احتضنت عصره، كما سترى هذا، وكما رايت من ذي قبل.

الإمام في عهد الأمين

وتولى محمد الأمين السلطة بعد أبيه الرشيد سنة ثلاث وتسعين ومائة، واستوى على عرش العباسيين[2] .

وكان الأمين غِراً خليعاً ماجناً، فاضطربت الدولة في عهده اضطراباً مريعاً، إذ انقسم البيت العباسي على نفسه، فالرشيد قد أوصى للمأمون بعد الأمين، وها هو الأمين يخلع أخاه المامون من ولاية عهده، ويجعلها في ولده موسى، بإشارة وتشجيع من الفضل بن الربيع، حذراً من المامون إذا آل الأمر إليه، وفرقاً من تزلزل موقعه الوزاري لو افضت الخلافة إلى المامون بعد أن نقض عهده، وخذله عند وفاة الرشيد[3] .

وكان هذا الإجراء من قبل الأمين يعتبر سخرية بحق، فولده موسى طفل رضيع، وسمّاه الناطق بالحق، وهو بعد لم ينطق، ولا يعرف الحق،

(١) محمد حسن آل ياسين/ الإمام علي بن موسى الرضا/ ٥١.

(٢) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٤٩٨/٨.

(٣) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ١٣٨/٥.

واجهز على عهد أبيه الرشيد، فمزق كتاب عهده المعلّق على الكعبة، وكان المسؤول عن هذا الضياع الرشيد نفسه، لأنه سلط على رقاب المسلمين ذئبين مفترسين، فنهش أحدهما الآخر، وهما ليسا من ذوي الدين أو المروءة، فضلاً عن عدم صلاحيتهما لقيادة الأمة على الإطلاق، فهما شيء، والخلافة شيء آخر، ولكنه الاستبداد.

وكان نتيجة هذا العبث، ان بعث الأمين بعد خلع المأمون بعلي بن عيسى بن ماهان لحرب المأمون، ورفع إليه قيداً من ذهب، وقال له: أوثق المأمون، ولا تقتله حتى تقدم به إلي، وما اكتفى بذلك حتى زوده بالسلاح والكراع والأثاث والمعدّات، وأعطاه من بيت مال المسلمين مليوني دينار ذهباً..

وحينما بلغت الأنباء المأمون بخلعه، ولحظ هذا التأهب العسكري لحربه، بادر إلى خلع الأمين، وقطع عنه الخراج، وأعلن نفسه اميراً للمؤمنين!! وندب إلى قتال ابن ماهان طاهر بن الحسين الخزاعي، وهرثمة بن أعين، وجهزهما بجيش مقاتل كبير، وبعدّة ضخمة.

والتقى الجيشان بالري، وكانت معركة دامية كبرى، قتل فيها قائد جيش الأمين: علي بن عيسى بن ماهان أحد شيوخ الدعوة العباسية، وتشرذم جيشه، وقتل من قتل، واسر من أسر، وانتهبت الأسلحة والذخائر والمعدّات، وكتب طاهر بن الحسين بالنصر إلى الفضل بن سهل وزير المأمون.

«كتبت إليك وراس علي بن عيسى في حجري، وخاتمه في يدي، والحمد لله ربّ العالمين»[1].

واندفع جيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين لاحتلال بغداد، وحوصرت بعد من الجهات كلها، وشعر الأمين بكرسي السلطة يهتز من

---

(١) ظ: المسعودي/ مروج الذهب ٣/ ٣١٠ + الطبري/ التاريخ/ حوارات ١٩٦هـ.

تحته، فطلب إلى طاهر الأمان له ولأتباعه على أن يتنازل عن الخلافة للمأمون.

فقال طاهر: «الآن ضُيِّق خناقه، وهيض جناحه، وانهزم فساقه، لا والذي نفسي بيده، حتى يضع يده في يدي، وينزل على حكمي».

ولم يجبه إلى شيء مما أراد[1].

ومهما يكن من أمر، فقد احتلت قوات المأمون بغداد، والأمين في منأى من الأحداث، بين زقٍّ وخمر وغيد ومعازف واصطياد السمك، وكان الهجوم النهائي عليه، فقتل شر قتلة، واحتز طاهر رأسه، ونصبه على رمح، ثم بعث به إلى المأمون، فلما رآه المأمون حزن -فيما يقال- وتأسف، فقال له الفضل بن سهل: «الحمد لله على هذه النعمة الجليلة، فإن محمداً كان يتمنى أن يراك بحيث رأيته».

ونصب المأمون رأس أخيه في صحن الدار، وأفاض بالمال على الجند، وأمر بلعن صاحب الرأس، ثم أمر به فردّ إلى العراق فدفن مع جثته[2].

وكانت هذه الحقبة حاشدة بالكره السياسي والكيد بين الأخوين، مما جعل الإمام الرضا(عليه السلام) في معزل عن المتابعة من قبل الأمين، وفي منأى عن الاستفزاز والملاحقة، لانصراف الأمين وانهماكه في خلع المأمون وقتاله كما رأيت.

وكان الأمين في حياته الماجنة يجمع بين المتناقضات أحياناً فقد وصفهُ المسعودي أنه كان: «في نهاية الشدّة والقوة والبطش والبهاء والجمال، إلا أنه كان عاجز الرأي ضعيف التدبير»[3].

وفي بداية تسلّمه للسلطة أمعن في البدع الخرقاء إمعاناً، واستهتر بقيم الإسلام استهتاراً مقيتاً، فما لبث في بداية ملكه أن «وجه إلى جميع البلدان

---

(١) المسعودي/ مروج الذهب ٣/٣١٣.

(٢) ظ: المسعودي/ مروج الذهب ٣/٢٢٥ - ٢٢٦ باختصار.

(٣) المسعودي /مروج الذهب ٣/٣٠٧.

في طلب الملهين وضمهم إليه، وأجرى لهم الأرزاق.. وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك، واحتجب عن اخوته وأهل بيته وقوّاده واستخف بهم، وقسّم ما في بيوت الأموال بحضرته من الجوهر في خصيانه وجلسائه.. وأمر ببناء مجالس لمتنزّهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه.. وامر بعمل خمس حرّاقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحيّة والفرس، وأنفق في عملها مالاً عظيماً، وابتنى سفينة عظيمة أنفق عليها ثلاثة ألف درهم»[1].

وكان بطبيعة ترفه وإدلاله ودلاله، ولا مسؤوليته الأخلاقية، واندماجه بالشهوات اندماجاً عارماً «يشرب المسكر، ويرقص مع وصائفه وخدمه، ويحب الغناء ويسمعه حتى وهو في أشد ساعات الضيق والمحنة، وكانت مجالس شربه وغنائه عامرة»[2].

ومن غريب أمره ولعُهُ بالخصيان، واستدعاؤه لهم من الأقطار والأقاليم، فكانوا سُمَّاره، فقد روى الطبري: ان الأمين حينما ملك «طلب الخصيان وابتاعهم وغالى بهم، وصيّرهم بخلوته في ليله ونهاره، قُوّامَ طعامه وشرابه وأمره ونهيه»[3].

وقد أكد ابو نؤاس هذه الحقيقة، واثبتها شعراً يغنى به فقال:

احمـــدوا الله جميعـــاً	يـــا جميـــع المســلمينا
ثـــم قولـــوا - لا تملـــوا -	ربنـــا ابـــقِ الأمينـــا
صـــيّر الخصيـــانَ حتـــى	صـــيّر التعنـــينَ دينـــا
فـــاقتدى النـــاس جميعـــاً	بـــأمير المؤمنينـــا[4]

---

(١) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥٠٩/٨.
(٢) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٤٧٦ +ابو الفرج/ الأغاني ٧٧/٥.
(٣) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥٠٨/٨.
(٤) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥١٩/٨.

وحسبنا في تقييمه ما قال الشاعر العباسي في رثائه :

لِـمَ نبكيـكَ؟ لمـاذا؟ للطـربْ يا أبا موسىٰ . . وترويـج اللَّعِـبْ

ولـترك الخمـس في أوقاتهـا حَرَصاً منك علىٰ مـاء العِنَـبْ

لم تكن تصلح للملك . . ولم تعطك الطاعة بالملك العربْ[1]

وهكذا منيت الأمة بالأمين، وهو غير مؤهل لأية مسؤولية قيادية، فهو رجل لهو ولعب، لا رجل حكم وسلطان، وقد شاء الرشيد أن يسلطه علىٰ الناس ففعل، وهو غير مقتنع بكفايته لإدارة الدولة، فقد صرح الرشيد، وهو يعني الأمين بقوله: «وإني لأعلم انه منقاد إلىٰ هواه، مبذّر لما حوته يده، يشاركه في رأيه الإماء والنساء»[2].

وكان سبب ذلك لدىٰ الرشيد حبّه الشديد لأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور الدوانيقي، وسبب ضياع الأمين وميوعته، هو نشوؤه في حجر أمه، وتهيئة مناخ الدعة والهوىٰ له في طفولته المدللة، وذوبانه في بحبوحة اللهو في شبابه، فنشأ ذا شخصية ناعمة مترفة لا تعي ما حولها من ظروف وأحداث، حتىٰ أصبحت مندمجة اندماجاً لا معقولاً بنضارة النعيم والملذات، ففي شدة محنته، وهو محاصر ومشرف علىٰ الهلاك، حكىٰ إبراهيم بن المهدي: «أنه كان معه لما حاصره طاهر بن الحسين، فخرج ذات ليلة يريد أن ينفرج من الضيق الذي هو فيه، فصار إلىٰ قصر له بناحية الخلد، ثم أرسل إلي فحضرت عنده، فقال:

ترىٰ طيب هذه الليلة، وحسن القمر في السماء، فهل لك في الشرب؟ فقلتُ: شأنك، فشرب رطلاً، وسقاني مثله، فغنيته ما كنت أعلم أنه يحبه»[3].

---

(١) المصدر نفسه ٨/٥٠٠.

(٢) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٥/١٦٠.

(٣) المصدر نفسه/ ٥/١٦٢.

وها انت تنظر إلى رجل تهدم بغداد وتتساقط بين يديه قطعة قطعة، ويتم احتلالها موضعاً فموضعاً، وقد اوشكت أيامه أن تندثر، وسلطته أن تزول، وإذا به يلوذ بالشراب والغناء بدل الحزم.

والإمعان في نتائج هذا التدهور في كيان الدولة على يد الأمين، يعود في مقدماته إلى الرشيد حينما أراد أن يقبض بيد من حديد على الحكم، فهو يقسّم الدولة في شرقها وغربها أثلاثاً، اناط بالأمين ولاية العراق والشام وافريقيا إلى آخر المغرب، وأناط بالمأمون بلاد المشرق من همدان إلى الري حتى مرو وخراسان، ولابنه القاسم الجزيرة والثغور والعواصم[(١)].

وهذا التقسيم كان بداية لنهاية حكم الأمين في الأقل، وهو أول لهب مستطير بين الأبناء الثلاثة، حتى قيل: «قد ألقى -الرشيد- بينهم شراً وحرباً، وخافوا عاقبة ذلك، وكان ماخافوه»[(٢)].

وهذا الإجراء من قبل الرشيد يكشف بالضروة بانه كان قلقاً على مصير الدولة، فأراد أن يحترز لذلك، فكبّلها بقيود واغلال، ما عتمت ان انفصمت بعد وفاته فوراً، إذ حاول الأمين عزل المأمون عن صلاحياته التي خوّله أياها أبوه، فأرسل احد امنائه برسائل إلى القادة والرؤساء يحثهم بها على نقض العهود التي أخذها الرشيد على عسكره وقواده للمأمون، وكان الرشيد في آخريات أيامه، وعاجله الموت عن اتخاذ الإجراءات[(٣)].

وكان الرشيد قبيل وفاته يشعر بهذا الأمر، وما استطاع معالجته، بل «لقد القى بأسهم بينهم، وغائلة ذلك تضر بالرعية..»[(٤)].

وكان نتيجة هذا كله أن طحنت الحرب الدائرة بين الأمين والمأمون عشرة آلاف من القتلى في سبيل الملك ليس غير.

---

(١) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ١١٢/٥.
(٢) المصدر نفسه ١١٣/٥.
(٣) ظ: المصدر نفسه ١٣٥/٥.
(٤) السيوطي/ تاريخ الخلفاء/ ٢٩٠.

الإمام في عصر المأمون

المأمون يتسلم الحكم:

ابتسمت الحياة للمأمون كالقمر ليلة البدر، بعد أن اكفهرت كقطع السحاب المظلم، وتسلم الحكم من خلال قوى فارسية مدّربة، قتلت الأمين وأسقطت بغداد، وجعلت من (مرو) عاصمة للدولة.

وبدأ الفضل بن سهل ذو الرئاستين يشرف على تنظيم هذه الدولة، ويترأس إدارتها السياسية والمالية، ويستولي على شؤون المأمون، ويقضي على خصومه ومنافسيه من القادة ورؤساء الجند ودعاة بني العباس.

ولم يكن المأمون ضعيفاً ولا مغفّلاً، بل كان شاباً حذراً متيقظاً، وقد تسلم الحكم في عنفوان شبابه، فقد ولد سنة مائة وسبعين من الهجرة، وتولى الحكم سنة ثمان وتسعين ومائة[1].

وسارع إلى الاستيلاء على دفة الحكم دون ولي للعهد، إذ خلع أخاه القاسم بن الرشيد من ولاية العهد فوراً[2].

وتولى الأمر بدقة متناهية حتى اعتبر كبير الدبلوماسية العباسية، وعدّه ابن الطقطقى: «فطناً شديداً كريماً»[3].

وهذا لا يمانع من إطلاقه يد الفضل بن سهل في تصريف الأمور، فهو وزيره الأول، وصاحب السيف والقلم، على أن ذلك كان موقوتاً ريثما يدّبر الأمر في القضاء عليه، والخلاص منه.



---

(١) ظ: المسعودي/ مروج الذهب ٣/ ٣٢٨.

(٢) ظ: المصدر نفسه ٣/ ٣٤٨.

(٣) ابن الطقطقى/ الفخري/ ٩١.

تقييم المأمون:

وبادر المؤرخون إلى تقييم المأمون على نحوين:

الأول: يعنى بثقافته ومشاركته في العلوم، مع إغماضه عن الدين في ارتكاب المحرمات وحبك المؤامرات.

الثاني: يعنى بالمؤاخذات عليه بما اعتبر من بدعه الجديدة التي لا تسامح معها.

وكان النحو الأول يقول بانه كان «كامل الفضل، مشاركاً في علوم كثيرة»[1].

«وكان قد احكم علم النجوم، وإليه ينسب الزيج المأموني»[2].

وفي أيامه «ترجمت كتب الحكمة من اليونانية إلى العربية، اعتناءً بها»[3].

وقد عدّه باحث معاصر: «من أقوى شخصيات الخلافة العباسية في دورها الأول، واكثرها اعتلالاً، واخصبها فكراً، واوسعها علماً ومعرفة، روّج للعلم في عصره فقرّب العلماء وأدنى منازلهم منه، وعقد معهم المناظرات والمحاورات الحرّة، شغفاً منه بالاستزادة من المعرفة، والتوسع في مجالاتها، وقد عُرِف منه الميل إلى التشيع، وتفضيل علي وأحقيته بالتقديم على غيره»[4].

ولا نقرّ كثيراً مما جاء في هذا التقرير، فلم يقرّب العلماء حباً بالعلم، بل لإشغال الساحة السياسية المشتعلة، وإلهائها عن التفكير في شؤون الدولة، ولم يكن أكثر الناس اعتدالاً، وهو الذي قتل اقرب المقربين

(١) القلقشندي/ مآثر الأنافة/ ١/٢٠٩/ طبعة الكويت/ ١٩٦٤م.

(٢) القلقشندي/ مآثر الأنافة/ ١/٢٠٩/ طبعة الكويت/ ١٩٦٤م.

(٣) القلقشندي/ مآثر الأنافة/ ١/٢٠٩/ طبعة الكويت/ ١٩٦٤م.

(٤) محمد جواد فضل الله/ الإمام الرضا- تاريخ ودراسة/ ٩٠.

إليه من قواده ووزرائه، أما المناظرات التي عقدها في ظل ولاية العهد للإمام الرضا(عليه السلام)، فقد كان يأمل أن يتغلب أصحابها على الإمام(عليه السلام) ولو مرة واحدة كما مرّ، : ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾.

وأما ميله للتشيّع فكان مجاراة لقادة الجيش في مرو وخراسان وأغلبهم ممن يدينون بالولاء لأهل البيت(عليهم السلام).

وقد وصف المأمون بالدبلوماسية حتى قال الأستاذ باقر شريف القرشي: «ولم تعرف الدبلوماسية الإسلامية في العصر العباسي من هو أدهى من المأمون، ولا من هو أدرى منه في الشؤون السياسية، فقد كان سياسياً من الطراز الأول، واستطاع بدهائه أن يتغلب على كثير من الأحداث الرهيبة التي ألمت به، وكادت تطوي حياته وسلطانه...»[1].

ومع هذا فقد تحدث عن ميله إلى اللهو، ولعبه بالشطرنج، وولعه بالموسيقى، وشربه للخمر، واعتبر الوزر من ذاتياته ونزعاته النفسية[2].

ولم يمنعه تقمصه الخلافة الإسلامية من ارتكاب المحرمات وفعل المحظورات، فقد كان يشرب الخمر، وقصص شرابه ولهوه مأثورة[3].

ولعل من أفظعها تدويناً أنه تزوج بوران بنت الحسن بن سهل في رمضان سنة ٢١٠ هـ، وبعد الإفطار هو والحسن والعباسيين.. دعا بشراب، فأتي بجام من ذهب، فصبّ فيه وشرب، ومدّ يده بجام فيه شراب إلى الحسن، فتباطأ عنه الحسن لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك، فغمز دينار بن عبد الله الحسن، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين أشرب بإذنك وأمرك، فقال له المأمون: «لولا أمري لم أمدد يدي إليك، فأخذ الجام فشربه!!»[4].

---

(١) باقر شريف القرشي/ حياة الإمام علي بن موسى الرضا ٢/ ٢٤٢.

(٢) المرجع نفسه ٢/ ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٣) محمد حسن آل ياسين/ الإمام علي بن موسى الرضا/ ٣٩ وانظر مصادره.

(٤) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٦٠٦ - ٦٠٧.

وأما النحو الثاني في التقييم للمأمون فكان سلبياً من وجه، بل من وجهة نظر المؤرخين في الأقل، فقد نعوا عليه بعض التصرفات، ولكنهم أغمضوا عن المساوئ الجمة، فقد قال القلقشندي: «كانت مقاصد المأمون كلها جميلة، خلا مانحا إليه من القول بخلق القرآن، والتشيّع، وبث علوم الفلاسفة بين المسلمين»[1].

واشار ابن تعزي بردي إلى ما أسماه (بدع المأمون) إلى افتراضات قائلاً: «كتب المأمون -وهو يومئذ بالشام- إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بأمره» أن يأخذ الجند بالتكبير إذا صلّوا الجمعة، وبعد الصلوات الخمس، وإذا قضوا الصلاة أن يصيحوا قياماً ويكبروا ثلاث تكبيرات، ففعل ذلك في شهر رمضان، فقال الناس: هذه بدعة ثالثة.

قلتُ: البدعة الأولى لبس الخضرة وتقريب العلوية وإبعاد بني العباس، والثانية القول بخلق القرآن -وهي المصيبة العظمى- والثالثة هذه. ثم أباح المأمون المتعة، فقال الناس: هذه بدعة رابعة»[2].

وقد عقب الأستاذ محمد حسن آل ياسين على إيراد هذه الهنات فيما يزعمون من بدع المأمون، فقال: «وقد نسي هؤلاء المؤرخون جميعاً، وهم يسردون عيوب المأمون وبدعه المزعومة بلبس السواد والخضرة، وإبعاد بني العباس وتقريبهم -وكان ذلك أصل من أصول الدين وركن من أركان الإسلام- ما أشارت به أصابع الاتهام إلى الخليفة: من أمره بقتل كبير وزرائه الفضل بن سهل وهو في الحمام، ثم إيعازه أو المشاركة بنفسه في دس السم للإمام الرضا(عليه السلام)»[3].

---

(١) القلشندي/ مآثر الأنافة ٢١٣/١.

(٢) ابن تغري بردي / النجوم الزاهرة ٢١٣/٢.

(٣) محمد حسن آل ياسين/ الإمام علي بن موسى الرضا/ ٤٠ - ٤١.

وكذلك غدره بابني عمه : إسحاق بن موسىٰ الهادي ، إذ دس إليـه ابنـه وخادماً له فقتلاه ، وقاد به ابنه ، وقتل الخادم بالسياط .

وكان عبد الله بن موسىٰ الهادي ، يندد بالمأمون ، وكان مغرمـاً بـالصيد ، فوضع السمّ في درّاج ، وأحسن عبد الله بالسم ، فقال لأصحابه : هو آخر مـا تروني ! ![1] .

ويكفي غدره بالإمام الرضا(عليه السلام) ، دلالة علىٰ عقم سياسته الإرهابيـة ، أمـا سياسته العامـة ، فكـانت تعنىٰ بالسيطرة علىٰ البقـاع والأصقـاع ، دون السعي لتطبيق الشريعة ، في منهاجها ، ودون الاعتناء ، بأي أثر مـن آثـار الإسـلام نظريـاً وتطبيقياً ، فالغاية ان يكثر الاتبـاع ويتضـاعف الخراج ، أمـا الإنصـات لأصـوات الداعين إلىٰ الحق ، فلتذهب ادراج الرياح ، وأما النظر في شـؤون الديـن وشـعائر الإسلام فامر ثانوي لا اعتبار له . وهذا ما يدعونا إلىٰ إفراد سياسته بالحديث .



سياسة المأمون :

وأنت ترىٰ في مظاهر سياسة المأمون مظاهر العنف والبطش والغيلـة كمـا أسلفنا ، وقد عرف بالقسوة والشدة كما هو معروف عنه ، وقد أفـاد البيهقـي ان المأمون عرضت عليه سياسة ابي بكر وعمـر وعثمـان وعلـي(عليه السلام) ، فـأبىٰ ذلك ، وانتهج سياسة معاوية قائلاً : إن كان فهذا[2] .

وكـانت سياسته العامـة كمـا رأيـت – تعنـي بالجـانب الانتهـازي الـذي يمـلأ جيوب الحاكمين ، كما يعنىٰ بالقسوة باعتبارها مصـدراً مـن مصـادر الحزم حتىٰ مع أقرب الناس إليه ، فقد عمد إلىٰ نصب راس أخيه علىٰ خشبة ، وقتـل رئيس

(١) ظ: بـاقر شـريف القرشـي/ حيـاة الإمـام علـي بـن موسـى الرضـا ٢/ ٢٤٠ وانظـر مصـدره.

(٢) البيهقـي/ المحاسـن والمسـاوئ/ ٢٩٥.

وزرائه الفضل، وقتل قتلته، وفيهم خال المأمون، وقتل حميد بن عبد الحميد الطوسي، وهو من أبرز قواده في مسرحية مذهلة، وقتل وقتل. . . الخ.

وأما سياسته المالية، فكانت تقوم على البذخ والإسراف، وتسخير بيت مال الأمة في سبيل المؤامرات، وتوفير اللذات، والترفيه على الأذناب والأولياء والأتباع وقادة الجيش، وقد سبق في هذا الفصل الإشارة إلى ما احتجنه من بيت المال، وما أسرف به من الخراج، وما بذّره من واردات الدولة، فيها كل شيء إلا إعمار الدولة.

وينبغي الإشارة إلى دهائه جزءاً من أجزاء سياسته، فقد كان من دهاة العرب في الكيد والدسّ والتدبير على حدّ سواء، بعيد المرمى في شأن إدارته للدولة، دقيق النظر لأعدائه وخصومه، حريصاً على الإيقاع بهم دون ضجيج، واستطاع بدهائه أن يهدئ الجيش ويرعى مشاعره، وعمل أن يتقرب ظاهر إلى أهل البيت، من أجل احتواء الانفجار الثوري على الحكم، وتمكن إشغال المتكلمين وارباب الجدل بخلق القرآن، وان يغتنم الفرصة للإعلان -رياءً منه- تفضيل الإمام علي (ع)، فيتناهى الناس إلى الخوض في هذا المعترك الكلامي عن التوجه إلى السياسة التي يقودها للاحتفاظ بالعرش.

وقد استعمل أدنى الأساليب لتثبيت السلطان، واختصر الطريق لاحتجان الأموال، ومن خلالهما اغرى الجيش بالدرجات والمرتبات الضخمة، وسدد صادرات الملاهي والمؤامرات.

وكإشارة للتدليل على هذا الاتجاه الخطر، سلّط على سياسته هذه رأيين صريحين، أولهما عربي، والآخر اوروبي.

١- ذكر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) حينما ولّى محمود بن عبد الكريم: «فتحامل على الناس، واستعمل فيهم الأحقاد والأحن، فخفض الأرزاق،

واسقط الخواص، وبعث في الكور، وأنحى على أهل الشرف والبيوتات حسداً لهم، وإشفاءً لغليل صاحبه منهم، فقصد لهم بالمكروه والتعنت، فامتنعت طائفة من الناس من التقدم إلى العطاء، وتركوا أسماءهم. . . »[1].

وهذا يعني أن الأشراف فضلت الجوع على امتهان الكرامة، فامتنعت عن أخذ العطاء اعتداداً بالنفس.

٢- أورد الأستاذ آدم مثنى عن الأستاذ (ديونيسيوس) وهو يصف جباة العراق في عهد المأمون عام ٢٠٠ هـ بأنهم: «قوم من العراق، والبصرة، وعاقولاء، وهم عتاة، ليس في قلوبهم رحمة ولا إيمان، شر من الأفاعي، يضربون الناس ويحبسونهم، ويعلقون الرجل البدين من ذراع واحد، حتى يكاد يموت. . . »[2].

وهذا الإجراء هو القاعدة في استحصال الخراج وقد سبق لأبي يوسف أن تحدث عن هذه الظاهرة أيام الرشيد[3].

وسبق لنا أن تناولنا هذا الموضوع في عمل مستقل صدر عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام).



دعوى تشيّع المأمون:

هنالك دعوى تذهب إلى تشيّع المأمون في ظل ظروف غامضة، لا تصلح دليلاً على صدق هذه الدعوى، ويستدلّون على ذلك بظواهر بدت من المأمون لا نعتبرها كافية لصحة الاستدلال، والخبير بشؤون سياسة المأمون يدرك جيداً ان المأمون شخصية محنّكة سياسياً، تختلق المناخ

---

(١) الجاحظ/ رسائل الجاحظ ٢/ ٢٠٧.

(٢) آدم متز/ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٢٣٢.

(٣) ظ: ابو يوسف القاضي/ كتاب الخراج/ ١١٦ـ ١١٨.

الصالح لتثبيت الملك لبني العباس بكل الوسائل والوسائط، ولا إيمان له بهذه السبل والممارسات عدا انها تمهد إلى غاية سلطوية، لا أكثر ولا أقل.

فهو حينما يعقد ولاية العهد للإمام الرضا(عليه السلام)، فهو يريد مراعاة مشاعر الإمام الرضا(عليه السلام) حتى لا يخالجه الشك في مبادرته المغلفة لو استطاع إلى ذلك سبيلاً، فلم يكن الإمام الرضا(عليه السلام)، لتغرب عن ذهنه نوايا المأمون الخفية، ولا يخامره ريب في خطواته غير البريئة، بيد أن المأمون يريد خداع نفسه والجماهير من حوله، والعلويين بعامة، والثائرين منهم بخاصة، ولا مانع لديه من استغلال أساليب الكيد والخداع السياسي في تنفيذ مشروعه الأساسي، ولا يهمه استعمال الزيف والدجل الديني إزاء هذا الهدف المركزي، إلا أن بعضهم تشبث بأهداب ادعاءات المأمون وإرهاصاته في بعض المواقف من خلال جملة من التصريحات والممارسات اشير لأبرزها:

١- فضل المأمون علياً(عليه السلام)، واستهجن معاوية، فقال: «إني برئت الذمة ممن يذكر معاوية بخير، وإن أفضل الخلق بعد النبي علي بن أبي طالب(عليه السلام)»[١].

ولا كبير أمر في هذا القول، فقد أراد به استمالة أولياء الإمام علي(عليه السلام) في مهمته الخطيرة بإبقاء الملك في سلالة العباسيين، والاستدلال بهذا التصريح واهن، فهذا عمر بن عبد العزيز الأموي رفع الشتم عن علي(عليه السلام)، ولم يذكر معاوية بخير، وهو لحمه ودمه، فهل يصح لنا اعتباره شيعياً؟.

وهؤلاء المعتزلة قالوا بأن أفضل الخلق بعد النبي(صلى الله عليه وآله) علي بن أبي طالب(عليه السلام)، ولكن القوم قدّموا المفضول على الفاضل[٢]. ولا علاقة للمعتزلة بالتشيع.

---

(١) السيوطي/ تاريخ الخلفاء/ ٣٠٨.

(٢) ظ: ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة/ ج١/ خطبة الكتاب.

٢- قال المأمون بجواز المتعة، وقد ردّ على الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) لقوله بحرمتها!! ولا يشكلّ هذا دليلاً على تشيع المأمون، فقد قال جملة من الصحابة والتابعين بتحليل المتعة، وقد أفتى عبد الله بن عمر بجوازها، وردّ على أبيه زعمه، ولا يمكن أن ننسب عبد الله بن عمر إلى التشيّع لا من قريب ولا من بعيد، فقد امتنع عن بيعة أمير المؤمنين علي(عليه السلام) جهاراً نهاراً، وبايع الحجاج بن يوسف الثقفي لهشام بن عبد الملك، وسخر منه الحجاج لذلك!!

٣- وقد يقال «ولعل احتجاجاته ومناظراته، وأسلوبه الجاد في مثبتات الراي المضاد، لا تدع مجالاً للريب في صدق تبنيه للفكرة»[1].

والمراد هنا في صدق نيته لفكرة التشيع، ولا نية صادقة له في هذا، فالمحاججات والمناظرات ما هي إلا امتصاص للنقمة التي مني بها الحكم العباسي، فالبيئة التي يحياها المأمون بيئة شيعية الولاء، والمظالم التي اقترفها العباسيون عميقة الجراح والآثار، والانفعال السياسي في إحياء مباحث الكلام في الخلافة والأفضلية والسبق إلى الإيمان التي أثارها المأمون مع المتكلمين والمحدثين والعلماء، كانت بلحاظ عزل الناس عن التفكير بمصائرهم، وصرفهم عن الالتفات إلى مساوئ الحكم، أو التحرك ضد المالكين، وبذلك يخدّر المأمون مشاعر الأمة التي يدين نصفها -آنذاك- بولاية أئمة أهل البيت(عليهم السلام)، ومن ثم يحقق الهدف الأصل في إشغال الناس بقضايا لا اول لها ولا آخر.

٤- وكان المأمون متحمساً للقول بخلق القرآن، موافقاً بذلك الإمامية والمعتزلة، ومخالفاً الأشاعرة، وتلك الحركة لها خطورتها الفعلية في شق صفوف المسلمين، وإباحة دماء العلماء الآخرين، في مسألة حساسة اندلع

---

(١) محمد جواد فضل الله/ الإمام الرضا - تاريخ ودراسه/ ٩١.

لهبها فشمل العواصم والأقاليم، ولا علاقة لها بعقائد الأمة، وليست سبيلاً في النفي والإثبات إلى الاتهام بالكفر والزندقة، حتى يذهب ضحيتها المئات بما سمي بمحنة خلق القرآن.

والنظرة الفاحصة لمجريات الأحداث الثورية والعقائدية والتعصبية في كيان الأمة، تثبت الدوافع السياسية وراء هذا الحدث الدامي الذي تمخض بعائدية ملابساته عن انتفاع الحكم بضوضائه، واختلال حياة الناس بجريرته، وهو أسلوب هزيل قامع مع أساليب المأمون في ضرب الأمة بعضها ببعض، ليصفو له الأمر في عملية ضحك على الذقون.

٥- ولما كان المأمون معنياً بتضليل الناس، فقد أوهمهم أن أباه الرشيد هو الذي ألهمه التشيع بتبجيله وتعظيمه للإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)، وذلك حينما دخل عليه، واستقبله الرشيد استقبالاً حافلاً له أهميته الكبرى لديهم، مما أثار انتباه المأمون، فلما خلا المجلس، قال للرشيد: «يا أمير المؤمنين، من هذا الرجل الذي عظمته واجللته، وقمت من مجلسك إليه، فاستقبلته واقعدته في صدر المجلس وجلست دونه، وأمرتنا بأخذ الركاب له؟

قال: هذا إمام الناس، وحجة الله على خلقه، وخليفته على عباده، فقلت: يا امير المؤمنين، أليست هذه الصفات كلها لك وفيك؟.

قال: أنا إمام الجماعة في الظاهر والغلبة والقهر، وموسى بن جعفر إمام حق!! والله يا بني، إنه لأحقّ بمقام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مني ومن الخلق جميعاً. والله لو نازعتني هذا الأمر، لأخذت الذي فيه عيناك، فإن الملك عقيم»[1].

ولا مانع ان يعترف الرشيد في حقيقة الأمر، ويكون المأمون مطلعاً على جملته وتفصيله، ولكننا لا نصدق زعم المأمون في دعوى تشيعه هذه، لانه يسر حسواً بارتغاء، فإنه حينما يطلق هذا القول سينتشر فوراً بوساطة

---

(١) الصدوق/ عيون اخبار الرضا/ ٨٨.

أجهزته الإعلامية في صفوف الجند والناس، وعليه أن يضلل الجميع بما فيهم أولياء الإمام، وأن يكسب ودّ العلويين، وهو يشدِّد القبضة على الحكم، ويداري العواطف بهذه الأدوار من التمثيل!!

٦- وقد يعتذرُ عن المأمون الشيعي فيما يزعم، بأن سلوكه المشين مع الإمام الرضا(عليه السلام)، وفرضه ولاية العهد عليه، وقتله على ما يظهر، فهو يخضع لمبدأ أبيه الرشيد: إن الملك عقيم[1].

وللرد على هذا الزعم، نقول: إن مبدأ التشيع لأئمة أهل البيت(عليهم السلام) مبدأ جملي غير خاضع للتبعيض، فكون الشيعي قائلاً بإمامة الأئمة الاثني عشر، فعليه الالتزام بذلك عقائدياً في كل التفصيلات التي يذهب إليها هذا المبدأ، حتى وإن كان القائل بذلك غير ملتزم بالأحكام والفروع، اما ان يقول المأمون بالتشيع، ثم يهدد الإمام الرضا بقبول ولاية العهد قسراً، ثم يقدم على جريمته النكراء باغتيال الإمام مسموماً!! فاي تشيع هذا؟ وهو يطعن التشيع بالصميم!!.

وكان طبيعياً ان يتظاهر المأمون بالتشيع إمعاناً في استمرارية أهل خراسان بالولاء له، لأنهم في الغالب شيعة أهل البيت(عليهم السلام) وكانوا القوة الضاربة التي قضت على الأمين، وبوات المأمون مقعد الخلافة، ولا كبير امر عليه ان يفضّل علياً(عليه السلام) على من سبقه كسباً لمودّة هؤلاء، وأن يظهر لهم الحب، فينتقم من ولاة أبيه وأخيه الذين اضطهدوه فيما مضى، واستأثروا بالفيء والخراج دونهم، وأن يغدق على أحبابه الجدد من الخراسانيين أطنان الوعود البراقة عدلاً وقسطاً، بعد ان اتخموا ظلماً وغبناً، وأن يجعل اعيانهم واماثلهم ولاة وحماة وقضاة، ووزراء السلطان.

يقول الأستاذ جعفر مرتضى العاملي: «وهكذا إذن، يتضّح ان ميل المأمون للإيرانيين ما كان إلا دهاء منه وسياسة.. حتى استطاع أن يصل إلى

---

(١) ظ: محمد جواد فضل الله/ الإمام الرضا تاريخ ودراسة/ ٩٣.

الحكم ويتربع على عرش الخلافة . . ثم ولىّ على بغداد رجلاً غير عربي ، وهو الحسن بن سهل أخو الفضل بن سهل ، الذي تكرهه بغداد والعرب كل الكره ، ثم جعل مقرّ حكمه مرواً الفارسية ، وليس بغداد العاصمة العربية الأولى التي خرّبها ودمّرها ، وكان ذلك من شأنه ان يثير المخاوف لدى العرب في أن تتحول الإمبراطورية العربية إلى إمبراطورية فارسية»[1] .

ولهذا الملحظ نجد ذا الرئاستين الفضل بن سهل ، وهو وزيره الأول يعارض في ذهاب المأمون إلى بغداد ، ويقول له : «ما هذا بصواب ! ! قتلت بالأمس أخاك ، وأزلت الخلافة عنه ، وبنو أبيك يمادون لك ، وأهل بعثك والعرب . . والراي أن تقيم بخراسان ، حتى تسكن قلوب الناس على هذا»[2] .

ومن هنا يتاكد لنا أن تشيع المأمون كان سياسياً ، ولا أصل له عملياً ، وكل هدفه : الإبقاء على عرش بني العباس ، وقد تمّ له ذلك .

ويردّ الأستاذ محمد حسن آل ياسين دعوى تشيّع المأمون فيقول : «والذي سبر تاريخ المأمون ، ووقف على ظرفه يعلم أنه ليس من تلك الأسباب ما نسب إليه من حبّ لأهل البيت وتشيّع للعترة النبويّة ، وإن جاز أن نفترض لذلك جذراً في أعماق نفسه وخلايا فكره ، وربما حملته المصلحة السياسية والنظرة الاعتقادية الاعتزالية على التظاهر بذلك الحب والولاء علناً ، وعلى التفوه به كثيراً أمام الجميع . . وانه كتب إلى الآفاق : «بان علي بن أبي طالب أفضل الخلق بعد رسول الله(ﷺ) وأن لا يذكر معاوية بخير ، ومن ذكره بخير أبيح دمه وماله»[3][4] .

---

(١) جعفر مرتضى العاملي/ حياة الإمام الرضا/ ١٧٥.

(٢) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ١٦٠.

(٣) سبط بن الجوزي/ تذكرة الخواص/ ٣٦٦ +النجوم الزاهرة ٢/ ٢٠١ـ ٢٠٣.

(٤) محمد حسن ال ياسين/ الإمام علي بن موسى الرضا/ ٧٥.

واعتبر الأستاذ باقر شريف القرشي تظاهر المأمون بالتشيّع مكيدة سياسية تُعنى بكشف الشيعة، ومعرفة السلطة بأسمائهم وأماكنهم بعد ما كانوا خلايا تحت الخفاء.. فأراد المأمون بما صدر منه من الإحسان للعلويين، وانتقاصه للخلفاء وذمه معاوية.. كشف الشيعة حتى تطاردهم أجهزة أمنه وشرطته، وقد دلت على ذلك بعض الوثائق الرسمية التي صدرت منه[1].

ومهما يكن من أمر فقد عاصر الإمام هؤلاء الثلاثة من بني العباس، وقد تناولنا بالإيجاز جزءاً ضئيلاً من سيرة كل منهم، وسلطنا الضوء على تعاملهم في الكيد والدجل، وعلى تفاعلهم مع حياة العبث والمجون.. ولمسنا عند الجميع الولع بسفك الدماء، وأخذ البريء بذنب المتهم، ولاحظنا الفراغ الشامل الذي أحدثوه في شؤون الشريعة والدين.

«هؤلاء هم الخلفاء الذين عاصرهم الإمام علي بن موسى الرضا(ع) خلال أيام إمامته، وهذا مختصر سلوكهم كما شاهده ورواه عنهم المؤرخون والمعنيون، فهل تمثل فيهم ما ذكره علماء الأحكام السلطانية متفقين من شروط التأهيل للإمامة والصفات المطلوبة في ذلك المؤهل، عِلماً وفقهاً، وزهداً وسلوكاً وخُلقاً ونزاهة وعفة، وامتناعاً عن إراقة الدماء، واستحلال المحرمات، في سبيل تثبيت دعائم الملك الدنيوي الخارج على أحكام الدين وتعاليم الشرع»[2].

نضع هذا بين يدي أصحاب الضمائر الحرة، ليحكموا العقول والأفكار، بين رجال الحكم الدكتاتوري وبين الإمام القائد المجاهد والزاهد العابد علي بن موسى الرضا(ع)، وهو يقيم أود الناس، ويشيد صرح الإسلام، وينشر العلم الإلهي.



---

(١) ظ: باقر شريف القرشي/ حياة الإمام علي بن موسى الرضا ٢/ ٢٨٠.

(٢) محمد حسن آل ياسين/ الإمام علي بن موسى الرضا/ ٤١.

الفصل الثاني

الإمامُ (عليه السلام) وولايةُ العهد

١- المأمون يستدعي الإمام الرضا(عليه السلام).

٢- الإمام(عليه السلام) في نيسابور وحديث سلسلة الذهب.

٣- المأمون يبدأ المشاورات.

٤- المأمونُ يهدّد... والإمام(عليه السلام) يشترط.

٥- الإمام(عليه السلام) يعلن كراهيته لولاية العهد.

٦- مراسم ولاية العهد.

٧- ولاية العهد وردود الأفعال.

٨- نصوص ولاية العهد بخط المأمون.

٩- صورة ما على ظهر العهد بخط الإمام الرضا(عليه السلام).



المأمون يستدعي الإمام الرضا

وحينما تم القضاء على الأمين، تنفس المأمون الصعداء، بحدود، وبدأ يلاحظ عن كثب اضطراب الأمر عليه في عدة مؤشرات، وكانت السنّة العباسية تقضي بتعيين ولي للعهد، حفاظاً على السلطان من التدهور أو الانتقال.

وفكّر المأمون ملياً في الأمر، وهو ذو رأي ثاقب في المناورة والالتفاف، ولم يكن ذا دين يتقيّد بتعليماته، وإنما هو الملك العضوض.

وكان الزخم الشعبي مواكباً في طلائعه لمبادئ أهل البيت (عليهم السلام)، وكان هدير الثورات يخترق الصمت المفروض، ودويّه يقتحم الأسوار الشاهقة، وتلاحقه يولّد شعوراً محموماً بالكراهية للنظام، وكانت جبهة الرفض للسلطة ترسخ عمقاً، وروح التمرّد تقتدح سخطاً وغضباً، وعاد نذير هذه الانفعالات مستطيراً، وقد تكون عواقبه حافلة بالمفاجآت، وكان الأفق في خراسان وما حولها من قصبات متموجاً بحب الثار والقتال، وهناك من المعنيين من يعتصم بفكرة الحق الشرعي العلوي في الخلافة، وكان حبّ أهل البيت يضفي طابعاً مخيفاً على المأمون، فكان عليه أن يحسن اختيار ولي العهد بدقة، فانطلقت الفكرة الفاصلة من صميم الأحداث، بأن ليس لولاية العهد إلاّ الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام)، فما كان من المأمون إلا ان يشمر عن ساعديه للتنفيذ، فوضع الإمام اولاً في قبضة الرقابة والأرصاد، وشاء ان يستدعيه إليه وكتب إلى الرضا (عليه السلام) يستقدمه إلى خراسان.

فاعتلّ عليه أبو الحسن (عليه السلام) بعلل كثيرة. فلم يزل المأمون يكاتبه في ذلك حتى علم الرضا (عليه السلام) أن لا محيص له، وانه لا يكفّ عنه[1].

ويبدو من هذا وسواه كما سترى أن الإمام قد امتنع عن الاستجابة له، بيد أن المأمون ألح إلحاحاً شديداً عليه، ولعله هدده ضمناً، ووجه إليه بعد حملة من المكاتبات (رجاء بن أبي الضحاك، وفرناس الخادم لاشخاص علي بن موسى بن جعفر (عليه السلام)... فحُمِلَ إليه مكرّماً[2].

ولم يدع المأمون للإمام الرضا الخيار في ريادة الطريق، بل حدَّد له المسار إلى البصرة، فالأهواز، ففارس، فنيسابور، فمرو حيث إقامة المأمون، وذلك لئلا يختار الإمام طريق الكوفة، فالجبل، فكرمانشاه، فقم، فهي مناطق ماهولة بأولياء أهل البيت (عليهم السلام)، وقد يتسبب مرور الإمام بها في اهتزازات الحكم، بما لا تحمد عقباه، وهو في غنى عن ذلك.

يقول أبو الفرج الأصبهاني: «إن المأمون وجه إلى جماعة من آل أبي طالب، فحملهم إليه من المدينة، وفيهم علي بن موسى الرضا (عليه السلام) فأخذ بهم على طريق البصرة، حتى جاؤوه بهم، وكان المتولي لإشخاصهم المعروف بالجلودي من أهل خراسان، فقدم بهم على المأمون، فأنزلهم داراً، وأنزل علي بن موسى (عليه السلام) داراً»[3].

وقد أراد المأمون في تحديد طريق الإمام ان يطفئ نور الله عز وجل، والله متم نوره، فلم يدر في خلد المأمون أن ينتقض عليه فتله، والإمام في طريقه إلى نيسابور التي حفلت أرجاؤها ببركة الإمام، واستمع علماؤها إلى احاديثه كما سترى.

---

(١) الكليني/ الكافي ١/ ٤٨٨.

(٢) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٥٤٤ + المسعودي/ مروج الذهب ٣/ ٣٤٩.

(٣) ابو الفرج/ مقاتل الطالبيين/ ٥٦٢+ القندوزي/ ينابيع المودّة/ ٣٨٤.

الإمام في نيسابور وحديث سلسلة الذهب

وبالرغم مما خطط له المأمون من إحاطة مسيرة الإمام بالرصد والسرية، فقد اتصل نبأ تحركه في الأقاليم، ولدى دخول الإمام مدينة نيسابور، هرع إليه الحفّاظ وأهل الحديث، ونزل بمحلة القزويني منها، واغتسل فيها بحمّام يدعى حمّام الرضا حتى اليوم.

وكان دخوله نيسابور عام ٢٠٠ من الهجرة النبوية[١].

وقد جاء الوصف الدقيق لهذه المسيرة في كتاب (تأريخ نيسابور) وفيه إبلاغ مفصّل عن احتفاء أهلها به، وطلب الحفّاظ والمحدثين وأهل العلم ان يحدثهم بحديث آبائه وأجداده، فذكر: (إن الإمام الرضا(عليه السلام) لما دخل إلى نيسابور في سيره إلى مرو، كان في قبّة مستورة بالسقلاط، على بغلة شهباء، وقد شقّ سوقها، فعرض له الإمامان الحافظان للأحاديث النبوية، والمثابران على السنّة المحمدية، ابو زرعة الرازي، ومحمد بن أسلم الطوسي، ومعهما خلائق لا يحصون من طلبة العلم، وأهل الأحاديث والدراية فقالا: أيها السيد الجليل وابن السادة الأئمة، بحق آبائك الأطهرين، واسلافك الأكرمين، إلا ما أريتنا وجهك الميمون المبارك، ورويت لنا حديثاً عن آبائك عن جدك محمد(صلى الله عليه وآله) نذكرك به.

فاستوقف البغلة، وامر غلمانه بكشف المظلّة عن القبّة، وأقرّ عيون تلك الخلائق برؤية طلعته المباركة، فكانت له ذؤابتان على عاتقه، والناس كلهم قيام على طبقاتهم ينظرون إليه، وهم ما بين صارخٍ وباكٍ ومتمرغ في التراب، ومقبّل لحافر بغلته.

---

(١) ظ: ابن حجر/ الصواعق المحرقة/ ١٢٢.

وعلا الضجيج، فصاحت الأئمة، والعلماء والفقهاء: معاشر الناس اسمعوا وعوا، وأنصتوا إلىٰ ما ينفعكم، ولا تؤذونا بكثرة صراخكم وبكائكم وكان المستملي أبو زرعة الرازي ومحمد بن أسلم الطوسي؛ فقال الإمام علي بن موسىٰ الرضا: «حدثني أبي موسىٰ الكاظم، عن أبيه جعفر الصادق، عن أبيه محمد الباقر، عن أبيه عليّ زين العابدين، عن أبيه الحسين شهيد كربلاء، عن أبيه علي بن أبي طالب انه قال: حدثني حبيبي وقرة عيني رسول الله(ﷺ) قال: حدثني جبرئيل، قال: سمعت ربّ العزّة سبحانه وتعالىٰ يقول: «كلمة لا إله إلا الله حصني، فمن قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمن عذابي».

ثم أرخىٰ الستر علىٰ القبّة وسار، فعدّوا أهل المحابر والدوي، الذين كانوا يكتبون، فأتوا علىٰ عشرين ألفاً»[1].

قال الشيخ الصدوق والقندوزي الحنفي، بعد ذكر هذا الحديث: «وفي رواية: فلّما مرّت الراحلة، نادانا: بشروطها، وأنا من شروطها»[2].

وحدث الشبلنجي، قال: «قال أبو القاسم القشيري (رض): اتصل هذا الحديث بهذا السند ببعض أمراء السامانية، فكتبه بالذهب، وأوصىٰ أن يدفن معه في قبره»[3].

وقال ابو نعيم في حلية الأولياء بعد روايته لهذا الحديث:

«هذا حديث ثابت مشهور بهذا الإسناد، من رواية الطاهرين عن آبائه الطيبين، وكان بعض سلفنا من المحدثين إذا روىٰ هذا الإسناد، قال: لو قرئ هذا الإسناد علىٰ مجنون لأفاق»[4].

---

(١) ابن الصباغ/ الفصول المهمة/ ٢٥٣+ ابن حجر/ الصواعق المحرقة/ ١٢٢.

(٢) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/١٢٣+ القندوزي/ ينابيع المودّة/ ٣٦٤.

(٣) الشبلنجي/ نور الأبصار/ ١٤٢.

(٤) ظ: محمد جواد فضل الله/ الإمام الرضا - تاريخ ودراسة/ ١٣١/ وانظر مصدره.

وكان لحديث سلسلة الذهب وقعه المدوّي في نيسابور، فخرج علماء نيسابور إلى الإمام الرضا(عليه السلام)، وطلبوا إليه البقاء في نيسابور لإفادتهم وطلب الحديث فلبّى طلبهم وأقام بينهم.

قال سبط ابن الجوزي: «لما وصل -الإمام- إلى نيسابور، خرج إليه علماؤها مثل يحيى بن أبي يحيى، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن رافع، وأحمد بن حرب، وغيرهم، لطلب الحديث والرواية، والتبرك به، فأقام بنيسابور مدة»[1].

وروى القندوزي والآبي تأكيد ذلك بما ورد تاريخياً، أن الإمام(عليه السلام) «غدا في طلبه علماء البلد: أحمد بن حنبل، وياسين بن النصر، ويحيى بن أبي يحيى، وعدة من أهل العلم.. فقالوا: بحق آبائك الطاهرين حدثنا بحديث سمعته من أبيك، فقال: حدثني أبي.. قال حدثني أبي... حتى اوصل ذلك إلى علي بن ابي طالب، قال سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول:

«الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان»[2].

واستمر تنافس علماء نيسابور على الإمام، ينتهلون من عمله، ويستزيدون من الحديث الشريف، حتى مغادرته نيسابور.

فعن أبي الصلت الهروي قال:

كنت مع علي بن موسى الرضا(عليه السلام) حين رحل من نيسابور.. فإذا محمد ابن أبي رافع، وأحمد بن الحارث، ويحيى بن أبي يحيى، وعدّة من أهل العلم قد تعلقوا ببغلته.. فقالوا: بحق آبائك الطاهرين، حدثنا بحديث سمعته من أبيك.. قال الإمام الرضا: «حدثني أبي العبد الصالح موسى بن جعفر، قال حدثني أبي الصادق جعفر بن محمد، قال: حدثني أبي أبو جعفر محمد بن

---

(١) سبط ابن الجوزي/ تذكرة الخواص/ ٣٦١.

(٢) الآبي/ نثر الدر ١/ ٣٦٢+ القندوزي/ ينابيع المودّة/ ٣٦٤.

علي باقر علم الأنبياء، قال: حدثني أبي علي بن الحسين سيد العابدين، قال: حدثني أبي سيد شباب الجنة، قال: حدثني علي بن أبي طالب(عليه السلام)، قال: سمعت النبي(صلى الله عليه وآله) يقول: «سمعت جبرئيل(عليه السلام) يقول: قال الله جل جلاله: إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدوني، من جاء منكم بشهادة أن لا إله إلا الله بالإخلاص دخل في حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي»[1].

وفي حديث له في نيسابور عن آبائه(عليهم السلام) عن أمير المؤمنين الإمام علي(عليه السلام)، عن رسول الله(صلى الله عليه وآله)، عن جبرئيل عن الله: «إني أنا الله لا إله إلا أنا وحدي، عبادي فاعبدوني، وليعلم من لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله، مخلصاً بها، إنه قد دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي».

قالوا: يا ابن رسول الله، وما إخلاص الشهادة لله؟

قال الرضا(عليه السلام): طاعة الله وطاعة رسول الله، وولاية أهل البيت(عليهم السلام)[2].

ومع أن هؤلاء المحدثين كلهم من الجمهور وعلماء السنّة، وفي نيسابور وحدها، فقد ادّعى ابن تيمية مغالطاً ومعانداً ومكابراً، ورافضاً للحق الصريح فقال عن الإمام الرضا: «لم يأخذ عنه أحد من أهل العلم والحديث شيئاً»[3].

فإذا كان إمامه أحمد بن حنبل ليس من أهل العلم والحديث، فلم يدين الله بمذهبه؟ وأحمد يروي ويطلب الحديث من الإمام!!

وإذا كان: ابو زرعة الرازي، ومحمد بن أسلم الطوسي، ومعهما عشرون ألفاً من كتبة الحديث كل هؤلاء ليسوا من العلماء ولا أهل الحديث، فعلى

(١) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ٣٤+ المجلسي/ البحار ٤٩/ ١٢٢.
(٢) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ١٢١.
(٣) ابن تيمية/ منهاج السنّة ٢/ ١٢٥.

الإسلام السلام. وإذا كان يحيى بن أبي يحيى، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن رافع، وأحمد بن حرب، وياسين بن النضر، وآدم بن أبي أياس، ونصر بن علي الجهضمي ممن كانوا يعدّون (من أئمة الحديث)[1]. ليسوا من أهل العلم والحديث، فمن هم رواة الحديث عند الجمهور؟ وهم لا يسقطون لهؤلاء جميعاً حديثاً واحداً، وكلهم روى الحديث عن الإمام الرضا(عليه السلام)!!.

ومهما يكن من أمر، فقد واصل الإمام رحلته، وخرج من نيسابور، وبلغ قرية الحمراء، وقد زالت الشمس فصلى بها، ودخل سناباد، ثم وصل إلى طوس، فقصد دار حميد بن قحطبة الطوسي الطائي، ودخل القبة التي فيها قبر هارون الرشيد، ثم خط بيده إلى جانبه، ثم قال: «هذه تربتي وفيها أدفن، وسيجعل الله هذا المكان مختلف شيعتي وأهل محبتي، والله ما يزورني منهم زائر، ولا يسلّم علي منهم مسلّم، إلا وجب له غفران الله ورحمته بشفاعتنا أهل البيت»[2].

وأخيراً وصل الإمام إلى مرو، فأحاطه المأمون بالتبجيل، وأكثر من الترحيب به، وأنزله داراً خاصة به[3].

المأمون يبدأ المشاورات

وبدأ المأمون مشاوراته في إناطة الأمر أو نيابته بالإمام الرضا، «فجمع بني هاشم، فقال: إني أريد أن استعمل الرضا على هذا الأمر من بعدي، فحسده بنو هاشم...»[4].

(١) الذهبي/ سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٨٨+ الذهبي/ تهذيب التهذيب/ ٣٨٧/٧.
(٢) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ١٣٦/٢.
(٣) أبو الفرج الإصفهاني/ مقاتل الطالبيين/ ٥٦٢
(٤) الصدوق/ عيون أخبار الرضا/ ١٤٩.

والمراد من بني هاشم في هذا النص بنو العباس خاصة ، لأن ردّهم على المأمون كان قاسياً ، وفيه من الانتقاص بمنزلة الإمام ما لا يستطيع ذكره .

وبعث المأمون إلى الفضل بن سهل كبير وزرائه ، من يعلمه بأنه يريد للعقد الشرعي الرضا (عليه السلام) في الخلافة أو ولاية العهد ، وأمره «بالاجتماع مع أخيه الحسن بن سهل على ذلك ، ففعل واجتمعا بحضرته ، فجعل الحسن يعظّم ذلك عليه ، ويعرفه ما في إخراج الأمر من أهله عليه ، فقال : «إني عاهدت الله أن أخرجها إلى أفضل آل أبي طالب إن ظفرت بالمخلوع ، وما أعلم أن أحداً أفضل من هذا الرجل .

فاجتمعا معه على ما أراد ، فأرسلهما إلى علي بن موسى ، فعرضا ذلك عليه ، فأبى ، فلم يزالا به ، وهو يأبى ويمتنع منه»[1] .

وكان الإمام الرضا (عليه السلام) : بعيد الغور ، عميق الفكر ، يعي أحابيل السياسة ، ويدرك جيداً مكر المأمون وخداعه ، فالمأمون يسعى لاهثاً لإناطة الحكم بالإمام الرضا لانتفاض الأقاليم عليه ، فهو ينوء بثقلها ، وأحداثها المرعبة المتلاحقة تكدر صفوه وتؤرق عينيه ، وقصبات الدولة محفوفة بالأهوال من عدة جهات ، وعسى أن ينفجر البركان المدّمر ، فيأتي على كل شيء .

قال المأمون للإمام الرضا (عليه السلام) :

«يا ابن رسول الله ، قد عرفت فضلك ، وعلمك ، وزهدك ، وورعك ، وعبادتك ، وأراك أحقّ بالخلافة مني .

فقال الإمام (عليه السلام) : بالعبودية لله عز وجل افتخر ، وبالزهد في الدنيا أرجو النجاة من شر الدنيا ، وبالورع من المحارم ، أرجو الفوز بالمغانم ، وبالتواضع في الدنيا أرجو الرفعة عند الله عز و جل .

---

(١) أبو الفرج/ مقاتل الطالبيين/ ٥٦٢ - ٥٦٣ +القندوزي/ ينابيع المودّة/ ٣٨٤.

فقال له المأمون: فإني رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة، وأجعلها لك، وأبايعك!!

فقال له الإمام الرضا(عليه السلام): إن كانت هذه الخلافة لك، وجعلها الله لك، فلا يجوز أن تخلع لباساً ألبسكه الله وتجعله لغيرك، وإن كانت الخلافة ليست لك، فلا يجوز لك أن تجعل لي ما ليس لك.

فقال المأمون: يا ابن رسول الله لا بد لك من قبول هذا الأمر!!

فقال الإمام الرضا: لست أفعل ذلك طائعاً أبداً، فمازال يجهد به أياماً حتى يئس من قبوله، فقال له المأمون.

فإن لم تقبل الخلافة، ولم تحب مبايعتي لك، فكن ولي عهدي لتكون لك الخلافة بعدي»[1].

ولم يكن المأمون صادقاً فيما ادعاه من معاهدة الله، فهو أبعد من أن يفي لله بعهد أو نذر، ولم يكن صادقاً مع الإمام الرضا في إناطة الخلافة به، وخلفه نفسه عنها، نعم كان صادقاً في ولاية العهد ضرورةً كما سترى، على أن المأمون لم يكن مغفلاً عما يدور في ذهن الإمام الرضا(عليه السلام) من الافتراضات والإشكاليات التي يمتنع من خلالها عن قبول الخلافة أو ولاية العهد، فأرسل له الحسن بن سهل والفضل بن سهل لإرغامه على ما أراد، فاجتمعا بالإمام(عليه السلام) «فعرضا ذلك عليه فأبى، فلم يزالا به وهو يأبى ذلك ويمتنع منه، إلى أن قال له أحدهما: إن فعلت، وإلا فعلنا بك وصنعنا، وتهدده، ثم قال له أحدهما: والله أمرني بضرب عنقك إذا خالفت ما يريد»[2].

وليس من شك لدينا أن الإمام (صلوات الله عليه) كان رافضاً للخلافة

---

(١) الصدوق/ الأمالي/ ٦٨+ الصدوق/ علل الشرائع ١/ ٢٦٦.

(٢) ابو الفرج/ مقاتل الطالبيين/ ٥٦٣+ الشبلنجي/ نور الأبصار/ ١٤٣.

وولاية العهد، ولدى تهديده كان مكرهاً على قبول الولاية، قال المسعودي: «فالح عليه -علي الرضا- فامتنع، فاقسم فابّر قسمه»[1].

وقال القندوزي إن الإمام الرضا «قبل ولاية العهد وهو باكٍ حزين»[2].

وقال الدكتور احمد امين إن المأمون «الزم الإمام الرضا بذلك، فامتنع، ثم أجاب»[3].

وبملاحظة تعبير المؤرخين أعلاه، (فامتنع) وقبل (وهو باك حزين) و(فامتنع ثم أجاب) يبدو لنا اضطرار الإمام إلى القبول لئلا يكون السبيل ممهداً للمامون في قتله، ولا تاثم للمامون في اقتراف ذلك.

وأما رفض الإمام(عليه السلام) للحكم خلافة أو ولاية، فهو عالم بأن الموضوع في أدواره عبارة عن تراجيدية منظمة يلوح الغدر على ملامحها، وتنطوي على مخطط رهيب، يهدف إلى استثمارات آنية ومستقبلية للمأمون، وليس من طبع المأمون الإقرار بالحق لذويه، ولا من فطرته التحرج من منصب لم يكن اهلاً له، وإنما وراء ذلك من الأهداف غير المعلنة ما لا يخفى على الإمام، فأرهف الإمام السمع لهمسات تلك المسرحية، واجال الفكر في الدور التمثيلي الذي يقوم به المأمون فثبت له أن الفكرة في الأساس ما هي إلا مجرد حركة سياسية، وليست إرهاصاً بتغيير جذري في نفس المامون أو في واقع الحكم، وأن تلك الحركة ليست سوى عرض طارئ وزعم كاذب له غاياته المبطّنة بشكل وآخر.

قال الإمام الرضا للمـامون: والله لقد حدثني ابي عن آبائه عن امير المؤمنين عن رسول الله(صلى الله عليه وآله): اني اخرج من الدنيا قبلك مقتولاً بالسم،

---

(١) المسعودي/ إثبات الوصية/ ٢٠٥.

(٢) القندوزي/ ينابيع المودّة/ ٢٨٤.

(٣) احمد امين/ ضحى الإسلام ٣/ ٢٩٤.

مظلوماً تبكي عليّ ملائكة السماء وملائكة الأرض، وأدفن في أرض غربة جنب هارون الرشيد.

قال المأمون: يا ابن رسول الله، إنما تريد بقولك هذا التخفيف عن نفسك، ودفع هذا الأمر عنك، ليقول الناس إنك زاهد في الدنيا!!

فقال الرضا: والله ما كذبت منذ خلقني ربي عزّ وجلّ، وما زهوت في الدنيا للدنيا، وإني لأعلم ما تريد!! قال: وما أريد؟ قال الإمام(عليه السلام): الأمان على الصدق؛ قال: لك الأمان.

قال الرضا: تريد بذلك أن يقول الناس: إن علي بن موسى لم يزهد في الدنيا بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة؟[1].

وانتهت هذه المحاورة دون التوصل إلى شيء ذي بال، المأمون يردد القول، والإمام يلتمس الخلاص.

المأمون يهدد... والإمام يشترط

وتوالت ضغوط المأمون على الإمام الرضا(عليه السلام) لقبول ولاية العهد، والإمام(عليه السلام) «يأبى ذلك، وجرت في هذا مخاطبات كثيرة، وبقوا في ذلك نحواً من شهرين، كل ذلك وأبو الحسن الرضا(عليه السلام) يأبى أن يقبل ما يعرض عليه، فلما كثر الكلام والخطاب في هذا، قال المأمون: فولاية العهد»[2]

ثم دعا به المأمون فخاطبه في ذلك، فامتنع فقال له قولاً شبيهاً بالتهديد، ثم قال: إن عمر بن الخطاب جعل الشورى في ستة أحدهم جدك، وقال: من خالف فاضربوا عنقه، ولا بد من قبول ذلك)[3].

---

(١) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/١٣٩.

(٢) الكليني/ الكافي ١/٤٨٩.

(٣) أبو الفرج/ مقاتل الطالبيين/ ٥٦٣.

ومعنى هذا الكلام أن الإمام لو امتنع عن قبول الولاية لضربت عنقه.
ولما طال الأمر بالمأمون، جهر بما في نفسه تصريحاً لا تلميحاً، وأظهر الشدة والقسوة، وقال للإمام الرضا، وقد غضب:

«إنك تتلقاني أبداً بما أكرهه، وقد أمنت سطوتي، فبالله أقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلا أجبرتك على ذلك، فإن فعلت وإلا ضربت عنقك»[1].

وحينما بلغ الحديث هذا المستوى الهادر بالإنذار والتهديد بالقتل، كان الإمام عليه السلام مضطراً إلى القبول ولكن بشروط أملاها!! فأظهر المأمون الموافقة عليها، وادرك من خلالها ان الإمام(عليه السلام) عارف بالنوايا وراء ذلك، ولكن هذا ما لا يعير له اهمية على الإطلاق.

ولدى إكراه الإمام على قبول ولاية العهد، قال(عليه السلام):

«اللهم إنك قد نهيتني عن الإلقاء بيدي إلى التهلكة، وقد أشرفت من قبل عبد الله المأمون على القتل متى لا اقبل ولاية عهده، وقد أكرهت واضطررت كما اضطر يوسف ودانيال(عليهما السلام)، إذ قبل كل واحد منهما الولاية من طاغية زمانه، اللهم لا عهد إلا عهدك، ولا ولاية إلا من قبلك، فوفقني لإقامة دينك وإحياء سنة نبيك، فأنت المولى والنصير، ونعم المولى أنتَ ونعم النصير.

ثم قبل ولاية العهد من المأمون، وهو باكٍ حزين، على ان لا يولي أحداً، ولا يعزل أحداً، ولا يغيّر رسماً ولا سنة، وإن يكون في الأمر مشيراً من بعيد»[2].

وفيما ذكره الشيخ المفيد من الشروط: ان الرضا بعد تهديد المأمون له بضرب عنقه، قال مضطراً: «فأني أجيبك إلى ما تريد من ولاية العهد على

---

(١) الصدوق/ عيون أخبار الرضا/ ١٣٩+ علل الشرائع/ ٢٢٦.

(٢) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ١٩/١ - ٢٠.

انني لا أمر ولا انهى، ولا أفتي ولا اقضي، ولا أولّي ولا أعزل، ولا أغير مما هو قائم». فأجابه المأمون إلى ذلك كله[1].

والمأمون على عجل من اهتبال الفرصة لقبول الإمام(عليه السلام)، ولو بهذه الشروط الثقيلة عليه، وقابل ذلك بالارتياح ظاهراً، وبالحقد داخلياً، لإدراكه أن الإمام قد استوعب خفايا نواياه، وعرف خداعه المبيّت.

والأمر المهم لدى المأمون أن يبرز الإمام ولياً للعهد أمام السواد الأعظم ودعاة العلويين، فالسواد له ظاهر الأمر، إذ ليس من شأنه -عادة- النهوض بمعرفة أساليب السياسة، وما على العلويين إلا الصمت المطبق، فهذا كبيرهم قد أصبح ولياً للعهد، أما القادة ورؤساء الجيش فقد بدا لهم المأمون كالحَمل الوديع، منيباً، مذلاً، مذعناً، ملتزماً بنذر وعهد لله إذا أظفره الله بالأمين، فهو القائل للحسن ابن سهل: «إني عاهدت الله على انني إن ظفرت بالمخلوع أخرجت الخلافة إلى افضل ولد أبي طالب!! وما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل على وجه الأرض»[2].

وفيما قاله للريّان بن الصلت ترديدٌ لهذا الزعم الذي نشك بصدقه: «أحببت أن أفي لله تعالى بما عاهدته، فلم أرَ أحداً أحقَّ بهذا الأمر من أبي الحسن الرضا(عليه السلام) فوضعتها فيه، فلم يقبلها إلا على ما قد علمت..»[3].

وهكذا كان الإجراء من قبل المأمون تهديداً بالقتل وخداعاً لنفسه وللناس، وإن تنبّه جملة من ذوي الإدراك على الخديعة التي أساغها المأمون، فعليه أن لا يجمع مرارة الهزيمة المستقبلية، كما مني بهزيمة الخلع

(١) المفيد/ الإرشاد/ ٣٤٨.

(٢) المصدر نفسه / ٣٤٩.

(٣) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ١٣٨، وانظر مصدره.

من ذي قبل، وعليه أن يوازن ذلك ويتداركه بالنصر الفعلي فللحقائق تأريخ له أحكامه القادمة، والمأمون لا يعير لها أذناً صاغية:

ما مضى فات... والمؤمّل غيبٌ ولك الساعةُ التي أنتَ فيها

وكانت ساعته التي هو فيها، قد أعدت العدة في الضغط على الإمام لقبول ولاية العهد على هذا الشكل المتقن من التمثيل، وكان الصراع بين البيت الهاشمي والبيت العباسي قد انتهى، وكان عقدة الحكم وحبكته قد حُلّتْ طيةً بعد طية بهذا الإجراء المؤقت، بينما كان الإمام زاهداً في هذه المظاهر الكاذبة، عالماً بتلك المؤامرات السرّية التي تحاك من وراء القضبان الحديدية، رافضاً لذلك الدسّ الرخيص في القيم، شاجباً لتلك الأساليب الملتوية في التعامل، فما تفاعل حتى مع إكراهه على ذلك، ولا استجاب لدواعي الاعتبارات الزائلة. فقد حدَّث موسى بن سلمة قائلاً:

«كنتُ في خراسان مع محمد بن جعفر، فسمعت ان ذا الرياستين خرج ذات يوم، وهو يقول: واعجباه، وقد رايت عجباً. رايت المامون امير المؤمنين يقول لعلي بن موسى: قد رايت ان اقلدك أمور المسلمين، افسخ ما في رقبتي، واجعله في رقبتك!!.

ورايت علي بن موسى يقول: يا امير المؤمنين لا طاقة لي بذلك، ولا قوة، فما رايت خلافة قط اضيع منها، إن أمير المؤمنين يتفصى منها، ويعرضها على علي بن موسى، وعلي بن موسى يرفضها ويأباها»[1].

وكان إباء الإمامة لهذه الولاية المفروضة نابعاً من شعوره ان المامون يريد إضفاء الشرعية على حكمه، وتضليل الناس، وإيقاف العنف الثوري، وذلك من خلال عرضه الزائف هذا.

---

(١) المفيد/ الإرشاد/ ٣٤٨ - ٣٤٩.

الإمام يعلن كراهيته لولاية العهد

في الوقت الذي انتشرت به الأنباء عن إناطة المأمون ولاية عهده للإمام الرضا(عليه السلام)، شمل الانبهار والابتهاج فصائل الأمة، واكتسح حب الإمام الرضا شكوك كثير من الناس، فها هي المعادلات النوعية تنكفئ في صالح الإمام، وها هي الأصوات من الداخل والخارج تتعالى ترحيباً بالعقد الجديد المائل، ولِمَ لا؟ والسياسة العباسية -فيما يبدو لهم، وعلى غرة من فطرتهم- تغيَّر من منهجها الثابت، وتوحي بالتراجع عن الإصرار على الخطأ الفاضح، ويتهادى الحماس من كل جانب ومكان، وينطلق من أعماق الناس اغتباط بهيج، ولكن الإمام وحده لم يكن من كل هذا بشيء، بل ويهمس -كما سترى- إلى بعض المقربين ان هذا الأمر لا يتم.

فلم يكن الصدق والإخلاص من خلق المأمون، ولكنه الدجل السياسي في إطار جديد، يخادع فيه الأفكار والمشاعر، ويداعب العواطف والأحاسيس، ماسكاً بزمام المبادرة وسالكاً مسلك الجبّارين.

ولم يكن هذا المناخ ليخفى على الإمام بعد اكتشافه لسياسة القوم، واضطلاعه بأعباء القيادة العليا باعتباره إماماً له حنكتهُ وتجربته الخاصة، لا باعتباره ولياً للعهد المزعوم، فلم يكن وجهه الشريف ليتألق بفرح أو سرور، ولا ظاهره يوحي بالغبطة والرضا، فهو أعرف الناس بالمأمون، وذكائه السياسي.

وليس لدينا من شك ان الإمام(عليه السلام) قد اغتصبت إرادته في الإكراه على ولاية العهد، ويشاركنا القدامى في هذا الراي، فعن أبي الصلت الهروي قال:

«والله ما دخل الإمام الرضا(عليه السلام) في هذا الأمر طائعاً، وقد حمل إلىٰ الكوفة مكرهاً. .[1] ثم أشخص منها علىٰ طريق البصرة وفارس إلىٰ مرو»[2].

وعن ياسر الخادم؛ أنه سمع الإمام الرضا(عليه السلام) لما ولي العهد، وقد رفع يديه إلىٰ السماء، وهو يقول:

«اللهم إنك تعلم أني مكره مضطرٌّ، فلا تؤاخذني، كما لم تؤاخذ عبدك ونبيك يوسف حين وقع إلىٰ ولاية مصر»[3].

وكان الإمام(عليه السلام) يعبر عن كراهيته لهذا الأمر بما يناسب مقتضىٰ الأجوبة التي يجيب بها الآخرين، وبما يعلن فيها عدم اختياره، ولا ارتياحه، بل كانت تعبر عن اشمئزازه من الأمر تارة، وعن الإيحاء بالقهر السياسي الذي الجاه لذلك تارة أخرىٰ.

فعن محمد بن عرفة، قال: قلت للرضا(عليه السلام): «ما حملك علىٰ الدخول في ولاية العهد؟

فقال: ما حمل جدي امير المؤمنين(عليه السلام) علىٰ الدخول في الشورىٰ»[4].

وقد تحدث ياسر الخادم عن الإمام حينما يعود يوم الجمعة من الجامع، وقد أصابه العرق والغبار، أن الإمام(عليه السلام)، رفع يديه فقال: «اللهم، إن كان فرجي مما أنا فيه بالموت، فعجّل لي الساعة».

ولم يزل مغموماً مكروباً إلىٰ أن قبض (صلوات الله عليه)[5].

---

(١) المعروف تاريخياً أن الإمام لم يحمل على طريق الكوفة، بل حمل رأساً عن طريق البصرة كما سلف.

(٢) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/١٤١.

(٣) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ١٣٠ وما بعدها.

(٤) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/١٤٠.

(٥) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/١٤٠ وانظر مصدره.

فأي كراهية لهذا الأمر من هذه الكراهية التي يطل بإزائها التعجيل بالموت؟ والإمام لا ينفك من بيان الدواعي التي اضطرته لقبول الولاية فعن الريان، قال: دخلت على علي بن موسى الرضا(عليه السلام)، فقلت له: يا ابن رسول الله إن الناس يقولون إنك قبلت ولاية العهد مع إظهارك الزهد في الدنيا.

فقال الإمام(عليه السلام): «قد علم الله كراهتي لذلك، فلما خيّرت بين قبول ذلك وبين القتل، اخترت القبول على القتل، ويحهم أما علموا أن يوسف(عليه السلام) كان نبياً رسولاً فلما دفعته الضرورة إلى تولي خزائن العزيز قال له: «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم»[1].

ودفعتني الضرورة إلى قبول ذلك على إكراه وإجبار بعد الإشراف على الهلاك، على أني ما دخلت في هذا الأمر، إلا دخول خارج منه، فإلى الله المشتكى وهو المستعان[2].

والإمام قد يكرر هذا النوع من الاستدلال لدى الإشكاليات الآنية، في محاولة لكشف الواقع المرير الذي فرض نفسه عليه، فقد دخل عليه أحد الخوارج، فقال للإمام: أخبرني عن دخولك لهذا الطاغية فيما دخلت؟ وهم عندك كفار؟ وأنت ابن رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ما حملك على هذا؟ فقال أبو الحسن الرضا(عليه السلام): ارايتك هؤلاء أكفر عندك أم عزيز مصر وأهل مملكته؟ اليس هؤلاء يزعمون أنهم موحدون؟ وأولئك لم يوحدوا الله ولم يعرفوهُ!! يوسف بن يعقوب نبي ابن نبي قال للعزيز وهو كافر: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[3].

---

(١) سورة يوسف/ ٥٥.

(٢) الصدوق/ الأمالي/ ٧٢.

(٣) سورة يوسف/ ٥٥.

وكان يجالس الفراعنة، وأنا رجل من ولد رسول الله(ﷺ)، اجبرني على هذا الأمر، وأكرهني عليه، فما الذي أنكرت ونقمت عليّ؟ فقال: لا عتب عليك إني أشهد أنك ابن نبي الله، وإنك صادق[1].

وكان للسيد المرتضى علم الهدى لمحة كلامية عن هذا الأمر فيما أجاب عنه: «فإن قيل: كيف تولى [الإمام الرضا] العهد للمأمون وتلك جهة لا تستحق الإمامة منها؟ أوليس هذا إيهاماً فيما يتعلق بالدين؟

قلنا: قد مضى من الكلام في سبب دخول أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) في الشورى ماهو أصل لهذا الباب. وجملته: أن ذا الحق له أن يتوصل إليه من كل جهة وسبب، لاسيما إذا كان يتعلق بذلك الحق تكليف عليه، فإنه يصير واجباً عليه التوصل والتمحُّل بالتصرف، فالإمامة ما يستحقه الرضا(ع) بالنص من آبائه(ع) فإذا دفع عن ذلك، وجعل له من و جه آخر أن يتصرف، وجب عليه أن يجيب إلى ذلك الوجه، ليصل منه إلى حقه، وليس في هذا إيهام، لأن الأدلة الدالة على استحقاقه(ع) للإمامة بنفسه تمنع من دخول الشبهة بذلك وإن كان فيه بعض الإيهام يحسّنه دفع الضرورة إليه، كما حملته وآباءه(ع) على إظهار مبايعة الظالمين، والقول بإمامتهم، ولعله(ع) أجاب إلى ولاية العهد للتقية والخوف لأنه لم يؤثر الامتناع على من ألزمه ذلك وحمله عليه، فيفضي الأمر إلى المجاهرة والمباينة، والحال لا يقتضيها، وهذا بيّن»[2].

---

(١) الراوندي/ الخرائج والجرائح/ ٢٤٥+ المجلسي/ البحار ٤٩/ ٥٥.

(٢) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ١٥٨ - ١٥٩.

مراسم ولاية العهد

وشاع في (مرو) عند وصول الإمام الرضا(ع) إليها: أن المأمون سيعقد له ولاية العهد، وانبعثت الآمال في الصدور تحلم في تحقيق الأماني، وتألقت الشفاه بالبسمات ترحيباً بالحدث السعيد، ذلك عسى أن تنتهي تلك الأزمات القاتلة، ويحل العدل والنظام بدل الجور والفوضى، واللهفة تجلل كيان الأمة في غبطة وابتهاج، والإمام الرضا(ع) سليل بيت النبوة والرسالة سيحتل المركز الأول في الدولة بعد المأمون.

وماذا يضير حناجر المؤمنين من الابتهال؟ وماذا على نواظرهم من التطلع إلى عهد جديد؟ وهم يتلبثون الإسلام حكماً صادقاً، لا مجرد طقوس ظاهرية يستدرها الحكم لمطامحه الخاصة، بل لأنه الغاية المنشودة من الكفاح الطويل، والإضاءة اللامعة في عالم تغلب عليه كآبة الظلام.

وكان لهذه البيعة مراسم ومظاهر، وكان فيها توجيه جديد على الناس للإمام الرضا(ع)، وفيها صور تذكّر بالعهد الأول للإسلام، في ضوء بيعة الرضوان وبيعة العقبة بقيادة الرسول الأعظم(ص).

وهنالك نصان؛ في كل منهما دلالة من مشاهد هذه المراسم.

يقول النصّ الأول: عن الريّان بن شبيب: إن المأمون لما أراد أن يأخذ البيعة لنفسه بإمرة المؤمنين، وللرضا(ع) بولاية العهد، وللفضل بن سهل بالوزارة، أمر بثلاثة كراسي فنصبت لهم، فلما قعدوا عليها، أذن للناس فدخلوا يبايعون، فكانوا يصفقون بأيمانهم على أيمان الثلاثة من أعلى الإبهام إلى الخنصر ويخرجون.

حتى بايع في آخر الناس فتى من الأنصار، فصفق بيمينه من الخنصر إلى أعلى الإبهام، فتبسم أبو الحسن الرضا(عليه السلام) ثم قال: كل من بايعنا بايع بفسخ البيعة غير هذا الفتى فإنه بايعنا بعقدها، فقال المأمون: وما فسخ البيعة من عقدها؟

قال الإمام الرضا: عقد البيعة هو من أعلى الخنصر إلى أعلى الإبهام، وفسخها من أعلى الإبهام إلى أعلى الخنصر.. فقال الناس: كيف يستحق الإمامة من لا يعرف عقد البيعة؟ إن من علم الأولى بها ممن لا يعلم. قال: فحمله ذلك على ما فعله من سمه[1].

ويقول النص الثاني: حينما جلس المأمون لبيعة الرضا(عليه السلام)، جلس وأجلس الرضا(عليه السلام)، وعليهما الخضرة... وأمر ابنه العباس أن يبايع أول الناس، فرفع الرضا يده فتلقى بظهرها وجه نفسه، وببطنها وجوههم.

قال المأمون: إبسط يدك للبيعة، قال الرضا(عليه السلام): إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) هكذا يبايع، فبايعه الناس ويده فوق أيديهم ووضعت البدر، وقامت الخطباء والشعراء، فجعلوا يذكرون فضل الرضا(عليه السلام).. ثم قال المأمون للرضا: اخطب الناس وتكلم فيهم، فحمد الإمام الرضا(عليه السلام) الله تبارك وتعالى، وأثنى عليه، وقال: «لنا عليكم حق برسول الله(صلى الله عليه وآله)، ولكم علينا حق به، فإذا أنتم أديتم إلينا ذلك، وجب علينا الحق لكم».

ولا يذكر عنه غير هذا في ذلك المجلس[2].

وصعد المأمون المنبر ليبايع علي بن موسى الرضا، وقال: «أيها الناس جاءتكم بيعة علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن

---

(١) الصدوق/ علل الشرائع ١/٢٢٨.

(٢) المفيد/ الإرشاد/ ٣٤٩ - ٣٥٠.

أبي طالب(عليه السلام)، والله لو قرأت هذه الأسماء على الصّم البكم لبرؤوا بإذن الله عزَّ وجلَّ»[1].

وكانت البيعة للإمام الرضا(عليه السلام)، لخمس خلون من شهر رمضان، سنة إحدى ومائتين للهجرة[2].

وبعد أن عهد المأمون بولاية العهد للإمام الرضا(عليه السلام): «أمر للجند برزق سنة، وكتب إلى الآفاق بذلك، وسماه الرضا(عليه السلام)[3] وضرب الدراهم باسمه، وأمر الناس بلبس الخضرة، وزوّجه ابنته..»[4]

ولما بويع للرضا(عليه السلام) بالعهد، اجتمع الناس إليه يهنئونه، فأومأ بيده، فانصفوا، قال بعد أن استمع كلامهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمد لله الفعّال، لما يشاء، لا معقّب لحكمه، ولا رادّ لقضائه، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وصلى الله على محمد في الأولين والآخرين وعلى آله الطيبين.

أقول: وأنا علي بن موسى بن جعفر، إن أمير المؤمنين عضده الله بالسداد، ووفقه للرشاد، عرف من حقنا ما جهله غيره.. وإنه جعل إليَّ عهده، والأمرة الكبرى إن بقيت بعده، فمن حلّ عقدة أمر الله تعالى بشدّها وفصم عروة أحبّ الله إيثاقها، فقد أباح حريمه، وأحل حرمه، إذ كان بذلك زارياً على الإمام، منتهكاً حرمة الإسلام، بذلك جرى السالف فصبر على الفلتات، ولم يتعرض بعدها على العزمات، خوفاً من شتات الدين، واضطراب حمل المسلمين، ولقرب أمر الجاهلية ورصد المنافقين فرصة تنتهز

(١) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ١٤٧.
(٢) المصدر نفسه/ ٢/ ٢٤٥.
(٣) قلنا فيما مضى: أن الإمام لقب بالرضا من قبل الأئمة عليهم السلام قبل ولاية العهد.
(٤) الصدوق / عيون أخبار الرضا ١٤٧/٢.

وبائقة تبتدر، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، إن الحكم إلا لله، يقصّ الخف، وهو خير الفاصلين»[1].

والحق أن خطاب الإمام الرضا هذا، لا يخلو من تخوّف الغدر والنقص، وإشارته إلىٰ ما ابتلي به أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام)، وصبره علىٰ فلتة البيعة لسواه، وإبقاؤه الأمور علىٰ رسلها، لقرب الناس بالجاهلية، دليل ما كان يتوجس منه الإمام من عدم تمامية هذه البيعة، علىٰ أن المشاعر المؤمنة ظلت مترددة في صدق نوايا المأمون، وهو يقبض علىٰ الحكم بيد من حديد، ذلك الحكم الذي أساغ أن يقدم له رأس أخيه (الأمين) علىٰ طبق من ذهب، والحكم بعد آلهة المأمون التي آمن بها.

فماذا وراء الأكمة من تخطيط غامض؟ وما هذه المودة المفتعلة من المأمون تجاه الإمام الرضا؟ ومتىٰ عرفوا أهل البيت بعد التنكر لهم؟

هذا هو واقع الحال، ومن هنا بدأ الصراع الخفي بين اتجاهين متقابلين: الاتجاه الرسمي بمناوراته التي لا تخفىٰ علىٰ الأذكياء أهل التجربة والاتجاه الشعبي الرافض لكل النزوات المتهالكة علىٰ المصالح السلطوية.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت لهذا الحدث الهائل ردود فعل متزاحمة، رضي من خلالها قوم وسخط آخرون.

ونحاول في المبحث الآتي الإحاطة بأبرز ملامحها.

ولاية العهد وردود الافعال

لم تكن نظرة الإمام لولاية العهد أنها صادقة، ولم تكن أحداثها مبررة، فما هي إلا حجاب رقيق لمؤامرة تحاك بنودها في بلاط المأمون، لذلك نجد الإمام غير متفائل بما حدث، ولا واثق بما أبرم، وكان أول ردّ فعل علىٰ

---

(١) الصدوق/ عيون أخبار الرضا/ ١٤٦+ المجلسي/ البحار ٤٩/ ١٤١.

هذه الولاية ردّ فعل الإمام نفسه، وذلك حين خفقت الألوية على رأسه، ونثرت البُدَرُ بين يديه، وبايع المأمون والعباسيون والقوّاد وجماهير الأمة، فذكر عن بعض من حضر، ممن كان يختص بالإمام الرضا(ع)، أنه قال: «كنتُ من يديه -يعني الإمام- في ذلك اليوم، فنظر إليّ وأنا مستبشر بما جرى، فأومأ إليّ أن ادنُ، فدنوت منه، فقال لي - من حيث لا يسمعه غيري: لا تشغل قلبك بهذا الأمر، ولا تستبشر له، فإنه لا يتم»[1].

وهذا يعني أن الإمام(ع) قد سبر أبعاد ما يجري، وأخبر عن عدم تماميته، من خلال نظرته الموضوعية للظروف المحيطة بالأمر.

وكان قوّاد المأمون الكبار قد أعلنوا معارضتهم فوراً لقرار المأمون في ولاية العهد، وأبرزهم: علي بن أبي عمران، وابن تونس، والجلودي.. هؤلاء، قد نقموا بيعة أبي الحسن الرضا(ع)، وأصروا على رفضها، وأنها تشكل خطراً على الدولة، فحبسهم المأمون حيناً، ثم قدمهم فضرب أعناقهم[2].

ولم يكن قتل هؤلاء بالأمر اليسير على المأمون فهم من أولياء أبيه الرشيد، وهم بطانته وزعماء البلد، ولكنه أراد الإصحار في قراره، والإعلان عن ولاية العهد للدوافع التي سترها.

وفي سنة إحدى ومائتين من الهجرة، حج بالناس إسحاق بن موسى بن عيسى العباسي، ودعا للمأمون، ولعلي بن موسى الرضا من بعده بولاية العهد، فوثب إليه حمدويه بن علي بن عيسى بن ماهان، فدعا إسحاق بسواده فلم يجده، فأخذ علماً أسود فالتحف به، وقال: أيها الناس، إني قد بلغتكم ما أمرت به، ولست أعرف إلا أمير المؤمنين المأمون، والفضل بن سهل، ثم نزل..[3].

---

(١) المفيد/ الإرشاد/ ٣٥٠.

(٢) ظ: الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ١٦١.

(٣) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ١٤٤.

وكان لهؤلاء المعارضين ظاهر الأمر، ولم يكلفوا أنفسهم عناء التفكير في مخطط المأمون، وكان الفضل بن سهل كارهاً للبيعة، إلا أنه لم يرد مخالفة المأمون لما رأىٰ من إصراره، لكنه أظهر للإمام عداوة شديدة، وحسده علىٰ ما كان المأمون يفضله به، علىٰ حد تعبير المؤرخين[1].

وذكر الشيخ المفيد (قدس سره): أن الفضل والحسن بن سهل كلاهما قد عارضا أمر ولاية العهد للرضا، واجتمعا بالمأمون، فجعل الحسن يعظّم ذلك عليه، ويعرّفه ما في إخراج الأمر من أهلِه عليه!!.. فلما رأىٰ الحسن والفضل عزيمته علىٰ ذلك أمسكا عن معارضته فيه[2].

أمّا في بغداد عاصمة العباسيين فقد كانت ردّة الفعل علىٰ أشدها، وقد لخص جزءاً كبيراً منها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) وقال في بعض النصوص عن ذلك:

«إن عيسىٰ بن محمد بن أبي خالد، بما هو فيما هو فيه، من عرض أصحابه بعد منصرفه من عسكره إلىٰ بغداد، إذ ورد عليه كتاب من الحسن بن سهل، يعلمه أن أمير المؤمنين المأمون قد جعل علي بن موسىٰ بن جعفر بن محمد ولي عهده من بعده، وذلك أنه نظر في بني العباس وبني علي فلم يجد احداً هو أفضل ولا اورع ولا أعلم منه، وأنه سماه الرضا من آل محمد، وامره بطرح لبس الثياب السود، ولبس ثياب الخضرة...
ويأمره ان يأمر مَنْ قِبَلِه من أصحابه من الجند والقوّاد وبني هاشم بالبيعة له، وان يأخذهم بلبس الخضرة في أقبيتهم وقلانسهم وأعلامهم، ويأخذ أهل بغداد جميعاً بذلك، فلما أتىٰ الخبر عيسىٰ دعا أهل بغداد إلىٰ ذلك علىٰ أن يعجّل لهم رزق شهر، والباقي إذا أدرك الغلّة.

---

(١) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ١٣٩ وانظر مصدره.
(٢) ظ: المفيد/ الإرشاد/ ٣٤٩.

فقال بعضهم: نبايع ونلبس الخضرة.

وقال بعضهم: لا نبايع، ولا نلبس الخضرة، ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس، وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل، فمكثوا بذلك أياماً وغضب ولد العباس من ذلك، واجتمع بعضهم إلى بعض، وتكلموا فيه، وقالوا: نولّي بعضنا ونخلع المأمون.

وكان المتكلم في هذا والمختلف والمتقلد به: إبراهيم ومنصور ولدي المهدي. بعد هذا أظهر العباسيون ببغداد أنهم قد بايعوا إبراهيم بن المهدي (شيخ المغنين) بالخلافة، ومن بعده ابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي، وأنهم قد خلعوا المأمون.

وكانت بيعة إبراهيم أول يوم من المحرم سنة ٢٠٢هـ وغَلَبَ إبراهيم مع مَنْ تابعه من أهل بغداد على الكوفة وسواد العراق كله»[١].

ولم يقف المأمون متفرجاً من هذه الأحداث، بل كتب إلى الحسن بن سهل: «يأمره أن يتقدم إلى بغداد حتى يحاصر أهلها.. وكتب إلى حميد ابن عبد الحميد أن يتقدم إلى بغداد حتى يحاصر أهلها من جهة أخرى.. ففعل ذلك وخرج «حتى أتى الكوفة فأخذ أموالاً له كانت هنالك ومتاعاً، وولّى على الكوفة العباس بن موسى بن جعفر العلوي»[٢].

وحصل الاضطراب العام في بغداد، وانقسم الناس إلى فريقين، مؤيد للمأمون، ومؤيد لإبراهيم، بل اقترح بعضهم أن يدعى في خطبة الجمعة للمأمون ثم من بعده لإبراهيم، فقالت العامة: لا تدعوا إلا إلى إبراهيم

---

(١) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٥٥٤ - ٥٥٧، وانظر في تفصيل ذلك: الجهشياري/ الوزراء والكتاب / ٢٥٦+ ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٥/ ١٨٣+ ابن خلكان/ وفيات الأعيان ٢/ ٤٣٢+ العماد الحنبلي/ شذرات الذهب ٢/ ٢-٣ + اليافعي/ مرآة الجنان ١١/٢ + ابن تغري بردى/ النجوم الزاهرة ١٧٠/٢ - ١٧٢.

(٢) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٥٥٨ - ٥٥٩.

فقط، واختلفوا واضطربوا فيما بينهم، ولم يصلّوا الجمعة، وصلىّ الناس فرادىٰ أربع ركعات»[1].

❖ ❖ ❖

وفي قبال احتجاج المعارضة، كان الاغتباط يشمل بقاع الدولة الإسلامية ابتداءً من مكة المكرمة، فالمدينة المنوّرة، والمغرب، وسواد العراق، وبلاد المشرق «فبايع الناس للرضا(ع) بمكة، ولبسوا الخضرة، وحج في تلك السنة بأمر المأمون إسحاق بن موسىٰ بن جعفر، وقيل إبراهيم ابن موسىٰ بن جعفر»[2].

وسمع عبد الحميد بن سعيد يخطب في تلك السنة علىٰ منبر رسول الله(ص) في المدينة، فقال في الدعاء له ولي عهد المسلمين علي بن موسىٰ بن جعفر بن علي بن الحسين بن علي(ع):

ستةٌ آباءٍ.. هم مَنْ هم ... أفضلُ من يشربُ صوبَ الغمام[3]

ودخل عبد الله بن مطرف بن هامان علىٰ المأمون يوماً، وعنده علي بن موسىٰ الرضا(ع)، فقال له المأمون: ما تقول في أهل البيت؟

فقال عبد الله: ما قولي في طينة عجنت بماء الرسالة، وغرست بماء الوحي، هل ينفح منه إلا مسك الهدىٰ، وعنبر التقىٰ؟!!

قال: فدعا المأمون بحقة فيها لؤلؤ!! فحشا فاه[4].

وكان الشعراء لسان الأمة المعبّر، قد توافدوا علىٰ الإمام الرضا(ع) للتهنئة، (وكان فيمن ورد عليه من الشعراء: دعبل بن علي الخزاعي رحمه

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية ١٠/٢٤٧.

(٢) ظ: اليعقوبي/ التاريخ ٣/١٧٧+ الطبري/ التاريخ ٨/ ٥٦٧+ أبو الفرج/ مقاتل الطالبيين/ ٥٦٥ + ابن عبد ربه/ العقد الفريد ٥/١٠١+ ابن كثير/ البداية والنهاية ١٠/ ٢٤٩.

(٣) المفيد/ الإرشاد/ ٣٥٠.

(٤) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/١٤٤.

الله، فلمّا دخل عليه قال: إني قد قلتُ قصيدة، وجعلت على نفسي أن لا أنشدها أحداً قبلك، فأمره بالجلوس حتى خفّ مجلسه، ثم قال له هاتها. فأنشده قصيدته التي أولها:

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوة   ومنزل وحي مقفر العرصاتِ

حتى أتى على آخرها[1].

فلما فرغ من إنشادها قام الرضا(ع)، فدخل إلى حجرته، وبعث إليه خادماً بخرقة خزّ فيها ستمائة دينار، وقال لخادمه، قل له:

استعن بهذه على سفرك، واعذرنا.

فقال له دعبل: لا والله ما هذا أردت، ولا له خرجت، ولكن قل له: البسني ثوباً من أثوابك، وردها عليه، فردها الرضا(ع) وقال له: خذها، وبعث إليه بجبّة من ثيابه، فخرج دعبل حتى ورد (قم) فلّما رأوها معه، اعطوه بها ألف دينار، فأبى عليهم، وقال: لا والله ولا خرقة منها بألف دينار، ثم خرج من قم واتّبعوه وقطعوا عليه الطريق وأخذوا الجبّة، فرجع إلى (قم) وكلمهم فيها، فقالوا: ليس إليها سبيل، ولكن إن شئت فهذه الألف دينار، قال لهم: وخرقة منها، فاعطوه ألف دينار وخرقة منها[2].

وكان إبراهيم بن العباس الصولي قد وفد على الإمام الرضا(ع) وأنشده قصيدته التي مطلعها:

أزالت عزاءَ القلب بعد التجلدِ   مصارعُ أولادِ النبيّ محمدِ

---

(١) ظ: في مصادر هذه القصيدة، وعدد أبياتها، موارد إيرادها كلاً من: (ديوان دعبل الخزاعي/ تحقيق عبد الصاحب الدجيلي/ ٨٥ - ٩٧+ شعر دعبل بن علي الخزاعي تحقيق الدكتور عبد الكريم الأشتر/ ٢٢١ - ٢٣٨+ ديوان دعبل/ تحقيق محمد يوسف نجم ٣٥ - ٤٤.

(٢) المفيد/ الإرشاد/ ٣٥١.

فوهب له الإمام «عشرة آلاف درهم من الدراهم التي ضربت باسمه، فلم تزل عند إبراهيم، وجعل منها مهور نسائه، وخلّف بعضها لكفنه. وجهازه إلىٰ قبره»[1].

ودخل أبو نواس علىٰ المأمون، فقال له: يا أبا نواس قد علمت مكان علي بن موسىٰ الرضا مني، وما أكرمته به، فلماذا أخرت مدحه؟ وأنت شاعر زمانك، وقريح دهرك، فأنشأ أبو نواس يقول:

قيل لي أنت أوحدُ الناس طراً ... في فنون من الكلام النبيهِ

لك من جوهر الكلام بديعٌ ... يثمرُ الدرَّ في يدي مجتنيهِ

فعلىٰ ما تركت مدحَ ابن موسىٰ ... والخصالَ التي تجمَّعنَ فيهِ

قلت: لا أهتدي لمدحِ إمام ... كان جبريل خادماً لأبيه

فقال له المأمون: أحسنت، ووصله من المال بمثل الذي وصل به كافة الشعراء، وفضّله عليهم»[2].

ورأىٰ أبو نواس ركبَ الإمام الرضا(عليه السلام) فقال:

إذا أبصرتك العينُ من بعد غايةٍ ... وعارض فيك الشكُّ. أثبتكَ القلبُ

ولو أن قوماً أمّوك لقادهم ... نسيمُك حتىٰ يستدل بك الركبُ

جعلتك لي حسباً أباهي به الورىٰ ... وما خاب من أمسىٰ وأنت له حسبُ[3]

ونظر أبو نواس إلىٰ الإمام الرضا(عليه السلام)، ذات يوم وقد خرج علىٰ بغلة له، فسلّم عليه، وقال:

---

(١) ابو الفرج/ الأغاني ١٠/٦٣+ الصدوق/ عيون اخبار الرضا ٢/١٤٢.

(٢) الصدوق/ عيون اخبار الرضا ٢/ ١٤٢+ البحار ٤٩/ ٢٣٥.

(٣) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/١٤٤.

يا ابن رسول الله ، قد قلت فيك أبياتاً فأحب أن تسمعها مني .

قال الإمام : هات ، فأنشأ يقول :

مطهَّرونَ نقيَّاتٌ ثيابهمُ ... تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا

من لم يكن علوياً حين تنسبهُ ... فما له من قديم الدهر مفتخرُ

فالله لمّا برا خلقاً فأتقنهُ ... صفّاكمُ ، واصطفاكُمْ أيها البشرُ

فأنتم الملأ الأعلىٰ وعندكُمُ ... علمُ الكتاب . . وما جاءتْ به السورُ

فقال له الإمام الرضا : قد جئتنا بأبيات ما سبقك إليها أحد .

وأمر له بثلاثمائة دينار . . وأمر أن تساق له البغلة[1] .

وهكذا كانت ولاية العهد في دويّها الهائل ، مبعث ردود فعل سلبي ، وملحظ تهنئة واحتفاءٍ إيجابي .

نصوص ولاية العهد بخط المأمون

هناك موروث تأرخي له قيمته الوثائقية ، يحتوي علىٰ نصوص ولاية العهد للإمام الرضا(عليه السلام) بخط المأمون العباسي ، أورده الأربلي في كشف الغمة ، ونقله عنه صاحب البحار وآخرون ، وهو هذا :

قال الفقير إلىٰ الله علي بن عيسىٰ أثابه الله : وفي سنة سبعين وستمائة ، وصل من مشهده الشريف (مشهد الإمام الرضا) أحدُ قوّامه ، ومعه العهد الذي كتبه له المأمون بخط يده ، وبين سطوره وفي ظهره بخط الإمام(عليه السلام) ما هو مسطور ، فقبَّلت مواقع أقلامه ، وسرحت طرفي في رياض كلامه ، وعددت الوقوف عليه من منن الله وإنعامه ، ونقلته حرفاً فحرفاً ، وهو بخط المأمون .

---

(١) ظ: الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ١٤٣+ ابن خلكان/ وفيات الأعيان ٢/ ٤٣٣ + ابن الصباغ المالكي/ الفصول المهمة/ ٢٤٨+ المجلسي/ البحار ٤٩/ ١٤٨.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب كتبه عبد الله بن هارون الرشيد أمير المؤمنين لعليّ بن موسى ابن جعفر ولي عهده، أما بعد:

فإن الله عزَّ وجلَّ اصطفى الإسلام ديناً، واصطفى له من عباده رسلاً دالِّين وهادين إليه، يبشّر أولهم بآخرهم، ويصدّق تاليهم ماضيهم، حتى انتهت نبوة الله إلى محمد(ﷺ)، على فترة من الرسل، ودروس من العلم، وانقطاع من الوحي، واقتراب من الساعة، فختم الله به النبيين، وجعله شاهداً لهم، ومهيمناً عليهم، وأنزل عليه كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، بما أحلّ وحرّم، ووعد وأوعد، وحذر وأنذر، وأمر به ونهى عنه، ليكون له الحجة البالغة على خلقه، ليهلك من هلك عن بيِّنة، ويحيى من حيّ عن بيِّنة، وإن الله لسميع عليم.

فبلَّغ عن الله رسالته، ودعا إلى سبيله بما أمره به من الحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، ثم بالجهاد والغلظة حتى قبضه الله إليه واختار له ما عنده، فلما انقضت النبوة وختم الله بمحمد(ﷺ) الوحي والرسالة، جعل قوام الدين ونظام المسلمين بالخلافة وإتمامها وعزها والقيام بحق الله تعالى فيها بالطاعة، التي بها يقام فرائض الله وحدوده، وشرائع الإسلام وسننه، ويجاهد لها عدوّه.

فعلى خلفاء الله طاعته فيما استحفظهم واسترعاهم من دينه وعباده، وعلى المسلمين طاعة خلفائهم ومعاونتهم على إقامة حق الله وعدله، وأمن السبيل، وحقن الدماء، وصلاح ذات البين، وجمع الألفة، وفي خلاف ذلك اضطراب حبل المسلمين واختلالهم، واختلاف ملَّتهم، وقهر دينهم، واستعلاء عدوهم، وتفرق الكلمة، وخسران الدنيا والآخرة.

فحقٌّ على من استخلفه الله في أرضه، وائتمنه على خلقه، أن يجهد لله نفسه، ويؤثر ما فيه رضا الله وطاعته، ويعتدّ لما الله موافقه عليه ومسائله عنه، ويحكم بالحق، ويعمل بالعدل فيما حمَّله الله وقلّده، فإن الله عز وجل يقول لنبيه داود (عليه السلام):

﴿يا داوُدُ إنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ﴾[1].

وقال الله عز وجل: **﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[2].

وبلغنا أن عمر بن الخطاب قال: لو ضاعت سخلة بشاطئ الفرات لتخوفت أن يسألني الله عنها، وايم الله إن المسؤول عن خاصة نفسه، الموقوف على عمله فيما بين الله وبينه، ليعرض على أمر كبير، وعلى خطر عظيم، فكيف بالمسؤول عن رعاية الأمة؟ وبالله الثقة، وإليه المفزع والرغبة، في التوفيق والعصمة، والتسديد والهداية إلى ما فيه ثبوت الحجّة، والفوز من الله بالرضوان والرحمة.

وانظرُ الأمةِ لنفسه، وأنصحهم لله في دينه وعباده من خلائقه في أرضه، من عمل بطاعة الله وكتابه وسنة نبيه (ﷺ) في مدة أيامه وبعدها، وأجهد رأيه ونظره فيمن يوليه عهده، ويختاره لإمامة المسلمين ورعايتهم بعده، وينصبه علماً لهم، ومفزعاً في جمع إلفتهم، ولمِّ شعثهم، وحقن دمائهم، والأمن بإذن الله من فرقتهم، وفساد ذات بينهم واختلافهم، ورفع نزغ الشيطان وكيده عنهم، فإن الله عزَّ وجلَّ جعل العهد بعد الخلافة من تمام أمر الإسلام

---

(١) سورة ص/٢٦.

(٢) سورة الحجر/ ٩٢.

وكما له، وعزّه وصلاح أهله، وألهم خلفاءهُ من توكيده لمن يختارونه من بعدهم ما عظمت به النعمة، وشملت فيه العافية، ونقض الله بذلك أهل الشقاق والعداوة والسعي في الفرقة، والتربص للفتنة.

ولم يزل أمير المؤمنين منذ أفضت إليه الخلافة، فاختبر بشاعة مذاقها، وثقل محملها، وشدّة مؤنتها، وما يجب على من تقلدها من ارتباط طاعة الله، ومراقبته فيما حمَّله فأنصب بدنه، وأسهر عينه، وأطال فكره، فيما فيه عزّ الدين، وَجَمْعُ المشركين، وصلاح الأمّة، ونشر العدل، وإقامة الكتاب والسنّة، ومنعه ذلك من الخفض والدعة، ومهنأ العيش، علماً بما الله سائله عنه، ومحبة أن يلقى الله مناصحاً له في دينه وعبادِه، ومختاراً لولاية عهده، ورعاية الأمة من بعده، أفضل من بقدر عليه في دينه وورعه وعلمه، وأرجاهم للقيام في أمر الله وحقه، مناجياً الله بالاستخارة في ذلك، ومساءلته إلهامه ما فيه رضاه وطاعته في آناء ليله ونهاره، معملاً في طلبه والتماسه في أهل بيته من ولد عبد الله بن العباس وعلي بن أبي طالب فِكرَهُ ونظرَهُ، مقتصراً ممن علم حاله ومذهبه منهم على علمه، وبالغاً في المسألة عمّن خفي عليه أمره جهدَهُ وطاقته.

حتى استقصى أمورهم معرفةً، وابتلى أخبارهم مشاهدة، واستبرأ أحوالهم معاينةً، وكشف ما عندهم مساءلة، فكانت خيرته بعد استخارته لله، وإجهاده نفسه في قضاء حقه في عباده وبلاده في البيتين جميعاً: علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب لما رأى من فضله البارع، وعلمه النافع، وورعه الظاهر، وزهده الخالص، وتخلّيه من الدنيا، وتسلّمه من الناس.

وقد استبان له ما لم تزل الأخبار عليه متواطئة، والألسن عليه متفقة، والكلمة فيه جامعة، ولما لم يزل يعرفه به من الفضل يافعاً وناشئاً، وحدثاً ومكتهلاً، فعقد له بالعقد والخلافة من بعده، واثقاً بخيرة الله في ذلك، إذ

علم الله انه فعله إيثاراً له وللدين، ونظراً للإسلام والمسلمين، وطلباً للسلامة وثبات الحجة والنجاة في اليوم الذي يقوم الناس فيه لربِّ العالمين.

ودعا أمير المؤمنين ولده وأهل بيته، وخاصته، وقواده، وخدمه، فبايعوا مسارعين مسرورين عالمين بإيثار أمير المؤمنين طاعة الله على الهوى في ولده، وغيرهم ممن هو أشبك منه رحماً، وأقرب قرابة، وسمّاه الرضا إذ كان رضىً عند أمير المؤمنين!!

فبايعوا معشر أهل البيت أمير المؤمنين، ومن بالمدينة المحروسة من قوّاده وجنده، وعامة المسلمين لأمير المؤمنين، وللرضا من بعده عليّ بن موسى، على اسم الله وبركته، وحسن قضائه لدينه وعباده، بيعة مبسوطة إليها أيديكم، منشرحة لها صدوركم، عالمين بما أراد أمير المؤمنين بها، وآثر طاعة الله، والنظر لنفسه ولكم فيها، شاكرين لله على ما ألهم أمير المؤمنين من قضاء حقه في رعايتكم، وحرصه على رشدكم وصلاحكم، راجين عائدة ذلك في جمع ألفتكم، و حقن دمائكم، ولمّ شعثكم، وسد ثغوركم، وقوة دينكم، ووقم عدوكم، واستقامة أموركم، وسارعوا إلى طاعة الله، وطاعة أمير المؤمنين فإنه الأمن إن سارعتم إليه، وحمدتم الله عليه، وعرفتم الحظّ فيه إن شاء الله.

وكتب بيده في يوم الاثنين لسبع خلون من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين[1].



هذا هو العهد الذي كتبه المأمون العباسي في عقد البيعة بولاية العهد للإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام)، وكان ذلك بخط المأمون نفسه كما أفاد الأربلي، ولدى ملاحظة فقراته نجد المأمون فيه خاشعاً منيباً، مؤثراً طاعة

---

(١) الأربلي/ كشف الغمة ٣/١٢٤ - ١٢٧ + المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ١٤٨ - ١٥٢.

الله على الهوى، ومصلحة المسلمين على الرغبة، وقد أحبك أمره فيه إبراماً، إلا أن ملاحظة الدواعي والأسباب -كما سترى- تكشف عن أبعاد سياسية، وتنبيء عن دوافع استراتيجية، كانت كل همه ووكده.

صورة ما على ظهر العهد بخطّ الإمام الرضا

وكما أورد الأربلي رحمه الله صورة العهد بخطّ المأمون، فقد أورد أيضاً صورة ما كان على ظهر العهد بخط الإمام الرضا(عليه السلام)، والأشهاد على ذلك على الجانب الأيمن والجانب الأيسر، وهذا نص ما أورده ونقله عنه صاحب البحار وآخرون:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الفعّال لما يشاء، لا معقّب لحكمه، ولا رادّ لقضائه، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وصلى الله على نبيه محمد خاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين.

أقول: وأنا علي بن موسى بن جعفر، إن أمير المؤمنين عضده الله بالسداد، ووفقه للرشاد، عرف من حقنا ما جهله غيره، فوصل أرحاماً قطعت، وآمن نفوساً فزعت، بل أحياها وقد تلفت، وأغناها إذ افتقرت، مبتغياً رضى ربّ العالمين، لا يريد جزاءً من غيره، وسيجزي الله الشاكرين، ولا يضيع أجر المحسنين.

وإنه جعل إليّ عهده، والإمرة الكبرى إن بقيت بعده، فمن حلّ عقدة أمر الله بشدها، وفصم عروةً أحبّ الله إتمامها، فقد أباح حريمه، وأحلّ محرمه، إذا كان بذلك زارياً على الإمام، منتهكاً حرمة الإسلام، بذلك جرى السالف، فصبر منه على الفلتات، ولم يعترض بعدها على

العزمات، خوفاً على شتات الدين، واضطراب حبل المسلمين، ولقرب أمر الجاهلية، ورصد فرصة تنتهز، وبائقة تبتدر.

وقد جعلت لله على نفسي إن استرعاني أمر المسلمين، وقلدني خلافته، العمل فيهم عامة، وفي بني العباس بن عبد المطلب خاصة، بطاعته وطاعة رسوله(ﷺ)، وأن لا أسفك دماً حراماً، ولا أبيح فرجاً ولا مالاً إلا ما سفكته حدوده، وأباحته فرائضه، وأن أتخيَّر الكفاة جهدي وطاقتي، وجعلت بذلك على نفسي عهداً مؤكداً، يسألني الله عنه، فإنه عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾[1].

وإن أحدثت أو غيّرت أو بدلّت كنت للغِير مستحقاً، وللنكال متعرضاً، وأعوذ بالله من سخطه، وإليه أرغب في التوفيق لطاعته، والحول بيني وبين معصيته في عافية لي وللمسلمين.

والجامعة والجفر يدلان على ضدٍّ ذلك، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، إن الحكم إلا لله يقضي بالحق وهو خير الفاصلين.

لكني امتثلتُ أمر أمير المؤمنين، وآثرت رضاه، والله يعصمني وإياه، وأشهدت الله على نفسي بذلك، وكفى بالله شهيداً.

وكتبت بخطي بحضرة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، والفضل بن سهل، وسهل بن الفضل، ويحيى بن أكثم، وعبد الله بن طاهر، وثمامة بن أشرس، وبشر بن المعتمر، وحمّاد بن النعمان في شهر رمضان سنة إحدى ومائتين.

الشهود على الجانب الأيمن:

شهد يحيى بن أكثم على مضمون هذا المكتوب ظهره وبطنه، وهو يسأل الله ان يعرّف أمير المؤمنين وكافة المسلمين بركة هذا العهد والميثاق، وكتب بخطه في التاريخ المبيّن فيه.

---

(١) سورة الإسراء/ ٣٤.

عبد الله بن طاهر بن الحسين أثبت شهادته فيه بتأريخه .

شهد حمّاد بن النعمان بمضمونه ظهره وبطنه ، وكتب بيده في تأريخه .

بشر بن المعتمر يشهد بمثل ذلك .

الشهود على الجانب الأيسر :

رسم أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قراءة هذه الصحيفة التي هي صحيفة الميثاق ، نرجو أن نجوز بها الصراط ، ظهرها وبطنها بحرم سيدنا رسول الله(ﷺ) بين الروضة والمنبر على رؤوس الأشهاد ، بمرأى ومسمع من وجوه بني هاشم وسائر الأولياء والأحفاد ، بعد استيفاء شروط البيعة عليه ، بما أوجب أمير المؤمنين الحجة به على جميع المسلمين ، ولتبطل الشبهة التي كانت اعترضت آراء الجاهلين ، وما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ، وكتب الفضل بن سهل بأمر أمير المؤمنين ، بالتأريخ فيه[1] .

هذه صورة ما على ظهر العهد من خط الرضا ، وقد أنبأ فيها أن الأمر لا يتم لما ورد في الجامعة والجفر ، وكان التخوّف من الغدر واضحاً فيما كتبه الإمام(عليه السلام) .

❖ ❖ ❖

(١) الأربلي/ كشف الغمّة ٣/ ١٢٨ - ١٣٠+ المجلسي/ البحار ٤٩/ ١٥٢ - ١٥٣.

الفصل الثالث

ما وراء ولاية العهد من دوافع

١- تراكم الأسباب والدواعي بين مكـــر المـــأمون وتحفّظ الإمام

٢- إخماد شعلة النضال الثوري:

أ- اللهيب الثوري في الآفاق

ب- ثورة الكوفة

ج- ثورة البصرة

د- ثورة الحرمين

هـ- ثورة اليمن

و- الثورة في واسط والمدائن

ز- ثورة خراسان

ح- الثورة في الأقاليم الأخرى

٣- التضليل بأن الإمام(عليه السلام) يسعى إلى السلطان

٤- إضفاء صفة الشرعية على النظام العباسي

٥- المأمون يكشف عن نواياه... والمعارضة تتحدث



تراكم الأسباب والدواعي بين مكر المأمون... وتحفظ الإمام

بدت ولاية العهد في الأفق السياسي كسحابة بيضاء في سماء زرقاء صافية، ولكن. . . سرعان ما تبدت في طيات الأثير بين تحفظ الإمام الثاقب، ومكر المامون المبرمج.

إنها الخديعة البلهاء بأبشع صورها، لا من حيث المضمون والمحتوىٰ فهو سليم في حد ذاته، ولكن من حيث الدوافع الكامنة وراء ذلك في حنايا الموضوع وجذور القضية.

وكان لابد للحقيقة أن تتجلىٰ كالشمس الباهرة، وكان لا بد للأوهام العالقة أن تتبخر من أذهان الأمة التي تفاءلت خيراً، وشدها الحدث إليها شداً متيناً، تحت تاثير كثيف من التمهيد المتناغم مع المشاعر.

وليس من الفطرة التلقائية ان يبدو المامون عبداً صالحاً مطيعاً لله ورسوله فيما سعىٰ فيه تجاه الإمام الرضا ليسلمه مقاليد الحكم بأمانة واندماج حقيقيين، وأن يصبح هو وبنو العباس صفر الكفين من الخلافة آنياً أو مستقبلياً، أما آنياً فقد عرضها علىٰ الإمام ورفضها، وأما مستقبلياً فقد أناط به ولاية الحكم فهي تنتقل من بني العباس إلىٰ بني علي (عليه السلام).

«ولم يكن من المنسجم مع سلوك علي بن موسىٰ وسيرة آبائه الأئمة الطاهرين (عليهم السلام) -وهم الزاهدون في الدنيا وزينتها، والمعرضون عن زخارف الحياة وزبارجها، والعارفون من طريق الجفر والجامعة بكثير مما لا يعلمه غيرهم من أخبار الغيوب المأثورة عن النبي (صلى الله عليه وآله)- أن يوافق علىٰ هذا العرض مهما صاحبه من إشارات التهديد والوعيد»[1].

---

(١) محمد حسن آل ياسين/ الإمام علي بن موسى الرضا/ ٧٢.

ولهذا فإننا نرفض دعاوىٰ المأمون بأن مبايعته للرضا كانت بما أوجبه علىٰ نفسه من عهد ونذر، وأنه قد نظر في أهل البيت، فوجد الإمام الرضا أفضلهم وأعلمهم، أو أن الفضل بن سهل هو الذي رجح له هذا الاتجاه، أو أنه أراد أن يصل ما انقطع من أواصر القربىٰ بين بني العباس وأهل البيت(عليهم السلام).

وأين المأمون من هذا كله؟ وهو يسعىٰ دائباً وباستماتة منقطعة النظير إلىٰ تثبيت أركان الحكم لبني أبيه كما هو متضح من برنامجه السياسي.

إن هذه الدعاوىٰ لا دليل علىٰ صحتها إطلاقاً، ولهذا فهي مرفوضة رفضاً باتاً من وجهة النظر العلمية والبحث الموضوعي.

كما أن الإمام الرضا(عليه السلام) بقيادته الفذة البناءة لم يكن علىٰ استعداد نفسي لقبول هذا العرض وأمثاله طلباً لسلطان، أو رغبة في حكم، فهو أبعد الناس تفكيراً بهذا الأمر، وهو معارض بكراهية الإمام لولاية العهد بكل اشكالها الفاعلة كما رايت، وإنما قبل منها -بعد الوعيد- شكلاً اسمياً شاحباً ادرك به أولياؤه، وقادة الفكر كذلك، أنه صورة شاخصة لواقع مرير لايريد معه الإمام تورطاً في مسؤولية، أو اشرافاً علىٰ دولة، أو تفاعلاً مع السلطة، أو إندماجاً في سياسة تائهة يشرف عليها المأمون بدهائه، ويخطط لها ذو الرئاستين بمكره.

ولهذا فإننا نرفض بضرس قاطع ما توهمه المستشرق الكبير الأستاذ «دونالد سن» من ان الإمام الرضا قد تنازل عن سياسة الأئمة الثلاثة الذين سبقوه: الإمام الباقر والإمام الصادق والإمام الكاظم، في الرفض السياسي، و«ان الإمام لا يتمكن من قبول ولاية العهد دون أن يتورط في السياسة»[1]

---

(١) دونالد سن/ عقيدة الشيعة/ ٧٢/ الترجمة العربية/ القاهرة/ ١٣٦٥هـ.

وذلك أن الإمام الرضا لم يخض من خلال ولايته للعهد غمار التيار السياسي، ولا أبدى أي مشروع لتصحيح المسار الثابت الذي اضطلعت به سياسة المأمون، بل قد اعتذر -مسبقاً- عن الدخول في أية مبادرة من شأنها إضفاء صفة المسؤولية السياسية، وقد صرح مراراً بأنه مكره على قبول الأمر، ولا رأي له في هذا التخطيط الجاهز في مؤامرته، وقد أنبأ على مصير هذا العهد بلمح غيبي بما عُهد إليه عن آبائه عن جده رسول الله(ﷺ) أن المأمون «لمّا عهد بالخلافة من بعده إلى علي بن موسى، وكتب إليه كتاب عهده - كتب هو في آخر ذلك الكتاب:

نعم، إلا أن الجفر والجامعة يدلان على أن هذا الأمر لا يتم. وكان كما قال[1] ولم يكن المأمون ليجهل هذا الواقع، فهو يعرفه جيداً، ولكنه قد يتظاهر بماليس في قرارة نفسه لأمر دبّر بليل، فهو يتواضع بين يدي الإمام إلى حد كبير، وهو يعلن ويجهر بفضل الرضا، وزهده وعلمه وورعه، وهو يبجل الإمام في تمويه مفتعل يكسب به جولة ما، أو موقفاً معيناً، أو كلمة عابرة، وهو يتظاهر بالإنابة والاستقامة والهدي المصطنع، وذلك بأعطاء كل ذي حق حقه، والخلافة حق من حقوق الإمام الرضا(ع)، وقد رفضها، فتمسك منه وقنع بولاية العهد.

وفوق هذا كله تحتدم، رغبة المأمون في خداع الإمام وكسب ودّه، عسى أن ينصاع لهذه الرغبة، أو يستجيب لذلك الهاجس، ولكن الإمام لم يكن بحيث يريد، ولم يهزه ذلك الضجيج الكاذب، وكلما استلان المأمون وأبدى غير ما يضمر، تشدد الإمام وأظهر الحكمة والروية، وعزف عن الحديث الذي يديره المأمون إلى وجهة أخرى بذكاء وفراسة واقتدار، فقد روى أبو الصلت الهروي:

---

(١) ابن الطقطقي/ الفخري/ ١٩٢+ حاج خليفة/ كشف الظنون ١/ ٥٩١.

«إن المأمون قال للرضا علي بن موسى(عليه السلام): قد عرفتُ فضلك وعلمك وزهدك وورعك وعبادتك، وأراك أحقّ بالخلافة مني!! فقال الرضا(عليه السلام): بالعبودية لله عزَّ وجلَّ افتخر، بالزهد في الدنيا أرجو النجاة من شر الدنيا، وبالورع عن المحارم أرجو الفوز بالغنائم، وبالتواضع في الدنيا أرجو الرفعة عند الله عز وجل»[1].

وبإجابة الإمام هذه، كان على المأمون أن يغيّر مجرى الحديث إلى سواه، كما غيّره الإمام، ولكنه كان لاهثاً وراء غاية محددة لأسباب ودوافع لا تغيب عن ذاكرة البحث العلمي.

وكان ما قرَّره الأستاذ جعفر مرتضى العاملي جديراً بالأهمية، إذ اعتبر البيعة للإمام الرضا بولاية العهد في طليعة الأحداث التي كان نصيبها الكتمان والإبهام مع أن «هذا الحدث لم يكن عادياً ولا طبيعياً كسائر ما يجري وما يحدث، والذي كان نصيبه من المؤرخين أن يتجاهلوه، ويقللوا ما أمكنهم- من اهميتهِ وخطره، وأن يحيطوا أسبابه ودوافعه وظروفه بستائر من الكتمان، وعندما كانت تواجههم الأسئلة حوله تراهم يرددون تلك التفسيرات التي أراد لها الحكام أن يفهِّموها للناس دون أن يكون من بينها ما يقنع او ما يجدي»[2].

وقد آن للبحث العلمي المتوازن أن يلقي الضوء على طبيعة الظروف القاهرة التي احاطت بالمأمون فجعلته يتخذ هذا القرار، وأن يبحث بعمق تلك الدواعي والنوازع والمسببات لهذا الحدث.

ومهما قيل في الأسباب التي دعت المأمون إلى اتخاذ قراره الصعب، فلنا ان نضمّ بعضها إلى بعض، ونحصرها في أهداف ثلاثة رئيسية، وإن تكن هناك أهداف جانبية أخرى فهي تنطوي ضمن هذه المفاهيم.

---

(١) الصدوق/ علل الشرائع ١/ ١٢٦+ امالي الصدوق/ ٦٨+ عيون اخبار الرضا ٢/ ١٣٩.
(٢) جعفر مرتضى العاملي/ حياة الإمام الرضا/ ١٥.

والحافز الأول الحثيث لهذه الأهداف هو الإبقاء على الحكم العباسي، والنظر العميق لاستمراريته بغطاء من الشرعية المفتعلة وهي دبلوماسية سياسية محكمة دلت على البعد التخطيطي للمأمون، وقد استطاع أن يحقق بعضها وأن يخفف في بعضها الآخر، وهو ما سنراه فيما وراء ولاية العهد من دوافع.

إخماد شعلة النضال الثوري

أ- اللهيب الثوري في الآفاق:

وحينما بويع للإمام الرضا(عليه السلام) بولاية العهد، تنفَّس المأمون الصعداء، وتنسم عبير النجاح، وضرب من فوره على الوتر الحساس، وأعرب عما في نفسه من الغرض المركزي للعملية كلّها، وطلب إلى الإمام تهدئة الأوضاع الثائرة في الأقاليم، وقال للإمام: «يا أبا الحسن، انظر إلى بعض من تثق به، وتوليه هذه البلدان التي قد فسدت علينا!!

فقال له الإمام الرضا: تفي لي وأفي لك، إنما دخلت فيما دخلت على أن لا آمر، ولا أنهى، ولا أعزل، ولا أولّي، ولا أسيِّر حتى يقدمني الله قبلك!!

فو الله إن الخلافة لشيء ما حدثتُ به نفسي، ولقد كنت بالمدينة أتردد في طرقها على دابتي، وإن أهلها وغيرهم يسألوني الحوائج فاقضيها لهم، فيصيرون كالأعمام لي، وإن كتبي لنافذة في الأمصار، وما زدتني من نعمة، هي عليّ من ربي. ؟ فقال المأمون: أفي لك»[1].

وفي الكافي عن معمّر بن خلاَّد، قال: قال لي أبو الحسن الرضا(عليه السلام): قال لي المأمون: يا أبا الحسن، لو كتبت إلى بعض من يطيعك في هذه النواحي التي فسدت علينا..[2].

---

(١) الصدوق، عيون أخبار الرضا ٢/ ١٦٧+ المجلسي/ البحار ٤٩/ ١٤٤.
(٢) الكليني/ الكافي ٨/ ١٥١.

ثم أورد ما في الرواية السابقة، وهنا تبين الهدف السياسي من ولاية العهد في إخماد الحروب، وإسكات الصوت الثوري.

وكان طبيعياً أن تجف ينابيع الأمان والاستقرار، وتتبدد مع الضباب المتطاير مشاعر الحياة، وتركد نسائم الحرية المرتقبة. وهذا ما يسمح بانتشار الظلام الكئيب في الحقل والمصنع والندوة والديوان، وأن يسود الصمت الرهيب في كراهية قاتلة.

وكان رعيل من العلويين في بقاع الأرض، قد وحدوا صفوفهم، وحاولوا اختراق الحاجز الحديدي للنظام العباسي عقب احتدام الصراع الدموي بين الأمين والمامون، وكان حب النزال والقتال اضطرارياً بالنسبة لهذا الرعيل من العلويين، وكان قدراً تاريخياً لا مفرّ عنه إلىٰ سواه، أكانوا مصيبين في ذلك أم مخطئين، فمادام الحاكم الظالم غارقاً في بحر تحدياته وجرائره، وهو لا يريد أن يغير من مفارقاته شيئاً، ولا أن يتنازل عن سياسته في القتل والإبادة والاغتصاب وتجريد الحقوق، فما عليهم إلا أن يجردوا سيف النضال، وأن يسلكو طريق الثورة.

ولم يكن هذا القرار ظاهرة غريبة في ظل الحكم الإرهابي للعباسيين، فقد سبقته أحداث دامية في عهد المنصور والمهدي والرشيد، واندلع من خلالها اللهيب كالبركان الثائر المحموم، مما حمل العلويين بالضرورة إلىٰ النزال الهادر في ميدان المعارك الدامي، مما حتّمته أمواج المظالم في عهد الطغيان العباسي، فسلت السيوف، واشرعت الرماح، وانتظمت الكتائب، وعم الهياج في طريق غامضة المصير.

وكانت الوثبات المتتالية من قبل المعارضين في حياة الإمام الرضا(عليه السلام)، قد اتخذت الكفاح المسلّح شعاراً، والعنف الثوري نهجاً جديداً.

«ولو القينا نظرة معمقة علىٰ خارطة الوطن الإسلامي بحواضره الكبرىٰ واقاليمه المهمة، لراينا الثورات والانتفاضات في تلك الحقبة من

التاريخ، قد شملت معظم تلك الأنحاء، وان قادة تلك الحركات أو رموزها البارزين كانوا من العلويين، وان تجاوب الناس معهم كان جيداً في عموم تلك الجهات، بل شديداً جداً في بعض الأطراف منها، وان الدولة غير قادرة بجيشها المتفرق وخليفتها القابع في أقصى الشرق في خراسان أن تدير المعركة على جميع الجبهات، تضمن الفوز والانتصار في معاركها العسكرية في كل تلك الأماكن»[1]

ولو أردنا بتلخيص مركّز أن نقف على أبعاد هذه الثورات في القصبات والأقاليم، والإشارة إلى مجرياتها لحددنا أهمها بالآتي:

ب- ثورة الكوفة:

والكوفة علوية العواطف، والعقيدة، وهي قبلة التشيّع، وقمة الولاء لأهل البيت (عليهم السلام)، وتشكل مركزاً خطيراً بالنسبة للدولة العباسية، ففيها بويع أبو العباس السفاح، وفي تلاعها ترعرع أبو سلمة الخلال، وفيها انتشر قادة الدعوة العباسية، كما كانت ملجأ الاستتار للسفاح والمنصور، ومنها تسرب الدعاة إلى المشرق بعد المدينة المنوّرة، وهي بعد أقرب الحواضر إلى بغداد عاصمة العباسيين، وتأثيرها -عادة- يكون له أبلغ الوقع في الأحداث دون ريب.

من الكوفة الغراء انطلق محمد بن إبراهيم المعروف بابن طباطبا في ثورته الهائلة عام ١٩٩هـ، داعياً إلى الرضا من آل محمد والعمل بالكتاب والسنة، وكان على قيادتها: أبو السرايا، واسمه السري: ابن منصور[2].

وكان خروجه مواكباً لنكبة طاهر بن الحسين الخزاعي وصرفه عن قيادة الجيش، وما كان عليه من أعمال البلدان.

---

(١) محمد حسن آل ياسين/ الإمام علي بن موسى الرضا/ ٧٦.

(٢) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥٢٨/٨.

وكان المأمون قد وجه بدلاً عنه : الحسن بن سهل «فلما فعل ذلك تحدث الناس بالعراق بينهم أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون . . فغضب لذلك بالعراق مَنْ كان بها من بني هاشم ووجوه الناس ، وأنفوا من غلبة الفضل بن سهل على المأمون ، واجترؤوا على الحسن بن سهل بذلك ، وهاجت الفتن في الأمصار ، فكان أول من خرج بالكوفة ابن طباطبا»[1] .

واستقر محمد بن إبراهيم «ابن طباطبا» في الكوفة ، واتخذها مقراً له ولأوليائه وعسكره ، بعد أن استولى عليها وعلى ما حولها من القصبات ، و أقبل عليه المبايعون من الحواضر والأعراب ، وعظم أمره هناك «فأرسل الحسن بن سهل من بغداد جيشاً قوامه عشرة آلاف بين فارس وراجل بقيادة زهير بن المسيب ، واشتبك الجيشان في معركة حاسمة انتهت بهزيمة زهير وجيش السلطة ، واستباحة عسكره ، وغنيمة ما معه من مال ، وسلاح ، وذخيرة ، ودواب ، وسوى ذلك[2] .

وتطورت ثورة ابن طباطبا ، وخاضت معارك ضارية في أنحاء من العراق ، فاستولت على المدائن وديالى وأطراف البصرة وواسط[3] .

وفجأت المنية ابن طباطبا ، فاستقل أبو السرايا بالأمر ، وعلا شأنه .

وكان هو وأتباعه لا يلقون جيشاً إلا هزموه ، ولا يتوجهون إلى بلدة إلا دخلوها[4] . ويقال إن ابا السرايا قد قتل من أصحاب السلطان مائتي الف رجل ، مع ان حياته في الحكم لم تزد على عشرة أشهر من حين خروجه حتى مقتله[5] .

---

(١) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٥٢٩+ ابن الأثير/ الكامل ٥/ ١٧٣ - ١٧٤.
(٢) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٥٢٩/٨+ ابن الاثير/ الكامل ١٧٥/٥.
(٣) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٥٢٩.
(٤) أحمد امين/ ضحى الإسلام ٣/ ٢٩٤.
(٥) ابو الفرج الأصفهاني/ مقاتل الطالبيين/ ٥٥٠.

ومع أن هذه المدة قصيرة جداً في حياة الأمم والشعوب ، إلا أن أبا السرايا قد استطاع ان يضرب الدراهم في الكوفة .

وانتشر الطالبيون في البلاد[1] .

ج- ثورة البصرة :

والبصرة آنذاك عثمانية الهوى ، وفيها بقايا ممن يتعاطف مع طلحة والزبير ، على أن أبدالها -وهم قلة- كانوا مع امير المؤمنين علي (عليه السلام) .

ومع هذا وذاك فقد اعلن فيها زيد بن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) وهو أخو الرضا ، ثورته العارمة على النظام العباسي ، ومعه جملة من أهل بيته وأصحابه ، وتجاوبت معه البصرة تجاوباً غريباً ، وأيدت حركته ، وكثر اتباعه ، وتفرعن أصحابه ، وسمي بـ «زيد النار» لكثرة ما أحرق من دور بني العباس وأتباعهم بالبصرة[2] .

وبعد حروب دامية بين أهل البصرة وقوات السلطة ، انتهت ثورته الدامية النارية بالاستسلام بعد خطوب وخطوب ، وسفّر إلى المأمون في مرو ، وعفا عنه المأمون ، وقاطعه الإمام الرضا كما سبقت الإشارة .

د- ثورة الحرمين :

وخرج في مكة ونواحي الحجاز محمد بن جعفر العلوي ، وخلع المأمون سنة ١٩٩ هـ ، ودعا إلى نفسه ، فبايعه أهل الحجاز وتهامة بالخلافة ، وقيل تسمى بـ «أمير المؤمنين»[3] .

---

(١) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٨/٥٢٩ - ٥٣٠+ ابن الأثير/ الكامل ٥/١٧٥.

(٢) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٥٣٥.

(٣) ظ: المسعودي/ مروج الذهب ٣/ ٤٣٩.

وهو غريب في بابه إذ لم يعرف بهذا الاسم عند العلويين إلا الإمام علي وحده، وقد لا يصح ذلك عنه، لاسيما أن المؤرخين قد وصفوه بأنه كان: «شجاعاً، عاقلاً، فاضلاً»[1].

أما المدينة المنوّرة، فقد خرج فيها على المأمون، محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

وقد دخلها عنوة بدون قتال[2].

هـ- ثورة اليمن:

وفي اليمن خرج إبراهيم بن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)، ثائراً داعياً إلى الله عز وجل[3].

ولما سمع إسحاق بن موسى بن عيسى والي اليمن من قبل المأمون «بإقبال إبراهيم بن موسى العلوي، وقربه من صنعاء، خرج منصرفاً عن اليمن» فاستولى إبراهيم على اليمن دون حرب[4].

و- الثورة في واسط والمدائن:

وفي واسط أعلن الثورة وخرج بها جعفر بن محمد بن زيد بن علي، ومعه جماعة من العلويين.

وفي المدائن: خرج محمد بن إسماعيل بن محمد[5].

وهكذا نجد ثورات العلويين تجتاح الأقاليم، ويصعق لها المأمون، فيهتدي إلى خدعة ولاية العهد.

---

(١) ابن قتيبة/ المعارف/ ٣٨٩+ الخطيب البغدادي / تاريخ بغداد ٢/١١٣ - ١١٥.

(٢) ظ: الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٥٣١+ المسعودي/ مروج الذهب ٣/ ٣٤٩.

(٣) ظ: محمد حسن آل ياسين/ الإمام علي بن موسى الرضا/ ٧٨.

(٤) الطبري/ تاريخ الإمام والملوك ٨/ ٥٣٥ - ٥٣٦+ ابن الأثير/ الكامل ٥/ ١٧٧.

(٥) ظ: اليعقوبي/ التاريخ ٣/١٧٣+ ابن كثير/ البداية والنهاية ١/٢٤٤.

والطريف فيما تقدم أن نجد أهل الشام، وهم الأمويون الأقحاح، يكتبون إلى محمد بن العلوي صاحب أبي السرايا: أنهم ينتظرون أن يوجه إليهم رسولاً ليسمعوا له ويطيعوا!![1]

ز- ثورة خراسان:

وكان الحسن الهرش قد أعلن الثورة في خراسان سنة ١٩٨هـ، حيث رئاسة الدولة وإقامة المأمون، ومقرّ الجيوش، وكان يدعو إلى الرضا من آل محمد، فيجبي الأموال، وانتهب واردات الدولة، وكان له أثره في تلك الأصقاع.

ح- الثورة في الأقاليم الأخرى:

ولم تكن ثورات العلويين وحدها مما يعكر صفو الأمين واستقرار الدولة، فهناك حركات متفرقة، انهكت جيش المأمون، وعرضت خزينة الدولة لتكاليف باهظة، فقد تغلب حاتم بن هرثمة على أرمينية، وكان هو السبب في خروج بابك الخرمي.

وتغلب نصر بن شبت على كيسوم وسمسياط وما جاورها، وعبر الفرات الجانب الشرقي، وكثرت جموعه، ولم يستسلم إلا سنة ٢٠٧هـ.

بل والأدهى من هذا ما حدث من المصريين من قتال مرير، فالقيسيون مناصرون للأمين، واليمانيون للمأمون، وهلم جرا[2].

يقول الأستاذ محمد حسن آل ياسين:

«هكذا كان الوضع العام في بلدان الخلافة وأقاليم المسلمين، وهكذا سادت الفوضى وعم الاضطراب، وتمزقت وحدة الدولة ووحدة الكلمة

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني/ مقاتل الطالبيين/ ٥٣٤.

(٢) ظ: جعفر مرتضى العاملي/ حياة الرضا/ ١٨٥ وانظر مصادره.

أفظع تمزق، وفعلت هذه الانتفاضات فعلها في شتى الأرجاء.. والمأمون على علم بكل ذلك، وعلى علم بأن العلويين هم رموز هذا الزلزال العنيف ومشاعله المضيئة، ولهذا فكّر وقدّر في أمهد سبيل للنجاة من هذا المأزق الخطير، فلم يجد أضمن لبلوغ الغاية المتوخاة من تجريد الخصوم من سلاحهم الجاذب للجماهير، وهو (الدعوة للرضا من آل محمد) فعمل مسرحية ولاية العهد لإطفاء الحريق وإنقاذ الموقف، والاطمئنان إلى سلامة المستقبل، وتظاهر بالحماس الشديد والإخلاص المطلق لهذا الاختيار»[1].

وبلغ المأمون غايته في هدف مزدوج، فأوقف هذا السيل الهادر بالموج الثوري، وطيَّب أحاسيس العلويين، وسخَّر لهذا المناخ المستعر ما يطفئ لهبه في ثورة مضادة جعلت من الإمام الرضا(عليه السلام) ولياً للعهد بالإكراه، وجلب هذا الأسلوب المفتعل الضعفاء والمضطهدين أولياء وأنصاراً، ولكن ذكاء الإمام وحده، حال دون مرور المؤامرة بسلام، فأشار إلى الفساد الإداري، ونوّه بواقع الدجل السياسي، ولم يعفِ السلطان من مسؤولية المغامرة بالأمة، والمغامرة بمقدرات المسلمين، فسوطه يلهب الظهور، وجوره يأخذ بالأعناق، وولاته يسومون الناس نهباً واعتسافاً وظلماً، وتتدهور الحياة الاجتماعية بالغدر والبطش والأحكام العرفية المستحدثة، لترجع إلى عصور الغاب في وحشية جديدة، وهي تجتر كوابيس الاضطهاد ضد الشعوب، وسياستها كالجحيم تلتهم الألوف عياناً وتدعو: هل من مزيد؟

ومع هذا كله فقد كان مستقبل الخلافة العباسية في مهِّب الريح، مهدداً بالخطر الداهم، فالهوة بين الحكم وبين الشعب المسلم هوّة عميقة لم يسد ثغراتها التودّد الكاذب للقادة والجند من قبل المأمون، ولم يمنع تفاقمها سفك الدماء في قسوته، ولا هتك الأعراض في لا مبالاته، ولا مصادرة

(١) محمد حسن آل ياسين/ الإمام علي بن موسى الرضا/ ٧٨ - ٨٠.

المتلكات في شدة إجراءاته، بل على العكس فقد ازدادت النقمة، وتطاولت الفتنة، تنذر بالانقضاض على ذلك الكيان المعقّد، فالعلويون في ثورات متلاحقة تحاول الإطاحة بالولاة وأتباع السلطان، وتعمل لإضعاف الدولة واستنزاف مواردها في تعبئة الجيوش وإعداد البعوث.

والعباسيون في حنق غاضب لأمرين أساسيين: قتل الأمين أولاً، وتسليط الفرس في المناصب والدواوين والجيش ثانياً.

والعرب بعامة؛ لاثقة لهم بسياسة الفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل في كل من خراسان وبغداد.

والأقاليم في صخب شامل، وهي ترفض بإصرار توجهات المأمون في الحل والعقد والنقض والإبرام، وإمعانه في حبك المؤامرات.

وجماهير الأمة تشتكي الذل والمهانة والفقر والإدقاع، وتناضل من أجل حياة أفضل ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

وها هو الإمام الرضا(عليه السلام) سيد قريش وزعيم بني هاشم، رابض كالأسد الجريح، تخاف صولته، ويخشى انصياع الناس إليه، فهو المرشح لقيادة الأمة حتى من قبل أعدائه!! فالخدعة إذن تقتضي أن تناط به ولاية العهد إلى حين، أو في الأقل حتى يهدأ الطوفان وتستقر العواصف. وهذا ما كان.

يقول الأستاذ السيد جعفر مرتضى العاملي:

«لا يمكن أن تتصور المأمون الحريص على الخلافة حرصه على نفسه، والذي قتل اخاه من أجلها، وأتباعه، بل وحتى وزراءه هو وقوّاده وغيرهم.

وأهلك العباد وخرّب البلاد، حتى لقد خرّب بغداد بلد آبائه، وأزال محاسنها، لا يمكن أن نتصور المأمون الذي فعل كل ذلك وسواه من أجل

الحصول على الخلافة . . أن يتنازل عنها بهذه السهولة، ومع هذا الإلحاح والإصرار منه لرجل غريب، ليس له من القربى منه ما لأخيه، ولا من الثقة به ما له بقوّاده ووزرائه.

أيعقل أن تكون الخلافة أعزّ من هؤلاء جميعاً؟ والرضا فقط هو الأعزّ منها»[1].

كلا، ولكن عليه أن يداهن ويهادن، ويتحبب ويتقرب، وأن يتعامل مع المستجدات الرهيبة بدهاء ومكر، ومداراة، وذلك لأمرين: الأول: أن يثبّت دعائم الحكم العباسي وفق منطلق ثابت لا يتزعزع من النظام الوراثي والملكي، والثاني: تحقيق مصلحة الدولة التي يريدها لنفسه راسخة مستقرة.

فأظهر من السيرة المرنة التي استوعبت فصيلاً من الشيعة، ورعيلاً من المعتزلة، وكثيراً من السنّة!! وما عليه أن يُتَّهم ظاهراً بالتشيع، فقد كان قاصداً لهذا، فهو مما أطفأ به الثورات، وبه يتودد للخراسانيين الذين أصبحوا عمد الدولة وعمادها، وبه يحكم الصلة المدَّعاة مع الإمام الرضا ولي عهده!! ولم يكن كلُّ هذا عقيدة للمأمون على الإطلاق، ولا هو شأنه وشأوه، ولكنه الدهاء السياسي الذي يقرّبه من ذلك الألق الوهّاج في نفسه وضميره، وهو العرش.

ومن هذه النزعة أراد الارتباط بالإمام الرضا(عليه السلام) بهدف آخر، عسى أن ينجح به، أو يموّه فيه قدر المستطاع، وهو إظهار الإمام الرضا بمظهر الراغب بالحكم -وحاشاه- أو الطالب للسلطان!! أو المقبل على الدنيا!! فهل استطاع ذلك؟ أو حقق شيئاً منه؟ الوثائق التاريخية تثبت خلاف ذلك!!

---

(١) جعفر مرتضى العاملي/ حياة الرضا/ ٢٨٦.

التضليل بأن الإمام يسعى إلى السلطان

وهنا هدف مركزي يلحّ في نفس المأمون إلحاحاً، ويخامر مخيلته ليلاً ونهاراً، وهو تضليل الأمة وإغراء السواد الأعظم: بأن الإمام الرضا(عليه السلام) كان يسعى إلى السلطان فلا يستطيعه، أما الآن فقد اغتنم الفرصة بتسلم الحكم ومتابعة شؤونه.

فهو بهذا لا يختلف عمن سواه من رائدي السلطة وعشاقها، إلا أن المأمون ما استطاع أن يترك أثراً في النفوس نتيجة هذا التضليل، فهو زعمٌ كاذبٌ لا أكثر ولا أقل، وما كان ليخفى على أحد اهتزاز موقف المأمون في هذه المحاولة الفاشلة، وما كان ليغيب عن الأذهان ذلك التصلب الجادّ في موقف الإمام من الأحداث، ولا طبيعة نظرته الناقدة للانعطاف التاريخي الخادع، فهو من تلك الصفوة النادرة التي ترقب المعيار الصادق في التقييم، وهو من القلّة الشامخة التي رفضت الدنيا واتجهت بتصرفها نحو الله، فرفض الخلافة التي زعم المأمون أنه سيتخلى عنها وينيطها بالإمام، وأبى ولاية العهد فما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والإمام الرضا(عليه السلام) يصدر في هذا المسلك عن زهد واقعي في المظاهر الزائلة كافة، وقناعة تامة أن هذا هو منهج آبائه المعصومين، «والأئمة المطهرون لم يكونوا في يوم من الأيام طلاب حكم أو عشاق سلطة، ولم يعرف عن أي واحد منهم أن له هوًى في عرش، أو رغبة في سلطان»[1].

لهذا كان طبيعياً ما قرره الإمام في هذا الشأن بقوله:

---

(١) محمد حسن آل ياسين/ الإمام علي بن موسى الرضا/ ٧٢؟

«إنما دخلت في هذا الأمر الذي دخلت فيه على أن: لا آمر، ولا أنهى، ولا أولّي، ولا أعزل»[1].

وقد سبق لنا القول أن الإمام كان كارهاً لولاية العهد، وحينما استجاب نتيجة الضغط والتهديد بالقتل كانت استجابته شكلية، لئلا يذهب ضحية بلا قضية، ولكنه احتاط لنفسه ولدينه، فلم يمارس شؤون الدولة، ولم يتمتع بأية سلطة، ولم يشرف على إدارة الحكم، فهو بعيد البعد كله عن هذه الأطاريح التي يهلّل غيره لها ويكبّر.

وكان هدف المأمون هدفاً استراتيجياً، فمضافاً إلى إخماد ثورات العلويين، وإطفاء لهب الحروب في الآفاق، أراد -فيما يزعم- أن يبدد هالة القداسة التي تحيط بأئمة أهل البيت(عليهم السلام)، وأن يصورهم بأنهم رجال حكم ودعاة سلطان، وما زهدهم في الدنيا إلا لأنها لم تتح لهم!! وقد اقبلت الدنيا، فهم يرغبون بها، ويعملون لها، ويتهافتون عليها!!

هكذا أراد المأمون، ولكن سيرة الإمام المتوازنة قد أذاقته المرارة والشجا، فما استطاع أن يثبت ما يزعم، ولا استطاع أن يصل إلى ما يريد.

وأول ما فجئ به رأي الإمام، وهو يدفع عنه نفسه الخلافة والولاية، فقد بهته المأمون بقوله: «يا ابن رسول الله؛ إنما تريد بقولك هذا التخفيف عن نفسك، ودفع هذا الأمر عنك، ليقول الناس أنك زاهد في الدنيا»[2].

حينذاك قال الإمام - وهو يكشف حقيقة مؤامرة المأمون عليه:

«والله ما كذبت منذ خلقني ربي عزّ وجلّ، وما زهدت في الدنيا للدنيا، وإني لأعلم ما تريد!!

---

(١) الكليني/ الكافي ٨/ ١٥١.

(٢) ظ: الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ١٣٩+ علل الشرائع ١/ ٢٢٦+ أمالي الصدوق/ ٦٨+ المجلسي/ البحار ٤٩/ ١٢٩.

فقال المأمون: وما اريد؟

قال الإمام: الأمان على الصدق!!

قال المأمون: لك الأمان.

قال الإمام الرضا: تريد بذلك ان تقول للناس: إن علي بن موسى لم يزهد في الدنيا، بل زهدت الدنيا فيه!! الا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة؟

فغضب المأمون، ثم قال: إنك تتلقاني أبداً بما أكرهه، وقد أمنت سطوتي، فبالله أقسم: لئن قبلت ولاية العهد وإلا اجبرتك على ذلك!! فإن فعلت، وإلا ضربت عنقك!!»[1].

وكانت إجابة الرضا لقبول الولاية نابعة من صميم تعليمات القرآن العظيم، فقد قال المأمون بعد هذا الوعيد الصارخ: «قد نهاني الله عز وجل ان القي بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا، فافعل ما بدا لك، وانا اقبل ذلك على اني: لا أولي احداً، ولا اعزل احداً، ولا أنقض رسماً أو سنَّة، وأكون في الأمر من بعيداً مشيراً».

فرضي منه المأمون بذلك، وجعله وليّ عهده على كراهة منه لذلك[2].

ومهما يكن من أمر، فإن اختيار المأمون للإمام الرضا ولياً للعهد الذي لم يقبل إلا بعد التهديد بالقتل، كان ينطوي على مغامرة لا تنسجم مع ما هو معروف عن المأمون من الدهاء، والسياسة، إذا ما اخذت مكانة الإمام (عليه السلام) ونفوذه بنظر الاعتبار مع ملاحظة: انه هو الذي كان يشكّل اكبر مصدر للخطر على المأمون ونظام حكمه، حيث كان يحظى بالاحترام والتقدير والتأييد الواسع في مختلف الفئات والطبقات في الأمة الإسلامية..

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ظ: المصادر السابقة وصفحاتها نفسها.

وحيث كان الإمام يكبره بـ «٢٢» سنة، فَجَعْلُ ولاية العهد لرجل بينه وبين الخليفة الفعلي هذا الفارق الكبير بالسن، لم يكن يشكل خطراً على الخلافة، إذ لم يكن من المألوف أن يعيش ولي العهد، لو فرض سلامته من الدسائس والمؤامرات!! إلى ما بعد الخليفة الفعلي، فإن ذلك من الأمور التي يبعد احتمالها»[1].

لهذا فإننا نجد أن المأمون قد تجاوز هذه العقبة، وأعقبها بمرسوم يقضي بان يخطب للرضا في كل البلدان والأقاليم لولاية العهد، وبأن يزال السواد من الأعلام والملابس لتحل محله الخضرة، كما أمر أن تضرب له الدنانير والدراهم، ويطبع عليها اسمه[2].

وذكر الأستاذ الشيخ محمد حسن آل ياسين نقلاً عن مجلة المسكوكات: أن المتحف العراقي ببغداد يحتفظ بدينار المأمون الذي ضربه باسم ولي عهده الإمام الرضا بسمرقند سنة (٢٠٢هـ) وهو من الذهب[3].

وكان هذا العمل من المأمون إيغالاً في الخدعة وتضليلاً للرأي العام.

وفشلت خطة المأمون الإعلامية التي حرص على إثارتها بأن الإمام(عليه السلام) انساق وراء الأبهة والسلطان، وذلك لما عرف به الإمام من القدسية والتقوى، والعزوف عن الظواهر التي لا تليق بأولياء الله.

وكان ورعه وزهده وتقواه خير ردٍّ عملي على تلك المراصد التي نصبها المأمون، ولئن انخدع بذلك بعض السواد، فاعترضوا على الإمام وأجابهم، فما بال الخداع ينطلي على قادة الفكر، وما بال هؤلاء يُسِفُّون إسفافاً سخيفاً في دعاوى باطلة؟ فهذا الدكتور أحمد أمين، الذي كتب عن

---

(١) جعفر مرتضى العاملي/ حياة الإمام الرضا/ ٢٠٨.

(٢) ظ: اليعقوبي/ التاريخ ٣/١٧٦+ ابن الأعثم/ الفتوح ٨/٣٢٣ +الجهشياري/ الوزراء والكتّاب: ٢٥٦.

(٣) ظ: محمد حسن آل ياسين/ الإمام علي بن موسى الرضا/ ٦٤.

«فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» و«ظهر الإسلام» يحاول أن يعيد عبثاً ما فكّر به المأمون، بل زاد على ذلك في مفتريات لا أساس لها، فردد القول الهزيل: «إن الأئمة العلوية تَزْعُم كل حين أنهم إذا ولّوا أمر الرعية، ساسوها بالعدل المطلق، وفرق كبير بين الدعوى والواقع، وقد شكا المأمون من هذا، فقد رأى أن الأئمة يختفون عن الأعين، ويرتكبون من الأثم ولا من يراهم، ويعرف قيمتهم، فقال: إن من الخير للناس أن تظهر هذه الأئمة حتى يعرفوا زلاتهم، ولا يقدسونهم هذا التقديس، علماً بأنهم إذا ظهروا على مسرح الحياة وبان للناس كيف يحكمون، وكيف يرتكبون ما حرّم الله!! سقطوا من أعينهم، ولكن ما داموا مضطهدين مختفين مكتفين بالدعوة، بقي العطف عليهم في الناس، ولذلك اعتزم ان يولي علياً الرضا»[1].

وهذا الكلام اعتداء صريح على قدسية أهل البيت(عليهم السلام) وتطاول وقح على الأئمة المعصومين، وتهريج فارغ لا ينسجم مع الروح العالية للبحث العلمي، ولا يستند إلى دليل نصي، أو تاريخي أو استقرائي، ولا شبه دليل على الإطلاق. إنه منعطف التعصب الأعمى الذي نهد به، الدكتور أحمد أمين في سلسلة من آرائه الفجّة الغليظة الجافة الملتوية، بما يكيله للأئمة وأتباعهم من التهم والإشكاليات المدعاة، فيخبط بها خبط عشواء بعيداً عن الأصالة والموضوعية، مما يكشف عن مبدأ ناصبي عميق يحتضنه بين جنبيه، فهو يكيد لبيت النبي(صلى الله عليه وآله)، وهو يناوئ التشيّع بمعناه الدقيق مناوأة غير شريفة، بل وغير بريئة يمليها عليه الانحراف عن الخط المستقيم، ولنا أن نحتج عليه بالآتي:

١- ما قدّر لأئمة أهل البيت(عليهم السلام) أن يتسلموا زمام الحكم بالشكل الذي فرضه الله تعالى، بل مارسوا مسؤولياتهم القيادية -دون الحكم- باعتبار المنصب الإلهي في الإمامة.

---

(١) ظ: أحمد أمين/ المهدي والمهدوية/ ٦١ - ٦٢/ سلسلة اقرأ/ القاهرة.

نعم، تسلم الحكم الإمام علي(ﷺ)، بعد ربع قرن على مضي إمامته، ورغم كل العقبات والكوارث التي كانت تعترض سبيله، فقد أثبت في مدة خلافته الراشدة كونه: قائداً محنّكاً، وإماماً لا يشق غباره، ورائداً سياسياً وفق تعليمات القرآن والسنة، وزعيماً متمرساً جمع إلى ثبات القلب وشجاعة اليد والجنان؛ أصالة الرأي، وموضوعية الهدف، وقد امتاز حكمه بالعدل الاجتماعي الباهر، فكان الناس عنده سواسية، فلم يفرق بين عربي وأعجمي، ولا بين حرّ أو عبد، ولا بين قرشي أو نبطي، فهو العادل بالرعية والقاسم بالسوية، بإجماع من المسلمين، لم يضع حجراً على حجر، ولم يحتجز مالاً، ولم يدّخر وفراً، ولم يمتلك ارضاً اوعقاراً، ولم يقدم الأبناء والأسباط والأصهار والأرحام على الآخرين، وقد أعطى كل ذي حق حقه دون تميز او انحياز، مما شهد على شدته في ذات الله، وكفايته في قيادة المسلمين، وبذلك ضرب المثل الأعلى للخلافة الرشيدة الحقة.

وحكم الإمام الحسن(ﷺ) نحواً من ستة اشهر، سالكاً نهج ابيه في الهدي والاستبصار، مستضيئاً بنور علمه وعدله، مما حقق به العدل المطلق الذي يتباكى عليه احمد أمين بدموع التماسيح.

٢- ولسائل أن يسال، متى اختفى الأئمة عن الأعين؟ وهم سراج الكون ومصباح الدنيا؟ ومتى ارتكبوا من الإثم ما يراه الباحث في نصبه، وليس لديه من اثر واحد يعزّز به ادعاءه الظالم، ولا شبهة صغيرة أوكبيرة تدعم دعواه المزيّفة، إذ لم يُعرف عن الائمة -تاريخياً- انهم دعاة باطل، او رجال إثم، او مرتكبو حرام. وقد اطلع المسلمون على واقعهم زرافاتٍ ووحداناً، فما خبروا إلا خيراً، ولا علموا إلا براً، وشهد لهم خلفاء الجور المعاصرون لهم بالاستقامة والنقاء والطهر!! وعُرفوا لدى الخاصة والعامة

بالزهد والإنابة والتقوىٰ، فقدسهم الجميع حق التقديس بعد التجربة، والعيان والمشاهدة!!

وأنىٰ يصطدم الإثم بالأئمة وهم خلاصة العالم في السلوك الألهي؟ وهم خلفاء الله في أرضه!! وحججه علىٰ عباده، وأمناؤه في بلاده؟.

فهلا أعطانا أحمد أمين وثيقة تاريخية عابرة -ولو مزورّة- علىٰ ما ادعاه من البهتان والأفك العظيم!!

٣- لقد تولىٰ الإمام الرضا (عليه السلام) ولاية العهد بالإكراه كما أثبتنا ذلك بالدليل، ومع هذا فقد اشترط أن لا ينصب ولا يعزل، ولا يقضي ولا يحكم في أي أمر، ولا يتدخل بمشروع الدولة، تحرجاً من الظلم والجور، إذ لا يستطيع تغيير الواقع السياسي القائم علىٰ الإثم والعدوان، ولا يريد أن يضفي أية صفة شرعية للحكم.

ولنا أن نتساءل عن تلك الآثام المزعومة التي ارتكبها الإمام، أين هي؟ ومتىٰ كانت؟ ومن قال ذلك؟ وما هو المصدر الذي ذكرها؟ وأي مؤرخ فاه بها؟ ثم دعت إلىٰ تزلزل العقيدة في قدسية الإمام، وأسقطته -والعياذ بالله- من أعين الناس؟

إن دعوىٰ أحمد أمين اعتداء سافر لم يرقب به الضمير، ولم يؤد الأمانة العلمية في البحث الموضوعي، ولا التمس بها الحق إطلاقاً، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

وهلاّ -إن كانت هنالك مآثم- شهّر بها المأمون؟ وهو الذي أراد أن يعرف الناس زلات الأئمة كما يقول أحمد أمين؟ وهلاّ أمسك خطأ واحداً او زلةً ما علىٰ ولي عهده؟ طبعاً لم يكن هنالك شيء حق في الوهم!! لهذا عاد المأمون صفر الكفّ من كل هذا، وعمد إلىٰ التخلص من الإمام في نهاية

---

(١) سورة التوبة/ ٣٢.

المطاف، إذ لم تحقق له ولاية العهد الأمل المنشود، بل عاد الإمام مثلاً أعلى لدى الناس في مظاهر التورع الذاتي، والخشوع للحق سبحانه وتعالى، وتأثروا بذلك فازداد الالتفاف حول الإمام، وتوهج نجمه لمعاناً في الأفق.

٤- وحينما تتحدث الشيعة الإمامية، عن حق أهل البيت(عليهم السلام) بقيادة الأمة مركزاً دينياً وسياسياً، فإنما تعني بذلك الأئمة الاثني عشر الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، ولا يشمل هذا التقرير سواهم من الحاكمين الذين ألصقوا انفسهم بأهل البيت إلصاقاً، وهم لا يمتون إليهم بصلة رسالية، فالمعيار إذن ذلك المنهج الواضح الذي اختطه الأئمة الاثنا عشر(عليهم السلام).

ومهما يكن من أمر، فإن المأمون قد صرّح بهدفه الحقيقي وراء ولاية عهده، فيما قررّه من القول لقادة بني العباس، ولحميد بن مهران، حينما لاموه على ما اقدم عليه، فقال: «قد كان هذا الرجل -يعني الإمام الرضا- مستتراً عنا يدعو إلى نفسه، فأردنا أن نجعله ولي عهدنا ليكون دعاؤه لنا، وليعرف بالملك والخلافة لنا، وليعتقد فيه المفتونون به!! أنه ليس مما ادعى في قليل ولا كثير.. وخشينا إن تركناه على تلك الحال ان ينفتق علينا منه ما لا نسدّه، ويأتي علينا منه ما لانطيقه، والآن فإذ قد فعلنا به ما فعلنا، واخطأنا في أمره ما اخطأنا، وأشرفنا من الهلاك بالتنويه به على ماأشرفنا، فليس يجوز التهادن في أمره!! ولكننا نحتاج ان نضع منه قليلاً قليلاً، حتى نصوره عند الرعية بصورة من لا يستحق لهذا الأمر!! ثم ندبّر فيه بما يحسم عنا موادَّ بلائه»[1].

فأنت ترى المأمون في هذا التقرير الواضح يعرب عن دوافعه بإسناد ولاية العهد للإمام، ويلخصها: ان يكون دعاء الإمام له بدل العمل المستتر لنفسه، ويعرِّف الناس بأن الملك والخلافة ببني العباس، وليتخلى عنه

---

(١) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ١٨٣، وانظر مصدره.

أولياؤه باعتباره طالب سلطان، وأنه يخشى الإمام لو تُرك وحاله من المفاجئات التي لا يستطيع صدَّها، أو الأمور التي لا يطيق دفعها.. وأنه أخطأ في إسناد ولاية العهد له، وأشرف من ذلك على الهلاك، لاشتهار أمر الإمام بالحنكة والتجربة والشرف والقيادة المثالية.. ولكنه استدرك بأنه سوف لا يهادن في أمره، ولا يتهاون في شأنه، وأن عليه التدبير بالحط من مكانة الإمام فيما يزعم، عند ذلك ينجح بتصويره بفتورة من لا يستحق للخلافة، بعد ذلك يشرع بتنفيذ مخططه الإجرامي في القضاء على الإمام.

ولكن المأمون قد أخطأ التقدير، وإن نفَّذ الوعيد، فقد شمخ الإمام بمجده المستطيل فكان من الخالدين، وقد اندثر المأمون واختفى في ظلمة التاريخ.

إضفاء صفة الشرعية على النظام العباسي

وحين يحقق الحكم غايته في فصول مصطنعة من التمثيل، يعمد في لحظات خاطفة إلى التشبث بأوهام وأخيلة باهتة، لا تلبث إلا قليلاً حتى تتبخر، ويكتب لها الفشل والإخفاق، فترجع وهي تجرّ أذيال الخيبة، فقد حاول المأمون جاهداً أن يضفي على النظام صفة الشرعية التي تحقق له الهدف المنشود وراء ولاية العهد، ولو ضمن المأمون إطلاق صيغة الشرعية على خلافته الدنيوية، لأمن بأس العلويين في الأقل، ولانقطعت الأسباب الداعية إلى التمرد والخروج على حكمه، ولأسكت المعارضة السافرة التي تحاول الإطاحة به وبنظامه الفاسد، سيما وأن الأصداء متجاوبة في الأقطار والأمصار للتوثب على النظام، وأن الاستغاثة المتلاحقة من جور بني العباس تشق عنان السماء، وأن النقمة التي بدأت تتحرك تجاه السلوك الجبروتي للولاة والعمال وقادة الجند في ازدياد واطّراد.

وهناك ما يثير هذا كله في الإمعان بحياة الفسق والفجور والتدهور الأخلاقي في قصور الأمراء ومقاصير النساء، وإحياء حفلات الرقص والغناء الداعر والأدب الإباحي، يضاف إليه البطالة المروعة بين العاطلين عن العمل، وهي تنخر في بنية الهيئة الاجتماعية جوعاً وفقراً وحرماناً، وكل أولئك مؤشرات حائمة تغني رفض النظام القائم في مسلسل من الاشتباك الغامض.

ولا شك أن الشعب المسلم -كما رأيت- قد تلقى البيعة للإمام الرضا بالغبطة والرضى، وأعلن فرحته الكبرى بذلك اليوم السعيد الذي رأى فيه الوريث الشرعي لرسالة محمد(ﷺ) يرشح للخلافة بإرادة المأمون في الظاهر، ورغم تخطيطه المغلَّف في الواقع، فهو قد اعترف رسمياً بأهلية الإمام الرضا للخلافة، ولكنه أخفق بإضفاء صفة الشرعية على الحكم.

ومهما بالغ العباسيون في تضليل الأمة، ومهما حاولوا التستر على جرائمهم السياسية أو الشخصية أو الأسرية، فقد كانت الرؤية المجهرية تخترق تلك الأساليب المعماة وتفضح أعمالهم الزاخرة بما يندى له جبين الإنسانية خجلاً وحياءً، لاسيما اضطهادهم التعسفي لأبناء عمومتهم من العلويين، في حين كان الشعب المسلم يقارن بين الطرفين، ويوازن بين الحزبين الحاكم والمعارض.

يقول الأستاذ السيد جعفر مرتضى العاملي:

«ولعل الأهم من ذلك كله أن الناس الذي يرون سلوك العباسيين مع العلويين، ومع الناس عامة، وأيضاً سلوكهم اللا أخلاقي في حياتهم الخاصة.. كانوا يرون في مقابل ذلك زهد العلويين، وورعهم، وترفعهم عن كل الموبقات والمشينات، وخصوصاً الأئمة منهم(عليهم السلام)، وقد جعلهم ذلك ينساقون معهم لا إرادياً، حيث رأوا أنهم هم الذي يمتلكون كل

المؤهلات، ويتمتعون بكافة الفضائل والمزايا التي تجعلهم جديرين بخلافة محمد(ﷺ)، وأهلاً لقيادة الأمة قيادة صالحة سليمة، كما كان النبي(ﷺ) يقودها من قبل..

هاتيك المؤهلات والمميزات لأئمة أهل البيت(عليهم السلام)، وذلك السلوك المثالي لهم، كل ذلك يغري العباسيين بمضايقتهم وملاحقتهم أشد الإغراء، وكان أيضاً يدفع الحسّاد على الوشاية بهم وتحريض الخلفاء على الإيقاع والتنكيل فيهم.

ولهذا نرى أن الخلفاء!! لم يكونوا يألون جهداً، أو يدخرون وسعاً، في ملاحقتهم واضطهادهم وسجنهم، حتى إذا تمكنوا منهم قضوا عليهم»[1].

وكان تأزم الوضع الداخلي، وتدهور الموقف الخارجي، يوحيان بأنباء عاصفة هوجاء قادمة، قد لا تبقي ولا تذر.

فها هو المأمون يفقد ثقة بني العباس بعد قتل الأمين، والعباسيون يردون على هذا الحدث بقرار مضاد، فيبايعون إبراهيم بن المهدي مع كل المؤاخذات عليه في السيرة والسلوك في تاريخ قريب، فهو (شيخ المغنين) وهو ربيب اللهو والطرب والعبث، وهو رفيق الغلمان والخصيان والقيان، ولا يصلح تخصصاً إلا لإدارة نادٍ للغناء والقمار والخمرة، ومع هذا يبايع في بغداد وحاضرة الدولة الإسلامية الكبرى، ويحتفظ بالمركز الأول وهو الخلافة، ويعلن العباسيون استبشارهم بهذا الإجراء الغريب.

وفي حياة الطبقة الأرستقراطية من قريش، نجد العلاقات متوترة جداً بينها وبين المأمون، فهي تفقد استطالتها بالمناصب والعطاء والامتيازات، ويحل محلها جيل جديد من الموالي والفرس والأتراك والديلم.

---

(١) جعفر مرتضى العاملي/ حياة الإمام الرضا/ ١٣٠ وما بعدها.

وها هم العرب الأقحاح يشعرون بالهوان والاستغناء عن مؤهلاتهم؛ فأصحاب الدواوين والكتاب والقواد والمتنفذون من غيرالعرب، فيقاطعون المأمون مقاطعة عامدة، ويكيدون لحكمه بكل حول وطول.

وها هم العلويون يدركون بعد الخبرة والتجربة أن ولاية العهد لعبة سياسية زائفة، فقد رأوا الإمام منقبضاً غير متفائل، بل ومصرحاً بأن الأمر لا يعدو كونه خدعة ذات هدف بعيد.

وها هو الإمام الرضا لا ينصب، ولا يعزل، ولا يغيّر ولا يبدل، ولا يقضي ولايحكم، فهو مأخوذ بالقسر، ومرصود بالرقابة، ومحاط بالعيون في معتقل محدود يشرف على إدارته المأمون.

ومع كل السبل التي سلكها المأمون لتثبيت حكمه، والإدلاء بالأصوات لبيعته، فقد تخلفت عليه بغداد، ورفضته مكة والمدينة، وكانت عقدته محبوكة الأسر في الكوفة بعد ثورة ابن طباطبا، وبعد استمراريتها بقيادة أبي السرايا، فقلّب لكسبها وجوه الاحتمالات، وقرر أن يقذفها بالعباس بن موسى بن جعفر أخو الإمام الرضا، لأخذ البيعة له، ومن بعده للإمام الرضا، ولكن الشيعة من ذوي الرأي رفضوا ذلك، وقالوا له.

«إن كنت تدعو للمأمون، ثم من بعده لأخيك، فلا حاجة لنا في دعوتك، وإن كنت تدعو لأخيك، أو بعض أهل بيتك، أو إلى نفسك، أجبناك»[1].

ولم يستجب لدعوته إلا القليل وإن ذهب ابن خلدون أن قد أجابه كثير، ولكنه قعد عنه الشيعة وآخرون[2].

وكان ظرف المأمون دقيقاً في مثل هذه الموجات الثائرة وهذا الرفض العام، فتحرك بسرعة فائقة لإنقاذ الموقف، وسخّر إعلامه في خضمّ زاخر

---

(١) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٥/١٩٠.

(٢) ابن خلدون/ التاريخ ٣/ ٢٤٨.

من التوجع والتفجّع لأهل البيت، زاعماً أن الوقت قد آن له لتلافي تقصير الآباء من بني العباس.

ومع ضياع الأمل وخيبة سعي المأمون في إضفاء صفة الشرعية على النظام من خلال بيعته للرضا بولاية العهد، فقد ظل يراوغ ويناور لهدفه حتى بعد انقضاض الأقاليم على حكمه كما سبق.

ولم يكن المأمون رجلاً اعتيادياً بل كان حازماً ذا كفاية عالية، فقد عده المؤرخون من العلماء المتخصصين بالحكمة والفقه والكلام وأنه «أعلم الخلفاء بالفقه والكلام»[1]

ورأى محمد فريد وجدي أنه «لم يَلِ الخلافة بعد الخلفاء الراشدين أكفأ منه»[2].

وذهب الدميري إلى القول: «لم يكن في بني العباس أعلم من المأمون»[3].

وعدّه آخرون: «شهماً، بعيد الهمّة، أبيّ النفس، وكان نجم بني العباس في العلم والحكمة»[4].

وجمع بعض المؤرخين له عدة صفات باعتباره أفضل بني العباس: حزماً وعزماً، وحلماً، وعلماً، ورأياً، ودهاءً، وهيبة وشجاعة، وسؤدداً...[5].

وقد يكون وصفه بهذا كله مبالغاً فيه، ولكنه لا يخلو من صحة في جزء منه. ومع هذا كله، فلم يُوفَّق المأمون طرفة عين أبداً إلى إضفاء صفة الخلافة الشرعية لنفسه أو لبني العباس، لأن الإمام الرضا(عليه السلام) كان سداً منيعاً دون وصوله إلى هذه الغاية، ولأن الشعب المسلم -الذي رأى الفروق

---

(١) ابن النديم/ الفهرست/ ١٧٤/ مطبعة الاستقامة/ القاهرة.

(٢) محمد فريد وجدي/ دائرة المعارف ١/ ٦٣٠.

(٣) الدميري/ حياة الحيوان ١/ ٧٢.

(٤) جعفر مرتضى العاملي/ حياة الرضا/ ١٥٠ نقلاً عن الأخبار الطوال.

(٥) ظ: السيوطي/ تاريخ الخلفاء / ٣٦٠+ ابن شاكر الكتبي/ فوات الوفيات ١/ ٢٣٩+ الديار بكري/ تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٤.

المميزة بين حياة الإمام الرضا وسلوك المأمون- كان يرى زيف هذه الدعوى، لانقطاع حجتها لدى المقارنة بين الفراغ الهائل لمدعي الأمر، وبين الإعداد المتكامل لمن حجب عنه الأمر، إلا في صورة شكلية أوضح ملامحها الإمام فيما سلف بيانه.

المأمون يكشف عن نواياه.. والمعارضة تتحدث

وكان انفجار العباسيين متصاعداً لدى عقد ولاية العهد للإمام الرضا، ووقفوا جميعاً ضد المأمون، ذلك أنهم أخذوا الأمر على ظاهره دون سبر أغواره، فناصبوا المأمون العداء، وتمردت عليه بغداد، ونُصِّب ابن شكلة خليفة، فكتب المأمون لبني العباس يبين لهم طبيعة الهدف وجوهر المؤامرة في بيعته للإمام الرضا(عليه السلام)، قال المأمون:

«واما ما كنت اردته من البيعة لعلي بن موسى، بعد استحقاق منه لها في نفسه، واختيار مني له، فما كان ذلك مني إلا أن أكون الحاقن لدمائكم!! والذائد عنكم!! باستدامة المودة بيننا وبينهم، وهي الطريق التي اسلكها في إكرام آل ابي طالب ومواساتهم بالفيء بيسير ما يصيبهم منه!! وإن تزعموا اني اردتُ أن يؤول إليهم عاقبة ومنفعة!! فإني في تدبيركم، والنظر لكم ولعقبكم وابنائكم من بعدكم!!

وأنتم: ساهون، لاهون، تائهون في غمرة تعمهون لا تعلمون ما يراد بكم، وما اظللتم عليه من النقمة، وابتزاز النعمة، همة أحدكم ان يمسي مركوباً، ويصبح مخموراً، تباهون بالمعاصي وتبتهجون بها، وآلهتكم البرابط، مخنثون، مؤنثون، لا يتفكر متفكر منكم في إصلاح معيشة، ولا استدامة نعمة، ولا اصطناع مكرمة ولا كسب حسنة...»[1].

---

(١) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ٢١٣

والكتاب طويل جداً، يدافع به المأمون عن وجهة نظره، اقتبسنا منه موضع الحاجة في هذه الفقرات التي يصرح فيها المأمون بتخطيطه للحفاظ على الخلافة في بني العباس، بعدّة ملاحظة، منها:

١- إرادة حقن دماء بني العباس من الثورات التي تحتدم في طول البلاد وعرضها، والذود عنهم بإظهار المودّة لأهل البيت خداعاً.

٢- الإشارة إلى سيطرته على الفيء وبيت المال، وهو عصب حياة الخلافة، وأنه شاء أن يواسي آل أبي طالب بالنزر اليسير من حقوقهم، فلا يصيبهم من ذلك إلا القليل، تضييقاً عليهم، واسترفاداً لهم منه، وهو ليس بإزاء إعطاء حقوقهم كاملة كما فرض الله ذلك بكتابه، وإنما أراد تخفيف بعض المعاناة بحدود، لهدف أوسع وغاية أعظم.

٣- لم يكن من هدف المأمون أن تكون البيعة مما يؤول بنفع أو نتائج إيجابية على العلويين إطلاقاً، وإنما هو من ذلك بهدف تدبير أمر بني العباس، والنظر لهم ولأبنائهم في استمرارية الحكم بأيديهم لا أيدي سواهم، فهو يريد قطع الألسنة، وإخماد شعلة الثورة لدى العلويين.

٤- عبّر المأمون بهذا الكتاب لبني العباس بأنهم: ساهون، لاهون، تائهون... فلهم ظاهر الحال ولا علم لهم بما يجري لهم، وقد انغمسوا في الملذات والشهوات، وتاهوا بالعبث واللهو والفساد، وأمنوا مكر الزمان، وما أظلهم من النقمة وابتزاز النعمة، وان همتهم الفاحشة والخمود، مباهاة بالمعاصي وابتهاجاً بالكبائر، يعبدون البربط (من آلات الغناء) وهم بعد مخنثون مؤنثون، لا تفكير لهم في إصلاح معيشة، أو استدامة نعمة، أو اصطناع مكرمة، ولا كسب حسنة، وبذلك عراهم عن صفات الدين والعقل والرجولة وشمائل الأحرار. أما هو فالساهر بمصالحهم وهم في غفلة، والمدبِّر لشؤونهم وهم في حالة من فقدان الوعي.

والمامون بهذا يصرح لهم بأنه دائب في تطويق الأزمات، اراد إيقاظهم من السبات، بهذا اللوم والتقريع، فهو يريد الإبقاء عليهم، والسيطرة لهم علىٰ عرش الخلافة، وسد المنافذ بين يدي العلويين.

وإذ صح له غرضه!! فما أيسر ما يتخلص به من الإمام!!

وقد احاطه برقابة ورصد وأجهزة، واسكنه جنب داره، وجعل الزيارة بينهما رسماً خلائفياً، فيزور الإمام يوماً، ويزوره المامون يوماً، فهو في مملكته، وفي قبضة جلاوزته الأشداء.

ولم يكن هذا الأمر خافياً علىٰ الثائرين من العلويين وسواهم فقد كان عبد الله بن موسىٰ بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب(ع)، من الخارجين علىٰ المأمون، ولدىٰ إخفاقه في حركته اختفىٰ عن المأمون وتوارىٰ، فكتب إليه المأمون -بعد قتله الإمام الرضا(ع)- يعطيه الأمان، ويعد بولاية العهد بعده، كما فعل بالإمام الرضا. قال المأمون: «... ما ظننت ان احداً من آل ابي طالب يخافني بعد ما عملته بالرضا...»[1].

وبعث بالكتاب إليه، فكتب عبد الله بن موسىٰ الحسني فيما كتب، ما يفضح به أساليب المأمون في القضاء علىٰ بني هاشم، وسمّ الإمام الرضا، ومسرحية ولاية العهد، قائلاً: «... وصل كتابك وفهمته، تختلني فيه عن نفسي ختل القابض، وتحتال حيلة المغتال، القاصد لسفك دمي.. وعجبت منك بولاية العهد، وولايته لي بعدك، كأنك تظن انه لم يبلغني ما فعلته بالرضا!! ففي اي شيء ظننت أني ارغب من ذلك؟؟

أفي الملك الذي قد غرتك نضرته وحلاوته؟ فو الله؛ لئن اقذف -وانا حيٌّ- في نار تتأجج احب إليّ من ان الي امراً بين يدي المسلمين، او اشرب

---

(١) ابو الفرج الأصفهاني/ مقاتل الطالبيين/ ٦٣٠.

شربة من غير محلها!! مع عطش قاتل.. أم في العنب المسموم الذي قتلت به الرضا؟»[1].

فعبد الله بن موسى الحسني يصرح هنا للمأمون بغدره وفتكه والقضاء على الإمام الرضا(عليه السلام) ويرفض ما يمنيه من ولاية العهد أو الملك الذي اغترّ بزبارجه المأمون، ويذكّره بالعنب المسموم الذي قتل به الرضا.

والرسالة هذه تصدر من شاهد عصره فيما اقترفه المأمون من الإثم، وقد صرح بآخرها بجرائر المأمون، فقال مخاطباً له:

«وأنت ختلت المسلمين بالإسلام، وأسررت الكفر، فقتلت بالظنة، وعاقبت بالتهمة، وأخذت مال الله من غير حلّه، فأنفقته في غير حلّه، وشربت الخمر المحرمة صراحاً، وأنفقت مال الله على الملهين، وأعطيته المغنين، ومنعته من حقوق المسلمين، فغششت بالإسلام، وأحطت بأقطاره إحاطة أهله، وحكمت فيه للمشرك، وخالفت الله ورسوله في ذلك، خلافة المضاد المعاند، فإن يسعدني الدهر، ويُعنِّي الله عليك بأنصار الحق، أبذل نفسي في جهادك بذلاً يرضيه مني...»[2].

وهذا يعني إخفاق المأمون في اكتساب الشرعية لنظامه الحاكم.

ويبدو ان اشتهار أمر قتل الرضا بيد المأمون كان له أثره الفاعل في اهتزاز النظام واستنكار ما اقدمَ عليه، ففي رسالة أخرى لعبد الله بن موسى الحسني للمأمون، اكد فيها غدر المأمون من جهة، وعلى أسلوبه الجديد في تعقب العلويين، وعلى رايه في المأمون قال: «فبأي شي تغرني؟ ما فعلته بابي الحسن -صلوات الله عليه- بالعنب الذي اطعمته إياه فقتلته؟.. هبني لا ثار لي عندك وعند آبائك المستحلين لدمائنا، الآخذين حقنا، الذين جاهروا في امرنا

(١) المصدر نفسه/ ٦٣١.

(٢) المصدر نفسه/ ٦٣١.

فحذرناهم، وكنتَ ألطف حيلةً منهم، بما استعملته من الرضا بنا والتستر لمحننا، تقتل واحداً فواحداً منّا، ولكنني كنت امرأً حُبِّب إلي الجهاد.. وتدبرت فإذا أنت أضر على الإسلام والمسلمين من كل عدو لهم، لأن الكفّار خرجوا منه وخالفوه، فحذرهم الناس وقاتلوهم، وأنت دخلتَ فيه ظاهراً فأمسك الناس، وطفقت تنقض عراه عروةً عروةً، فأنت أشدّ الإسلام ضرراً عليه..»[1].

وهكذا نجد المعارضة تكشف عن جرائر المأمون الكبرى، وهكذا نجد المأمون يتحدث صراحة عن نواياه السرية، ولو كان المأمون قد وفى للإمام والإسلام بعض الشيء، لتوقفت عنه بعض هذه الحملات التي أملتها طبيعة إجراءاته في الغدر والبطش ومخالفة الإسلام.

يقول الأستاذ محمد جواد فضل الله:

«فالمأمون لا يريد أن يؤول الأمر للعلويين، وإنما يريد أن يُطَوّق الأزمات التي تنسف فيما بعد ملك بني العباس.. على أن العلويين قد نجحوا في كسب عطف الرأي العام الإسلامي، واحتفظوا به إلى جانبهم، وأوضح دليل على ذلك: الاستجابة الواسعة التي تحرزها ثوراتهم في مختلف الأوساط العامة»[2].

وفشل المأمون في خطته كلّها، إلا جزءاً يسيراً في توقف السعير الثوري، ولكنه لم يستطع إسكات العلويين، ولم يتمكن من الظفر بتأييد الأمة مطلقاً، ولم يحصل على ثقة الإمام الرضا، ولا استدراك شرعية خلافته، ولا وضع من الإمام الرضا قليلاً قليلاً على حد تعبيره، بل ازداد وهج الإمام لمعاناً، ولهجت بذكره محافل العلماء وأندية المتكلمين، وذاعت شهرته في الآفاق، وامتزج حبّه في قلوب الناس، وعاد حديث الأمة في ورعه وحسن تأتيه للأمور، فحدبت عليه الأفئدة والعقول.

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني/ مقاتل الطالبيين/ ٦٢٨ - ٦٢٩.

(٢) محمد جواد فضل الله/ الإمام الرضا - تاريخ ودراسة / ١١٦.

الفصل الرابع

ما بعد ولاية العهد من مؤامرات

١- المأمون يتمادى في حصار الإمام(عليه السلام).

٢- الإمام(عليه السلام) في صلاة العيد.

٣- المأمون يصفّي أركان قيادته.

٤- المأمون باتجاه بغداد.. والفضل يعترض.

٥- المأمون يغدر بالفضل بن سهل ويقتله.

المأمون يتمادى في حصار الإمام

واعتقد المأمون -مخطئاً- في قرارة نفسه، أن خطر الإمام الرضا قد تضاءل بعد عقد البيعة بولاية العهد له، ذلك الخطر المتمثل في تأييد الزخم الشعبي للإمام، والتفاف علماء الأمة وسوادها حوله.

وقد آن الأوان -في ظل هذا التصوّر- أن يطمئن المأمون من جانب العلويين في المدّ الثوري، وأن يضمن لعرشه ولاء الخراسانيين الذين يدين اكثرهم بالولاء لأئمة البيت(عليهم السلام) فالرضا يتبوأ المركز الثاني في الدولة، وقد يوشك على تسنم منصب الخلافة!!

ومن هذا المنظور تبددت جملة من المخاوف الجاثمة على صدر المأمون، وخبت نار الأراجيف -بحدود- من حوله، ولكنه مضطرب، وكان اضطرابه شديداً، يوحي به هاجس لا إرادي من خلال تصاعد الولاء المطلق للإمام، ولاء الأمة والناس لا القادة ولا الجيش، والمأمون لم يستطع أن يزعزع ثقة السواد بالإمام ولم يستطع أن يجد من يتغلب على الإمام في العلم والمناظرة، وهو لم يجد الإما م طيّعاً في الاستجابة لأغراض الحكم وأهوائه، ولم يكن الأمر كما توهم وتخيّل، أن بمقدوره تضبيب الأفق حول تلك الجذوة المتلألئة من التقديس التي احيط بها الإمام، بل الذي ادركه -بعد حين- مدى تعلق الأمة باغلب طبقاتها بالإمام، ومدى شوقها وتطلعها إلى سياسة العدل الاجتماعي في مبدأ أهل البيت(عليهم السلام)، ومدى الرغبة الملحة في استكناه حياة اليسر والوضوح بديلاً عن اللّف والدوران والمناورة، فقد سئمت النفوس مزالق الدجل السياسي، وهي تأمل أن يتحقق التغيير الجذري في المفاهيم والمضامين في ظل إيماءات إيجابية تنطلق من قبل الإمام الرضا(عليه السلام).

وكان هذا الاصطدام الكبير بواقع الأمة وأشتات الناس يهز أعصاب المأمون ويؤرقه، وقد فجاه وجهاً لوجه.

وفوق هذا كله؛ تلك النظرة الموضوعية الناقدة لدى الطبقة الواعية التي ترى أن منصب الإمامة الإلهية أسمى وأرفع وأعزّ من الخلافة الرسمية التي أقيمت معالمها على جماجم الشهداء وأرواح الأبرياء، وأن هذه الإمامة حقٌّ من حقوق ائمة أهل البيت الأزلية، الثابتة بالنص القطعي والأولية والأولوية، دون الذين تقمصوا المنصب عنوة، وهم غرباء عن المسؤولية الشرعية، ولا يمتون إليها بصلة ما، وأن القوة المسلّحة التي استولوا بها على الخلافة واهنة الأسباب، فما هي إلا الاغتصاب للحق الصريح، وأن الصفقة التي عقدها المامون خاسرة بعد ان كُلِّلت بالغدر الفاضح من قبل الحاكمين وراس النظام، وتُوِّجت برفض الإمام الجريء لكل المسؤوليات الإدارية.

ومن هذه المنطلقات كان المامون حذراً وقلقاً ومضطرباً بوقت واحد، فهو حذر من الإمام لتعالي صداه في الآفاق، وهو قلق من هذا المركز التلقائي الذي حظي به الإمام في المجتمع الإسلامي، وهو مضطرب لهذه الأفكار الواعية التي تجول في ضمائر النابهين.

وكان لا بد للمامون بعد هذا كله، ان يتفرغ لعمل يذلل له هذه العقبات، ولا بدّ له ايضاً ان يظل قابضاً على الحكم بكل قوة، وقد كان ذلك، فما عليه إذن إلا ان يضع الإمام تحت المجهر في حصار فعلي يضيق معه الخناق، وفي رقابة كاملة تحصي الأنفاس وتتعقب الخطى.

والذي حبب له هذا الإجراء زيادة على ما ذكرنا من اسباب ودوافع، هو صلابة الإمام في ذات الله، وانطلاقه الجادّ في تكليفه الشرعي دون تردد، وهو ما يغيظ المامون.

يقول الأربلي: «وكان الرضا(عليه السلام) يكثر وعظ المأمون!! إذا خلا به، ويخوّفه بالله، ويقبح له ما يرتكبه من خلافه، وكان المأمون يظهر قبول ذلك، ويبطن كراهته واستثقاله، فقد دخل الرضا(عليه السلام) يوماً والمأمون يتوضأ للصلاة، والغلام يصبّ على يده الماء، فقال الإمام: «لا تشرك -يا أمير المؤمنين- بعبادة ربك أحداً» فصرف المأمون الغلام، وتولى تمام الوضوء بنفسه، وزاد ذلك في غيظه ووجده عليه»[1]

وقد يجمع إلى هذا إيغال الإمام في إنكار المنكر، وإيثار المصلحة العليا، ورعاية شؤون المسلمين، وشجب العبث والفساد، ورفض الاستطالة والاستئثار، فيزيد ذلك من الوشاية به، وتحذير المأمون منه.

وكان لابد لهذه الوشايات أن تلقى أذناً صاغية عند المأمون، فتغريه بالتمادي في حصار الإمام والتضييق عليه، فبدأ الانتشار الخاطف والسريع لأجهزته الأمنية والمخابراتية تشدد من رقابة الإمام، وتكبّله بحواجز من الحصار الأمني بحيث لا تخفى على المأمون من أمره خافية.

والمأمون وإن كان يغالط نفسه في هذا المسار، ولكنه الخوف والهلع، فعمد إلى ذلك راغباً مندفعاً، وسعى إليه سعياً حثيثاً.

وقد سلك المأمون عدة طرق لمراقبة الإمام وحصاره، وإنهاء أخباره إليه، وعزل تلامذته وأولياءه عنه، وحجب تلك الموجات البشرية نحو الإمام عن التزود من فيض علم الإمام، فكان ذلك حصاراً سياسياً وثقافياً، في وقت واحد.

ولا أريد أن أقوم بعملية إحصائية لمفردات الطرق التي انتجها المأمون في رصد الإمام، ولكني أضع يدي على بعض اللمسات الموحية باعتبارها نماذج للسبل الملتوية للأرصاد.

---

(١) الأربلي/ كشف الغمة ٣/ ٧٤.

١ - احتجز المأمون الإمام الرضا(عليه السلام) في منزل بجنب منزله، «وكان المأمون يأتي الرضا يوماً، والرضا(عليه السلام) يأتي المأمون يوماً، وكان منزل أبي الحسن(عليه السلام) بجنب منزل المأمون»[١].

وهذا يعني أن كل واردة وشاردة وإشارة وعبارة، وقول وفعل، يصدر عن الإمام(عليه السلام)، يصل إلى المأمون فوراً، وتتصل أنباؤه به أولاً فأولاً، بما فيها الأحاديث الخاصة والعلاقات العامة، واستقبال الأصحاب والأتباع، ومتابعة التلامذة وأهل العلم، ومقابلة الوجوه والأعيان وحتى سواد الناس.

٢ - ذكر مؤرخو عصر الإمام أن المأمون، قد زوج الإمام من ابنته أو أخته (أم حبيبة)[٢].

ومن المقطوع به أن هذا الزواج كان سياسياً من قبل المأمون في عملية التزويج!! فهو يظهر به المودّة لأهل هذا البيت ويسترعي قربهم، وهو يراقب الإمام في عقر داره، وما يدرينا فلعل المأمون سخر هذا الأمر طمعاً بموافاته بأخبار الإمام عن طريق زوجته، وليس هذا ببعيد على سلوك المأمون ووصوله إلى أهدافه.

٣ - كان هشام بن إبراهيم الراشدي -كما أسلفنا- قد ولاه المأمون حجابة الإمام الرضا، فكان لا يصل إلى الإمام إلا من أحبّ، وضيق على الإمام، فكان من يقصده من مواليه لا يصل إليه، وكان الرضا لا يتكلم بشيء في داره إلا أورده هشام على المأمون[٣].

٤ - وكان العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث يراسل الإمام، ويطلب من الإمام أن يخرّق كتبه إذا قرأها، وذلك مخافة أن تقع في يد غيره، وكان الإمام يقول بهذا الصدد.

---

(١) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ١٥٤.

(٢) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ١٣٢.

(٣) ظ: الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ١٥٣.

«إني إذا قرأت كتبه خرّقتها.»[1].

وكان هذا التخوف من العباس نتيجة الرصد الذي ضرب على الإمام، فربما وُشيَ به في ذلك، فيؤخذ به.

٥- وكان للمأمون على كل واحد صاحب خبر[2].

ولم يكن يكتفي بالرجال في التجسس، وإنما كان يستعين بالجواري والنساء في ذلك فقد ذكر ابن عبد ربه أن «المأمون كان يدس الوصائف هدية، ليطلعنه على أخبار من شاء.»[3].

ولم يكن الإمام الرضا بغافل عن هذا الملحظ، فقد أرسل له المأمون بعض جواريه هدية، فلما أدخلت عليه اشمأزت من الشيب، فلما رأى كراهتها ردّها إلى المأمون رداً مهذباً في أبيات من الشعر[4].

«ولم يكتف بذلك، بل وضع على الإمام(عليه السلام) عيوناً آخرين، يخبرونه بكل حركة من حركاته، وكل تصرف من تصرفاته»[5].

٦- وكان المأمون يتحرى أخبار الإمام أولاً بأول، ويحقد عليه منزلته العلمية، وذكر الذائع الصيت، وتعلق الناس فيه، وتعلق الناس فيه، فعن أبي الصلت: أن الرضا(عليه السلام) «كان يناظر العلماء فيغلبهم، فكان الناس يقولون: والله، إنه أولى بالخلافة من المأمون، فكان أهل الأخبار يرفعون ذلك إليه، فيغتاظ من ذلك، ويشتد حسده له»[6].

---

(١) ظ: الأربلي/ كشف الغمة ٣/ ٩٥.

(٢) المسعودي/ مروج الذهب ٢/٢٢٥.

(٣) ابن عبد ربه/ العقد الفريد ٤٨/١.

(٤) ظ: الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ١٧٨.

(٥) جعفر مرتضى العاملي/ حياة الإمام الرضا/ ١١٣.

(٦) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ٢٣٩

ويؤيد هذا الملحظ ما ذكره الأربلي ، قال :

«كان إذا ظهر للمأمون من الرضا(عليه السلام) فضل وعلم وحسن تدبر حسده على ذلك ، وحقد عليه ، حتى ضاق صدره منه ، فغدر به فقتله بالسم ، ومضى إلى رضوان الله وكرامته»[1] .

٧- وكان الإمام الرضا(عليه السلام) يعرف هذا كله ، فليس هو بمنأى عنه ، وكان يتحفظ بكثير من الحذر على ثقاته وأصحابه ، حتى ليمنعهم عن زيارته ، وكان احمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي ، قد كتب للإمام كتاباً ساله فيه الإذن عليه . . فكتب الإمام في جوابه :

«أمّا ما طلبت من الإذن عليّ ، فإن الدخول إليّ صعب ، وهؤلاء قد ضيقوا عليّ في ذلك الآن ، فلست تقدر عليه الآن ، وسيكون إن شاء الله . . »[2] .

ومن اجل الاحتراز على اصحابه ، قال لأحمد بن محمد بن أبي نصر نفسه ، والإمام في طريقه إلى مرو : «اكثر لي حجرة لها بابان ، باب إلى الخان ، وباب إلى خارج ، فإنه أستر عليك»[3] .

ومعنى هذا ان الرقابة على الإمام قد احكمت ، وربما حققت للمنصور هدفاً مزدوجاً ، فهو قد أمن جانب الإمام وخبر ما عنده مما يهمه امره ، وهو قد عزله عن أوليائه وشيعته والجماهير الأخرى ، والأشد من هذا ان حال بينه وبين تلامذته ، والإمام حريص كل الحرص على إفادتهم ، وإعدادهم إعداداً رسالياً ، ولكنه في الوقت نفسه يريد لهم النجاة والأمن من الهلاك .

---

(١) الأربلي/ كشف الغمّة ٣/ ٩٠.

(٢) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ٢١٢.

(٣) محمد بن الحسن الصفار/ بصائر الدرجات/ ٢٤٦.

الإمام في صلاة العيد

كان المأمون في محنة من أمره، إذ أناط ولاية العهد برجل يحظى بالنفوذ المطلق في المجتمع المسلم، وله من الرصيد الجماهيري ما يطوّح بكل أحلامه، ولكنه مضطر لذلك اضطراراً دبلوماسياً، ليتخذ من الإمام درعاً واقياً من الطوارئ، ويجعل منه حصناً يلوذ به لدى الأحداث، فللإمام شخصيته الفذة المهيمنة، وله تطلعاته الواعية الفريدة، وهو وإن ابتعد عن الحكم، ولكنه شوكة في عين الحكم، والمأمون يريد كسب الجماهير من خلال الإمام ويسعى للإفادة من القاعدة الصلبة التي ربض عندها تأييد الإمام المطلق، ولا مانع في منطق الكيد السياسي من استغلال ذلك، فقد يجد المأمون من الذكاء أن يتظاهر بانحراف صحته في أحد الأعياد، وللأعياد مراسمها وطقوسها عند المسلمين، وأبرز مظاهر ذلك صلاة العيد، فأظهر المأمون ثقلاً عن الخروج إلى الصلاة بالناس[1].

فبعث إلى الإمام الرضا(عليه السلام) يسأله أن يصلي بالناس صلاة العيد، ويخطب، لتطمئن قلوب الناس، ويعرفوا فضله، وتقرّ قلوبهم على هذه الدولة المباركة، ووصل الطلب إلى الإمام الرضا، فبعث إليه قائلاً: «قد علمت ما بيني وبينك من الشرط في دخولي في هذا الأمر، فأعفني من الصلاة بالناس».

فقال المأمون: إنما أريد بهذا أن يرسخ في قلوب العامة، والجند، والشاكرية هذا الأمر، فتطمئن قلوبهم، ويقروا بما فضلك الله تعالى به!!

ولم يزل يرادّه الكلام في ذلك، فلما ألحّ عليه، قال الإمام الرضا: يا أمير المؤمنين؛ إن أعفيتني من ذلك فهو أحب إليّ، وإن لم تعفني خرجت

(١) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ١٧١ وانظر مصادره.

كما يخرج رسول الله(ﷺ)، وكما خرج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام).

قال المأمون: اخرج كيف شئت.

وامر المأمون القواد والحجاب والناس أن يبكروا إلى باب أبي الحسن(عليه السلام).

فقعد الناس لابي الحسن(عليه السلام) في الطرقات والسطوح: من الرجال، والنساء، والصبيان، واجتمع القواد على باب الرضا(عليه السلام) فاغتسل، وتعمم بعمامة بيضاء من قطن، والقى طرفاً منها على صدره، وطرفاً بين كتفيه، ومسّ شيئاً من الطيب، وتشمّر ثم قال لجميع مواليه: افعلوا مثلما فعلت.

ثم اخذ بيده عكازة، وخرج ونحن بين يديه، وهو حافٍ قد شمّر سراويله إلى نصف الساق، وعليه ثيابٌ مشمّرة، فلما قام ومشينا بين يديه، رفع راسه إلى السماء وكبّر تكبيرات... فخيل إلينا أن الهواء والحيطان تجاوبه، والقواد والناس على الباب قد تزينوا ولبسوا السلاح، وتهيئوا بأحسن هيئة.

فلما طلعنا عليهم بهذه الصورة، حفاة قد تشمرنا، وطلع الرضا وقف وقفة على الباب. وقال: «الله اكبر، الله أكبر، الله أكبر على ما هدانا، الله اكبر على ما رزقنا من بهيمة الإنعام، والحمد لله على ما أبلانا».

ورفع بذلك صوته، ورفعنا أصواتنا، فتزعزعت مرو من البكاء والصياح، فقالها ثلاث مرات، فسقط القواد عن دوابهم، ورموها بخفافهم. لما نظروا إلى أبي الحسن(عليه السلام)، وصارت مرو ضجّة واحدة، ولم يتمالك الناس من البكاء والضجّة فكان أبو الحسن(عليه السلام)، يمشي ويقف في كل عشر خطوات وقفة، يكبر الله أربع مرات، فيتخيل إلينا ان السماء،

والأرض والحيطان تجاوبه. وبلغ المأمون ذلك، فقال له الفضل بن سهل ذو الرئاستين، يا أمير المؤمنين؛ إن بلغ الرضا المصلى على هذا السبيل، افتتن به الناس، فالرأي أن تساله أن يرجع، فبعث إليه المأمون، فسأله الرجوع.. فدعا أبو الحسن(عليه السلام) بخفه، فلبسه، ورجع»[1].

قال الأربلي:

«واختلف الناس في ذلك اليوم، ولم ينتظم أمر صلاتهم»[2].

ويعقب الأستاذ السيد جعفر مرتضى على هذا الحدث فيقول: «وإذا كان هدف المأمون من الإصرار على الإمام بأن يصلي بالناس: هو أن يخدع الخراسانيين والجند والشاكريه، ويجعلهم يطمئنون على دولته المباركة!! فإنه من الواضح أن إرجاع الإمام(عليه السلام) في مثل تلك الحالة وذلك التجمع الهائل، وتلك الثورة العاطفية في النفوس، ينطوي على مجازفة ومخاطرة.. حيث لا بد ان يثير تصرفه هذا حنق تلك الجماهير التي كانت في قمة الهيجان العاطفي، ويؤكد كراهيتها له..

«وإذا كان المأمون يخشى من مجرد إقامة الإمام الصلاة، فلا معنى لأن يلح عليه هو لقبولها، وكذلك لا معنى لأن يخشى ذلك الهيجان العاطفي، وتلك الحالة الروحية.. إنه كان يخشى ما هو أعظم وأبعد أثراً، واشد خطراً.

إنه يخشى أن الرضا إذا ما صعد المنبر، وخطب الناس، بعد أن هيأهم نفسياً، وأثارهم عاطفياً.. ان ياتي بمتمم كلامه الذي أورده بنيسابور «وأنا من شروطها!!» وانه ظهر إليهم على الهيئة التي كان يخرج عليها النبي محمد(صلى الله عليه وآله) ووصيه (علي(عليه السلام)) مما شأنه ان يجعل المأمون وأشياعه لا يأمنون

---

(١) الصدوق/ عيون اخبار الرضا ١٤٩/٢ - ١٥١ + البحار ١٣٤/٤٩ - ١٣٥.

(٢) الأربلي/ كشف الغمة ٧٣/٣.

بعد على انفسهم. . ولسوف يحوّل الإمام مروراً من معقل للعباسيين. . .
إلى حصن لأعداء العباسيين والمأمون، حصن لأئمة أهل البيت. . ففضّل
المأمون ان يختار إرجاعه(ع) عن الصلاة، لأنه رأى أن ذلك هو أهون
الشرّين واقل الضررين»[1].

يضاف إلى هذا؛ أن الإمام بعبقريته الفذة أراد صلاة العيد بمواصفاتها
الرسالية في العظة والعبرة والجلال، وأضفى عليها من طقوسها هيبة ووقاراً
في المظهر والممارسة.

«ولم يكن هذا المظهر الرائع الذي حاول الإمام أن يعيد به للتشريع
اصالته، بالشيء المألوف عند تلك الجماهير، وكانت المفاجأة الرائعة أن
تنصهر عواطف تلك الجموع بموقف الإمام المتمرد على التقاليد المتبعة
للخلفاء في مثل هذه المواقف، ويعيش الناس في تلك اللحظات انطلاقة
روحية سامية، تعمق في نفوسهم حسّ الإيمان، وتبتعد بهم عن مظاهر
الزيف.

ولقد كان هذا الموقف الرسالي للإمام دعوة صريحة للأمة، على تقييم
الأجهزة التي تتحكم بارواحها ومقدراتها، وإيحاء لها بالزيف الذي تتسم
به مظاهر الحكم، وبعدها عن واقع رسالة الإسلام»[2].

وقد يبدو هذا الموقف الصلب لا يعني شيئاً عند المنحرفين عن أصالة
التاريخ، ولكنه هدف رسالي اتسمت به سيرة الإمام بالصراحة إزاء تقلّص
وجه الحكم الباهت من حركة الإمام المعبّرة رغم القسر والإكراه، وكأنه
يتجاوز الضغط الرسمي وهو في اسر رقابته الشاملة، ويثبت لتلك الجماهير
التي كبّرت له، وانجذبت به: عدم إمكانية الالتقاء والتفاعل مع الحكم الذي

---

(١) جعفر مرتضى العاملي/ حياة الإمام الرضا/ ٣٥٦ وما بعدها.

(٢) محمد جواد فضل الله/ الإمام الرضا - دراسة وتاريخ/ ١٤٤.

يفرقَ فَرقاً كبيراً من إجراء سنن صلاة العيد ومقدماتها في إطار البرمجة الإسلامية الأولى.

وبعد هذا فالإمام لا يستطيع أن يتعاون مع هذا الحكم، ولا يغمض عن تصرفاته الطائشة، ولا يحقق إرادته في التبعية له، فهو في استقلالية منه في الإرادة والتقدير والثبات.

المأمون يصفّي أركان قيادته

وكان الفضل بن سهل ذو الرئاستين: رئاسة السيف ورئاسة القلم، رئيساً لوزراء المأمون، وقائداً عاماً لقواته المسلّحة بالفعل، فهو الأول والأخير في الدولة، منحه الدكتاتورية المطلقة في إدارة الحكم، وأمدّه بالمال والرجال والقوة وميّزه بتلك الثقة العمياء التي صيرت منه حاكم البلاد، ورجل المهمات الصعبة الذي ينفّذ مخططات المأمون، ويدبر مؤامراته في القضاء على أقرب الناس إليه، وما مصير طاهر بن الحسين الخزاعي فاتح بغداد بخافٍ على الناس، ولا مقتل هرثمة القائد العباسي الذي قضى به المأمون على ثورة الكوفة بقيادة ابي السرايا بمجهول لدى القادة والوزراء.

وكان هرثمة هذا من كبار قادة المأمون، ومن المستميتين في سبيل تثبيت سلطانه، ولكنه في الوقت نفسه كان متشككاً برضى الفضل عنه، بل لا يثق بالفضل وأخيه الحسن على الإطلاق، وكان على حق في هذا الاعتقاد، فعزم على إنهاء أنباء الفضل وأخيه إلى المأمون، وأدرك ذلك الفضل بما يصله من اجهزته الأمنية، واحاط خبراً بنوايا هرثمة، فأشار على المأمون ان يسيّره إلى الشام، ومن ثم إلى الحجاز، كماسيّر من ذي قبل طاهر بن الحسين، ولكن هرثمة -مع وصول الأمر إليه- كان معارضاً للامتثال، وأراد ان يكشف حقيقة الفضل عند المأمون مهما كانت النتائج.

ويلخص لنا ابن خلدون في تاريخه هذا الحدث فيقول :

«لما فرغ هرثمة من أبي السرايا رجع ، وكان الحسن بن سهل بالمدائن ، فلم يعرج عليه ، وسار من عقر قوفا إلىٰ النهروان ، قاصداً خراسان ولقيته كتب المامون متلاحقة ان يرجع علىٰ الشام والحجاز ، فأبىٰ إلا لقاءه ، دالة عليه بما سبق له من نصحه له ولآبائه ، وكان قصد ان يطلع المامون علىٰ حال الفضل بن سهل في طيِّه الأخبار عنه ، وما عند الناس من القلق بذلك ، وباستبداده عليه ، ومقامه في خراسان .

وعلم الفضل بذلك فاغرىٰ به المامون وألقىٰ إليه انه سلط أبا السرايا وهو من جنده ، وقد خالف كتبك ، وجاء معانداً ، سيء القالة ، وإن سومح اجترأ غيره ، فسخط المامون وبقي بانتظاره .

ولما بلغ مرو قرع طبوله يُسمعها ، لئلا يطوىٰ خبره عن المامون وسأل المامون عنها ، فقيل : هرثمة اقبل يرعد ويزبد ، فاستدعاه .

وقال : هرثمة ! ! مالأتَ العلويين؟ وأبا السرايا؟ ولو شئت إهلاكهم جميعاً لفعلت؟ فذهب هرثمة يعتذر ، فلم يمهله . وامر المامون فديس بطنه ، وشدخ انفه ، وسحب إلىٰ السجن ، ثم دس عليه من قتله . . »[1] .

وكان هرثمة بتصرفه هذا يريد الأمن لنفسه ، وقد يحاول الإبقاء علىٰ مركزه القيادي في الجيش ، ولكن الفضل كان اذكىٰ منه تدبيراً ، واسرع إثارة للمامون ، فالحقه بطاهر بن الحسين عزلاً ، وبغيره من الضحايا قتلاً ، وكان ذلك فاتحة سوء كبرىٰ في حكم المامون .

وارتعب قادة الجيش والوزراء ، والكتاب من إجراءات المامون ، وساورهم القلق من المصير الغامض الذي ينتظرهم ، سيما وان الفتن قد غمرت البلاد بسيل من الكراهية للمامون ، وكان القتال في بغداد علىٰ اشده

---

(١) ابن خلدون/ العبر ٣/ ١٤٥.

بين انصار بني العباس، وهم أعداء المأمون، وبين أنصاره من القادة والجيش، وكان الحسن بن سهل يخفي ذلك عنه، والفضل يتستر عليه، وكان المنقذ الوحيد للقادة أن يلجؤوا إلى الإمام الرضا في نشر ملف الأخطار المحدقة بهم وبالدولة «وتحدث القواد في عسكر المأمون بذلك، ولم يقدروا على إبلاغه، فجاؤوا إلى علي الرضا، وسألوه إنهاء ذلك إلى المأمون، فأخبره بما في العراق من الفتنة والقتال، وأن الناس ينقمون عليك مكان الفضل والحسن، ومكاني وعهدك!!

فقال له المأمون: ومن يعلم هذا غيرك؟

فقال الإمام: يحيى بن معاذ، وعبد العزيز بن عمران وغيرهما من وجوه قوادك!! فاستدعاهم فكتموا حتى استأمنوا إليه، فأخبروا بما أخبر به الرضا»[1].

وكان هدف هؤلاء القادة من إخبار الإمام الرضا بحقيقة الحال، وهو يعلمه قطعاً، أنهم أصيبوا بالهلع نتيجة سيطرة الفضل على المأمون، وحذروا على انفسهم من المصير المنتظر، ولا يبعد اخلاصهم للحكم كما سترى، وكان إعطاء الصورة بأتمها قد حبّره ابو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت. ٣١٠هـ). وهو من اقرب المؤرخين إلى عصر المأمون، وقد سلط الأضواء على الموضوع بتفصيل ادقّ، قال الطبري: «ذُكر ان علي بن موسى بن جعفر بن محمد العلوي -الإمام الرضا- اخبر المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه، وبما كان الفضل يستر عنه من الأخبار، وأن أهل بيته والناس قد نقموا عليه أشياء؛ وأنهم يقولون: إنه مسحور مجنون، وانهم لما راوا ذلك منه، بايعوا لعمه إبراهيم بن المهدي بالخلافة!!

فقال المأمون: إنهم لم يبايعوا له بالخلافة، وإنما صيروه اميراً!! يقوم بأمرهم على ما اخبره به الفضل!!

---

(١) المصدر نفسه ٣/ ٢٤٩.

فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه، وأن الحرب قائمة بين إبراهيم والحسن بن سهل، وأن الناس ينقمون عليه مكانه ومكان أخيه ومكان بيعتك لي من بعدك!!

فقال المأمون: ومن يعلم ذلك من أهل عسكري؟

فقال الإمام: يحيىٰ بن معاذ، وعبد العزيز بن عمران، وعدة من وجوه أهل العسكر. فأدخلهم عليه؛ وهم: يحيىٰ بن معاذ، وعبد العزيز بن عمران، وموسىٰ، وعلي بن أبي سعيد، وهو ابن أخت الفضل، وخلف المصري، فسألهم عمّا أخبره به -الإمام الرضا- فأبوا أن يخبروه حتىٰ يجعل لهم الأمان من الفضل بن سهل؛ لا يعرض لهم، فضمن لهم ذلك، وكتب لكل رجل منهم كتاباً بخطّه ودفعه إليه.

فاخبروه بما فيه الناس من الفتن، وبما موّه عليه الفضل من أمر هرثمة، وان طاهر بن الحسين قد أبلىٰ في طاعته ما أبلىٰ وافتتح، وقاد إليه الخلافة مزمومة، حتىٰ إذا وطّأ الأمر، أُخرِجَ من ذلك كله، وصُيّرَ في زاوية من الأرض بالرقّة، وقد حظرت عليه الأموال، حتىٰ ضعف أمره، فشغب عليه جنده، وأنه لو كان علىٰ خلافتك ببغداد لضبط الملك، ولم يجتُرأ عليه بمثل ما أجترئ علىٰ الحسن بن سهل، وأن الدنيا قد تفتقت من اقطارها، وان طاهر بن الحسين قد تُنوسِيَ في هذه السنة -منذ قُتل محمد- في الرقة، لا يستعان به في شيء من هذه الحروب، وقد استُعينَ بمن هو دونه أضعافاً»[1].

وفي ضوء هذه الحقائق التي كشفها الطبري تتجلىٰ ثلاثة مواقف:

الأول: موقف الفضل من الواشين به.

الثاني: موقف الرضا(عليه السلام) من تنكيل الفضل بمن وشىٰ به عند المأمون.

الثالث: موقف المأمون من الفضل والإمام.

---

(١) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٥٦٤.

وسنشير إلى هذه المواقف بعد التلويح أن المأمون قد اقتنع بخطورة الوضع السياسي في بغداد من قبل بني العباس، وفي خراسان من عزل طاهر بن الحسين وقتل هرثمة، واقتناع القادة بأن الزمام قد فلت من يد المأمون، وتناوله الفضل بقوة حاسمة.

ولم يتأخر ردّ الفضل على الوشاة، فقد مزق ضمانات المأمون، ونكل بهم، وضربهم بالسياط، ونتف لحى بعض منهم، لأنهم جاهروا المأمون بالحقيقة، وأيدوا رأي الإمام الرضا(عليه السلام).

أما الإمام الرضا فقد أبلغ المأمون بما جرى لقواده من قبل الفضل فأشار المأمون على الإمام، بأن يداري حتى حين، ولم يصدر منه شيء ضد الفضل، وقرروا يقول الطبري: «فلما تحقق ذلك عند المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد، فلما أمر بذلك علم الفضل بن سهل ببعض ذلك من أمرهم، فبغتهم، حتى ضرب بعضهم بالسياط، وحبس بعضاً، ونتف لحى بعض، فعاوده علي بن موسى في أمرهم، وأعلمه بما كان من ضمانة لهم، فأعلمه أنه يداري!!»[1].

وكان الإمام الرضا(عليه السلام) قد أشار على المأمون أن يتحوّل بثقله إلى بغداد، فقد قال للإمام - بعدان ثبت لديه تمويه الفضل عليه: يا سيدي فما ترى؟

قال الإمام: أرى أن تخرج من هذه البلاد، وتتحول إلى موضع آبائك وأجدادك، وتنظر في أمور المسلمين، ولا تكلهم إلى غيرك، وتنظر فإن الله عزّ وجلّ سائلك عمّا ولاك.

فقام المأمون، وقال: نِعم ما قلتَ يا سيدي!! هو الراي[2].

---

(١) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٥٦٥.

(٢) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ١٦٥ وانظر مصدره.

المأمون باتجاه بغداد.. والفضلُ يعترض

واقتنع المأمون بدقة رأي الإمام الرضا(عليه السلام)، وأعدّ العدّة للتنفيذ، وبلغ ذلك ذا الرئاستين فغمّهُ غمّا شديداً، وكان قد غُلبَ على الأمر، ولم يكن للمامون عنده راي، فلم يجسر أن يكاشفه.

حتى إذا قرب أوان السفر، وقوي رأي الإمام الرضا، وعلم أنه الصواب، جاء ذو الرئاستين إلى المأمون فقال له: يا أمير المؤمنين؛ ما هذا الرأي الذي أمرت به؟

فقال: أمرني سيدي أبو الحسن بذلك، وهو الصواب[1].

وسقط في يد الفضل، وأدرك أن المامون علم بما أخفى عليه من الأنباء واخبار القتال ببغداد، فحرص كل الحرص على أن يغير راي المامون ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، واستعان على ذلك بأولياء الرشيد، وأعداء الإمام الذين نقموا بيعته، فقصد المأمون، وسفه رأيه، والمأمون يتجنب الاصطدام به، ولكنه يخطط للتخلص منه.

وقال الفضل للمأمون: يا أمير المؤمنين؛ ما هذا بصواب!! قتلت بالأمس اخاك، وازلت الخلافة عنه، وبنو ابيك معادون لك، وجميع أهل العراق واهل بيتك والعرب، ثم احدثت هذا الحدث الثاني: ان جعلت ولاية العهد لأبي الحسن، واخرجتها من بني ابيك، والعامة والعلماء والفقهاء وآل عباس لا يرضون بذلك، وقلوبهم متنافرة عنك، والراي ان تقيم بخراسان حتى تسكن قلوب الناس على هذا ويتناسوا ما كان أمر محمد أخيك.

---

(١) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ١٦٥ وانظر مصدره.

وههنا يا أمير المؤمنين؛ مشايخ قد خدموا الرشيد، وعرفوا الأمر، فاستشرهم في ذلك، فإن أشاروا به أمضه!!

فقال المأمون: مثل مَنْ؟

قال: مثل علي بن أبي عمران، وابن مونس، والجلودي[1].

وهؤلاء النفر من عيون أصحاب الرشيد، ومن قادة المأمون ولكنهم نقموا بيعة الإمام الرضا(عليه السلام)، فحبسهم المأمون، وأودعهم السجن[2].

ويبدو أن الفرصة كانت مواتية لتصفية هؤلاء، وقد اقترح الفضل استدعاءهم، والمأمون عالم وخبير بما تنطوي عليه سرائرهم من الغيظ والحقد على بيعة الرضا(عليه السلام)، كيف لا!! وهم دعاة بني العباس!! ومن المتعصبين لهم، والحاقدين على أهل البيت، فلم يترك المأمون الفرصة وقد وافته دون عناء، وهم من رجال المعارضة فعلاً!!.

«فلما كان من الغد جاء أبو الحسن(عليه السلام) فدخل على المأمون، وقال له: يا أمير المؤمنين؛ ما صنعت؟ فحكى له ما قاله ذو الرئاستين.

ودعا المأمون بهؤلاء النفر، وأخرجهم من الحبس، فأول من دخل عليه علي بن أبي عمران، فنظر إلى الرضا(عليه السلام) بجنب المأمون، فقال: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تخرج هذا الأمر الذي جعله الله لكم وخصكم به، وتجعله في أيدي أعدائكم، ومن كان آباؤك يقتلونهم ويشردونهم في البلاد.

قال المأمون له: يا ابن الزانية، وانت بعد على هذا؟ قدمه يا حرسي وأضرب عنقه، فضربت عنقه.

وأدخل ابن مؤنس، فلما نظر إلى الرضا(عليه السلام) بجنب المأمون، قال: يا أمير المؤمنين؛ هذا الذي بجنبك والله صنم يعبد دون الله.

---

(١) ظ: الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ١٦١.

(٢) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ١٦٦.

قال له المامون: يا ابن الزانية وانت بعد على هذا؟

يا حرسي؛ قدمّه واضرب عنقه، فضرب عنقه.

ثم أدخل الجلودي، وكان الجلودي في خلافة الرشيد لما خرج محمد بن جعفر بن محمد بالمدينة، بعثه الرشيد وأمره إن ظفر به أن يضرب عنقه، وأن يغير على دور آل أبي طالب، وان يسلب نساءهم، ولا يدع على واحدة منهن إلا ثوباً واحداً، ففعل الجلودي ذلك.. وصار الجلودي إلى باب أبي الحسن الرضا(عليه السلام)، فهجم على داره مع خيله، فلمّا نظر إليه الرضا(عليه السلام)، جعل النساء كلهن في بيت، ووقف على باب البيت. فقال الجلودي لأبي الحسن(عليه السلام): لا بد من ان أدخل البيت فأسلبهن كما أمرني أمير المؤمنين!!.

فقال الإمام الرضا(عليه السلام): انا اسلبهنّ لك، واحلف اني لا ادع عليهن شيئاً إلا اخذته، فلم يزل يطلب إليه ويحلف، حتى سكن.

فدخل ابو الحسن(عليه السلام)، فلم يدع عليهن شيئاً حتى اقراطهن وخلاخيلهن وازرهن إلا اخذه منهم، وجمع ما كان في الدار من قليل وكثير.

فلما كان في هذا اليوم، وادخل الجلودي على المامون، قال الرضا(عليه السلام): يا امير المؤمنين هب لي هذا الشيخ!!

فقال المامون: يا سيدي هذا الذي فعل ببنات رسول الله(صلى الله عليه وآله) ما فعل من سلبهن!! فنظر الجلودي إلى الرضا(عليه السلام) وهو يكلم المامون، ويساله ان يعفو عنه ويهبه له، فظن انه يعين عليه لما كان الجلودي فعله!!

فقال: يا امير المؤمنين؛ اسالك بالله وبخدمتي للرشيد: ان لا تقبل قول هذا في. فقال المامون للإمام: يا أبا الحسن قد استعفى ونحن نبرّ قسمه.

ثم قال: لا والله لا اقبل فيك قوله! ألحقوه بصاحبيه، فقدّم وضرب عنقه[1].

والملاحظ في هذه الواقعة: أن المأمون لم يبحث مع هؤلاء الغرض الرئيسي من استدعائهم، وهو السفر إلىٰ بغداد!! ولم يرد ذكر هذا الموضوع علىٰ الإطلاق، مما يعني أن المأمون كان بإزاء تصفيتهم والتخلص منهم.

وتبدو في النص ظاهرة كريمة للإمام الرضا(عليه السلام): أنه أراد أن يكافئ الجلودي علىٰ استجابته له بعدم دخول دار الإمام لسلب النساء!! فكلّم المأمون بإخلاء سبيله، ولكن الجلودي لسوء طالعه أصيب بالهلع حينما رأىٰ الإمام يكلّم المأمون فيه، فظن لفساد رأيه أن الإمام يعين عليه، فأقسم علىٰ المأمون ان لا يقبل قول الرضا فيه، فابرّ قسمه، والحق الجلودي بصاحبيه.

وبتصفية هؤلاء القادة يكون المأمون قد هيّأ لنفسه أرضيّة جديدة من الاستقرار السياسي، وعزم أن يتخلص من الإمام الرضا(عليه السلام) لمكانته من ولاية العهد والإمامة الشرعية، ومن الفضل بن سهل لغشه وتعميته للأخبار عليه!! وكان قد بدأ بقتل الفضل في مسرحية مذهلة سنقف عندها.

المأمون يغدر بالفضل ويقتله

وبلغ الذعر بالفضل بن سهل ذروته حينما تناهت الأخبار إليه بقتل هؤلاء القادة من جهة، وبإصرار المأمون علىٰ الذهاب إلىٰ بغداد من جهة أخرىٰ.

وخشي ان يُدبرَ له امر للقضاء عليه، فأراد الامتناع من السفر إلىٰ بغداد، ولزم بيته، فبعث إليه المأمون، فأتاه، فقال له:

«مالك قعدت في بيتك؟

---

(١) الصدوق/ عيون اخبار الرضا ٢/ ١٦٠ - ١٦٢+ المجلسي/ البحار ٤٩/ ١٦٦ - ١٦٧.

فقال: يا أمير المؤمنين: إن ذنبي عظيم عند أهل بيتك وعند العامة، والناس يلومونني بقتل أخيك المخلوع وبيعة الرضا(عليه السلام) ولا آمن السعاة والحساد وأهل البغي أن يسعوا بي، فدعني أخلفك بخراسان.

فقال له المأمون: لا نستغني عنك، فأمّا ما قلت أنه يُسعى بك، ويبغى لك الغوائل، فليس أنت عندنا إلا الثقة المأمون، الناصح المشفق، فاكتب لنفسك ما تثق به من الضمان والأمان، وأكّد لنفسك ما تكون به مطمئناً!!

فذهب وكتب لنفسه كتاباً، وجمع عليه العلماء، وأتى به المأمون، فقرأه وأعطاه كلّ ما أحبّ.. فقال الفضل: يجب أن يكون خط أبي الحسن في هذا الأمان، يعطينا ما أعطيت، فإنه وليّ عهدك.

فقال المأمون: قد علمتَ أن أبا الحسن(عليه السلام) قد شرط علينا أن لا يعمل من ذلك شيئاً، ولا يحدث حدثاً فلا نسأله ما يكرهه، فاسأله أنت، فإنه لا يأبى عليك في هذا، فجاء واستأذن على الإمام.. فقال الإمام الرضا: ما حاجتك يا فضل؟

قال: يا سيدي هذا ما كتبه لي أمير المؤمنين، وأنت أولى أن تعطينا مثل ما أعطى..

فقال له الرضا(عليه السلام): اقرأه، وكان كتاباً في أكبر جلد - فلم يزل قائماً حتى قرأه، فلما فرغ، قال له الإمام الرضا: «يا فضل لك علينا هذا ما اتقيت الله عز وجل».

قال ياسر: فنقض عليه أمره في كلمة واحدة، فخرج من عنده، وخرج المأمون وخرجنا مع الرضا»[1].

وهذا النص يفسر لنا مدى تخوف الفضل من السفر إلى بغداد، ويخشى عواقبه عليه كما يخشى المأمون على نفسه، والمأمون عازم على

(١) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ١٦٢ - ١٦٣+ المجلسي/ البحار ٤٩/ ١٦٨

السفر كما يظهر للفضل الودّ، وينيط به الثقة، ويسترعي انتباهه إلى الضمان والأمان موقّعاً عليه من قبله، ويعطيه المأمون ما أراد.

ويحاول الفضل من المأمون ان يخاطب الإمام الرضا بتوقيع الأمان بخطه، فيعتذر المأمون عن ذلك لشرط الإمام أن لا يعمل شيئاً.

ويقصد الفضل الإمام، ويريه خط المأمون بأمانه، ويطلب إليه أن يعطيه مثلما أعطى المأمون، فيجبهه الإمام بأن له ذلك ما أتقى الله.

ومهما يكن من أمر، فقد تحرك الفضل مع الإمام والمأمون إلى بغداد، وقد سبق لنا القول أن ذلك كان بإشارة الإمام الرضا(عليه السلام)، لانتقاض أمر المسلمين، والإمام يريد للكيان الإسلامي الثبات في خضم الأحداث والعمل من أجل وحدة الأمة.

وصمم المأمون على تصفية الفضل في مفاجاة قد تكون مصطنعة من المأمون وإن نسبت للحسن بن سهل، فقد ورد على الفضل كتاب من اخيه: «إني نظرت في تحويل هذه السنة في حساب النجوم، ووجدت فيه انك تذوق كذا في شهر كذا يوم الأربعاء: حرّ الحديد وحرّ النار، وأرى أن تدخل أنت والرضا وأمير المؤمنين، الحمّام في هذا اليوم، وتحتمّ فيه وتصبّ الدم على بدنك، ليزول نحسه عنك.

فبعث الفضل إلى المأمون، وكتب إليه بذلك، وساله ان يدخل الحمّام معه، ويسال أبا الحسن(عليه السلام) ذلك ايضاً، فكتب المأمون إلى الرضا(عليه السلام) رقعة في ذلك وساله، فكتب إليه ابو الحسن(عليه السلام): «لستُ بداخل الحمّام غداً، ولا ارى لك يا امير المؤمنين ان تدخل الحمّام غداً، ولا ارى للفضل ان يدخل الحمّام غداً».

فأعاد إليه الرقعة مرتين، فكتب إليه ابو الحسن(عليه السلام): «لست بداخل غداً الحمام، فإني رأيت رسول الله(صلى الله عليه وآله) في النوم في هذه الليلة يقول لي: لا تدخل

الحمّام غداً، فلا أرىٰ لك يا أمير المؤمنين ولا للفضل ان تدخلا الحمّام غداً، فكتب إليه المأمون: صدقت يا سيدي وصدق رسول الله، لست بداخل غداً الحمام، والفضل فهو أعلم وما يفعله[1]

والكتاب كما يوحي به نصه ما هو إلا مؤامرة من المأمون لاغتيال كل من الإمام الرضا والفضل في الحمّام، ولكن الإمام كان حذراً، فرفض الاقتراح بدخول الحمّام، أما المأمون فاظهر موافقته للإمام وصدّق الرؤيا!! ولكنه لم يحذر الفضل من ذلك، وتركه وشأنه، مما يدل علىٰ تورّط المأمون وجزمه في تنفيذ خطة الاغتيال له.

ومهما يكن من أمر، فقد قتل الفضل في الحمّام شر قتلة كما سترىٰ.

وقد تنبأ الإمام الرضا(عليه السلام) بقتل الفضل، وتعوّذ من شر ما ينزل بليلة قتله، بل امر الرضا(عليه السلام) بصعود بعض خدمه إلىٰ السطح، وأمره بالاستماع للأصوات، من جهة دار الفضل، فصعد ياسر الخادم فسمع الضجّة، والنحيب من دار الفضل، وإذا بالمأمون يدخل علىٰ الإمام وهو يقول: يا سيدي يا أبا الحسن آجرك الله في الفضل..[2].

وكان القتلة من خاصة المأمون واقطاب حاشيته، وهو الذي أمرهم بقتله دون ريب، فقد ذكر الطبري: ان ركب المأمون «لما أتىٰ سرخس، شدّ قوم علىٰ الفضل بن سهل وهو في الحمام فضربوه بالسيوف حتىٰ مات، وذلك يوم الجمعة لليلتين خلت من شعبان سنة اثنتين ومائتين، فأخذوا، وكان الذين قتلوا الفضل من حشم المأمون، وهم أربعة نفر:

١- غالب المسعودي الأسود.

٢- قسطنطين الرومي.

٣- فرج الديلمي.

---

(١) الكليني/ الكافي ١/ ٤٩١+ الصدوق/ عيون اخبار الرضا ٢/ ١٦٣.

(٢) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ١٦٩ وانظر مصدره.

٤- موفق الصقلبي.

وقتلوه، وله ستون سنة، وهربوا.

فبعث المأمون في طلبهم، وجعل لمن جاء بهم عشرة آلاف دينار، فجاء بهم العباس بن هيثم بن بزر جمهر الدينوري.

فقالوا للمأمون: أنت أمرتنا بقتله، فأمر بهم فضربت أعناقهم.

وقد قيل: إن الذين قتلوا الفضل لما أُخذوا، سألهم المأمون، فمنهم من قال: إن علي بن أبي سعيد ابن أخت الفضل دسّهم، ومنهم من أنكر ذلك، وأمر بهم فقتلوا.

ثم بعث إلى عبد العزيز بن عمران، وعلي وموسى وخلف، فسألهم، فانكروا ان يكونوا علموا بشيء من ذلك، فلم يقبل ذلك منهم، فأمر بهم فقتلوا، وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل إلى واسط، واعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل، وانه قد صيره مكانه»[1].

وذكر غيره من المؤرخين ان القتلة قالوا للمأمون: أنت امرتنا بقتله!! فقال لهم: انا اقتلكم بإقراركم!! واما ما ادّعيتموه: من اني امرتكم بذلك، فدعوى ليس لها بيِّنة، ثم امر بهم فضربت أعناقهم[2].

وهكذا نجد المامون قد اجهز على الفضل، وأجهز على اربعة من حشمه، واربعة من قوّاده، وبذلك يضيف إلى ضحاياه عدداً جديداً في تصفية القادة والزعماء من حوله.

وقد قطع المسعودي بأن المأمون قد قتل الفضل بن سهل بيده، وانه باشر قتله بنفسه[3].

---

(١) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٥٦٥+ ابن خلدون/ التاريخ ٣/ ٢٥٠.

(٢) ابن الأثير/ الكامل ٥/ ١٩١+ المسعودي/ إثبات الوصية/ ٢٠٧+ القلقشندي/ مآثر الإنافة ١/ ٢١١+ ابن خلكان/ وفيات الأعيان ١/ ١٤٤.

(٣) المسعودي/ مروج الذهب ٣/ ٤١٧.

وكان لهذا الحدث أهميته الكبرىٰ في الوسط القيادي والشعبي معاً، إذ الفضل كبير وزرائه، وهو الوزير الأول الذي أحكم كل شيء تدبيراً ونشاطاً، حتىٰ إن أحمد بن أبي خالد الأحول امتنع بعد مقتل الفضل عن قبول اسم «الوزير» مع قبوله بالقيام بكل أعمال الوزير ووظائفه[1].

وهذا يعني أن أي وزير مرهون بمصيره التصفوي لدىٰ الحاكم العباسي متىٰ أشار بذلك.

وكان أثر هذا الحدث علىٰ الجند كبيراً، فقد «اجتمع القواد والجند ومن كان من رجال ذي الرئاستين علىٰ باب المأمون، فقالوا:

اغتاله وقتله، فلنطلبن بدمه!!

فقال المأمون للرضا(عليه السلام): يا سيدي ترىٰ أن تخرج إليهم وتفرقهم!! قال ياسر: فركب الرضا(عليه السلام)، وقال لي: اِركب، فلما خرجنا من الباب، نظر الرضا(عليه السلام) إليهم، وقد اجتمعوا وجاؤوا بالنيران ليحرقوا الباب، فصاح بهم، وأومأ إليهم بيده: تفرقوا!! تفرقوا!!.

قال ياسر: فأقبل الناس -والله- يقع بعضهم علىٰ بعض، وما أشار إلىٰ أحد إلا ركض ومرّ، ولم يقف له أحد»[2].

وفي هذا دلالة علىٰ ارتباط الفضل بقادة الجيش وكبار رجال الدولة ارتباطاً وثيقاً حتىٰ إنهم نقموا علىٰ المأمون، واعترضوا وتظاهروا. وأن المأمون يلجأ في الشدائد والأزمات إلىٰ الإمام الرضا(عليه السلام).

وإن الرضا بهيبته الروحية وإدارته الناجحة قد تبث دعائم قيادته في حنايا الشعب المسلم، فهو يتلقىٰ أوامره دون تردد وفي الحال.

---

(١) ظ: جعفر مرتضىٰ العاملي/ حياة الإمام الرضا/ ٣٩٣.

(٢) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ١٦٤+ المجلسي/ البحار ٤٩/ ١٦٩.

أما لماذا بدا الإمام وكأنه طرف في هذا الصراع، وليس الأمر كذلك، وإنما ينطلق الإمام من خلال تكليفه الشرعي، فلم يكن راضياً يوماً ما عن سيطرة الفضل وخيانته للأمة، وطالما عرَّض به لدىٰ المأمون، فهو لا يعتبره مثلاً للحاكم النزيه، بل اعتبره من الظلمة وحكام الجور، ولم يكن الإمام آمراً بقتله ولا مشجعاً عليه، وإنما نصح للفضل أن لا يلقي بنفسه إلىٰ التهلكة، فلا يدخل الحمّام، وكان ما يهم الإمام حقاً هو الإبقاء علىٰ الإسلام، والإيحاء بروح التضامن بين المسلمين أما التصرفات الخارجة عن نطاق الإسلام، والممارسات الشاذة التي اضطلع بها الفضل، فلم يملك الإمام سبيلاً إلىٰ صدها سوىٰ الإنكار لها عند المأمون وبين الناس.

وليس للإمام أن يتستر علىٰ جرائر الفضل، ولا أن يدفع عنه، بل عليه الإسهام الفاعل في إنعاش المبدأ العام في الحفاظ علىٰ الإسلام من التدهور والضياع في ظل فوضىٰ المأمون والفضل وقادة الجيش وأعمدة الدولة، والإمام هو القائل للمأمون صراحة.

«إنك قد ضيعت أمر المسلمين، وفوضت ذلك إلىٰ غيرك، يحكم فيهم بغير حكم الله تعالىٰ»[1].

ولهذا نجد الإمام يعتذر عن حمل مسؤولية الإدارة والدولة، لأن الفتق قد اتسع علىٰ الراتق، ولأن الحكم لا يمثل الشرعية، لهذا فقد كان دوره دور المشير، فإن عمل برأيه فَبِها ونعمت، وإلا فقد أدىٰ ما عليه.

وكان الإمام في ظل هذه المؤامرات يحيا حياة الترقب وانتظار المصير.



(١) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ١٥٩.

الفصل الخامس

اغتيال الإمام (عليه السلام) واستشهاده

١- خطر الإمام الرضا(عليه السلام) على المأمون.

٢- أسباب الاغتيال.. ورأي الإمام(عليه السلام).

٣- حقيقة استشهاد الإمام(عليه السلام).

٤- الصورة التي قتل بها الإمام الرضا(عليه السلام).

٥- مرقدُهُ وضريحه المبارك(عليه السلام).

٦- زيارة الإمام الرضا(عليه السلام).



خطر الإمام الرضا على المأمون

وبعد مقتل الفضل في سرخس، كان على المأمون أن يواصل سيره في الطريق إلى بغداد، إلا أن لديه عقدة مستعصية لابد له من حلّها قبل استفحال خطرها عليه، وهذه العقدة تتمثل في شخصية الإمام الرضا المتكاملة، وليس من السهل على المأمون أن يتجاوز هذه العقبة، ولا أن يتغافل عن هذا الخطر المحدّق به، لاسيما أن الناس حينما شاهدوا من الإمام الرضا تلك المعارف الإلهية وذلك الهدي الرفيع، قالوا: «والله؛ إنه أولى بالخلافة من المأمون، فكان أصحاب الأخبار يرفعون ذلك إليه، فيغتاظ ويشتّد حسده.»[1].

فهل يبقى المأمون في صحبة الإمام؟ وما نتائج ذلك؟ وما عسى أن يكون للإمام من رصيد شعبي في بغداد لو عرفوا من فضله وورعه وتقواه ما علم أهل المشرق؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن المأمون كان يتطاير شرراً من تحدي العباسيين له، فقد تمردوا عليه، واستهانوا به، ونقموا بيعته للإمام الرضا، وخلعوا الطاعة، ونسفوا ما خطط له، وهم بذلك في غفلة عمّا يعمل المأمون من أجلهم، وقد كان هذا العصيان المسلّح والمدني معاً مما يقضّ مضجعه، ويعكر صفو انتصاراته السياسية، ويريه خيبته في بني أبيه من العباسيين.

وكان المأمون من ذي قبل حينما شاهد انفلات الأمن في بغداد، واستمرار حركة الثورة المضادة في العراق، وتجدد روح التمرد في الأقاليم، رغب أن يتوجه الإمام الرضا إلى العراق، عسى أن تهدأ تلك الأراجيف الدامية بسيطرة الإمام على الموقف، ولكن الإمام(عليه السلام) كان أذكى من أن

---

(١) الأربلي/ كشف الغمّة ٣/ ٨٧.

يُخدع، وأصلب من أن يلين، وليس من طبيعته أن يمهد السبيل لحكم الظالمين، أو أن يجازف بحياته إزاء خلافة المأمون التي رفضت في بغداد جهاراً.

وكان هدف المأمون واضحاً من هذا الاقتراح، فقد وجد الإمام ليس كما يريد الحكم، ووجد العباسيين يقفون حيال الحكم، وأن الدولة تقف على قدمين متزلزلتين ليس لهما قرار، فما المانع أن يشغل أعداءه الإمام وبني العباس في صراع تكون حصيلته له، فأينما أصابت فتح، وقد ضيَّع الإمام هذه الفرصة عليه بما اعترف به المأمون بعد استشهاد الإمام: «رحم الله الرضا(عليه السلام) ما كان أعلمهُ؛ لقد أخبرني بعجب. سألته ليلة، وقد بايع له الناس، فقلت: جعلت فداك، أرى لك أن تمضي إلى العراق، وأكون خليفتك بخراسان، فتبسم!! ثم قال:

«لا لعمري.. فجهدت الجهد كلّه واطمعته بالخلافة وما سواها، فما اطمعني في نفسه»[1].

ولم يكن بذل المأمون الجهد كلّه، والتنازل عن الخلافة للإمام لو ذهب إلى بغداد، إلا مسرحية جديدة يضيفها المأمون إلى ولاية العهد، ليكون قد احكم أمره في التخلص من الإمام، وهو في مواجهة العباسيين، عسى أن ينهي دوره بذلك.

وحينما فشل المأمون في خطته هذه صدر عن منهج آخر، حسب أنه يحرج به الإمام، ولكنه اخفق في ذلك وباء بالفشل، فقد اورد الصدوق: «كان المأمون يجلب على الإمام(عليه السلام) من متكلمي الفِرَق واهل الأهواء المضلّة كل من سمع به، حرصاً على انقطاع الرضا عن الحجة مع واحد منهم»[2].

---

(١) الشيخ الطوسي/ الغيبة/ ٤٨.

(٢) الصدوق/ عيون اخبار الرضا ١/١٩١.

وكان هذا الإجراء يحقق للمأمون -لو نجح فيه- هدفاً مزدوجاً يتمثل أولاً في إفحام الإمام وانقطاع حجته، وفي تلبية رغبته ثانياً أن يضعه بين الناس فيما يزعم، ولكن الواقع المرير الذي صدم المأمون: أن الإمام كان أقوى شكيمة وأعظم قدراً من أن تهزّه هذه الرياح السوداء، التي دفعت بالمأمون أن يمتحن الإمام «بالسؤال عن كل شيء، فيجيبه الجواب الشافي»[1].

وكان هذا الأمر شائعاً في أروقة بلاط المأمون، ومعروفاً لدى الخاصة والعامة، وقد قدّر فيه الإحباط للمأمون، والالتماع الذهني للإمام(عليه السلام).

قال أبو الصلت الهروي: «فلّما لم يظهر منه (يعني الإمام الرضا) للناس إلا ما ازداد به فضلاً عندهم، ومحلاً في نفوسهم، جلب عليه المتكلمين من البلدان، طمعاً في أن يقطعه واحد منهم، فيسقط محله عند العلماء، وبسببهم يشتهر نقصه عند العامة، فكان لا يكلمه خصم من اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئين، والبراهمة، والملحدين، والدهرية، ولا خصم من فرق المسلمين المخالفين إلا قطعه، وألزمه الحجة..»[2].

وكان هذا الملحظ ملحّاً لدى المأمون، وقد يحلم بتحقيقه ولو مرة واحدة، إذ قال لسليمان المروزي: «إنما وجهت إليك لمعرفتي بقوتك، وليس مرادي إلا أن تقطعه (يعني الرضا) عن حجة واحدة فقط»[3].

وقد ضاق المأمون ذرعاً بالإمام، وهو يحشد عليه علماء الآفاق في جدل ومحاججة ومناظرة، والإمام مرفوع الجبين حاضر الحجة والمأمون يتحرّى لو تضبط على الإمام زلة، أو يصيبه وهن، أو يستولي عليه تلكؤ، أو يبدو عليه ضعف، أو يتحداه خور أمام هذا السيل الطاغي من المسائل

---

(١) ابن الصباغ المالكي/ الفصول المهمة/ ٢٣٧+ الطبرسي/ إعلام الورى/ ٣١٤.

(٢) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ٢٣٩.

(٣) المصدر نفسه ١/ ١٧٩.

الكبرىٰ، ولكنه لم يحقق شيئاً من ذلك؛ حتىٰ مزّق الحقد قلبه، وغلبت عليه الآلام، وأصيب بالخواء الفاضح، حتىٰ ندم من استدعائه لهذه الجمهرة من المعنيين بشؤون الفكر الكلامي.

ولقد أدرك الإمام جيداً ما يدور بخلد المأمون من دواعٍ وأسباب لتهيئة تلك الحشود من المتكلمين، فقال للحسن بن محمد النوفلي -وقد جمع له المأمون أصحاب الكلام والبدع-: يا نوفلي: أتحبّ أن تعلم متىٰ يندم المأمون؟

قلتُ: نعم، قال الإمام: «إذا سمع احتجاجي علىٰ أهل التوراة بتوراتهم وعلىٰ أهل الإنجيل بإنجيلهم، وعلىٰ أهل الزبور بزبورهم، وعلىٰ الصابئين بعبرانيهم، وعلىٰ أهل الهرابذة بفارسيتهم، وعلىٰ أهل الروم بروميتهم، وعلىٰ أصحاب المقالات بلغاتهم. فإذا قطعت كل صنف ودحضت حجته، وترك مقالته، ورجع إلىٰ قولي، علم المأمون أن الموضع الذي هو بسبيله ليس بمستحقٍّ له، فعند ذلك تكون الندامة منه...»[1].

وندم المأمون ندماً شديداً علىٰ ما أحرزه الإمام من إذعان خصومه له، ومن الانبهار فيه، والإعجاب بكفايته الكلامية، ومن تذلل العلماء بين يديه، وخضوع الأساطين لديه، فعاد المأمون يسرّ حسواً بارتغاء عسىٰ أن تواتيه الفرصة لاغتيال الإمام والإجهاز عليه.

وقد تخامرك الشكوك، ويدنو منك الارتياب، وأنت تقرأ فصول الرواية حبكة وعقدة، وقد يصل معك الذهول حد الإفراط: أن كيف يقدم المأمون علىٰ اغتيال الإمام؟ والمأمون عالم العباسيين؟ وهو أعرف الناس بمنزلة الإمام!! وقد ظهر له من علمه الفيّاض ما ملأ الخافقين!! وقد استغنىٰ بوجوده عن أحاديث أصناف العلماء والمتكلمين، وقد التفّ حوله التفافاً عظيماً!! وقد هدأت الثورات ببركة ولايته للعهد..

---

(١) المصدر نفسه ١/ ١٥٦.

وكل هذا حقّ لا ريب فيه، ولكنك يجب ان تنظر قول الرشيد «الملك عقيم» والولد على سر أبيه، وليس من سجية المأمون الزهد بالحكم، وهو يعضّ عليه بناجذيه، وكما أغرى الملك الرشيد باغتيال الإمام الكاظم(عليه السلام)، فكذلك هو يغري ولده المأمون باغتيال الإمام الرضا سواء بسواء.

لهذا نجد المأمون يهدئ من غضب بني العباس، ويفرخ روعهم، عند استشهاد الإمام، فهم أولى به من الإمام.

يقول ابن الأثير: «فلما توفي -الإمام الرضا- كتب المأمون إلى الحسن بن سهيل يعلمه موت عليّ، وما دخل عليه من المصيبة بفقده.

وكتب إلى أهل بغداد وبني العباس والموالي: يعلمهم بموته، وأنهم إنما نقموا بيعته، وقد مات، ويسألهم الدخول في طاعته.. فكتبوا إليه أغلظ جواب»[1].

وستقف على وقائع هذه المأساة عمّا قريب.

أسباب الاغتيال ورأي الإمام

وأسدل الستار على مساوئ الحياة السياسية لبني العباس، واحيطت مآسي الحكم بجدار من السرية والصمت الرهيب، فكأن المنصور لم يقتل الإمام جعفر الصادق، وكأن الرشيد لم يقتل الإمام موسى بن جعفر.

هكذا تضلل الوقائع وتنمو الأكاذيب، وهكذا يحدث الخلط والمزيج من التآكل والاختراق لحقائق الأشياء، وكأن الواقع المرير يحظى بالأعاجيب والخوارق فلا يذكر إلا لماماً، وكان التاريخ حكر على الطبقة الحاكمة فتوجهه أنى تريد!! ولكن الحق يعلو ولا يعلى عليه، ولا بد

---

(١) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٥/ ١٩٣.

للتاريخ الصارخ أن يجأر بالحدث الصادق، ولا بد للتدوين النزيه أن يصور الوقائع عارية عن الزيف والتمويه، فيميط عنها العزلة والاغتراب فتتجلى ناصعة مجرّدة، وتعادلها القوة والشباب والنشاط لتكون شاهداً على العصر.

ويأتي دور المأمون في صمت ودجل ومراوغة، محاولاً تحريف الكلم عن مواضعه بتمرير أكبر خيانة للأمة والإسلام والضمير، تلك الخيانة البلهاء ذات السمّ الأصفر والحقد الأسود، وقد غلّفت بمرارة الجزع وثوران النفس وتطويع المغامرة.

فها هو المأمون يقول للرضا(عليه السلام) في حال احتضاره: «والله؛ ما أدري اي المصيبتين اعظم عليّ فقدي لك وفراقي إياك، أو تهمة الناس لي أني اغتلتك وقتلتك؟.»[1].

وهكذا نجد المريب يكاد ان يقول خذوني، ونشاهد المأمون يتلوّى زيفاً بعد سمه للإمام، فيقول: «اعزز عليّ يا اخي بأن اعيش ليومك، وقد كان في بقائك امل. واغلظ عليّ من ذلك واشد: ان الناس يقولون: إني سقيتك سماً، وانا إلى الله من ذلك بريء»[2].

بيد أن جريمة القتل الجديدة بارزة للعيان، ما أسرع ما تكتشفها العقول المرهفة التي لا تنخدع بأحابيل السياسة المتصلبة، وسياسة المأمون ذات حدين متناقضين: حد ناعم رقيق متطامن، وحدّ غليظ جاف متهوّر، فهي طوراً تجري بختل كالماء منساباً في الأنهار، وطوراً تنفجر كالبركان ملتهماً ما حوله من الآثار والأعيان، وكان اغتيال الإمام الرضا(عليه السلام) -كما سترى- من النوع الأول في تخطيط دقيق.

---

(١) الصدوق/ عيون الأخبار ٢/٢٤٢.

(٢) ابو الفرج/ مقاتل الطالبين/ ٣٨٠.

ومهما قيل في أسباب الاغتيال ودواعيه، فإننا نميل إلى أن الأمل الذي حاوله المأمون من إسناد ولاية العهد للإمام، وإن نجح في إخماد الثورات الداخلية، إلا أنه قد أخفق في إسكات صوته المدوي بالعلم والمعرفة، فهو وإن أغلق جبهة مشتعلة فقد فتح جبهة متوقدة ما إلى إغلاقها من سبيل، فما استطاع أن يزلزل عقيدة الناس في ورع الإمام وزهده وتقواه، وكان وكده أن ينضوي الإمام تحت لوائه، وأن يكون ضمن حاشيته ليضفي على الحكم صفة الشرعية التي يفتقدها، فما تحقق له ذلك، على أن الاندفاع الشعبي الذي أحيط به الإمام، كان من أهم أسباب اغتياله، وإن خطره فيما يعتقده المأمون قدعاد محدقاً بالخلافة، وربما كان كثير من النصوص التاريخية يشير إلى شيء من هذا.

ويتحدث الأستاذ جرجي زيدان عن العقدة في الأمر، وأن المأمون قد مني بصراع نفسي «وفكّر في بيعة على الرضا، فأعظم أن يرجع عنها، وخاف إذا رجع، أن يثور عليه أهل خراسان فيقتلوه، فعمد إلى سياسة الفتك، فدسّ إليه من أطعمة عنباً مسموماً، فمات»[1].

ولعل الإمام (عليه السلام) لم يبخل على المأمون في عكس الحقيقة له، وإيقافه على واقع الأمر، فقد تحدث سبط الجوزي عن علماء السير فقال عنهم: «فلما فعل المأمون ذلك -يعني ولاية العهد- شغبت بنو العباس ببغداد عليه، وخلعوه من الخلافة، وولوا إبراهيم بن المهدي، والمأمون بمرو، وتفرقت شيعة بني العباس غبه، فقال له علي بن موسى الرضا: يا أمير المؤمنين؛ النصح لك واجب، والغش لا يحل لمؤمن، إن العامة تكره ما فعلت معي، والخاصة تكره الفضل بن سهل، فالراي أن تنحينا عنك حتى يستقيم لك الخاصة والعامة، فيستقيم أمرك»[2]

(١) جرجي زيدان/ تاريخ التمدن الإسلامي ٤/٤٤.

(٢) سبط ابن الجوزي/ تذكرة الخواص/ ٢٠٠.

يقول إبراهيم بن العباس الصولي:

«فكان والله قوله هذا السبب في الذي آل الأمر إليه»[1].

على أن الإمام(عليه السلام) كان خبيراً بما يدور حوله من مؤامرات، وقد يشير إلى ذلك بلمح غيبي من ذلك الباب الذي علّمه رسوله الله(صلى الله عليه وآله) لجدّه أمير المؤمنين الإمام علي(عليه السلام)، فانفتح له من آلاف الأبواب، وما أفاض به على الأئمة المعصومين من أبنائه الطاهرين.

فحينما طلب المأمون من الرضا أن يذهب للعراق -كما مرّ- ويكون خليفته في خراسان، كان جواب الإمام متضمناً الإشارة لمرقده، فقال للمأمون: «لا لعمري.. ولكنه من دون خراسان.. إن لنا هنا مسكناً، ولستُ ببارح حتى يأتيني الموت، ومنها المحشر لا محالة!!.

فقال له المأمون: جعلت فداك، وما علمك بذلك؟

قال الإمام: علمي بمكاني كعلمي بمكانك.

قال المأمون: وأين مكاني أصلحك الله؟

قال الإمام: لقد بعدت الشقة بيني وبينك، أموت بالمشرق، وتموت بالمغرب[2].

وحينما أصّر المأمون على الإمام بالاستجابة لولاية العهد، كان مما اعتذر به رسول الله(صلى الله عليه وآله)، أني أخرج من الدنيا قبلك مقتولاً بالسم مظلوماً، تبكي عليّ ملائكة السماء وملائكة الأرض، وادفن في أرض غربة إلى جنب هارون الرشيد.. فبكى المأمون ثم قال له:

يا ابن رسول الله، ومن الذي يقتلك أو يقدر على الإساءة إليك وأنا حي!؟

---

(١) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ١٤٥.

(٢) ابن شهرا شوب/ المناقب ٣/ ٤٤٩.

فقال الرضا(عليه السلام): أما أني لو أشاء ان أقول من الذي يقتلني لقلت!!»[1].

ولم يكن حديث الإمام في هذا الملحظ جديداً، بل كان الإمام يخبر بمصيره والأحوال مستوسقة في مرو، بل وفي عهد الرشيد من ذي قبل، ويشير إلى موضع قبره جازماً متحققاً، كما في جملة من الروايات:

عن الحسن بن الجهم، وقد حضر مجلس المأمون، والإمام يجيب عن اسئلة الفقهاء والمتكلمين، قال للإمام: يا ابن رسول الله، الحمد لله الذي وهب لك من جميل رأي أمير المؤمنين ما حمله على ما أرى من إكرامه لك وقبوله لقولك.

فقال الإمام(عليه السلام): «يا ابن الجهم، لا يغرنك ما ألفيته عليه من إكرامي والاستماع مني، فإنه سيقتلني بالسم، وهو ظالم لي، أعرف بعهد معهود إليّ من آبائي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فاكتم هذا عليّ ما دمت حيّاً.

قال الحسن بن الجهم: فما حدثت بهذا الحديث إلى أن مضى الرضا(عليه السلام) بطوس مقتولاً بالسمّ، ودفن في دار حميد بن قحطبة الطائي في القبة التي قبر هارون إلى جانبه»[2].

وقال(عليه السلام): «وإني لمقتول بالسمّ باغتيال من يغتالني، أعرف ذلك بعهد معهود إليّ من رسول الله(صلى الله عليه وآله) أخبره به جبرئيل عن ربّ العالمين عز وجل»[3].

وكما تحدث الإمام عن مصيره، فقد تحدث بمجاورته الرشيد في قبره: فعن جعفر بن محمد النوفلي، عن الإمام الرضا(عليه السلام)، انه قال: «وأما انا فإني ذاهب في وجه لا أرجع، بورك قبرٌ بطوس!! وقبران ببغداد، قال:

---

(١) الصدوق/ علل الشرائع ١/ ٢٢٦.

(٢) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ٢٠٢+ المجلسي/ البحار ٤٩/ ٢٨٤.

(٣) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ٢٠٣.

قلت: جعلت فداك، عرفنا واحداً، فما الثاني؟ قال(عليه السلام) ستعرفونه، ثم قال: قبري وقبر هارون هكذا، وضم بأصبعيه»[1].

وفي رواية أن الإمام قال وهارون يخطب في مسجد رسول الله(صلى الله عليه وآله): أترونني وإياه ندفن في بيت واحد؟[2]

وفي رواية؛ وهارون بمنى أو عرفات، قال الرضا: «أنا وهارون هكذا، وضم إصبعيه؛ فكنا لا ندري ما يعني، حتى أمر المأمون بدفن الرضا(عليه السلام) إلى جنب قبر هارون[3].

ومن تصريحات الإمام الرضا الآنفة، يبدو رأي الإمام الرضا قاطعاً باغتياله للأسباب التي ذكرناها فيما سبق.

حقيقة استشهاد الإمام

هناك اختلاف كبير بين المؤرخين في سبب وفاة الإمام الرضا(عليه السلام)، منهم من ذهب إلى انه مات حتف انفه، ونفى سم المأمون له، كسبط ابن الجوزي بقوله: «وزعم قوم أن المأمون سمّه، وليس بصحيح، فإنه لما مات عليٌّ توجع له المامون، واظهر الحزن عليه، وبقي اياماً لا ياكل طعاماً، ولا يشرب شراباً»[4] وهذا القول ليس بشيء، فإن إظهار الحزن والجزع قد يكون لغاية أخرى، كاستبعاد التهمة، او الشك في المأمون لا أكثر ولا اقل.

وذهب إلى ذلك الاربلّي أيضاً، ونسب إلى السيد ابن طاووس إنكار تهمة المأمون باغتياله[5].

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٢١٦.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٢٢٦.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٢٢٦.

(٤) سبط ابن الجوزي/ تذكرة الخواص/ ٣٥٥.

(٥) الأربلي/ كشف الغمة ٣/ ٧٦.

وسار على هذا الدكتور احمد امين واستبعد اغتيال المأمون له، لحزنه الشديد عليه[1].

وهناك من زعم أن الإمام مات حتف انفه، وأن سبب وفاته أنه «أكل عنباً، فأكثر منه، فمات»[2].

وذهب ابن خلدون، ان الإمام مات فجاة من عنب أكله، قال: «ولما نزل المأمون مدينة طوس، مات علي الرضا فجاة، آخر صفر من سنة ثلاثة ومائتين، من عنب أكله..»[3].

والذي يذهب إليه البحث ان الإمام الرضا(عليه السلام) استشهد مسموماً بأمر من المأمون وأشرافه.

قال الدكتور الشيبي: «ومات الرضا مسموماً كما يرى أكثر المؤرخين»[4].

وقد أورد الأستاذ السيد جعفر مرتضى العاملي دام علاه، أسماء كوكبة من المؤرخين قدامى ومحدثين، بلغ عددهم ثمانية وعشرين مؤرخاً، ذهبوا إن المأمون أراد التخلّص من الإمام الرضا، فدسّ إليه سماً في عنب[5].

وهو ما يفيده البحث الموضوعي في عدة ظواهر:

الأولى: أن الإمام الرضا(عليه السلام) قد أخبر مسبقاً بما تلقاه من آبائه عن جده رسول الله(صلى الله عليه وآله) ان المأمون يقتله سماً، كما تحدث عن هذا عدة مرات:

قال الإمام: «وإني لمقتول بالسم باغتيال من يغتالني، أعرف ذلك بعهد معهود إلي من رسول الله(صلى الله عليه وآله)..»[6].

---

(١) احمد امين/ ضحى الإسلام ٣/ ٢٩٥.

(٢) ابو الفداء/ التاريخ ٢/ ٢٣+ ابن الاثير/ الكامل في التاريخ ٥/ ١٥٠، ومثله في الطبري.

(٣) ابن خلدون/ التاريخ ٣/ ٢٥٠.

(٤) كامل مصطفى الشيبي/ الصلة بين التصوف والتشيّع/ ٢٢٦.

(٥) ظ: جعفر مرتضى العاملي/ حياة الإمام الرضا/ ٤٢٢ - ٤٢٥.

(٦) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ٢٨٥ وانظر مصدره.

وقول الإمام لهرثمة بن أعين: «قد عزم هذا الطاغي (يعني المأمون) على سمّي في عنب ورمّان مفروك..»[1].

وقال الإمام للحسن بن الجهم عن المأمون: «فإنه سيقتلني بالسم وهو ظالم لي. أعرف هذا بعهد معهود من آبائي عن رسول الله(ﷺ)»[2].

الظاهرة الثانية: ويتجلى من مظاهر الحزن المصطنعة التي مارسها المأمون، ومن فلتات لسانه بالاعتراف بالجريمة.

فقد روي أن المأمون عند وفاة الإمام رمى بنفسه على الأرض، وجعل يخور كما يخور الثور، وهو يقول: «ويلك يا مأمون!! ما حالك؟ وعلى ما أقدمت؟ لعن الله فلاناً وفلاناً، فإنهما أشارا عليّ بما فعلت..»[3].

ويؤيده ما قاله المأمون، والإمام بعد لم يمت، وهو يوجه اتهام الناس إليه: «ما أدري أي المصيبتين عليّ أعظم فقدي إياك، أو تهمة الناس لي: أني اغتلتك وقتلتك»[4].

وقد أظهر المأمون على موت الإمام جزعاً كبيراً، وانحى باللائمة على نفسه، واعترف ضمناً أو تصريحاً بقتل الإمام، وكأنه قد أفاق بعد الجريمة، أو ندم بعد فوات الأوان!! وكان ذلك تدريجياً..

فقد أقبل عند وفاة الإمام.. مكشوف الرأس، محلّ الأزرار، قائماً على قدميه ينتحب ويبكي..[5].

وعند دفن الإمام: «أقبل المأمون يتلّون الواناً، يصفرّ مرة، ويحمرّ مرة، ويسودّ أخرى، ثم تمدد مغشياً عليه، وهو يقول: «ويل للمأمون من الله، ويل له من رسوله، ويل له من عليّ، ويل له من فاطمة، ويل للمأمون من

---

(١) الصدوق/ عيون الأخبار ٢/ ٢٤٥.

(٢) الصدوق/ عيون الأخبار ٢/ ٢٠١.

(٣) المسعودي/ إثبات الوصية/ ٢٠٩.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني/ مقاتل الطالبيين/ ٥٧٢.

(٥) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ٢٩٦.

الحسن والحسين، ويل للمأمون من علي بن الحسين، ويل للمأمون من محمد بن علي، ويل للمأمون من جعفر بن محمد، ويل له من موسى بن جعفر، ويل له من علي بن موسى الرضا، هذا والله هو الخسران المبين، يقول هذا ويكرره، على ما رواه هرثمة ابن أعين الذي وقف على تجهيز الإمام»[1].

الظاهرة الثانية: وتتمثل في إصرار المأمون على الإمام الرضا بتناول العنب، وامتناع الإمام عن ذلك، فيقول المأمون: «لابد من ذلك!! وما يمنعك منه؟ لعلك تتهمنا بشيء؟ وأكل الإمام وأحسّ بالسمّ قطعاً، فقامَ.. فقال له المأمون: إلى أين؟ قال الإمام: إلى حيث وجهتني!!»[2].

وموارد هذا الإصرار جاءت بموارد متعددة، تارة بعنب، وأخرى برمان، وبصور متعددة أيضاً سيأتي بعضها في البحث.

الظاهرة الرابعة: إشهاد المأمون على وفاة الإمام الرضا(عليه السلام)، والسبب في ذلك واضح، ان الإمام صحيح الظاهر لا اثر به من ضربه سيف أو طعنة رمح مثلاً، ولكنه في واقعه مسموم كما أراد المأمون، والإشهاد على وفاته بانه صحيح البدن، مما يدرأ عنه المسؤولية ظاهراً، وهو اسهل طريق للتضليل وتزييف الوقائع.

يقول الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ):

«ولما توفى (الرضا(عليه السلام)) كتم المأمون موته يوماً وليلة، ثم انفذ إلى محمد بن جعفر الصادق(عليه السلام) «عم الرضا» وجماعة من آل ابي طالب الذين كانوا عنده، فلما حضروا نعاه إليهم، وبكى، واظهر حزناً شديداً، وتوجعاً، وأراهم إياه صحيح الجسد»[3].

الظاهرة الخامسة: ذلك التفجع الكاذب الذي اظهره المأمون لدى موت الإمام الرضا، فحينما وقعت الصيحة بوفاة الإمام: «جاء المأمون حافياً

---

(١) الصدوق/ عيون اخبار الرضا ٢/ ٢٤٩+ المجلسي/ البحار ٤٩/ ٢٩٨.

(٢) الصدوق/ الأمالي/ ٣٩٣+ الصدوق/ عيون اخبار الرضا٢/ ٢٤٣.

(٣) الشيخ المفيد/ الأرشاد/ ٣٥٥.

حاسراً، يضرب على رأسه، ويقبض على لحيته، ويتأسف، ويبكي، وتسيل الدموع على خديه»[1].

ولم يكن ذلك الخداع ليخفى على الناس، وقد اتهموا المأمون علانية بقتل الإمام، وحاول المأمون تهدئة الناس والالتجاء إلى العلويين في ذلك، فقد روي: «فلما أصبح، اجتمع الخلق، وقالوا: هذا قتله واغتاله، يعنون المأمون!! وقالوا: قتل ابن رسول الله، وأكثروا القول والجلبة».

فلما رأى ذلك المأمون، قال لمحمد بن جعفر الصادق(عليه السلام): «يا أبا جعفر، اخرج إلى الناس، وأعلمهم أن أبا الحسن لا يخرج اليوم، وكره أن يخرجه فتقع الفتنة»[2].

ومهما يكن من أمر، فإن الإمامية، قد تواتر عن علمائهم ومؤرخيهم، ان الإمام قد قتل بالسمّ اغتيالاً، وحكى ذلك المجلسي بقوله: «الأشهر بيننا أنه(عليه السلام) مضى شهيداً بسمّ المأمون»[3].

الظاهرة السادسة: إن المعاصرين للمأمون قطعوا بأنه قتل الإمام الرضا دون تردد منهم، وقد عللوا الأسباب في ذلك كما فعل أبو الصلت الهروي، فعن أحمد بن علي الأنصاري، قال: سألت أبا الصلت الهروي، فقلت: كيف طابت نفس المأمون بقتل الرضا(عليه السلام) مع إكرامه ومحبته له؟ وما جعل من ولاية العهد بعده؟

قال أبو الصلت: إن المأمون إنما كان يكرمه ويحبّه لمعرفته بفضله، وجعل له ولاية العهد من بعده ليرى الناس أنه راغب في الدنيا، فيسقط محله من نفوسهم!! فلّما لم يظهر منه في ذلك إلا ما ازداد به فضلاً عندهم

---

(١) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ٢٤١+ المجلسي: البحار ٤٩/ ٢٩٩.
(٢) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ٢٤٢+ المجلسي/ البحار ٤٩/ ٣٠٠.
(٣) المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ٣١١.

ومحلاً في نفوسهم، جلب عليه المتكلمين من البلدان.. فكان لا يكلّمه خصم من اليهود والنصارى، والمجوس والصابئين والبراهمة والملحدين والدهرية، ولا خصم من فرق المسلمين المخالفين له إلا قطعه وألزمه الحجة، وكان الناس يقولون: والله إنه أولى بالخلافة من المأمون.. وكان الرضا(عليه السلام) لا يحابي المأمون من خفّ، وكان يجيبه بما يكره في أكثر أحواله، فيغضبه ذلك، ويحقده عليه، ولا يظهره له، فلمّا أعيته الحيلة في أمره اغتاله، فقتله بالسم»[1].

وكان إبراهيم بن الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام)، قد خرج على المأمون في اليمن، وقبض عليه المأمون، وعفا عنه -كما أسلفنا- ولكنه خرج على المأمون بعد اغتيال الإمام الرضا(عليه السلام) لاتهامه المأمون بقتل أخيه الرضا، حتى قال ابن خلدون: «إن سبب خروج إبراهيم بن الإمام موسى على المأمون، أنه اتهم المأمون بقتل أخيه علي الرضا»[2].

وكما صرح عبد الله بن الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام) في رسالته للمأمون، وأنه قد بلغه ما فعله بالرضا من إطعامه العنب المسموم[3].

بل لقد قال الطالقاني: «إنه كان متى ظهر للمأمون من الرضا علم وفضل، وحسن تدبير حسده على ذلك، وحقده عليه، حتى ضاق صدره منه فغدر به فقتله»[4].

وتذكر بعض المصادر أن أحمد بن الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام)، لما بلغه غدر المأمون بأخيه الرضا، وكان في بغداد، فخرج منها طالباً بثأر أخيه، وكان معه ثلاثة آلاف من العلويين، وقيل: اثنا عشر ألفاً.

---

(١) الصدوق/ عيون أخبار الرضا ٢/ ٢٣٩.

(٢) ابن خلدون/ التاريخ ٣/ ١١٥.

(٣) أبو الفرج/ مقاتل الطالبيين/ ٦٣٠.

(٤) جعفر مرتضى العاملي/ حياة الإمام الرضا/ ٤٢٦ و٤٢٧ و٤٢٨.

وبعد وقائع جرت بينه وبين «قتلغ خان» قائد جيش المأمون وعامله على شيراز. استشهد أصحابه، واستشهد هو وأخوه محمد العابد[1].

ويرى الأستاذ السيد جعفر مرتضى العاملي بعد التحقيق: أن المأمون قد قتل سبعة من أخوة الإمام الرضا(عليه السلام)، لأنهم طالبوا بدم أخيهم، أو كادوا، وألحق بهم ما شاء الله ممن تابعهم أو خرج معهم[2].

وهذه الأدلة الميدانية فيها الكفاية على تورط المأمون في قتل الإمام.

الصورة التي قتل بها الإمام الرضا

هنالك عدة صور نقلها مؤرخو حياة الإمام عن كيفية قتله، وهي وإن اختلفت بالتعبير والأداء ولكنها اتفقت بالنتيجة على قتل الإمام مسموماً بيد المأمون بالذات أمراً أو مباشرة ونحن في دورنا نختار ما ذكره الشيخ المفيد قدس سره، لاتفاقه مع أشهر الروايات الموثوقة.

ذكر الشيخ المفيد عن عبد الله بن بشير، أحد مرافقي المأمون، انه قال: «أمرني المأمون ان أطوّل اظفاري على العادة!! ولا اظهر ذلك لأحد، ففعلت، ثم استدعاني، فأخرج شيئاً يشبه التمر الهندي!! فقال لي: اعجن هذا بيديك جميعاً، ففعلت، ثم قام وتركني. ودخل على الرضا، وقال له: ما خبرك؟

قال: أرجو ان اكون صالحاً.

قال: أنا اليوم بحمد الله، ايضاً صالح!!

ثم قال المأمون للإمام: فهل جاءك أحد من المترفقين في هذا اليوم؟ قال: لا.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

فغضب المأمون، وصاح على غلمانه، ثم قال: فخذ ماء الرمان الساعة، فإنه مما لا يستغنى عنه!!

ثم دعاني، فقال: ائتنا برمان، فأتيته به، فقال لي: اعصر بيديك!! ففعلت، وسقا المأمون الرضا بيده!!.

وكان ذلك سبب وفاته، فلم يلبث إلا يومين حتى مات(عليه السلام).

وذكر عن أبي الصلت الهروي أنه قال: دخلت على الرضا، وقد خرج المامون من عنده، فقال لي: يا أبا الصلت قد فعلوها، وجعل يوّحد الله ويمجده.

وروى محمد بن الجهم أنه قال: كان الرضا يعجبه العنب، فاخذ له منه شيء، فجعل في موضع اقماعه الأبر اياماً، ثم نزع، وجيء به إليه، فأكل منه، وهو في علته التي ذكرناها فقتله.

وذكر ان ذلك من الطف السموم[1].

وقد ذكر ذلك أيضاً: ابو الفرج الأصبهاني[2].

كما أورده علي بن الحسين المسعودي[3].

ولا مانع ان يسقى الإمام ماء الرمان تارة، وقد مزج به السم، ويُسقى ماء العنب أو العنب المسموم تارة أخرى.

ومهما يكن من امر، فقد استشهد الإمام، وذهب شهيد ثباته، وصريع عظمته، وارتَّجت طوس لقتله، واشارت اكف الاتهام إلى المأمون، وبدا الأفق كئيباً، ترتسم عليه لوحة من الأسى والمرارة والغضب، وتلافى

---

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ٣٥٤ - ٣٥٥.

(٢) ابو الفرج/ مقاتل الطالبين/ ٥٦٦ - ٥٦٧.

(٣) المسعودي/ إثبات الوصية/ ١٧٩ - ١٨٠.

المأمون ذلك بإظهار الحزن والجزع، و«خرج مع جنازته يحملها حتى انتهى إلى الموضع الذي هو مدفون فيه الآن فدفنه»[1].

وأمعن المأمون في التضليل والإيهام إمعاناً، وأظهر من الحزن ما لا يوصف، وأقام على قبر الإمام(عليه السلام)، ثلاثة أيام، «يؤتى كل يوم برغيف واحد ليأكله وملح!! الأمر الذي لم يفعله حتى عندما مات أبوه الذي ولد منه وأخوه الذي قتله»[2].

وقبض الإمام الرضا(عليه السلام) في صفر من سنة ثلاث ومائتين. وهو ابن خمس وخمسين سنة[3].

وأيده في ذلك الشيخ المفيد، وأنه «قبض بطوس من أرض خرسان، في صفر سنة ثلاث ومائتين، وله من العمر خمس وخمسون سنة... فكانت مدة إمامته، وقيامه بعد أبيه(عليه السلام) في خلافته عشرين سنة»[4].

وفي مصباح الكفعمي: توفى الرضا(عليه السلام) في سابع عشر من صفر، يوم الثلاثاء، سنة ثلاث ومائتين، سمّه المأمون في عنب[5].

أقول: وهو المشهور والمعمول فيه في النجف الأشرف، منذ أن أدركنا إحياء ذكرى استشهاد الإمام حتى اليوم.

وذهب الأستاذ محمد حسن آل ياسين: أن وفاته كانت في الأرجح في شهر صفر، وفي آخر يوم منه على وجه التحديد في سنة ثلاث ومائتين، وهذا هو الثابت الصحيح[6].

---

(١) المفيد/ الإرشاد/ ٣٥٥.

(٢) جعفر مرتضى العاملي/ حياة الإمام الرضا/ ٣٩٩.

(٣) الكليني/ الكافي ١/ ٤٨٦.

(٤) المفيد/ الإرشاد/ ٣٤١ - ٣٤٢.

(٥) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ٢٩٣.

(٦) محمد حسن آل ياسين/ الإمام علي بن موسى الرضا/ ٨٩.

وعضد رايه هذا بأكثر من عشرين مصدراً نصّ على ذلك .

وأما الموضع الذي دفن فيه الإمام ، فهو دار حميد بن قحطبة الطائي ، في قرية يقال لها : «سناباذ» على قرب من نوقان ، بأرض طوس . وفيها قبر هارون الرشيد ، وقبر أبي الحسن(عليه السلام) بين يديه في قبلته[1] .

وقد اجاد دعبل بن علي الخزاعي في ذكر ذلك بقوله :[2]

ارْبعْ بطوسٍ على قبر الزكيّ بهـا	إن كنت تربعُ من دينٍ على وطرِ
قبران في طوس : خير الناس كلّهم	وقبر شرهم ، هـذا من العبرِ
ما ينفع الرجس من قرب الزكي . . وما	على الزكي بقرب الرجس من ضررِ
هيهات كل امرئ رهن بما كسبت	له يداه . . فخذ ما شئت أو فذرِ

مرقده وضريحه المبارك

ومرقده الشريف اليوم قبلة انظار العارفين ، ومحطّ رحال اهل الفكر والعلماء والأولياء والأتباع في «مشهد المقدَّسة» سميّت بذلك لوجود ضريحه المبارك ، فعادت إحدى المشاهد المشرفة في دنيا الإسلام ، وهو في بقعة من رياض الجنة ، وقبره الطاهر يعلوه صندوق من الخاتم الثمين ، عشق بالعاج الأبيض وقد أحاط به الزجاج الثمين تربيعاً ، وقد ضمه ضريح فضي معشّق بالذهب الخالص ذو اركان اربعة ، احتوى ذلك بهوٌ فسيح لا بالكبير ولا الصغير ، ويسمى عندنا بـ «الحضرة» نسبة إلى حضرة الإمام(عليه السلام) ، والحضرة هذه قد زيِّنت جدرانها واركانها وجوانبها بالآيات القرآنية

---

(١) ظ: المفيد/ الإرشاد/ ٣٥٥.

(٢) ظ: ابن شهر اشوب/ المناقب ٣/ ٤٦٨+ الصدوق/ عيون اخبار الرضا ٢/ ٢٥١+ المجلسي/ بحار الأنوار ٤٩/ ٣١٨+ ياقوت الحموي/ معجم البلدان ٦/ ٧٢+ ديوان دعبل جمع يوسف نجم/ ١٧٩+ ديوانه جمع الدجيلي ١٠٥.

والأحاديث النبوية ، مرقومة بخط عربي عريق على القاشاني والأحجار الثمينة ، وبعض الكتابات عبارة عن لوحة ذهبية عرّقت بالحجر القاشاني ، وقد بلطت الأرض بالمرمر الأخضر الفاتح يمتد ليشمل حواشي الحيطان دائرياً في الحضرة كلها ، ومن ثم يبدأ حزام فاصل بين تلك الحواشي إلى اعالي الجدران ، ويمتد نحو السقف الذي زين بالمقرنصات الزجاجية والكريستالية المثلثة والمربعة والمخمسة ، وهكذا ، وقد علقت النجفات والثريات الكهربائية الثمينة ، فعاد حرم الإمام شعلة وضاءة متلألئة ، يدخل إليها من عدة أبواب ذهبية عبر رواق يختلف طولاً وسعة من الجوانب ، ويفضي إلى أبهاء متعددة تحتضن الألوف من الزائرين ، وقد نصبت في عدة اركان من حرم الإمام مجامر في آنية من فضة ، تنضح بالعطر والشذى ، وتتحرك آلياً بجهاز كهربائي ، والزائر الكريم يمسح بيده عليها لتتندى راحته بالأشذاء العطرة الندية ، فيضمخ كريمته ووجهه بذلك الرذاذ العاطر البهيج ، وتنشرح النفس لذلك انشراحاً عفوياً ، ويداخلها من الغبطة والفرحة والبركة الغامرة مايزيدها نشاطاً وحيوية ، ولك أن تتصور مدى الجمال والجلال والبهاء الذي يحفّ بذلك الحرم المقدس ، ويضفي بروعته هيبة ووقاراً وابتهاجاً ، يفوق حدود الوصف القاصرة ، فتذهب بك الروح إلى عوالم قدسية ، وتندمج اندماجاً كلياً في حياة روحية خالصة ، تبتعد بك عن الأوضار والأوشاب ، لتطل على مناخ شاعري معتمر بعظمة الراقد بضريحة المبارك ، تغمرك نفحاته الندية ، وتهزك بركاته الزكية ، فتنسى متاعب الطريق الطويل ، وتأنس بهذا «الغريب» القريب الحبيب ، وتزداد إيماناً وحباً وتعلقاً بذلك الإمام العبقري العظيم ، وهو يشدّك إليه شداً ، ويضمك إليه حفواً واحتضاناً ، وتعقد على الحضرة الرضوية قبة ذهبية حمراء تشق الفضاء بلمعانها وإشعاعها الزاهي ، وقد احاطت بها المنائر

الذهبية الشاهقة ترتفع في أجواء السماء، ويحف بالحضرة الشريفة بأنوارها وأضوائها وأشذائها عدة صحون كبيرة، مستطيلة ومربعة ودائرية، يفضي بعضها إلى بعض لتتصل بالحرم الطاهر، وهي تتسع لأكثر من مليوني إنسان، وقد بلطت بلاطاً رائعاً، وأحكم بنيانها بأواوين ومحاريب من القاشاني الثمين حتى عادت مضرب المثل، وفي وسطها أحواض مائية زلالية للوضوء والتطهير، وإلى جانبها مواسير للماء العذب الصالح للشرب، وقد تتخلل بعضها أزهار وأوراد وشجيرات صغيرة تضفي طابع الحدائق الغناء، ومن تحت هذه الصحون والأبهاء الفارهة نفق أرضي عظيم، يتسع لمئات السيارات والعربات ووسائل النقل، ينتهي بمصاعد كهربائية آلية، يندفع منها الناس إلى رحاب تلك الصحون التي يدخل إليها من بوابات كبيرة منظمّة، تفضي جميعها إلى الحرم الرضوي المعظّم، بترتيب فريد، وإدارة كبرى، ونظافة فائقة، وعناية لا مثيل لها إلا في الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة.

والجدير بالذكر أن الحرم الشريف وتوابعه مفتوحة ليل نهار، لا يغلق لها باب، ولا يحول دونها رتاج، يتناوب على التبرك بخدمتها وإدارتها آلاف العاملين، ويشدّ الرحال إلى زيارتها ملايين الناس تقرباً إلى الله تعالى، وتضرعاً إليه، وتعظيماً لشعائر الله التي هي من تقوى القلوب.

وتقام في هذا المشهد الشريف بكل ملحقاته ومؤسساته صلاة الجماعة في أوقاتها الخمسة، وصلاة الجمعة المليونية، وفصلت الممرات العديدة الرتيبة عن اختلاط الرجال بالنساء، فللرجال اماكنهم المخصصة الفارهة، وللنساء كذلك وهو ملحظ إسلامي جدير بالملاحظة والتقدير.

والحرم الشريف يتوسط مدينة مشهد «طوس» وهي مدينة كبرى، منظمة الشوارع والأزقة والطرقات، تتخللها الساحات الدائرية ذات

النافورات والأوراد والأزاهير، وهي مزدحمة بالسكّان والوافدين، وأسواقها عظيمة في بنائها وطولها واتساعها وتنوّعها وتعددها، فيها كل ما يحتاج إليه الحاضر والزائر والمسافر، ويتخلل شوارعها العامة عشرات الفنادق من الدرجة الأولى والثانية، وهي تتسع لعشرات الآلاف من الوافدين والقاصدين، ومناخها عجيب، فقد يمثل الفصول الأربعة في اسبوع واحد، حرّاً وبرداً ومطراً وهبوب رياح، وهي زينة للناظر وسياحة للأحاسيس، وينبغي الإشارة إلى مدارسها الدينية ومؤسساتها العلمية، فمشهد إحدى حواضر العلم والتدريس، وفيها فحول العلماء وذخيرة الفضلاء، ومكاتب المراجع العظام، والمكتبات العامة والخاصة، والحوزة العلمية فيها تمتاز بالرقة والدقة وحسن اللقاء، ورجال الدين مكبّون على التحصيل والاشتغال، وأهلها ذوو أخلاق حسنة وترحيب بالناس، والقاصدون من العتبات المقدسة: مكة، المدينة، النجف الأشرف، كربلاء، الكاظمية، سامراء، يعاملون معاملة خاصة بالاحترام والتبجيل، ويتقرب منهم أهل العلم والسواد الأعظم مهللين مرحبين.

وفي «مشهد» دار للضيافة تنسب للإمام الرضا(عليه السلام) وتسمى «مضيف الرضا» يقدّم فيها الطعام صباحاً ومساءً وفي وجبات كريمة تتسع لآلاف الزائرين.

وتقصد «مشهد» جواً وبراً من آفاق الدنيا، ومطارها الجوي يتّسع لعشرات الطائرات الضخمة، وطرق السيارات عديدة، والقطارات تضخ ليلاً ونهاراً بالوافدين، لذلك تعتبر «مشهد» المحافظة الثانية لإيران بعد العاصمة.

كل ذلك ببركة صاحب الضريح المبارك الإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام) الذي لا تُملُّ زيارته، ولا تتناهى بركاته، ولا تتلاشى نفحاته..

هبّت بمثواكَ أنفاسُ الرياحين ... تحيي الضمائر بينَ الحينِ والحينِ [(1)]

كأنها البرق من تلقاءِ كاظمةِ ... أو أنها العطرُ من أجواء دارينِ

فاحت نسائمها الروحاءُ جاريةً ... كالورد في اللمس. . أو كالزبد في اللين

الناس والملأ الأعلى بعاصفةِ ... من الترانيم ترى والتلاحينِ

«أبا الجواد» وأكرم بالجواد أباً ... للمكرمات العريقات المضامينِ

أدركت عندكَ يا مولاي مغتبطاً ... عيد العقيدة. . لا عيدَ الشعانين

فأنت للأمّة الغرّاء منقذها ... من سوء عاقبة الدنيا أو الدينِ

قد زرته ورؤى «آذار» تمنحني ... لطف التشارينِ. . لا بردَ الكوانينِ

وفي ولايتهِ العصماءِ. . نأملها ... دارَ الكرامة في يوم الموازينِ [(2)]

بأن روضتَهُ الغنّاءَ عامرةٌ ... بالطيّبات النديّات الأفانينِ

فارفع هنالك لحناً. . أنت منشدُهُ ... «يا دجلةَ الخير يا أمَّ البساتين» [(3)]

فالخيرُ ساحتُهُ الكبرى. . وروضتُهُ ... إرثُ الإمامةِ من شمِّ العرانينِ

أئمةٌ. . ومصابيحٌ. . وألويةٌ ... تَفتَّحَتْ بالمطاعيم المطاعينِ

تضمُّها برسولِ الله وابنتهِ ... قربى الوشائجِ في خيرِ القرابينِ

وحسبها بأمير المؤمنينَ عُلاً ... وبالأئمة من تلكِ الأساطينِ

سلالة طَهُرتْ أصلاً بسلسلةِ ... موصولةِ بالمصاليتِ الميامينِ

---

(1) الأبيات للمؤلف قالها في زيارته الأخيرة للإمام الرضا عليه السلام، وقد نظمها ارتجالاً تقريباً في الحرم الشريف، وكان ذلك في «عيد الربيع» «النوروز» ٢١/ ٣/ ٢٠٠٥م، وقد ازدحمت طوس بالزائرين، حتى قدّر عدد الوافدين إليها ثمانية ملايين، ومع هذا الزخم لم يُحرم المؤلف على ضعف بدنه من التشرف بالانكباب على الضريح المقدس.

(2) دار الكرامة هي الجنة، ويوم الموازين هو يوم القيامة.

(3) الشطر لشاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري من مطلع قصيدته «دجلة الخير» وقد أورده المؤلف هنا للقول بأن الخير كل الخير في ساحة الإمام الرضا عليه السلام، وأن روضته أرث الإمامة، لا بساتين دجلة.

زيارة الإمام الرضا(عليه السلام)

كان لاغتراب الإمام الرضا(عليه السلام) في أرض خراسان أثره العميق عند أئمة أهل البيت(عليهم السلام)، و كان الحنين إلى زيارته في غربته عارماً، فقد دفن في المشرق بعيداً عن مدينة جده، وعن العراق مرقد آبائه الطاهرين، وكان البعد المكاني لا تتجاوزه قدرات وسائل النقل إلا بشق الأنفس، حتى يسر الله بالوسائط الحديثة، وتعلقت قلوب أولياء الإمام من الطبقات كافة شوقاً إلى زيارته، وحدباً على الوصول إلى بقعته المباركة، رغبة في الثواب الجزيل من جهة، وتعبيراً عن المودة لذي القربى من جهة اخرى، وحباً بالإمام العظيم وتفانياً في ولائه أخيراً.

وقد وردت في زيارة الإمام واستحبابها عدة آثار وروايات، تندب إلى قصده، وتدعو إلى زيارته، وتحث أولياءه على ذلك، وليس من منهجية هذا البحث إيرادها أجمع، إلا اننا نشير إلى أبرزها: فعن عبد السلام بن صالح الهروي، قال: سمعت الرضا(عليه السلام) يقول: «إني ساقتل بالسمّ مظلوماً، واقبر إلى جنب هارون، ويجعل الله تربتي مختلف شيعتي واهل محبتي، فمن زارني في غربتي وجبت له زيارتي يوم القيامة، والذي اكرم محمداً(صلى الله عليه وآله) بالنبوة واصطفاه على جميع الخليقة: لا يصلي احد فيكم عند قبري ركعتين إلا استحق المغفرة من قبل الله عز وجل يوم يلقاه، والذي أكرمنا بعد محمد(صلى الله عليه وآله) بالإمامة، وخصّنا بالوصية: إن زوار قبري لأكرم الوفود على الله يوم القيامة، وما من مؤمن يزورني فيصيب وجهه قطرة من الماء إلا حرّم الله تعالى جسده على النار»[1].

والحديث يتضمن الاخبار بمقتله مسموماً، ودفنه جنب الرشيد، وان الله يجعل تربته مختلف شيعته، وذلك كله من ملامح الغيب الذي انبا عنه

---

(١) الصدوق/ عيون اخبار الرضا ٢/ ٢٢٧.

الإمام بعلم سابق، وفي الحديث بشارة لمن زاره في غربته بزيارة الإمام له يوم القيامة، واقسم ان من صلى ركعتين عند قبره استحق الغفران واقسم ايضاً: ان زوار قبره أكرم الوفود على الله يوم القيامة، وان من لاقى نصباً ولو ضئيلاً حرّم الله جسده على النار.

وهذا الحديث في أبعاده المتعددة يدلّ على اهمية زيارة الإمام، كما يدّل على الحث عليها والدعوة إليها.

وقد يضاف إلى ما تقدم ضمان الشفاعة لزائر الإمام كما ورد عنه انه قال: «ما زارني احد من أوليائي، عارفاً بحقي إلا تشفعت له يوم القيامة»[1].

وهناك من الروايات ما هو أعظم شأناً، وابعد غوراً، وارقى شأواً فعنه(ع): «إن بخراسان بقعة يأتي عليها زمان تصير مختلف الملائكة، ولا يزال فوج ينزل من السماء، وفوج يصعد، إلى أن ينفخ في الصور.

فقيل له: يا ابن رسول الله؛ وأي بقعة هذه؟

قال الإمام الرضا: هي بأرض طوس، وهي والله روضة من رياض الجنة، من زارني في تلك البقعة كان كمن زار رسول الله(ص)، وكتب الله تعالى له ثواب الف حجة مبرورة، والف عمرة مقبولة، وكنت انا وآبائي شفعاءه يوم القيامة»[2].

فهذه الرواية قد اشتملت على هبوط الملائكة واختلافها على قبره(ع) صعوداً ونزولاً حتى يوم القيامة، وان بقعته روضة من رياض الجنة، وان زيارته في ثوابها كزيارة الرسول الأعظم(ص) وان له ثواب الف حجة مبرورة، والف عمرة مقبولة، وكان الإمام وآباؤه شفعاءه.

---

(١) الصدوق/ عيون اخبار الرضا ٢/ ٢٥٨.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٢٥٥ - ٢٥٦.

وفي هذا الشرف كل الشرف . . وقد يتجاوز الثواب ذلك إلى درجات من الزلفى لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، فعن الرضا نفسه وهو يتحدث عن غربته : « . . . . ألا فمن زارني في غربتي كتب الله عز وجل له أجر مائة الف شهيد ، ومائة ألف صدّيق ، ومائة ألف حاج ومعتمر ، ومائة الف مجاهد وحشر في زمرتنا ، وجعل في الدرجات العلى من الجنة رفيقنا»[1] .

وعن الإمام الهادي علي بن الإمام محمد الجواد ، أنه قال : «من كانت له إلى الله حاجة فليزر قبر جدي الرضا(عليه السلام) بطوس ، وهو على غسل ، وليصلِّ عند رأسه ركعتين ، وليسأل الله حاجته في قنوته ، فإنه يستجيب له حالما يسأل في مأثم او قطيعة رحم ، وأن موضع قبره لبقعة من بقاع الجنة لا يزورها مؤمن إلا أعتقه الله من النار ، وأحلّه إلى دار القرار»[2] .

ومن اللمح الغيبي الذي أنبأ به امير المؤمنين(عليه السلام) أنه قال : «سيقتل رجل من ولدي بأرض خراسان بالسمّ ظلماً ، اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم ابن عمران موسى(عليه السلام) ، ألا فمن زاره في غربته : غفر الله ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر ، ولو كانت مثل عدد النجوم ، وقطر الأمطار ، وورق الأشجار»[3] .

وفي الملحظ نفسه ورد عن الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) ، أنه قال : «يخرج ولد من ابني موسى ، اسمه اسم أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام إلى أرض طوس ، وهي بخراسان ، يقتل فيها بالسمّ ، فيدفن فيها غريباً ، ومن زاره عارفاً بحقه اعطاه الله تعالى أجر من انفق من قبل الفتح وقاتل»[4] .

---

(١) الصدوق/ الأمالي ٦٣+ عيون اخبار الرضا ٢/ ٢٥٦+ المجلسي/ البحار ٤٩/ ٢٨٣

(٢) الصدوق/ عيون اخبار الرضا ٢/ ٢٦٢.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٢٥٨.

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٢٥٥.

والتأكيد على زيارة الإمام الرضا(ع) يفوق حدّ التصور، فقد عقد له الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ) عدة أبواب في وسائل الشيعة، اشتملت على عشرات الأحاديث[1].

بل جاء في بعضها استحباب اختيار زيارته على زيارة الإمام الحسين(ع) في ثلاثة أحاديث[2]، بل واستحباب زيارة الإمام الرضا واختيارها على زيارة كل واحد من الأئمة[3]، بل واستحباب زيارة الإمام في رجب على الحج والعمرة المندوبين[4]. إلى غير ذلك من الأحاديث الأخرى.

ولزيارته سنن وآداب ومقدمات مذكورة في كتب الأدعية.

وللإمام زيارات مختصرة ومطولة، ومن اوجزها لفظاً وابلغها عبارة ما أورده الشيخ المفيد في المقنعة، قال:

تقف عند قبره(ع) بعد ما اغتسلت غسل الزيارة، ولبست أنظف ثيابك، وتقول: «السلام عليكَ يا وليَّ الله وابن وليِّه، السلام عليكَ يا حجّة الله وابن حجّته، السلام عليك يا إمام الهدى والعروة الوثقى ورحمة الله وبركاته، اشهد أنك مضيت على ما مضى عليه آباؤك الطاهرين صلوات الله عليهم، لم تؤثر عمى على هدى، ولم تمل من حقّ إلى باطل، وانك نصحت لله ولرسوله، واديت الأمانة، فجزاك الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء، أتيتُك بابي وامي زائراً عارفاً بحقّكَ، موالياً لأوليائك، معادياً لأعدائك، فاشفع لي عند ربك». . ثم تحول إلى جانب الراس وقل:

---

(١) ظ: الحر العاملي/ وسائل الشيعة ١٠/ ٤٣٢ - ٤٤٦.

(٢) المصدر نفسه ١٠/ ٤٤١ - ٤٤٢.

(٣) المصدر نفسه ١٠/ ٤٤٢.

(٤) المصدر نفسه ١٠/ ٤٤٣ وما بعدها.

«السلامُ عليك يا مولاي يا ابن رسول الله ورحمةُ الله وبركاته، أشهد أنك الإمام الهادي، والولي المرشد، أبرأ إلى الله من أعدائك، وأتقرب إلى الله بولايتك، صلى الله عليك ورحمة الله وبركاته.» ثم صلِّ ركعتين للزيارة، وصلّ بعدهما ما شئت، ثم تحوّل إلى جانب الرجل فادعُ بما شئت، تُجبْ إن شاء الله[1].

وهناك الزيارة المشهورة التي يظهر من كامل الزيارات لابن قولويه أنها مروية عن الأئمة، وهي التي يزار فيها بحرمه الشريف[2].

وهنالك زيارة أخرى تشتمل على الأحاديث السبعة المخصوصة للإمام الرضا(ع)، اشتملت على قسم مما أوردناه وسواه[3].

ولك بعد هذا أن تتنسَّم في تلك الحضرة القدسية أشذاء الوحي وعبير الإمامة، وأنت في صحوة من الضمير، ويقظة من الوعي، في ترانيم وتسابيح تخترق الصمت الأبدي.



(١) عباس القمي/ مفاتيح الجنان/ ٥٧٩/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت/ ١٤٢٢هـ.
(٢) المصدر نفسه/ ٥٧٢ - ٥٧٦.
(٣) ظ: ضياء الصالحين/ ٢٢٢ - ٢٢٤.

قصائد المؤلف في الإمام الرضا (عليه السلام)

١- غريب الدار.

٢- في تحية الإمام الرضا(عليه السلام).

٣- نفحات الإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام).



«غريب الدار»

نظمت في خراسان لزيارة الشاعر الأولى لمرقد الإمام علي بن موسى الرضا في ١٠/ ٥/ ١٣٨٧هـ، ١٩/ ٨/ ١٩٦٧م.

وقد اتمها نظماً في الحرم الشريف، وتلاها في حضرة الإمام(عليه السلام).

ونشرت في مجلة العرفان الصيداوية.

ركبتُ لك المفاوزَ والهضابا — وجبْتُ الأرضَ.. واجتزتُ السحابا

وجئتُ «أبا الجواد» إليكَ أسعى — أؤمِّلُ أنْ أنال بك الرِّغابا

أؤمِّل أن أردَّ بكَ العقابا — غداة غدٍ... وأنتجع الثوابا

فيا كهف العفاة لأنت كهفي — وأكْرِمْ فيك مأوًى وانتسابا

ويا فرعَ النبوة.. ما تدلّى — بأزكى منك أصلاً وانتجابا

ويا ابن الطيبين أباً وأماً — ويا ابن الأكرمين يداً وباباً

انختُ ببابك الألق الرِّكابا — فأخصبَ.. وامتطى الدنيا ركابا

وفي أعقابه أنزلت ثقلي — ولم اسمع لعاذلةٍ عتابا

ولما كنتَ كالفجر انطلاقاً — وكالأنداء رَوْحاً وانسكابا

حملتُ هداكَ رأياً واعتقاداً — وقلباً ما تشكك وأستَرابا

وعزماً سعّر الجمرات وقداً — وفكراً توّجَ الدنيا صوابا

❖ ❖ ❖

غريـب الـدار يـا نجمـاً تجلـىٰ ويـا بـدراً تشعشـع ثـم غابـا

دعتـك سياسـةُ الإرهـاب قسـراً فمـا الْفَـتْ لدعوتهـا جوابـا

خـبرت الحكـم عـن عـزمٍ وحـزمٍ وشـمتَ جهامـه الكـابي سـرابا

فنـاهضتَ الطغـاةَ. . وكنـت فـذّاً أعـدّ لكـلِ داجيـةٍ شـهابا

ولّمـا أن تمخضـت الليـالي وأولـد حملُهـا المِحـنَ الصِّعابـا

رضخـت إلـىٰ قبـول الحكـم لّمـا رأيـتَ هـلاكَ نفسـكَ والثبابـا

ومـا القيـتَ في الهلكـات نفسـاً فلسـتَ كمـن يحـابي أو يُحـابىٰ

وصنتَ الدينَ عـن شـبهات قـومٍ أدافَ ضلالُهـم عسـلاً وصابـا

وكنـتَ ضحيـة التضليـل لّمـا لِقتلِـك اشـرعوا تلـكَ الحرابـا

لقد غـدروا بشـخصك واسـتهانوا وعنـدَ الله يلقـون الحسـابا

❖ ❖ ❖

غريـبَ الـدار. . يا نفحـاتِ قـدسٍ تعيـدُ علـىٰ المحبِّـين الشَّـبابا

ويـا روحَ الإمامة. . طبـتَ رَوحـاً نديّـاً. . يجـذبُ القلـبَ انجذابـا

اتيتُـك زائـراً. . فشـممتُ تربـاً كـأنَّ المسـكَ خالطـه خضابـا

كـأنَّ بقـبرك الجنَّـات تجـري وقـد حضنتْ من القـدس الرحابـا

ارىٰ المـلأ العلِـيَّ بـه مُغِـذّاً هبوطـاً. . او مجيئـاً. . او ذهابـا

ودارُ المتقـين إلـىٰ خلـودٍ ودارُ الظـالمين بـدت خرابـا

وقـبرٌ «للرشـيد» غـدا محطّـاً إلـىٰ اللَّعنـاتِ بـدءاً وانقلابـا

فـــأين الملــكُ؟ والدنيـــا لديـــهِ | وكـــان يُعِـــدّ للدنيـــا الخطابـــا
لقد طويت هبـاءً. . فهـي تـذري | عليهـا الريــحُ. . . إذ تُركـت يبابـا
وذي عقبـاك. . تزدحــمُ البرايـــا | عليــكَ بهـــا خشـــوعاً وارتهابـــا

❖ ❖ ❖

غريبَ الدار. . لستَ غريبَ ذكرٍ | وقـد حشـدت فضـائلك الكتابـا
بــك التـاريخ يسـبح في خضــمٍّ | ويمــلأ مـــن مكـــارمك العيابـــا
فيـــا نجــم العقيــدة مــــاتلالا | بــــأزهر منـــك ضـــوءاً والتهابـــا
يخـبُّ الدهـــر ســيراً في خطـــاه | فيكشــف عـــن معـــالمك النقابـــا
ســليل محمَّـــدٍ. . وجنـى علـيٍّ | وأدنـــى النـــاس لــلزهراء قابـــا
تزاحمـــت المــآثرُ فيــك حتـــى | ترعـــرع غرسُـــها وزكـــا وطابـــا
وكــلُّ كرامـــةٍ لـــكَ في ذُراهـــا | كيـــانٌ. . مـــا استذلَّ ولا اســتجابا
وسِــفرُك حـــافلٌ. . وبكـــلِّ آنٍ | يرينـــا الحمــدَ والعجــب العجابـــا

❖ ❖ ❖

فيـــا نبـــع الأصالـــة مـــن قريـــشٍ | ســـموتَ بـــدارةِ العليـــا جنابـــا
ويـــا خـــيرَ البَريَّـــةِ مـــن «علـــيٍّ» | عقـــدتُ عليـــكَ آمـــالاً عِذابـــا
وجمهـــرة مـــن الرغبـــاتِ أرجـــو | بفضلِـــك ان انـــالَ بهـــا الطِّلابـــا
فكـــاكي مـــن لظـــى نـــارٍ أُعِـــدَّتْ | إلـــى الطـــاغين - احقابـــاً - مآبـــا
بكـــم أرجـــو الخـــلاص إذا تنـــادى | ســـياقُ الحشـــر دعّـــاً او عذابـــا

ولدتُ على ولايتكم . . وارجو الـ ـممات على ولايتك احتسابا

وليس يخيبُ من علقتْ يداهُ بقبركَ مستجيراً قد انابا

شفاعة «أحمدٍ» حصني اعتصاماً ولقيا «حيدرٍ» أملي اقترابا

وهل يدنو من النيران جسمٌ أذابَ بحبكم روحاً فذابا

❖ ❖ ❖

غريبَ الدار في عرصاتِ طوس بحبِّك قد ألفتُ الاغترابا

يعزُّ على رسول الله نفساً بأن تغدو لشانئه انتهابا

وأن تمسي سميماً في ديارٍ فقدتَ الأهل فيها والصِّحابا

وحُراً لا يرى إلا عبيداً وراساً لم يجد إلا الذنابى

لقد ضاقوا بما أُلهمتَ ذرعاً فسدُّوا البيت حولكَ والشِّعابا

وأُبعدَ عنك آلُكَ . . واستباحوا حماك . . وكانَ امنعَها حجابا

يذكِّرني مصابُكَ كلَّ حينٍ «غريبَ الطَّفِّ» افجعها مُصابا

تَشابهَ فرعكم بالأصلِ فيما خصصتم بالبلاء دجا اضطرابا

سقتْ اجداثكم وطفاءُ تهمي بها الألطافُ صَبَّاً وانسيابا

❖ ❖ ❖

«في تحية الإمام الرضا»

استجار به من مرض القلب، ووجه إليه هذه القصيدة وهو راقد في مدينة الحسين الطبية في عمّان بقسم جراحة القلب، فأجاره، وكتب له الشفاء العاجل ١٥/ ٩/ ١٩٩٨م.

«أبا الجواد» أعرني من نداكَ يدا ... تستأصل الداء.. أو تستنقذ الجسدا

وهبتكم عاطفات القلب صادقةً ... وعدتُ فيها هزاراً صادحاً غردا

وقد فديتكمُ في كُلِّ معتركٍ ... النفسَ والمالَ والأهلينَ والولدا

ثَبَّتُّ - حين فرار الناس من جزع - ... على ولايتكم رأياً ومعتقدا

وسرتُ في خُطواتٍ كلُّها مَهَلٌ ... بمنهج الحقِّ.. ولا زيغاً ولا فندا

وما تزال القوافي في محبتكم ... تتلو فضائلكم كالفجر متّقدا

وقد غدا «القلب» مني يشتكي الكبدا ... فزايلوا الألمَ الفتّاك والكمدا

وابرئوه من الأعراض هاجمةً ... عليه.. لا أملاً تبقي.. ولا أمدا

❖ ❖ ❖

ويا رجالاً على «الأعراف» قد وقفوا ... اَلْيَوْمَ قد تعرفوني عبدَكُم وغدا

فأنتمُ يا دعاة الحقِّ مدَّخري ... لدى الشّدائد كنزاً طائلاً صمدا

وأنتم الغاية القصوى التي طلبتْ ... بلوغَها النفس.. فازدادت هوًى وهدى

وأنتم العروة الوثقى.. ومن مسكتْ ... بها يداه.. فلن يخشى أذًى وردى

ها عبدُكم بين فَكَّيْ ضيغم أسـدِ ... فاستنقذوه ضعيفاً يرهـب الأسـدا

فرؤيـةٌ «للرِّضـا» تُنجيه مـن مـرضٍ ... ونظـرةٌ بالرِّضـا تكفيـه معتمـدا

إرادة الله أعطتـــه كرامتهـــا ... فضـاء نـورُ سـناها منـه واتَّقـدا

ومـايزال «الرِّضـا» رمـزاً تقدِّسُـهُ ... أعماقُنا . . وهو في سـاحاتها انفـردا

حقيقــة بِهــم الأجيـال ناطقــةٌ ... تستلهمُ النظـرَ الخـلاَّقَ والرَّصَـدا

❖ ❖ ❖

«أبا الجوادِ» عـلا مجدٌ خلقـتَ لـهُ ... هامَ الثريـا . . وقـد جاوزتَهـا صَعَـدا

وفيتَ لـي بشـفاءِ عـاجلٍ عجـبٍ ... أحنىٰ له الطِّبُّ رأساً . . واستردَّ يـدا

شـكراً لسـدَّتِك العصمـاءِ فارهــةً ... فقـد أفضـتَ علـيَّ الخيرَ محتشـدا

قلعتَ كلَّ جذورِ الدَّاءِ مـن جسـدي ... فعـادَ فيـكَ سـليماً ناعمـاً رغـدا

سيَّرت تكرمـةً . . اجريتَ محمـدةً ... انقـذتَ مُحتسِـباً في الله مضطّهَـدا

بقيــةَ الله . . قــد ابقيــتَ معجــزةً ... مدىٰ الزمانِ . . وقد أبليتَ مجتهـدا



«نفحات الإمام علي بن موسى الرضا»

نظمت في الحرم الرضوي المبارك لدى زيارته الضريح المقدّس للإمام الرضا(ع) وهي الزيارة الثانية بعد خمسة وثلاثين عاماً على الزيارة الأولى للإمام(ع).

٧/ شعبان/ ١٤٢٢هـ= ٢٤/ ١٠/ ٢٠٠١م

دعِ الترانيمَ تجتاح الميادينا ... في روضةِ القدسِ ما يوحي التلاحينا

وجنةُ الخلد في أبهى مظاهرها ... «رضوانُ» زيَّنَها بالحور تزيينا

والوحي والملأ الأعلى.. وطائفةٌ ... من الملائك.. تهديك الرياحينا

هنا «عليٌّ بن موسى» في أصالتِهِ ... يحيي الشرائع فينا والقوانينا

هنا «عليٌّ بن موسى» في بطولته ... يُحني الطواغيتَ.. أو يردي الفراعينا

من كان فينا بعيداً عند غربته ... قد عادَ فينا قريباً من تدانينا

«الجوُّ» معتمرٌ في ألفِ «طائرةٍ» ... والبَرُّ محتضِنٌ تلك الملايينا

وكلّها من «علي» بين منجذبٍ ... وبين منقلِبٍ يتلو الشّعانينا

لئنْ قطعْنا فجاجَ البيد حافلةً ... فقد غَدونَ بديلاً عن مغانينا

حجَّت إليه قلوبُ الناس خاشعةً ... وقدَّمتْ عند لقياه القرابينا

النفسَ والمالَ والأهلين جمهرة ... من التحيّات.. أعطتها براهينا

❖ ❖ ❖

ويا «عليُّ بنَ موسى» لم تزل شفقاً ... في الأفق يُثقل بالذكرى ليالينا

ويا أصيلاً من الإبداع منصلتاً ... تكاد تحسده سراً أماسينا

ويا صبوراً على البلوى.. يُقابلُهَا ... بالبِشر حيناً.. وفي آلامه حينا

ويا ركيناً من الأحلام ثابتةً ... لله درُّكَ من سِحْرٍ يواتينا

العلمُ والحلمُ والإيمان قد نفستْ ... أرواحُهُ.. وبه رقَّتْ حواشينا

والبِرُّ والخيرُ إمداداً تواصلُهُ ... طوراً يتامى.. وأحياناً مساكينا

مَسَكْتَ من طَرَفٍ في كلِّ مكرمةٍ ... وصنتَ من طَرَفٍ كلَّ الموالينا

وما برحتَ مناراً يُسْتضاء بهِ ... كسُورة الحمدِ.. نتلوها فتهدينا

عليكَ من سمةِ التقوى علائمها ... ومن رؤى الفكر ما يحيي الموازينا

ومن مزايا «رسول الله» أبرزها ... الخُلُقُ.. يصبحنا لطفاً ويمسينا[1]

ومن «عليٍّ أمير المؤمنين» هدى ... شق الدياجي.. وضوء الصبح يغرينا

ومن نهى «الحسن الزاكي» أرومته ... بما يقوّمنا وعياً ويعلينا

ومن شذا «الطفّ» ما يذكي مشاعرنا ... وما يطوّحُ عرشَ المستبدِّينا

ومن تسابيح «زين العابدين» رؤى ... نجوى الحبيب.. ومحرابَ المصلِّينا

و«باقرُ العلم» قد حيّاك موردُهُ ... بالوحي وحياً.. وبالتبيين تبيينا[2]

و«صادقُ القول» قد أورثتَ لهجتَهُ ... فاسرجتْ بالأحاديث الدواوينا

---

(١) المقطع يؤكد اكتساب الإمام(ع) مزايا جده رسول الله(ص) وخصائص الأئمة الطاهرين الذين سبقوه، ابتداء من أمير المؤمنين وولديه الإمامين الحسن والحسين(ع) وزين العابدين، والإمام الباقر، والإمام الصادق، والإمام الكاظم صلوات الله عليهم أجمعين، حتى وصلت الإمامة إليه، فاحتضن نهج الأئمة السابقين، لا نهج السلاطين.

(٢) الوحي هنا: الإعلام في خفاء، وهو يقابل التبيين.

و«كاظمُ الغيظِ» «موسىٰ» في صلابته ... عصاهُ تلقَفُ هاتيك الثعابينا
وهكذا مجدك الوضاح . . محتضناً ... نهجَ الأئمة . . لا نهجَ المضلِّينا

❖ ❖ ❖

«أبا الجواد» أبىٰ مجدٌ خُلقتَ له ... أن تستكين علىٰ التضليل توطينا
«ولاية العهد» لم يخدعكَ زبرجُها ... وأمرُها كان بالتهديد مقرونا
أبوك قد قارَعَ الطاغوتَ «هارونا» ... وأنتَ قاومتَ من أَسْمَوْهُ «مأمونا»
ولم يكنْ بأمينٍ حينَ تخبرُهُ ... خانَ المواثيقَ والأعرافَ والدينا
أرادَ تهدئةَ الأوضاع ملتجئاً ... إليك . . لا صادعاً بالحقِّ مرهونا
ثارت عليه «بنو الزهراء» واختلفتْ ... إليه أخبارُهمْ روحاً ومضمونا
في «الشرق» ثورةُ إعصارٍ . . ويَتبعُها ... في «الغرب» أصداءُ من هبُّوا ميامينا[1]
تدافعتْ حولَه الآفاقُ . . وانفجرتْ ... طوراً عصوفاً . . وأحياناً براكينا
و«يثربٌ» تتلظَّىٰ في أشاوسها ... و«الشام» تقذفُ يحموماً وغسلينا
ساق «الولايةَ» رهواً في سكينتها ... كالماء يُطفئُ بالنَّفح الكوانينا
وأضمرَ الغدرَ . . والأجيالُ شاهدةٌ ... ذاك التَّآمرَ . . أو تلكَ الأفانينا
هيهات . . ما رُوعيتْ للدِّينِ حُرمتُهُ ... ولا «الرضا» صِينَ إعزازاً وتمكينا
بل قد سقاه الردىٰ سمّاً . . وغادَرَهُ ... كالنجم . . يهوي . . فتبكيه ذرارينا
ضحيةَ الحكم . . كي يبقىٰ تَلاقُفُهُ ... حتىٰ النساء . . فما أقسىٰ مآسينا

❖ ❖ ❖

---

(١) إشارة إلى انتقاض الأمر على المأمون باندلاع لهيب الثورات على الحكم في شتى أقطار الإسلام.

وطفتُ في قبركَ المعمورِ فانبعثتْ | تلك النسائمُ بالألطاف تذكينا
وحامَ من حولِهِ الإشعاع . . وانسحبتْ | تلكَ القناديل في أعطافها لينا
ونضّدتْ من صنوف الفن مائجةٌ | من الأعاجيب تصميماً وتكوينا
تباركَ الصُّنْعُ تطريزاً وهندسةً | فعادَ لوحةَ فنٍّ في مَرائينا
قامتْ على جدثٍ بالقدس مؤتزرٍ | يُطاولُ الناطحاتِ الشُّمّ تحصينا
لا ترتقي الشمسُ إلا دون غرَّتِهِ | وللسماوات أرضٌ قد هوت دونا
الوحيُ والقبسُ القدسيّ منطلقٌ | والنجمُ صافحَ من مثواه عرنينا
تأبى الحضارةُ إلا أن يشرِّفَها | من الضريح نضارٌ راح يزهونا
بحضرةٍ شمخت في ظلٍّ تربتِهِ | تُضَمِّخُ الأُفقَ ريحاناً ونسرينا
تهدي إلى الحق من دانوا ومن جحدوا | وتبعث الناس في حجٍّ مُلَبِّينا

❖ ❖ ❖

ويا إمامَ الهدى بوركتَ منتجعاً | خصباً . . وقُدِّستَ لحاً في مآقينا
ما نفحةُ الفجر بالأشناء منكَ لنا | إلا الصّبا ينثني عن عطر دارينا
قصدتُ سدتّك الغراء . . فانبجستْ | سحائبُ الخير تسقينا وترويـنا
انزلتُ حاجاتيَ القصوى بساحتهِ | فحقَّقتْ عنده اقصى أمانينا
أرجو النجاة غداً من سوء منقلبي | ولن يخيبَ الذي يأتي الأساطينا
آباؤكَ الصِّيدُ في «الأعراف» قد وقفوا | درعاً حصيناً لأشتات المحبينا
همُ همُ العروةُ الوثقى . . ومن مسكتْ | بها يداه . . فلن يخشى الشياطينا
و«بابُ حطَّةَ» غفراناً . . وحبُّهُمُ | في الحشر . . يُثقِل هاتيك الموازينا

❖ ❖ ❖

«خاتمة المطاف»

استمراراً لهذه المسيرة الرائدة بقيادة الإمام العظيم علي بن موسى الرضا(ع)، نشير إلى أبرز الظواهر التي تناولها هذا الكتاب بالبحث والاستقراء، ونعرض اهم النتائج التي توصلنا إليها بشكل نقاط رئيسية قد لا تعبر عن ذلك تعبيراً متكاملاً، ولكنها تشير إليها إشارة موجزة، قد تكون موحية.

كان الباب الأول بعنوان: «الإمام الرضا(ع) وقيادة الأمة»، حافلاً بعوالم شؤون قيادة الإمام، وإشعاعه الفكري والتماعه الحضاري في خمسة فصول.

١- تناول الفصل الأول سيرة الإمام المتطورة، متابعاً القول في ولادته ونشأته والنصّ على إمامته، والحديث عن جملة من خصائصه، و التركيز على تواضعه الذاتي، وإنابته إلى الله تعالى، كما كشفت المتابعة الفاحصة ظواهر السلوك الإنساني لدى الإمام، بما أسفر عن سيرة نابضة ومسيرة ناصعة، ترتبط برسول الله(ص) اصولاً، وبالائمة المعصومين السابقين له جذوراً، بضغط مكثف يغني عن التفصيل.

٢- وكان الفصل الثاني متحدثاً بإلماع معمّق عن ابعاد قيادة الإمام الرائدة، وما أملاه التاريخ من تلك السمات الرائعة في قيادة الإمام المتوازنة، وما نطقت به السنة العلماء والرواة وقادة الفكر، وما سجلته اقلام الحق من آثاره، كما بحث الفصل منهجية الإمام في اختراقه العمق الاجتماعي في حياة الأمة وافكار الناس، ومن ثم تناول النضال العريق في سياسة الإمام، رصداً وتحليلاً ودراسة، بما تسنم به الإمام الذروة الشامخة في الوعي

السياسي، وممارسة الروح القيادية في القبول والرفض والإرادة، والإنكار، في سمت رسالي عجز عن تحقيقه رجال الحكم وارباب السلطان في الجاه والنفوذ والمال والإكراه.

وأكد الفصل على صلابة الإمام في المبدأ، وثباته في العقيدة، ومقدرته العليا بمواكبة حياة الإسلام جوهراً ونظاماً وتعليمات، بل وتمثيلها تمثيلاً فذاً صادقاً بلحاظ تميّزه القيادي منهجاً وذاتية.

وحرصت قيادة الإمام على كشف مخطط الواقفة على أبيه الكاظم(عليه السلام) واظهر للأمة عجزهم عن تحمّل الحق المبين، وصور لهاثهم وراء الدنيا ومكاسب المال، وعدم التحرّج والتأثم في التقول والافتراء والابتزاز، بما قضى فيه على جذور هذه الفئة الضالة، وإشاعة الوعي الرسالي في الأفكار، ومقاومة الانحراف في الاتجاه والعقيدة.

وعرض الفصل لحياة الإنسان في قيادة الإمام قيمةً واهميةً وتوجيهاً وحقوقاً، بما تشهد فقراته على تفرّغ الإمام القيادي لإعطاء الإنسان منزلته القصوى، وإيقاظه بروح المعرفة والنضال واليقين، وانتشاله من مناخ التخدير العام الذي أراده له النظام الحاكم.

٣- وكان الفصل الثالث مشروعاً ضخماً لحياة القرآن الكريم في قيادة الإمام، ومعايشة القرآن لفكر الإمام في نبضاته وآياته ومثله العليا، وإحيائه في القول والعمل، واعتماد منهجه السليم بالجدل والإقناع والمحاججة وشحذ الآراء، وتحدث عن نماذج مقتبسة على سبيل التنظير من التفسير الدلالي الهادف عند الإمام، بما تشهد مفرداته على الفكر الرائد، واورد مشاهد من قصص القرآن في أسلوب الإمام، وهي تؤكد جوهر الوقائع وسرّ الأحداث، وموارد العظة والعبرة والاستلهام، وسرد جزءاً رفيعاً من التفسير العام في أبعاده الموضوعية لدى الإمام.

٤- وكان الفصل الرابع متخصصاً بالبعد التشريعي في قيادة الإمام الرضا(عليه السلام)، أورد بعمق وأصالة الحياة التشريعية للإمام بمشاهد حيّة هادية، وذلك ضمن مسيرة التشريع الإسلامي لدىٰ الإمام، بما مثّل القمة الصاعدة لمفردات التشريع وهي تتدفق من مواردها النقية الأولىٰ، وكشف بمسرد تاريخي وتحقيقي لتراث الإمام التدويني بكتبه ورسائله وآثاره في دراسة فاحصة دقيقة سلطت الضوء علىٰ تلك النفائس والذخائر بما هي أهل له. وختم الفصل بتشخيص أعداد تلامذة الإمام البارزين، ورصد الباحثين والمدونين والمؤلفين منهم بصورة خاصة.

وتحدث عن أعدادهم وتأثيرهم ونضالهم في نشر المبدأ والتشريع في حواضر الإسلام.

٥- وكان الفصل الخامس قد نهد بمهمة الفكر الكلامي في قيادة الإمام، وعرض للمناخ العقلي في عصر الإمام في كل إفرازاته ومضاعفاته ومحاولاته، وقد انبرىٰ الإمام فيه للإفاضة الهادفة في المباحث الإلهية وتنزيه الباري، بما اشتمل علىٰ مفردات تدور في تفكير العصر كالإرادة والمشيئة، والجبر والتفويض، والأمر بين الأمرين، والتجسيم والتشبيه والمكان، والزمان، والأين، والكم، والكيف، واضراب ذلك، بما يعد ثروة كلامية نادرة التحصيل.

وقد استدل الإمام علىٰ عصمة الأنبياء وخصائص النبوّة: عقلاً ونقلاً وبداهة واستقراء ومحاججة رداً علىٰ شبهات ذوي الميول المنحرفة، ودفاعاً عن انبياء الله والمرسلين.

وأفاض الإمام بالقول عن مبدأ الإمامة وثوابت أهل البيت(عليهم السلام) فيها وفي العصمة والتطهير والعلم والمعرفة والتقوىٰ، متخذاً القرآن مناراً لتأكيد الفكر الصريح وإيضاح المبدأ المبين.



وكان الباب الثاني بعنوان: «الإمام الرضا(عليه السلام) وولاية العهد» ناهضاً بمعاناة الإمام في التعبير عن مأساتها في ظل خلفاء بني العباس وسلاطينهم، وما فرض عليه من ولاية العهد قسراً، وهو كاره لها، وما رافق ذلك من دواع وأسباب ومؤامرات انتهت باغتيال الإمام واستشهاده، وذلك في خمسة فصول:

١- تفرغ الفصل الأول لحياة ملوك العباسيين بما ضمت من الترف الأرستقراطي، ومناخ العبث والمجون وتبذير أموال الدولة، وما أفرزه النظام من التفاوت الطبقي، والتمايز والتقديم والتأخير والتذييل دون مسوّغ شرعي، والإسراف في سفك الدماء، وطبيعة الحكم في القهر والغلبة والاستعلاء وامتهان كرامة الإنسان، وعرض لمجابهة الإمام في دولة هارون الرشيد، وعهد الأمين، وعصر المأمون، مُركِّزاً الحديث عن المأمون لدى تسلمه الحكم، وتقييم المأمون إدارياً واجتماعياً ونفسياً، وسياسة المأمون في اللين والشدّة، وتصرفاته بمقدرة وذكاء، وتفنيد دعوى تشيّع المأمون، بما يعتبر فصلاً ثرياً بمقومات الحكم العباسي وعصره وسلاطينه.

٢- وكان الفصل الثاني متابعاً لمسرحية ولاية العهد، منذ استدعاء الإمام الرضا إلى «مرو» حتى كتابة نصوصها، وقد اشتمل على عدة موضوعات استوعبت بعمق مكثف إحضار الإمام، وتهجيره من مدينة جده إلى حيث يقيم المأمون، وتناولت تطلّع الإمام الحديثي الهادر في نيسابور، وهو يدلي بحديث سلسلة الذهب، وأحاديث أخرى، واجتماع العلماء والرواة والمحدثين عليه.

ووقفت عند مشاورات المأمون، وهو يحبك الأمر في مراوغة سياسته، مشيراً إلى تهديد المأمون للإمام بالقتل، وكان الإلماح للشروط التي اشترطها الإمام، مع إعلانه كراهيته المسبقة لولاية العهد المفروضة، وذكر مظاهر

مراسم ولاية العهد، وقد خصصت الدراسة مبحثاً مهماً لمظاهر ردود الأفعال الإيجابية والسلبية لحدث ولاية العهد، ومن ثم أثبتت نصوص ولاية العهد بخط المأمون، وما على ظهر العهد من نصوص بخط الإمام الرضا بما يرويه المؤرخون.

٣- وكان الفصل الثالث باحثاً عما وراء ولاية العهد من دوافع، مشيراً إلى تراكم الأسباب وتزاحم الدواعي بين إصرار المأمون وتحفظ الإمام، فيما كانت الأسباب المعلنة غير كافية لتبرير الحدث، إذ كمن وراء ذلك محاولة المأمون إخماد شعلة النضال الثوري الذي اجتاح الأقاليم، وإطفاء ذلك اللهيب الغاضب في أعماق الشعب المسلم، والتضليل بأن الإمام الرضا -وحاشاه- يسعى إلى السلطان، وإضفاء صفة الشرعية على النظام العباسي بدعوى مشاركة الإمام فيه، حتى طفح الكأس، فكشف المأمون عن نواياه المستترة، وبرز على حقيقته في الزيف والمكر والخداع، حتى تحدثت المعارضة بذلك، وهي تزجي الأغراض المبيَّنة في سياسة المأمون.

٤- وكان الفصل الرابع قد نهد بكشف ما بعد ولاية العهد من مؤامرات، كان أبرزها تأثير ذلك الحصار الظالم للإمام، وتمادي المأمون بالتفنن فيه شكلاً وأسلوباً، حتى مسرحية استدعاء الإمام لصلاة العيد، ومنعه منها نظراً للزخم الجماهيري المتجاوب مع الإمام، وهو يعيد إلى الصلاة هيئتها وقدسيتها كما كانت في عهد الرسول الأعظم(ﷺ)، وإبان خلافة عليٍّ أمير المؤمنين وقد تكفَّل الفصل بتصوير كيد المأمون ومكره، وهو يصفي أركان قيادته جسدياً ومن ثم يعلن التوجه إلى بغداد، في حين يعارض وزيره الأقدم الفضل بن سهل بذلك فيحبك المأمون مؤامرته غدراً بالفضل، ويقتله شر قتلة بصورة مخزية.

٥- وكان الفصل الخامس مخصصاً للمأساة الكبرى في اغتيال الإمام واستشهاده بأمر المأمون او مباشرته، وذلك لخطر الإمام على المأمون من

جهات كثيرة ، وقد تحدث الفصل عن أسباب اغتيال الإمام بتلخيص كبير ، وأشار على توقع الإمام ذلك بل وإخباره عنه ، وتناول حقيقة استشهاد الإمام بالوثائق والشهادات التاريخية ، وعرض الصورة التي قتل بها الإمام الرضا ، فمضى صريع عظمته وقتيل كرامته .

وتحدث الفصل في نهايته عن مرقد الإمام وضريحه المبارك في استطراد منهجي مكثف ، وابان عن فضل زيارة الإمام الرضا وآثارها في الدنيا والدين .

وبعد نهاية هذا الفصل كانت قصائد المؤلف في الإمام الرضا ، وهي ثلاث قصائد نظمت في تواريخ متباعدة في بعضها ، ومتقاربة في بعض آخر ، اثبتها كما هي دون تعليق .

وهذا الكتاب بتفصيلاته المضنية لم يستوعب مسيرة الإمام بأبعادها الموضوعية من الجوانب كافة ، إلا انه اكد اللمح الأكبر المهم ، فجاء قبساً منوّراً من تلك السيرة العطرة الندية ، وصفحة من ذلك الوجه المشرق ، وموجة من ذلك العطاء الفياض ، حاولت ان اكون فيه مخلصاً فيما كتبت ، وموضوعياً فيما عرضت ، ودقيقاً فيما استنتجت ، وكان ذلك بعون من الله تعالى ، وبعناية من الإمام(عليه السلام) ، مع تراكم الأشغال ، وتطاير الفتن .

ارجو ان يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله عز وجل ، عسى أن ينتفع به الناس وانتفع : ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ .

النجف الأشرف

محمد حسين علي الصغير



«المصادر والمراجع»

١ - خيرما نتبدئ به : القرآن العظيم .

٢ - الآبي/ أبو سعد/ منصور بن الحسين الوزير .

نثر الدّر/ الهيئة العامة للكتاب/ القاهرة/ ١٩٨٠م .

٣ - آدم مثز (من كبار المستشرقين العالميين)

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري .

ترجمة : د . محمد عبد الهادي أبو ريدة/ دار الكتاب العربي/ بيروت/ د . ت .

٤ - الأبشيهي/ محمد بن أحمد المحلي (ت٨٥٠هـ) .

المستطرف في كلّ فن مستظرف

مطبعة المشهد الحسيني/ القاهرة/ ١٩٨٠م .

٥ - ابن الأثير/ أبو الحسن/ علي بن محمد بن الجزري (ت: ٦٣٠هـ) .

أسد الغابة في معرفة الصحابة

طبعة القاهرة/ (١٣٨٠)هـ .

٦ - ابن الأثير/ أبو الحسن/ علي بن محمد (نفسه)

جامع الأصول في احاديث الرسول

مطبعة السنة المحمدية/ القاهرة/ ١٩٤٩م .

٧ - ابن الأثير/ نفسه .

الكامل في التاريخ

دار الكتاب العربي/ بيروت/ د . ت .

٨- احمد امين/ الدكتور (استاذ في الجامعة المصرية)
ضحى الإسلام / مطبعة الاعتماد/ القاهرة/ ١٩٣٣م
٩- احمد امين (نفسه)
فجر الإسلام/ دار النشر والتاليف والترجمة/ القاهرة/ ١٩٥٥م.
١٠- احمد امين (نفسه)
المهدي والمهدوية/ سلسلة اقرأ/ القاهرة/ ١٩٥٢م.
١١- احمد شلبي (مؤرخ مصري كبير)
موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
مكتبة النهضة/ القاهرة/ ١٩٦٦م.
١٢- الأربلي/ علي بن عيسى بن أبي الفتح (ت ٦٩٣هـ)
كشف الغمة في معرفة الأئمة
مطبعة النجف/ النجف الأشرف/ (١٣٨٥)هـ
١٣- الأشعري/ سعد بن عبد الله (ت٣٠١هـ)
المقالات والفرق/ طبع طهران/ ١٩٦٣م.
١٤- الأصبهاني/ أبو الفرج/ علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ)
الأغاني/ تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم
دار الكتب المصرية/ القاهرة/ ١٩٦٨م.
١٥- الأصبهاني/ نفسه
مقاتل الطالبيين/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٩٥٦م.
١٦- ابن اعثم/ ابو محمد/ احمد بن اعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ)
كتاب الفتوح/ طبعة الهند/ ١٣٨٨هـ.

١٧- اغا بزرك الطهراني (ابرز علماء الببلغرافيا والتصنيف في القرن العشرين)
الذريعة إلى تصانيف الشيعة/ طبعة النجف الأشرف/ طبعة طهران/ دار الأضواء/ بيروت/ ١٤٠٦هـ.

١٨- باقر شريف القرشي (استاذ في الحوزة العلمية في النجف الأشرف)
حياة الإمام علي بن موسى الرضا
دار المرتضى/ بيروت/ ١٩٩٦م.

١٩- البحراني/ هاشم الحسيني البحراني (ت: ١١٠٧هـ)
البرهان في تفسير القرآن.
المطبعة العلمية/ النجف الأشرف/ ١٣٩٤هـ.
الجامع الصحيح= صحيح البخاري/ المطبعة الأميرية الكبرى/ القاهرة/ ١٣١٤هـ.

٢١- البرقي/ محمد بن خالد (ت ٢٧٤- ٢٨٠هـ).
كتاب المحاسن/ دار الكتب الإسلامية/ طهران/ د. ت.

٢٢- بروكلمان/ المستشرق الألماني كارل، بروكلمان (١٨٦٨- ١٩٥٦م)
تاريخ الأدب العربي/ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار
دار المعارف بمصر/ القاهرة/ ١٩٦٨م.

٢٣- بروكلمان/ نفسه:
تاريخ الشعوب الإسلامية/ ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي
دار العلم للملايين/ بيروت/ ١٩٦٠م.

٢٤- البلاذري/ احمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)
أنساب الأشراف/ دار المعارف بمصر/ القاهرة/ ١٩٥٩م.

٢٥- البيهقي/ إبراهيم بن محمد/ من أعلام القرن الثالث الهجري
المحاسن والمساوئ/ طبع مكتبة النهضة/ القاهرة
٢٦- الترمذي/ محمد بن عيسىٰ بن سورة (ت٢٧٩هـ)
سنن الترمذي/ نشر المكتبة الإسلامية/ القاهرة/ د. ت.
٢٧- ابن تغري بردي/ أبو المحاسن/ جمال الدين/ يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ)
النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر/ القاهرة/ ١٩٦٣م.
٢٨- ابن تيمية/ احمد بن عبد الحليم الحراني (ت٧٢٨هـ).
منهاج السنّة/ المطبعة الأميرية/ بولاق/ القاهرة/ ١٣٢٢هـ.
٢٩- الجاحظ/ أبو عثمان/ عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ).
رسائل الجاحظ/ تحقيق عبد السلام هارون
مكتبة الخانجي/ القاهرة/ ١٩٦٤
٣٠- جعفر مرتضىٰ العاملي (من ابرز علماء لبنان)
حياة الإمام الرضا/ دراسة وتحليل
دار التبليغ الإسلامي/ بيروت/ ١٩٧٨م.
٣١- الجهشياري/ محمد بن عبدوس
الوزراء والكتّاب/ مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي/ القاهرة/ ١٣٥٧هـ
٣٢- حاجي خليفة/ مصطفىٰ بن عبد الله/ المعروف بكاتب جلبي (ت ١٠٦٨هـ)
كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون
دار الفكر/ بيروت/ ١٤٠٢هـ

٣٣- ابن حجر/ أبو الفضل/ احمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)

الإصابة في تمييز الصحابة

دار إحياء التراث العربي/ بيروت/ د. ت.

٣٤- ابن حجر/ نفسه

تهذيب التهذيب/ دار صادر/ بيروت+ طبعة الهند/ ١٣٢٦هـ

٣٥- ابن حجر الهيثمي/ احمد بن محمد بن علي الهيثمي المكي (ت٩٧٣هـ)

الصواعق المحرقة/ القاهرة/ (١٣١٢)هـ.

٣٦- ابن حجر الهيثمي/ نفسه

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد

دار إحياء التراث/ بيروت/ ١٩٨٥م.

٣٧- ابن أبي الحديد/ عز الدين/ عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت٦٥٦هـ)

شرح نهج البلاغة لأمير المؤمنين الإمام علي(عليه السلام)

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم/ دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة/ ١٩٥٩م

٣٨- الحرّ العاملي/ محمد بن الحسن (ت ١١٠٤هـ)

وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة

دار إحياء التراث/ بيروت/ د. ت.

٣٩- الحميري/ عبد الله بن جعفر/ من علماء القرن الثالث الهجري

قرب الاسناد/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٦٩هـ

٤٠- ابن حنبل/ أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي (ت٢٤١هـ)
مسند أحمد دار صادر/ بيروت/ د. ت.
٤١-حيدر الحسني الكاظمي (جدّ الأسرة الحيدرية في بغداد)
عمدة الزائر/ بيروت/ ١٣٩٩هـ.
٤٢- الخطيب البغدادي/ أبو بكر/ أحمد بن علي بن ثابت (ت٤٦٣هـ)
تاريخ بغداد/ دار الكتاب العربي/ بيروت/ د. ت.
٤٣- ابن خلكان/ احمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ).
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد/ مطبعة السعادة/ القاهرة/ ١٩٤٩م.
٤٤- الخوئي/ أبو القاسم الموسوي الخوئي (المرجع الديني الأعلى الراحل) (ت١٤١٣هـ)
معجم رجال الحديث/ إخراج: مرتضى الحكمي
مطبعة الآداب/ النجف الأشرف/ (١٣٩٠)هـ
٤٥- أبو داود/ سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ)
كتاب السنن/ نشر دار إحياء السنة المحمدية
٤٦- الدميري/ كمال الدين/ محمد بن موسى الشافعي (ت٨٠٨هـ)
حياة الحيوان/ دار القاموس الحديث/ بيروت.
٤٧- الديار بكري/ حسين بن محمد بن الحسن المالكي (ت٩٨٢هـ)
تاريخ الخميس/ القاهرة/ (١٣٨٣)هـ.
٤٨- الذهبي/ شمس الدين/ محمد احمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ)
تذكرة الحفاظ/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ (١٣٨٣)هـ.

٤٩- الذهبي / نفسه
سير أعلام النبلاء/ مؤسسة الرسالة/ بيروت/ (١٤٠٦)هـ
٥٠- الراوندي/ أبو الحسن/ سعيد بن هبة الله (ت٥٧٣هـ)
الخرائج والجرائح/ طبع المصطفوي/ طهران
٥١- الزبيري/ الزبير بن بكار بن عبد الله (ت ٢٥٦هـ)
الموفقيات/ بيروت/ ١٩٧٢م
٥٢- السبزواري/ عبد الأعلى الموسوي السبزواري/ المرجع الأعلى الراحل/ ت(١٤١٤)هـ
مواهب الرحمن في تفسير القرآن
مطبعة الآداب/ النجف الأشرف/ ١٩٨٤م وما بعدها
٥٣- سبط ابن الجوزي/ يوسف بن فرغلي الحنفي البغدادي (ت٦٥٤هـ)
تذكرة الخواص/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف (١٣٨٣هـ)
٥٤- ابن سعد/ أبو عبد الله/ محمد بن سعد البصري (ت٢٣٠هـ)
الطبقات الكبرى/ دار صادر/ بيروت/ (١٣٨٨)هـ
٥٥- السيوطي/ جلال الدين/ عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ)
تاريخ الخلفاء/ مطبعة السعادة/ القاهرة/ ١٩٥٠م.
٥٦- الشبلنجي/ مؤمن بن حسن الشافعي المدني (ت أوائل القرن الرابع عشر)
نور الابصار في مناقب آل النبي المختار
مطبعة عاطف/ القاهرة/ (١٣٨٤)هـ
٥٧- ابن شعبة/ أبو محمد/ الحسن بن علي الحراني الحلبي (من أعلام القرن الرابع)
تحف العقول عن آل الرسول/ تحقيق: محمد صادق آل بحر العلوم
المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف/ (١٣٨٠)هـ.

٥٨- ابن شهراشوب/ أبو جعفر/ رشيد الدين/ محمد بن علي السروي (ت٥٨٨هـ).

المناقب - يساوي: مناقب آل أبي طالب

المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ (١٣٧٥)هـ.

٥٩- ابن الصبّاغ/ علي بن محمد المغربي المالكي (ت٨٨٥هـ)

الفصول المهمة في معرفة الائمة

المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ (١٣٨١)هـ

٦٠- الصدوق/ محمد بن علي بن الحسين بن بابوية (ت ٣٨١هـ)

إكمال الدين وإتمام النعمة/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٨٩هـ.

٦١- الصدوق/ نفسه

كتاب الأمالي/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت/ ١٩٨٠م.

٦٢- الصدوق/ نفسه

علل الشرائع/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٩٦٦م

٦٣- الصدوق/ نفسه

عيون أخبار الرضا

تصحيح: مهدي الحسيني اللاجوردي/ دار العلم/ قم/ (١٣٧٧)هـ.

٦٤- الصفّار/ محمد بن الحسن بن فروخ (ت٢٩٠هـ)

بصائر الدرجات الكبرىٰ/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت/ د. ت.

٦٥- الطبرسي/ احمد بن علي بن ابي طالب (ت٥٨٨هـ)

الاحتجاج/ جار النعمان/ النجف الأشرف/ ١٣٨٦هـ

٦٦- الطبرسي/ نفسه:
إعلام الورىٰ بأعلام الهدىٰ
المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ (١٣٩٠)هـ
٦٧- الطبرسي/ أبو علي/ الفضل بن الحسن (ت٥٤٨هـ)
مجمع البيان في تفسير القرآن
مطبعة العرفان/ صيدا/ (١٣٣٣)هـ
٦٨- الطبري/ أبو جعفر/ محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)
تاريخ الأمم والملوك / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
دار المعارف بمصر/ القاهرة/ ١٩٦٦+ المطبعة الحسينية/ القاهرة/ (١٣٢٦)هـ
٦٩- الطبري/ محب الدين/ أحمد بن عبد الله (ت٦٩٤)هـ.
الرياض النضرة/ طبع القاهرة/ (١٣٩٠)هـ
٧٠- ابن الطقطقي/ فخر الدين/ محمد بن نقيب النقباء علي الحسني (ت٧٠٩هـ)، الفخري في الآداب السلطانية/ القاهرة/ ١٩٣٨م
تهذيب الأحكام/ تحقيق: السيد حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية/ النجف الأشرف/ (١٣٧٧)هـ.
٧١- الطوسي/ شيخ الطائفة/ أبو جعفر/ محمد بن الحسن(ت ٤٦٠هـ)
٧٢- الطوسي/ نفسه:
كتاب الغيبة/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف + طبعة دار النعمان/ تقديم الشيخ اغابزرك الطهراني.
٧٣- ابن طلحة/ كمال الدين/ محمد بن طلحة الشافعي (ت٦٥٢هـ)مطالب السؤول في مناقب آل الرسول
المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ (١٣٧١)هـ

٧٤- عباس محمد رضا القمي النجفي (ت١٣٥٩هـ)

الكنى والألقاب/ المطبعة الحيدرية/ النجف الاشرف/ (١٣٧٦)هـ

٧٥- عباس محمد رضا القمي/ نفسه

مفاتيح الجنان/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت/ (١٤٢٢)هـ

٧٦- ابن عبد البر/ أبو عمر/ يوسف بن عبد البر القرطبي المالكي (ت ٤٦٣هـ)

الاستيعاب في معرفة الأصحاب

مطبوع بهامش الإصابة/ دار المعارف بمصر/ القاهرة/ (١٣٥٨)هـ

٧٧- ابن عبد ربه/ أحمد بن محمد الأندلسي (ت٣٢٧هـ)

العقد الفريد/ تحقيق: أحمد الزين وجماعته

مطبعة دار الترجمة والتأليف والنشر/ القاهرة/ ١٩٦٧م.

٧٨- عبد الله نعمة (من علماء لبنان)

عقيدة الشيعة/ دار مكتبة الحياة/ بيروت.

٧٩- عبد الصاحب الدجيلي

ديوان دعبل بن علي الخزاعي/ النجف الأشرف/ (١٣٨٢)هـ

٨٠- عبد الكريم الأشتر/ الدكتور

شعر دعبل الخزاعي/ دمشق/ (١٣٨٤)هـ

٨١- ابن العماد الحنبلي/ ابو الفلاح/ عبد الحي الحنبلي (ت١٠٨٩)

شذرات الذهب في أخبار من ذهب

دار المسيرة/ بيروت/ ١٩٧٢م

٨٢- العياشي/ أبو النصر/ محمد بن مسعود بن عياش السلمي (ت ٣٢٠هـ)
تفسير العياشي/ تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي
طبع المكتبة العلمية الإسلامية/ قم/ (١٣٧١)هـ
٨٣- أبو الفداء/ الأمير: إسماعيل بن علي بن محمود (ت٧٣٢هـ)
تاريخ أبي الفداء/ القاهرة/ (١٣٢٥)هـ
٨٤- ابن قتيبة/ أبو محمد/ عبد الله بن مسلم الدينوري (ت٢٧٦هـ)
الإمامة السياسية/ الطبعة الثانية/ القاهرة/ (١٣٢٥)هـ.
٨٥- ابن قتيبة/ نفسه:
كتاب المعارف/ تحقيق: ثروت عكاشة
مطبعة دار الكتب المصرية/ القاهرة/ ١٩٦٠م.
٨٦- القلقشندي/ شهاب الدين/ احمد بن علي بن احمد المصري (ت٨٢١هـ)
صبح الأعشى/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ (١٤٠٧)هـ
٨٧- القلقشندي/ نفسه:
مآثر الأنافة في معالم الخلافة
طبع الكويت/ الطبعة الأولى/ ١٩٦٤م+ الطبعة الثانية/ ١٩٨٥م
٨٨- القمي/ أبو الحسن/ علي بن إبراهيم الأشعري الكوفي (من علماء القرن الرابع)
تفسير القمي/ تحقيق: السيد طيب الموسوي الجزائري
مطبعة النجف/ النجف الأشرف/ (١٣٨٦)هـ
٨٩- القندوزي/ سليمان بن إبراهيم الحنفي البلخي (ت١٢٩٤هـ)
ينابيع المودّة/ مطبعة أختر/ استانبول/ (١٣٠١)هـ

٩٠- كامل مصطفى الشيبي/ الدكتور
الصلة بين التصوّف والتشيّع
دار العلم للملايين/ بيروت/ ١٩٨٠م.
٩١- ابن كثير/ أبو الفداء/ إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ)
البداية والنهاية/ طبع مكتبة المعارف/ بيروت/ ١٩٦٦م
٩٢- الكشي/ أبو عمرو/ محمد بن عبد العزيز (من علماء القرن الرابع)
رجال الكشي/ تحقيق: السيد أحمد الحسيني
مطبعة الآداب/ النجف الأشرف/ ١٩٧٠م
٩٣- الكليني/ أبو جعفر/ محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي البغدادي (ت٣٢٩هـ)
أصول الكافي/ دار الكتب الإسلامية/ طهران/ (١٣٨٣)هـ
٩٤- الكليني/ نفسه:
فروع الكافي/ تحقيق: علي أكبر الغفاري ونجم الدين الأملي/ المطبعة الإسلامية/ طهران/ (١٣٨٣)هـ
٩٥- محسن الأمين الحسيني العاملي الشقرائي (ت١٩٥٢م)
أعيان الشيعة/ ج ٤/ ق٣/ مطبعة الإنصاف/ بيروت/ ١٣٦٨هـ
٩٦- محمد جواد فضل الله العاملي (ت١٩٧٥م)
الإمام الرضا/ دراسة وتاريخ/ دار الزهراء/ بيروت/ ١٩٧٣م.
٩٧- محمد حسن الجواهري النجفي (ت١٢٦٦هـ)
جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام
طبع النجف الأشرف/ ١٣٨٩+ دار إحياء التراث الإسلامي/ بيروت/ ١٩٨١م.

٩٨- محمد حسن آل ياسين(أبرز علماء الكاظمية المقدسة)
الإمام علي بن موسىٰ الرضا
المطبعة العربية/ بيروت/ ٢٠٠٠م
٩٩- محمد حسين علي الصغير (المؤلف)
الإمام جعفر الصادق/ زعيم مدرسة أهل البيت
مؤسسة البلاغ/ بيروت/ ٢٠٠٤م/ (١٤٢٥)هـ
١٠٠- محمد حسين علي الصغير/ نفسه:
الفكر الإمامي من النصّ حتىٰ المرجعية
الطبعة الثانية/ دار المحجة البيضاء/ بيروت/ ٢٠٠٣م
١٠١- محمد حسين علي الصغير/ نفسه:
الإمام محمد الباقر/ مجدد الحضارة الإسلامية
مؤسسة العارف للمطبوعات/ بيروت/ ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٢م
١٠٢- محمد حسين علي الصغير/ نفسه:
الإمام موسىٰ بن جعفر/ ضحية الإرهاب السياسي
مؤسسة البلاغ/ بيروت/ ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م
١٠٣- محمد حسين علي الصغير/ نفسه
الديوان المخطوط/ في حوزة المؤلف
١٠٤- محمد حسين الطباطبائي (من اعاظم مفسري القرآن في القرن العشرين)
الميزان في تفسير القرآن / الطبعة الثالثة/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت/ (١٣٩٣)هـ

١٠٥- محمد الخضري بك (أستاذ في الجامعة المصرية)
محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية
المكتبة التجارية الكبرىٰ/ القاهرة/ (١٣٨٢)هـ

١٠٦- المسعودي/ ابو الحسن/ علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ)
إثبات الوصية
الطبعة الرابعة/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٧٤هـ

١٠٧- المسعودي/ نفسه:
التنبيه والإشراف/ دار الكتب المصرية/ القاهرة

١٠٨- المسعودي/ نفسه:
مروج الذهب ومعادن الجوهر
دار الأندلس/ بيروت/ ١٩٦٥م

١٠٩- مسلم/ ابو الحسن/ مسلم بن الحجاج القشيري (ت٢٦١هـ)
صحيح مسلم/ مطبعة محمد علي صبيح وأولاده/ القاهرة/ (١٣٣٤)هـ

١١٠- المفيد/ الشيخ الاكبر محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت٤١٣هـ)
الارشاد/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ (١٣٩٢)هـ

١١١- المقريزي/ تقي الدين/ احمد بن علي (ت٨٤٥هـ)
النزاع والتخاصم
المطبعة العلمية/ النجف الأشرف/ (١٣٦٨)هـ

١١٢- مير علي الهندي/ أستاذ في الحضارة الإسلامية
الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية
طبع دار الفكر والتوزيع/ عمّان
١١٣- محمد يوسف نجم (الدكتور)
ديوان دعبل الخزاعي/ بيروت/ ١٩٦٢م
١١٤- النجاشي/ أحمد بن علي بن أحمد (ت٤٥٠هـ)
رجال النجاشي/ نشر جماعة المدرسين/ قم/ (١٤٠٧)هـ
١١٥- ابن النديم/ أبو الفرج/ محمد بن إسحاق البغدادي (ت٣٨٥هـ)
الفهرست/ نشر الأستاذ فلوجل/ لا يبزك/ ١٨٧١- ١٨٧٢م
+ تحقيق رضا تجدد/ طهران/ ١٩٧١م+ مطبعة الاستقامة/ القاهرة.
١١٦- أبو نعيم/ أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت٤٣٠هـ)
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء
دار الفكر العربي/ بيروت/ (١٤٠٥)هـ
١١٧- النويري/ أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٢هـ)
نهاية الأرب في فنون الأدب
وزارة الثقافة والأرشاد القومي/ القاهرة/ ١٩٦٣م.
١١٨- هاشم معروف الحسني/ من علماء لبنان
سيرة الأئمة الاثني عشر
الطبعة الثانية/ دار القلم/ بيروت/ ١٩٧٠م
١١٩- اليافعي/ أبو محمد/ عبد الله بن أسعد اليمني (ت٧٦٨هـ)
مرآة الجنان
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/ بيروت/ (١٣٩٠)هـ.

١٢٠- اليعقوبي/ احمد بن أبي يعقوب بن جعفر/ (ت٢٥٤)هـ
تاريخ اليعقوبي/ تحقيق : السيد محمد صادق بحر العلوم
المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ (١٣٨٤)هـ
١٢١- أبو يوسف القاضي/ يعقوب بن إبراهيم (ت١٨٢هـ)
كتاب الخراج
المطبعة السلفية/ القاهرة/ (١٣٩٢)هـ



فهرست الكتاب

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

